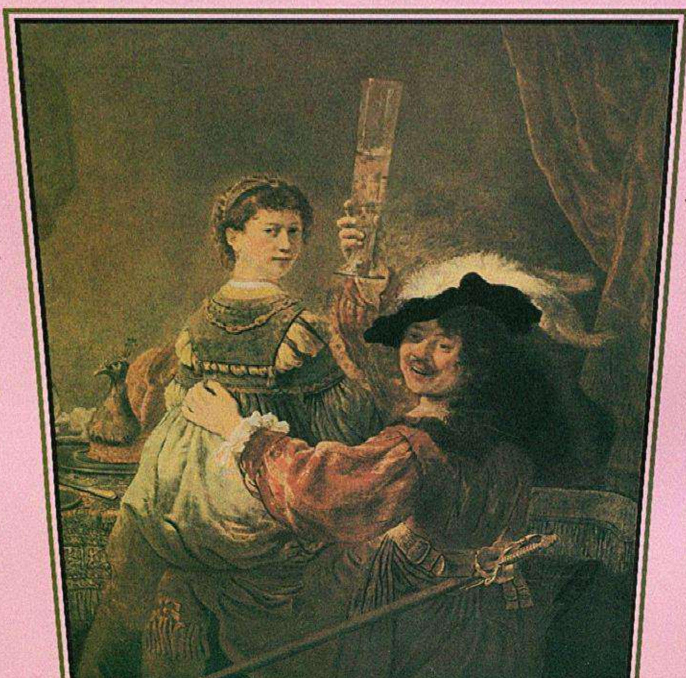
روائع الأدب الغربي

كونكاس بوربا

رواية

تأليف: ماشادو دو أسيس



ترجمة: د. سامي الدروبي
مراجعة: د. جميل صليبا

دار دمشق للنشر والتوزيع

[illegible] ثُریا

مصنفہ

الناشر: دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - شارع بور سعيد - هاتف: ٢٢١١٠٤٨ - ٢٢٤٨٥٩٩
فاكس: ٢٢١١٠٢٢- ص.ب ٥٣٧٢
E-mail: dardimashq@mail.sy

روائع الأدب الغربي

كونكاس بوربا

تأليف

ماشادو دو أسيس

ترجمة : د. سامي الدروبي

مراجعة: د. جميل صليبا

دار دمشق
للنشر
والتوزيع
والطباعة

مقدمة

بقلم

روجيه باستيد

ليس في الأدب البرازيلي ، بين الاتجاه الباروكي في القرن السابع عشر والاتجاه الحديث في القرن العشرين ، فترة كلاسيكية كما في معظم الآداب الأوربية . غير أن هناك كاتباً كلاسيكياً شاءت المعجزة أن يكون واحداً لا ثاني له . لاشك في ان هذا الكاتب امتلأ بمنظر مدينة (ريو دو جانيرو) التي لم يخرج منها يوماً ، وهو منظر منسوج كله من ضروب الاحتكاك وأنواع العنف ، يصارع فيه البحر الجبل ، وتجتاح فيه الغابة المنازل ، كما ذاق جميع « السموم » الرومانسية ، وعرف شهوانية الليالي الاستوائية ، وشهد انحلال الأسرة الأبوية التقليدية ، التي أصبحت عاجزة عن الصمود لآثار تحول البلاد الى مدن ، شهد تمرد الطفل أو المرأة على السلطة المطلقة التي يمارسها رب الأسرة ، وارتقاء حامل البكالوريا والخلاسي في مسرح الحياة ، وقيام طبقة بورجوازية . تلك مشاهد متناقضة في مجتمع غير متجانس ، تضاف الى مشاهد متناقضة في طبيعة مؤثرة ولكنه أخرج من هذه المتناقضات انسجاماً . فاذا صدق ما ذهب اليه (آندره جيد) من أن الكلاسيكية انما تعرّف بتغليب القاعدة ، والاقتصاد في الوسائل ، والحشمة ، فما من كاتب يمكن أن يعد كلاسيكياً أكثر من (ماشادو دو أسيس) . ان فنه كله رهافة ونعومة ، وان أسلوبه كله ألوان هادئه لطيفة . لقد قطّر السموم التي كانت تأكل أحشاءه ونفسه ، فأخرج منها أكاسير ، غير أن نقاء الأكاسير أو صفاءها الرائع لا ينفي احتراق الجوف .

ولد ماشادو دو أسيس في اليوم الواحد والعشرين من شهر حزيران عام ١٨٣٩ في بيت من بيوت العمال بمدينة ريو دو جانيرو (مورد دو ليفرامانتو) ، لأسرة فقيرة ملونة . كان أبوه دهّاناً ، وكانت أمه خادماً . وقد ماتت أمه وهو جدّ صغير ، وماتت أخته الوحيدة . فتزوج أبوه زوجاً آخر من امرأة خلاسية ، هي (هي ماريا إنيس) ، فكانت للصبي أماً ثانية ، رغم أنه هجرها بعد ذلك فيما يبدو . واضطر الصبي النحيل العليل الذي كان يحس اذ ذاك بلا ريب بأول أعراض الصرع الى أن يعمل أجيراً في مطبعة ليساعد أسرته . ولكنه كان قد أوتي مع ذلك ظمأ شديداً الى المعرفة ، وإرادة قوية ، فكان يعمل آناء الليل ، فيقرأ روايات مستعارة ، ويتعلم الفرنسية من غسّال صحون ولد بفرنسا ، ويتهيأ بذلك لحياته الأدبية المقبلة . لقد كان الأدب ، دوماً ، سبيل الخلاسي الى الصعود في البرازيل ، لكن بعضهم لم يروا فيه الا وسيلة لدخول الصالونات أو لدخول حلقات (البوهيمية) الفنية على الأقل . أما (ماشادو دو أسيس) فقد اتحد بالأدب اتحاداً كاملاً ، فكان يعمل في الأدب عمل صانع يتعلم مهنة ، يدرس كبار الكتاب ويقرأ آثارهم والقلم في يده ، ويتقصى أسرار « البيان الجميل » ، حتى لقد ظل حياته كلها يصقل ملكته ويجوّد فنه ، فكانت آثاره مثالاً للصبر الطويل والارتقاء الدائم .

وحين عرض أشعاره الاولى وجد حماة وأصدقاء : (كباولا بريتو) الذي كانت مكتبته ملتقى كتاب العصر ؛ والكاتب الروائي (مانويل أنطونيو دي ألميدا) ، مدير المطبعة الوطنية التي كان (ماشادو) يعمل فيها أجيراً ؛ متمرناً على فن الطباعة ؛ و (كونتينو بوكابوفا) الذي ألحقه صحفياً بجريدة « ديارو دو ريو دي جانيرو » التي نشر فيها مقالات جميلة عذبة . وكانت الرومانسية هي المدرسة الأدبية الرائجة في ذلك الوقت ، فكان (ماشادر دو أسيس) رومانسياً أول الأمر ، فنظم في الغزل ، وكان غزله خيالياً بعض الشيء ، وكتب عدداً من الآثار على الطريقة الرائجة التي كانت تتحدث عن الهنود ، فنشر « كريز اليداس » عام ١٨٦٤ ، و«بياليناس» عام ١٨٧٠ ، و «أمريكاناس» عام١٨٧٥ . غير أنه وهو ابن تلك البلاد التي تكلف الافاضة في الكلام ، ووليد ذلك العصر الذي كثيراً

ماإختلطت فيه الغنائية بالفصاحة ، ظلّ محافظاً في قصائده على اعتدال اللهجة ، فما هو بشاعر الصيحات الملتهبة ولا الصور العاصفة ! ثم أنه ألف في الوقت نفسه مسرحيات ، كتب بعضها بالفرنسية ، وهي مسرحيات يحتل فيها تحليل العواطف مكاناً أرحب من المكان الذي تحتله الأحداث ، لا بل هي مسرحيات تكشف عن ميل (ماشادو) الشاب الى الحوار . واذا كان كثير من كتاب الرواية في ايامنا هذه يكشفون ، متأخرين ، أن لهم رسالة مسرحية فلا شك أن المسرح هو الذي كشف لماشادو عن ميله الروائي .

وعيّن في عام ١٨٦٧ مساعد تحرير بجريدة « دياريو أوفيسيال » ، فأصبح موظفاً ، وظل كذلك الى آخر حياته . ففي سنة ١٧٧٣ ألحق بادارة الزراعة والتجارة العامة ، فتقلب في جميع المناصب الادارية ، حتى ارتقى الى أرفع المراكز . ولم يشأ يوماً أن يعتزل الوظيفة ، لا عن بخل ، بل لأنه لو فعل ذلك لشعر من جرائه بنقصان قيمته ، ولكف الناس عن الاعتراف له بأنه يقدم خدمة « مفيدة » . وكان مثال الموظف الجاد المجتهد المواظب الدقيق في عمله ، المهذب في معاملة مرؤسيه ورؤسائه على حد سواء .

وفي اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ تزوج من برتغالية مثقفة أكبر منه سناً بقليل ، هي (كارولينا أوجوستا كسافيه دي نوفايس) أخت شاعر هجّاء معروف ، وذلك بعد أن قاوم لارادة أهلها مصطدماً بالتفرقة بين الملونين والبيض . وكان من خير الازواج كما كان من خير الموظفين . ورغم أنه أصبح يكسب مالاً كثيراً ، فقد ظل طوال حياته يعيش عيشته البسيطة المتقشفة ، موزعاً نشاطه بين عمله في الوظيفة وعمله في التأليف الروائي ، مستظلا بظل زوجته المعبودة . كان لا يخرج من بيتـه الا قليلا ، فيودع مدخراته في صندوق التوفير ، ويرعى أزهار حديقته ، ولا يستقبل في بيتـه الا قلة من أصدقاء مصطفين ، فكانت حياته متحدة بعمله الأدبي .

وكان الوقت مع ذلك مضطرباً أشد الاضطراب . كان هنالك اضطراب أدبي . مثاله ان (سلفيو روميرو) كان ينتقد الاتجاه الرومانسي والاتجاه الهندي ،

ويطالب بأدب « خلاسي » أو « هجين » يتفق ووجه البلاد ، ضد أدب Luse محض ، أو هندي محض ، أو افريقي محض . ودخلت المدرسة الطبيعية أعني مدرسة اميل زولا وإيسا دي كيروز الى البرازيل . واحتدمت المعركة بين « المدارس » . فظل (ما شادو دو أسيس) بعيداً عن المعركة . لم يهجر الرومانسية ، ليجاري تطور الافكار ، بل لان مزاجه كان يوجب ذلك ، فظل غير آخذ بالمدرسة الطبيعية أخذاً كاملا . وفي السياسة لم يشترك في ضروب الصراع التي قامت بين الاحزاب . ورغم انه كان خلاسياً فانه لم يسهم في الحملة التي قامت ضد نظام الرق ؛ ولئن احتفل بيوم الغاء العبودية ، فيمكننا أن نتساءل : أتراه اشترك فيه بدافع من نفسه ، أم أنه استسلم لعدوى عامة سرت اليه من الجمهور ؟ ولم يحفل كذلك بظهور الحزب الجمهوري ، ولا بنشوء العقائد السياسية الجديدة التي أدت الى سقوط الامبراطورية سنة ١٨٨٩ . إنه يحيط نفسه بالظلال والاسرار . ان هذا الكاتب الذي جعل رواياته حواراً مستمراً بينه وبين القارىء ، كان يختبىء في حياة منطفئة هي حياة موظف ، أو في مكتبه قرب صفحة بيضاء ، أو في حديقته الى جانب زوج يساقيها حباً رقيقاً .

وقد أخذ عليه ذلك ، بعنف في كثير من الأحيان . فوصف بأنه أناني ، وقيل عنه إنه منفصل عن المجتمع البرازيلي . ومع ذلك لم يكن أحد أكثر وطنية منه . غير أنه كان يضع الوطنية في الفن . إن هذا الرجل الذي كان بغير ايمان ولا دين ، هذا الرجل الذي رفض معونة الكاهن لحظة وفاته ، قد جعل الأدب رهبانية حقيقية . كان يرى أن خير وسيلة لخدمة بلاده البرازيل هي أن يهب لها آثاراً أدبية جديرة بها . وإذا كان قد هجر الرومانسية ، فمرد ذلك الى أنه رآها أدب مراهقين لا ثمرة حضارة ناضجة ؛ وإذا كان لم يصف المناظر ، ولم تشتمل آثاره على تصوير الطبيعة الاستوائية ، تصويراً بصرياً على الأقل (ان هذا التصوير موجود في آثاره ، إلا انه داخلي ، تلمسه في روح شخصياته ، وفي الألوان الجسمانية لعواطفها) فمرد ذلك الى انه كان يرى ان الطبيعة حادثة عن

اتفاق الاعراض الجيولوجية ، وانها « هبة من هبات الله » ، لا من خلق البشر.

ان البرازيل الحقيقية هي البرازيل التي تنشأ من الجهد البنّاء يبذله أبناؤها. لذلك لم يكن ماشادو يؤمن الا بالبشر. ومن الخطأ ان يقال انه لم يعمل في السياسة ، لكن له سياسته « الخاصة » ، هي انشاء « الأكاديمية البرازيلية للآداب »، لم يدفعه الى ذلك حب المجد ولا رغبة الخلامي في أن يساوي البيض أو يفوقهم ، وانما كان يرى في صراع الأحزاب بذور تفكك قومي كما كان يرى في الأدب المحلي ، الذي بدأ نتيجة للمدرسة الطبيعية ، خطراً على الوحدة الثقافية للبلاد. لقد كان يقبل أن تتمتع الولايات المختلفة التي كان لكل منها اقتصاد مختلف ، باستقلال سياسي واداري ، ولكنه كان يرى أن حركة الابتعاد عن المركز هذه يجب أن يقابلها مزيد من الاستناد الى ما هو أساس الوحدة البرازيلية ، أعني اللغة ، فالأكاديمية مؤسسة لها اذن هدف اجتماعي كبير ، فليس الغرض منها اقتسام أمجاد أو الحصول على خلود باطل ، انما هدفها أخطر من ذلك كثيراً ، وهو أن تخلق أمام المجالس النيابية ، التي ينقلب فيها التضامن القومي الى فئات من العقائد المتفرقة أو المصالح الاقتصادية المتعارضة ، كياناً صلباً يستمد فيه ذلك التضامن قوة من حب اللغة ، رمز الحضارة.

ليس ماشادو دو أسيس ضدّ البرازيل ، بل هو أكثر كتاب البرازيل برازيلية. فكما تغفو الليالي العطرة ، ليالي الريو ، في الشعر الأسود على رؤوس بطلاته ، كذلك يعلو زبد أمواج البحر ويهبط في عيون نسائه. انك تجد في رواياته أصدق تصوير للمجتمع الامبراطوري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، مع الصراع بين الحب والمال ، بين ارستقراطية الأرض والبرجوازية الناشئة ، بين الشارع والمنزل ؛ وهو يظهر تمسكه بوطنه في ابتعاده خاصةً عن المدارس المستوردة من أوروبا ، وفي وقف حياته كلها على خلق لغة برازيلية. ولكن التمسك بالوطن لا يعني الانغلاق أو الانعزال. فهو اذ يكتب روايات نفسية يستطيع أن يكون برازيلياً الى أبعد حد وأن يفتح للأدب البرازيلي في الوقت نفسه مجالاً عالمياً. ان أدبه أدب برازيلي لأن أبطاله يعبرون عن جو البرازيل ، ولكنه في الوقت

نفسه أدب عالمي لأن التحليل الذي يتضمنه يقدم لمن ينتمون إلى حضارات أخرى أصالة طيبة المذاق تأتيهم من بلد آخر . إنه يضع أرضه وزمانه في آثاره ولكنه يخرج منها عطراً يصلح لأناس من أرض أخرى وأزمنة أخرى .

ونستطيع أن نميز في الآثار الروائية التي كتبها ماشادو دو أسيس ثلاث مراحل :

فأما المرحلة الأولى فيمكن ان نسميها مرحلة تصفية الرومانسية . وهي تمتد بين حوالي عام ١٨٧٠ وعام ١٨٨٠ ، وتضم مجموعتين من الحكايات هما « Contos fluminevses » و « Historias de Meia Noite » ، وأربع روايات هي : « البعث » ، « اليد والقفاز » ، « هيلينا » ، « يايا جارسيا » . لم يكن في وسع ماشادو دو أسيس أن يبدأ بداية أسوأ من هذه البداية ، فهو في هذه المرحلة يتأثر بأوكتاف فوييه ، موضوعاته رومانسية ، كقصة تلك الفتاة التي تبناها رجل آخر غير أبيها الحقيقي ، وآثرت أن تموت على أن تعدّ مغامرة ، أو كذلك الحب المشقي الذي يعانيه يورجي واستللا في رواية « يايا جارسيا » . ان الشخصيات التي صوّرها في هذه الكتب لم تكن غنية من الناحية النفسية ، فهي أقرب إلى أن تكون كتلة واحدة ، كما أن أسلوب ماشادو لم يصل بعد فيها الى ما وصل اليه بعد ذلك من كمال . فعبارته قصيرة بل قصيرة النفس قليلاً ، ومع ذلك ففي أسلوبه شيء من الاسهاب والاطناب ، فألفاظه تتكرر كثيراً ، وموسيقاه مبتذلة . ونستطيع أن نقول ان القصّاص في هذه المرحلة الأولى يتفوق على الروائي تفوقاً كبيراً . كان ماشادو دو أسيس في هذه المرحلة لا ينطلق انطلاقاً سهلاً إلا في تلك القصص القصيرة ، سواء أكانت قصص سحر أم قصص حب .

ولئن كانت الموضوعات والشخصيات خيالية تنتمي الى الرومانسية التي كانت ماتزال مسيطرة في البرازيل ، فان هذه الرومانسية تتقسّم مع ذلك من كتاب الى آخر من خلال السخرية . لقد تأثر ماشادو دو أسيس تأثراً كبيراً بالصحافة .. وفي ذلك العصر الذي كانت فيه كتابة أخبار الشارع رائجة رواج « الأزياء » ، تعود أن يتحاور مع القاريء ، لذلك نراه في رواياته لايستطيع أن يمتنع عن أن

يغمز قراءه غمزة صغيرة بعينه ، كأنه « يتهزأ » بمجرى القصة ، وكأنه يعمد الى نقد رومانسيته بنفسه . وكثيراً ما ارجعت سخرية هذا الكاتب الى مركب النقص الذي يشعر به الخلاسي ، والى كون الملون يعيش في أطراف الحياة منقسماً على نفسه . ولسنا ننكر تأثير هذا العامل . وتحدث بعضهم كذلك عن تقليده للكاتب الايرلندي سترن أو الكاتب الفرنسي كسافييه دو ميتر . ولكن المرء لايقرأ إلا ماينـاسب شعوره الخاص . وعندي أنه ليس في آثار ماشادو دو أسيس سخرية بل سخريات ، أو قل إن سخريته قد اتخذت في آثاره المتعاقبة صوراً مختلفة . فهي في هذه الروايات أو الأقـاصيص الأولى سلسلة من أخبار الشارع قبل كل شيء ، هي ادخال أساليب صحفية في سياق العقدة نفسها ، أو وضع آلة جهنمية في داخل الرومانسية الرائجة من أجل نسفها .

ومن خـلال هذه السخرية تحررت شخصية ماشادو دو أسيس من تأثيرات البيئة الأدبية شيئاً فشيئاً . ونحن نرى في الواقع أن شخصياته تظل دائماً مترددة ، متحيرة ، منطوية على نفسها ، لم تبلغ بعد درجة كبيرة من التعقد . لقد كتب يقول فيما بعد : « ان الفسيفساء ذات اللون الواحد هي في الحيـاة النفسية أمر نادر جداً » ولئن لم يصل أبطاله بعد إلى تلك الفسيفساء من العواطف الكثيرة المتداخلة ، لقد كان في بعضها شيء من الانتباه العاطفي . وكان لابد مع ذلك من أن يطلع المرض على ماشادو مثلما طلع على بروست ، بتهديده الأسود حتى يبلغ كاتبنا ذروته .

ان منظر ريو منظر مقطّع : جبال ناتئة من الأوقيانوس وتمزقات وحشية . غير أن هناك منظراً آخر يقابل هذا المنظر الخارجي ، هو منظر داخلي لكنه وحشي أيضاً . ولقد سبق أن عبر ماشادو الشاعر عن ذلك ، فقال :

« ومع ذلك ، إذا أغمضت عيني ، وهبطت
« الى داخل نفسي ، رأيت ، في ضوء شمس
« أخرى ، هوةً أخرى . . .
« سراً يجـــذب ويتحدى وينـــام . » .

إن هذا السر هو نذو الصرع . وكان المرض ما ينفك يتقدم . لقد كتب ماشادو في الطبعة الأولى من كتابه « مذكرات براز كوباس تنشر بعد موته » ان فرجينيا أصيبت بنوبة صرع ، ثم حذف هذه الكلمة في الطبعة الثانية . ولكن المرء لا يستطيع أن يحذف المرض بسهولة كما يحذف الكلمة . إن ماشادو يحس بالجنون يقترب منه خفية . إن رؤى قاتمة تحاصره . وان نوعاً من الهلع « الكوني » ، على حد تعبير جراسا آرانيا ، أصبح مقيما في نفسه منذ ذلك الحين لا يفارقها . وعندئذ تبدأ السلسلة الثانية من رواياته ، وهي تلك التي أسميت « روايات الغسق » . « مذكرات براز كوباس تنشر بعد موته » ، « كونكاس بوربا » (١٨٩٢) « دون كاز مورو » (١٩٠٠) ، « إيزاو ويعقوب » وكذلك سلاسل جديدة من الأقاصيص أشد مرارة من الأولى كثيراً .

ويتراءى للقاريء أن ماشادو دو أسيس يستمر .. ولكن وسائله قد تغيرت دلالتها الآن . انه ما يزال يقطع القصة ليتحدث الى القاريء ، ولكن ذلك أشبه بهرب المذعور . انه يتشبث بقارئه كما يتشبث المرء باطار اجتماعي ، حتى لا يهوي في عزلة تعج بعجائب المخلوقات المخيفة . انه وقد اضطر أن يجتنب الاتصال بالناس حتى لا يروا مشهد نوباته وتفككه ، يستعيض عن ذلك الاتصال بهذا الحوار الخيالي . وهذا بعينه هو السبب في أنه لم يشأ ان يعتزل الوظيفة ! ذلك أنه كان يجد في قواعد العمل البورقراطي وفي النسبية الاجتماعية للنظام الاداري ، وفي تحديد ساعات المواظبة على المكتب ، حواجز تحول دون ترديه في هوة الجنون . وكذلك ما تزال السخرية غالبة في مؤلفاته . ولكن السخرية قد تغير اتجاهها . انها الآن تأمل في الجنون . ان مجانين ماشادو يفكرون ، انهم مجانين منطقيون . ولماشادو دو أسيس فلسفة ، وهذه الفلسفة المركبة فيه كآلة ميكانيكية تخيفه : ألا يمكن أن تستحيل الى ورم ، الى طفيلي ، الى دمل آكل ؟ لذلك نرى غاية السخرية هنا أن تحمي المرء من هذه الفلسفة ، وأن تمنعها من أن تدور في رأسه دوران الهذيان ، وأن تكافح

الوثوقية الفلسفية بأدوية التهكم رغم أنه لم يتحرر من نظرته التشاؤمية الى العالم، نتيجة لمرضه .

ومن الناحية الفنية انتقل ماشادو دو أسيس من المدرسة الرومانسية الى المدرسة الطبيعية . ولكنه كما قلنا ، لم يكن طبيعياً أكثر مما كان رومانسياً في حقيقة الأمر . ان الواقعية ليست عنده حتى الآن الا وسيلة لمكافحة اغراء الجنون الذي كان يتفجر من أعماق نفسه ، ممعناً في وصف البيئة الاجتماعية ، وحياة الصالونات ، واضطرابات الشارع ، ومتشبثاً بأذيال الحوار الذي يقوم بين أبطاله . لكنه لم يظفر بتجنب نداء المرض هذا تجنباً كاملاً . فانه ما ينفك يرتد الى نفسه . وهؤلاء أبطاله الذكور يعترفون بذلك . لقد وضع نفسه فيهم ، انه واياهم شيء واحد ، على صورة كاريكاتورية . بل ان كتبه لتصبح معرض مجانين : براز كوباس ، كونكاس بوربا ، روبيان ، سيمون باكاماتي « الإخصائي في الأمراض العقلية » . لكن لهؤلاء المجانين أيضاً بعداً خاصاً . ان سيكولوجيتهم غنية « بتقلبات القلب » ، وبتفتت الذات إحساساتٍ أو عواطفَ متناقضة . ان محبة قاتمة تسكن فيه . ولئن ظل الأسلوب صافياً موسيقياً كنبع عذب يغنّي ، فان هذا الصفاء لا ينفي تداخل الانعكاسات على الماء المخادع ركوده وهي انعكاسات دمٍ حمراء ، لا بل انعكاسات سوداء لأجنحة ملائكة الليل .

والمرأة في منجى من الجنون هي في منجى منه لأنها أميل من الرجل إلى المجتمع ، ولأنها حريصة على الوصول الى غايتها بالصالونات والغنج والحب ، أو لأنها ، وهذا أغلب ، أدنى من الرجل الى الفطرة ، وأقرب الى الحياة . انها ألصق بالبر أو البحر ؛ انها اقرب إلى النبات أو الحيوان . فبهن تتكلم عبقرية النوع في جزائر شعرهن الذي يشبه غابة استوائية ، في بياض نحورهن التي تظهر وتتخفى ، في أذرعهن التي تذكر بالقمر ، في أعينهن المرتدة أمواجها . ولكن لئن كن لا يعرفن الموّات التي يتردى فيها أبطال ماشادو دو أسيس ، ان فيهن هن أسرارا أيضاً . انهن جميعاً مثل فلورا التي أحبت التوأمين ، بدرو وباولو ، في آن واحد ، فلما لم تستطع أن تحل لغز قلبها ، آثرت أن تنتحل في ليلة الصيف ، أن تنطفيء في الظل ،

في عطور الأزهار ، في تراب الحديقة . انهن لا يعرفن أنفسهن ، يترددن بين الخطيئة والآداب الاجتماعية ، بين الابتسامة والمداعبة . انهن في روايات ماشادو دو أسيس يتبخترن عبر الصفحات شهوانيات ، فيمنعن هـذه الصفحات من الوقوع في جفاف كان على ماشادو أن يحمي نفسه منه .

وفي عام ١٩٠٤ فقد ماشادو زوجته ، فكأنه هو الذي مات . كتب الى (يواكيم نابوكو » يقول : « ذهب أحسن جزء من حياتي . أنا الآن وحيد في العالم . والعزلة لا تثقل عليّ . بل العكس هو الصحيح . لأن العزلة هي الوسيلة الوحيدة لكي أظل أعيش معها ، وأسمع صوتها .. سألحق بها . انها تنتظرني . » وظن أنه لن يكتب شيئاً بعد موت زوجته . انه يزداد انحباساً في منزله الصامت ليعيش مع طيف ، ولا يخرج من البيت إلا إلى المقبرة . انه يستسلم للموت الذي يتقدم الآن منه . ويرضى أن يجمع بعض الأقاصيص القديمة في مجلد نشر بعنوان « Reliquias da Cosa Velka » . لكنه يحس شيئاً فشيئاً بحاجة الى أن يحدث الفقيدة ويتحدث عنها . إن عليه قبل أن يغيب الى الأبد ، ما دام الآن نصف نفسه فحسب ، أن يستمر في التعبير عن حبه لتلك التي تركته . وإذا كان الحياء يمنعه من التحدث بصيغة المتكلم ، فقد عبر عن حبـــه في رواية ، فكان كتابه « Mémorial de Ayres » ، وهو يختلف اختلافاً كثيراً عن سائر المؤلفات التي سبقته . انه وحده المرحلة الأخيرة من ذلك الشموخ الروائي . واذا كانت روايات المرحلة الثانية يمكن أن تسمى « روايات الغسق » ، فان هذا الكتاب الأخير يمكن أن يوصف بأنه كتاب الليل . انه همس غزلي عذب كل العذوبة في الليل الذي يغشى . ولم يبق لماشادو بعد ذلك إلا أن يموت . ولكن الألم لن يتركه حتى النهاية . لقد كافح البؤس وأصوله الخلاسية قبل ذلك الى آخر حدود الكفاح ، ثم كافح نوبات الصرع وتهديدات الجنون ، وها هوذا يصاب الآن بسرطان في الفم . ثم يموت في اليوم التاسع والعشرين من إيلولّ عام ١٩٠٨ ؛ ليلحق بالحبيبة تحت أزهار المقبرة .

* * *

ينتمي كتاب « كونكاس بوربا » إذن إلى سلسلة روايات الغسق .

لقد أودع ماشادو دو أسيس هذا الكتاب كثيراً من نفسه ، حتى التفاصيل الصغيرة ، مثل حبه للأزهار . لقد كتب يقول في احدى أقاصيصه : « في حديقتي أزهار أرعاها في حب ، وهي تحبني وتحييني كل صباح بأزكى عطورها ، ولا تستحيي أن تقول لي كلمات لطيفة عن متع الحياة . أعترف بأنني لا أقبل أن أقطفها ، وإنما أدعها تموت حيث ولدت . » ، أو مثل حبه الكلاب . لقد كان كلفاً بكلبته أشد الكلف ، فلما اختفت مرة أعلن عن فقدها في الصحف الى أن عثر عليها ، حتى اذا ماتت حزن لموتها وعُني بدفنها في ركن من فناء منزله . ان لهذه الأمور الصغيرة التي لا تبدو ذات بال ، دلالاتٍ هامة ، فهي تدعونا الى البحث في الرواية عن جزء من اعترافات الفنان ، وإن هذا الجزء لكبير .

ففي شخصية روبيان يصور الكاتب نفسه ، فيتلبّس بإهاب مجنون . ان روبيان هذا يعبر عن الفلسفة التشاؤمية المستمدة من شوبنهاور ، وهي تشاؤمية أراد بعضهم أن يرى فيها ضرباً من الفلسفة الكلبية . ليس روبيان سوى معلم مدرسة في مدينة صغيرة بميناس . ولكن حين ورث كونكاس بوربا لم يرث بيوتاً ونقوداً وأموالاً فحسب ، بل ورث أيضاً جنونه وفلسفته لأن كلا من هذين الامرين يتصل بالآخر اتصالاً عميقاً بل ورث هذه الطبيعة « الانسانية » . ان في العالم جوهراً لا ينقسم ولا يتهدم ، « كالارادة » التي تحدث عنها شوبنهاور ، لا شيء ينال من هذا الجوهر ، وما الموت اذن إلا شرط الحياة ، التي تعود تولد في صورة أخرى . ان الطبيعة « الانسانية » تستخدم أوهام الحب لتبقى ، وتستخدم الحرب لتتبدل . فما هي أخلاقية ولا هي غير أخلاقية ، انها هادئة لا تتأثر ولا تبالي بأحكامنا في تقدير قيم الأشياء : ان كل نهاية هي وعد ببداية .

والواقع أن هذه الفلسفة هي فلسفة ماشادو دو أسيس بعينها . وقد سبق أن عبّر عنها في أشعاره التي نظمها وهو مراهق :

هذه القوة الخالقة مبثوثة في كل مكان .
تتلظى في الزهرة فتفسد ثمرتها

والثلج حين يهدمها يضاعف قواها

تمحض الطاهر والنجس حباً واحداً

تبدأ وتعيد عملاً مستمراً

تخضع ، باسمة ، للقاعدة الإلهية :

« تقول هو الموت ، وأنا أقول هي الحياة . »

كما عبّر عنها في أشعاره الى كورين ، وفي أسطورة سيبيل التي تلتهم الجثث لتحيلها أزهاراً أو حيوانات أو كائنات حية أخرى ، وفي حكايه آهاسفيروس وبروميثيوس : « للحياة مائة باب كمدينة طيبا القديمة . فما ان تغلق باباً حتى تنفتح أبواب » . والغابة الواسعة التي تحيط بمدينة ريو دو جانيرو ، ألا تظهرنا هي أيضاً على هذا الانبات الدائب الناشيء عن التعفن ، وعلى هـذا الاستمرار في انحباس الحياة من سوق الأشجار المتفسخة ومن الجذوع التي حطمتها العاصفة ؟ ان ماشادو يعلم أن هذه الفلسفة البائسة تتناقض مع ما بقي من مثالية رومانسية في البيئة التي يعيش فيها ، لذلك أجرى هـذه الفلسفة على أفواه المجانين بسخرية قاسية . ولكن هذا لا ينفي أنها تمثل الفكرة التي ظلت فكرته العميقـة من أول حياته الى آخرها .

وقد يلاحظ على الأقل أنه حين بدلها هذا التبديل باضفاء طابع من السحرية عليها ، قد ميّز بين وجوده السليم السوي وبين شخص كونكاس بوربا أو شخص روبيان المصابين بهذيان . لكن هذه الفترة هي الفترة التي كان فيها ماشـادو يعيش في خوف من الجنون ، ويحس أن الجنون يحوم حول عقله كحيوان كاسر ، فوصف نفسه حتى في هذيان أبطاله .

وحين كان ماشادو صبياً صغيراً ، ألقى بياض بيضة في قدح من الماء ، كما يفعل جميع الناس ، في ليلة عيد القديس يوحنا ، ليقرأ مستقبله عليها ، فلما نظر اليها في الصباح رأى في السائل الذي يتنبأ بالمستقبل شكلا غامضاً يصور باخرة . فكان يقول في بعض الأحيان : « لم أركب باخرة الى الآن ، لكنني لن أفقد الأمل ، ما بقي على سطح البحر بواخر » . ولم يخيب القدر ظنه ،

لكن رحلات ماشادو دو أسيس كانت رحلات بالخيال . لقد كان هذا الرجل المتوحد رجلا حالماً ، ركب البحور الداخلية مطوفاً بين اللجج المزبدة ، وطحالب الاحلام التي تتشبث بجدران المركب وتدبّق قعره ، وسمع أغاني جنيات البحر التي تتحدث عن حلاوة الموت البطيء . وما جنون روبيان الا هذه الأغنية المعبرة عن الحنين ، وهذا النداء الأصم الذي يصعد من وحدته ومن الخدر أو الفتور الذي يحمله اليه الفكر الحالم وتحمله اليه نوبات الصرع ... وآية ذلك أن هذيانات الابطال الذي يصورهم ماشادو دو أسيس ملونة بأخيلته هو . ان مجانينه لا يشبهون مجانين (ادجار آلان بو) أو (مجانين دوستويفسكي) انهم مجانين متفلسفون متمنطقون ، وهم كذلك أناس يريدون أن يهربوا من أنفسهم ، ويفلتوا من ذواتهم .

لقد كان ماشادو دو أسيس معجباً أشد الاعجاب بقيصر ونابوليون و كرومول، والرجال الاقوياء ، وبناة الامبراطوريات ؛ وهذا روبيان في رواية « كونكاس بوربا » يتحد بنابوليون . صحيح أنه يتحد بنابوليون الثالث ، ولكن نابوليون الثالث هذا يقهر ملك بروسيا . ان هاهنا أكثر من هذيان بالأمجاد . ان روبيان اذ يقص لحيته ويجعل وجهه كوجه نابوليون الثالث ، يغير شخصيته ، ويشرع في رحلة خيالية كبيرة .

وقد قلنا ان روايات الغسق التي كتبها ماشادو دو أسيس ظهرت ابان تغلب المدرسة الرومانسية في الأوساط الأدبية في ذلك العصر . ويجب أن نذكر مع ذلك أن الرومانسية لم تمت تماماً في مؤلفاته بل ظلت تترقرق في باطنها ، ولكن في هذه الصورة الخفية ، صورة الانفجارات المفاجئة التي نرى فيها تدفق الأحلام والهذيان المنطقي والجنون . لقد لاحظ النقاد أن مؤلفات ماشادو دو أسيس لاتشتمل إلا على قليل من حوادث الانتحار . وهذا صحيح . غير أن مرده إلى أن ماشادو دو أسيس كان يريد الاستمتاع بهذا القسم البطيء الذي يتم في باطن كيانه ، وكان يريد الاستمتاع بهذا الخراب التدريجي ، بهذا الانتحار الذي يذوقه العقل جرعاتٍ صغيرة ، وعلى ذلك فإن ظلّ ماشادو دو أسيس

ظلّ رومانسياً . ولكنه كان طبيعياً أيضاً من حيث عنايته بالوصف الدقيق . انه يصف تطور الجنون لدى روبيان وصفاً لايستطيعه الا عالم من علماء الأمراض العقلية ، كتبلور الهذيان ، وازدواج الشخصية ، والتجول الآلي ، والهلس ، ثم السقوط النهائي .

على أن النزعة الطبيعية في تصويره بطله قد عاقها الميل الى الاعتراف . لذلك كانت عبقريته في الملاحظة تظهر في تصويره للشخصيات الثانوية خاصة . وليس معنى هذا أن ماشادو دو أسيس لم يودع هذه الشخصيات الثانوية شيئاً من نفسه أيضاً .

ان صوفيا مثلاً كانت متقدمة في السن قليلاً حين عرفها روبيان ، وكلما ازدادت تقدماً في السن كانت تزداد جمالاً ، كتلك التماثيل اليونانية التي يصقلها الزمن بالشمس والمطر متعاقبين . فكيف لاتذكرنا صوفيا بزوجة ماشادو دو أسيس التي كانت أكبر سناً من زوجها . ان كاتبنا في حاجة دائمة الى شيء من حنان الأم في الحب ، وربما كان مردُّ ذلك الى أنه حرم هذا الحنان صبياً . غير أن هذه الامور ليست الا لمسات خفيفة . أما فيما عدا ذلك فقد كان ماشادو دو أسيس يخرج من ذاته ليحسن تصوير شخصياته ، فهو يلاحظ الناس الذين يحيطون به ملاحظة دقيقة أمينة ، ويصفهم وصفاً حياً أخاذاً . لايظهر ذلك في تصوير شخصية باليا ، هذا الملك (كاندول) ، الذي يعرض مفاتن امرأته ، على شرط أن يكون مالكها الوحيد ، ولا في تصوير شخصية صوفيا التي نشأت في بيئة وضيعة ، عرفت أنها لاتستطيع أن ترقى فيها الا بالمال وحفلات المجتمع ، واجادة استعمال الغنج مع الشرف اجادة نادرة ، وانما يظهر أيضاً في تصوير الشخصيات الثانوية ، الثانوية جداً ، مثل فرتياس الطفيلي ، وتونيكا العازبة الأبدية .

ولا شك في أن الكتاب معرض أناس غلاظ أو مجرمين . لقد كان ماشادو دو أسيس أشبه بجراح يرتدي قميصاً أبيض وقفازين من المطاط ، يعمل مبضعه في نفوس أبطاله مُظهراً أثرتها وجبنها وطمعها ، ملفعاً ذلك كله بموسيقي عباراته ، وبأسلوبه الشفاف الهادىء . وكما كانت نظرته الى العالم نظرة (ساديّة) ، فكذلك كان في روبيان شيء من السادية حين مضى يشهد تنفيذ الحكم بالاعدام في رجل زنجي .

وقد يقال إن هذه السادية تشوه صورة الواقع وتفسد صحتها . حتى ذهب بعضهم الى ان كتاب « كونكاس بوربا » لا يضم إلا كائناً واحداً محبباً الى القلب ، هو ذلك الكلب المسكين المتعلق بمولاه أشد التعلق ، الذي أسند اليه المؤلف حياة نفسية شبيهة بحياة كلب أناتول فرانس في « الحديقة المزدوجة » ، والذي مات تحت سماء العاصفة في شارع صغير بائس . وهذا غير صحيح تماماً لأن في الرواية شخصية تفيض شهامة وإخلاصاً وتفانياً هي دونا فرناندا . ويروي ألسيدس مايا أنه عبر في يوم من الأيام لماشادو دو أسيس عن عاطفته نحو تلك المرأة ، وأنه قال له : « ليست هذه المرأة خلقاً أدبياً بل هي شخصية حية » فما كان من ماشادو ، فيما يروي الراوي ، الا أن نهض مضطرباً ومضى الى النافذة ، وأجاب دون أن يلتفت : « نعم ، لقد عرفت هذه السيدة ، وهي من بلدك . » ولكن الشفقة هي التي يسيطر جوّها على الرواية بوجه خاص ، كما يترقرق فيها حب كبير للبشر، رغم ماترى فيها من ضروب الخبث والصغار والأنانية .

وإذا صحّ أن الألم قد يشوه رؤية الواقع ، فانه من الحق أيضاً أن المجتمع في ذلك العصر كانت له أصباغه القاتمة . كان المجتمع الامبراطوري قد انحل انحلالا كاملا ، ففي السياسة كانت حركة العقائد السياسية عاجزة عن إخفاء حقيقتها عن الأنظار وهي أنها خصومات على مصالح شخصية ، ونزاعات قديمة بين الفئات ما تزال قائمة . وفي الأوساط الراقية كان السعي الى الامجاد ، والى المال خاصة ، يكيف النفوس ويشوه العواطف ، والصالونات التي يملؤها تلألؤ العقود في الاعناق ، وهفيف أثواب السهرة ، والتغزل بالكلام المهموس في ضوء القمر تحت ظلال الحدائق ، كل ذلك كان يؤلف عالم النساء العواقر المتفتحات كالازهار الزاهية في آنية جميلة تزهو ثم تموت ولا تؤتي ثمراً . إن ماشادو دو أسيس يصّور ، من غير تشويه ، الآثار الاولى لنشوء المدنية والصناعة في مجتمع ريفي الأصل .

والكاتب يضع نفسه في أثره دائماً . هذا صحيح . ولكننا لا نستطيع أن نوحّد بينهما . ذلك أن الرواية ثمرة إرادة فنية تحاول أن تبلغ صورة من صور

الجمال . فاذا كان (ماشادو دو أسيس) يتيح لنا أن نلمح في بعض المواضع ذلك الخوف الرهيب الذي يستبد به إزاء تهديدات الجنون ، فانه يظل حريصاً على العناية بحرفته ككاتب . لقـــد أراد بعضهم أن يفسر ميله الى التفاصيل الصغيرة بأنه كان حسير البصر : « أحب نبش الامور الصغيرة المختفيـــة . وحيث لا يدس أحـــد أنفه ، أدسّ أنا أنفي ، وفي نفسي من الفضول ما في نفسُ من يكشف أمراً مخبـــأ . » ولكن لهـــذه الاشيـاء الصغيرة الدقيقة دلالة فنية : انها تريح القاريء من الخطوط الكبرى الفاجعيـــة ، اللهم الا أن نقول انها تشير الى تفتت الزمن في غبار ذهبي من اللحظات . وقد أراد بعضهم أيضاً أن يعلل قصر جملته بتأتأته ، ولكن الجملة القصيرة كانت عنـده سلاحاً ضد الرومانسية الخطابية ، ضد العبارة المتنفخة المتفخمة التي يستعملها الطلاب المتخرجون في القانون أو الشعر . لقد هجر أخيراً أوكتاف فوييه ، واهتدى الى اخوته في الفن من أمثـال ميريه وستاندال . والتكرار كثير في آثاره ، لكن هذا التكرار ليس ثمرة لمزاجه الصرعي ، ولا هو لدى هذا العامل المجتهد المخلص تهاون ورخاوة في الاسلوب . واذا كان وصفه لذلك الجزء الذي يمتد في مدينة ريو من ساحة فورموزا الى ساكو دي أفريس يتكرر في « كونكاس بوربا » و « روكوليداس » ، و « أقاصيص بلا تاريخ » فمرد ذلك الى أنه حي طفولته ومرتع نزهاته الطويلة على شاطيء الماء . انه أشبـــه بعنقود من ذكريات حبيبة على باقة أزهار اصطناعية . واذا كنا نرى حادثتين من حوادث اصطـــدام العربات في « كونكاس بوربا » ، وحوادث أخرى في أقاصيص أخرى ، فمرد ذلك الى ان « الحياة لا تتألف إلا من أربعة ظروف أو خمسة في أكثر تقدير ، ولأن نزوات الظروف هي التي تبدلها في نظرنا وتكثرها » . لقد تعلم (ماشادو دو أسيس) من فن المسرح الذي حفل به أول الامر في كثير من الحماسة ، كيف يرد الحياة الى عدد من مواقف بعينها ، واستفاد من ذلك ، حين اصبحت المدرسة الرائجة في اظهار فقر الانسان بل وفقر المصادفات ، على خلاف ما يتراءى لخيال الرومانسيين .

نعم لقد كان ماشادو دو أسيس مريضاً ، وكان خلاسياً ، وكان من أبناء

الشعب . ولكنه كان قبل كل شيء فناناً ، واستطاع في الرواية التي ستقرأونها أن يصل الى امتلاك ناصية أسلوبه ، حتى أصبح علماً من أعلام القدرة الفنية على تصوير المناظر او البيوت او الشخصيات ببضع لمسات خفيفة ، كالكلاسيكيين وعلى الايحاء بأخطر الأشياء وأخفى خلجات النفس وهو يذكرها ذكر عابر ، ويخفيها في ركن من جملة ، مع إلحاحه على أمور تافهة والقائه القارىء في طرق جانبية بشيء من السخرية ؛ وعلى المزج بين الطبيعة والانسان ، بدلاً من أن يصف الطبيعة في ذاتها ، فهو يجعل « رقص الأمواج » امتداداً لرقص الصالونات ، حتى لكأن الرقصين كليهما حركة مضطربة خضراء واحدة ، وهو يكسي نساءه بضوء القمر وبالسماء المرصعة بالنجوم ، ويشربهن كل ما في النبات الاستوائي من شهوانية . وكما أصبح علماً من أعلام القدرة الفنية فكذلك اصبح علماً من الأعلام في التهكم والسخرية .

لقد كتب الباحثون كثيراً في السخرية الماشادية ، ومع ذلك ما يزال عليهم أن يكتبوا كل شيء عنها . لقد عرّفوها تعريفات عامة ، وتحدثوا عن ستون وعن كسافييه دو ميتر ، واستشهدوا بالحقد الذي يشعر به الخلاسي ، وذكروا الازياء الانجليزية التي كانت رائجة في البلاد . ولكننا ما زلنا في حاجة الى تحليل فني لسخرية ماشادو . ان في عنوان الكتاب وحده شيئاً من السخرية « كونكاس بوربا » . إن هذا الشخص لا يظهر إلا في الصفحات الأولى من الكتاب . وهو يلعب في قصة « مذكرات براز كوباس تنشر بعد موته » دوراً أكبر . ان كونكاس بوربا هو هنا كلب . وقد سبق أن عمد ماشادو الى هذه الطريقة في إحدى حكاياته الأولى . فجعل عنوان الحكاية « الآنسة دولار » بحيث يتوهم القارىء أنه سيرى امرأة ، فاذا هي حيوان . على أن السخرية هنا ليست مجرد مزاح ، فان كونكاس بوربا حاضر بغيابه نفسه حتى من أول صفحة في الكتاب الى آخر صفحة . لقد ورثه روبيا ، وهو يقضمه كدودة خفية . وإذا كان الغرض من السخرية هنا الاشارة إلى المصير ، فانها تهدف في مواضع أخرى الى غير ذلك .

انها تظهر ، مثلاً ، بانقلابات مفاجئة في الرواية (رؤية روبيان للعالم قبل الميراث وبعده) ذلك التقطع الزماني الذي كان يحاصر ماشادو دو أسيس ، هرب الزمان الى غير رجعة وانقضاءه بغير عودة . ليست السخرية هنا ترفاً يضـاف الى الأثر اضافة ، ولا هي نوع من إظهار « الفكاهة » ، ولا هي مجرد تعبير عن مزاج . ان لها وظيفة فنية . انها لا تصفي الرواية من مرارة الدمعة ، ولكنها تحيل الدمعة في آخر الغصن المشدود قطرة مضيئة من الندى .

* * *

١

كان روبيان يحدق الى الخليج الصغير . هي الساعة الثامنة من الصباح . لو رأيته على هذه الحال مطلاً من نافذة منزل كبير ببوتافوجو ، غارزاً ابهاميه في حزام ثوبه ، لظننت أنه يعجب بالماء الهادىء الممتد امام بصره . لكنني أؤكد لك أنه كان يفكر في شيء آخر لا صلة له بهذا البتة . لقد كان يقارن بين الماضي والحاضر . ماذا كان منذ سنة ؟ معلماً . ماذا أصبح الآن ؟ ثرياً من الأثرياء . وألقى نظرة على نفسه ، على نعليه (وهما نعلان تونسيان أهداهما إليه صديقه الجديد كرستيانو باليا) ، على البيت ، على الحديقة ، على الخليج ، على الروابي ، على السماء . انه يتأمل هذا كله ، من النعلين حتى السماء ، تأملَ مالك .

قال بينه وبين نفسه : « ليس في وسع المرء أن يدرك طرق العناية الإلهية . لو أن أختي بيداي تزوجت كونكاس بوربا ، لما كان لي الآن الا بضعة آمال على الهامش . لكنها لم تتزوجه ، ومات الاثنان كلاهما ، فاذا كل شيء يئول الي ، ان ما كان يبدو مصيبة من المصائب ... » .

٢

ما أعمق الهوة التي تفصل بين الفكر والقلب ! لقد حاول فكر المعلم السابق، وقد آلمه هذا الخاطر أشد الإيلام ، أن ينتقل الى موضوع آخر : هذا قارب يمر ، لكن قلبه ظل يخفق فرحاً . ما لقلبه وللقارب وراكبه اللذين تتشبث بهما نظراته ؟ كان القلب يردد : ما دام أجلها قد انتهى ، فمن الخير أنها لم تتزوج. كان يمكن أن تلد صبياً أو بنتاً ... – ما أجمل هذا القارب ! – الحق أنه لم

يكن في الامكان أبدع مما كان ، ما أروع طواعيته للمجدّف ! - لا شك أنها في السماء .

٣

وجاء خادم بالقهوة ، فتناول روبيان القدح . وفيما هو يضع السكر ، نظر خلسة الى الصينية المصنوعة من فضة منقوشة . كان قلبه يحب الذهب والفضة حباً خاصاً . انه لا يحب البرونز ، لكن صديقه باليا قال له ان البرونز معدن ثمين أيضاً : لذلك نرى في غرفة الاستقبال ذينـك التمثالين الصغيرين اللذين يمثلان مفستوفيلس وفاوست . على أنه لو أوتي الاختيار ، لآثر الصينية ، هذه التحفة الفضية ، الرائعة بأناقتها ورهافتها . وظل الخادم ينتظر رصيناً هادئاً . إن الخادم اسباني . وروبيان لم يقبله من بين يدي كرستيانو في غير مقاومة . ذكر لصديقه أنه قد تعوّد صحبة أهل ميناس ، وأنه لا يريد في بيته لغات اجنبية ، لكن صديقه أصر على رأيه ، وأوضح أن من الضرورة بمكان أن يكون له خدم بيض . فأذعن روبيان على مضض . وخادمه الطيب الذي كان يريد أن يكل اليه أمر الخدمة في غرفة الطعام ، لكونه أثراً من آثار الولاية التي جاء منها . لم يستطع أن يدعه حتى في المطبخ حيث كانت السيطرة لفرنسي اسمه جان ، واضطر أن يعهد اليه بأعمال دون ذلك مقاماً .

- هل كونكاس بوربا مضطرب كثيراً ؟

كذلك سأل روبيان الخادم وهو يرشف ثمالة القهوة ، ويلقي على الصينيـة نظرة أخيرة .

فأجابه الاسباني بالاسبانية :

- أظن ذلك .

فقال روبيان :

- أنا ذاهب لأفكه .

ولم يذهب ، وانما لبث ينظر الى الأثاث فترة من الوقت . فلما وقع بصره على الصور الانجليزية الصغيرة المعلقة بالحائط فوق التمثالين البرونزيين ، أخذ يفكر في صوفيا الجميلة ؛ زوجة باليا . ثم تقدم بضع خطوات الى أمام ، وجلس على مقعد في وسط الصالون ، ينظر الى بعيد .

– هي التي شجعتني على شراء هاتين اللوحتين الصغيرتين يوم كنا نبحث نحن الثلاثة عن أشياء نشتريها . ما كان أجملها ! ان كتفيها اللذين رأيتها في حفلة الرقص التي أقامها الكولونيل هما ما أفضله فيها . ما أروعها كتفين ! لكأنها من مرمر ... ما أنعمها ! ما أنصع بياضها ! والذراعان . آه .. يا لهما من ذراعين ! ما أحسن تكوينهما !

وتنهد روبيان ، ولف ساقاً بساق ، واخذ يعبث بحزام ثوبه . لم يكن يشعر بأنه سعيد كل السعادة . لكنه كان يشعر بأنه غير بعيد عن السعادة الكاملة. تذكر بعض الحركات ، بعض النظرات ، بعض الأوضاع . انها جميعاً لا يمكن ان يكون لها سبب غير الحب ، بل لا يمكن ان يكون مصدرها الا حب كبير . لم يكن روبيان طاعناً في السن : سيبلغ الاربعين قريباً ، بل ان من ينظر إليه لا يقدر له هذا العمر . وجعله هذا الخاطر يمر بيده على ذقنه . انه يحلق ذقنه في هذه الفترة من حياته كل يوم . وذلك امر جديد لا عهد له به من قبل (كان في الماضي يقتصد ، ولا يشعر بالحاجة الى حلق ذقنه) . تخيلوا ماذا كان : معلماً بسيطاً . انه يدع كثتين من الشعر في خديه (وقد ارخى لحيته كلها بعد ذلك) ، وهما تبلغان من النعومة درجة تجعل امرار اصابعه فيها يولد له لذة ، أي لذة ... ثم تذكر لقاءهما الاول في محطة فاسوراس ، حين دخلت صوفيا مع زوجها الى عربة القطار التي كان مستقراً فيها منذ سفره من ميناس . وهو انما كشف في تلك اللحظة عينيها الشهوانيتين اللتين تذكران بدعوة النبي : « من كان منكم ظامئاً فليشرب » . صحيح انه لم يكن في الحالة النفسية التي تقتضيها دعوة كهذه الدعوة. فلقد جاء مثقل الرأس بالميراث والوصية وقائمة الأشياء . وتلك كلها امور ينبغي لنا الآن أن نشرحها حتى يستطيع القارىء أن يمسك بخيط القصة . فلندع روبيان

اذن في صالون بيته ببوتافوجو ، عابثاً بحزام ثوبه ، مفكراً في صوفيا الجميلة . اتبعني أيهـــا القارىء ، حتى نلتقي بروبيان ساهراً على كونكاس بوربا قبل ذلك ببضعة أشهر .

٤

إذا شرفتموني بقراءة كتابي « مذكرات براز كوباس منشورة بعد موته » ، رأيتم كونكاس بوربا هذا يظهر في ذلك الكتاب متسولاً ورث ثروة طائلة على حين فجأة ، وله من جهة أخرى مذهب فلسفي هو خالقه . ذلك هو الآن في مدينة بارباسينا . انه ماكاد يصل إلى هـذه المدينة حتى وقع في غرام أرمل ظروفهـا ومواردها متواضعة . وكانت هـذه المرأة الى ذلك شديدة التحفظ ، حتى لقد بلغت من شدة التحفظ أن ماأعلنه لها عاشقها من حب لم يوقظ في نفسها أي صدى . كان اسمها ماريا دابيادادي . وقد بذل أخوهـا روبيان الذي سبق الحديث عنه ، كل مايطيقه من جهد في سبيل تزويجها . لكن بيادادي لم تتزحزح عن موقفها ، ثم ماتت بالتهاب الرئتين .

وقصة الغرام الصغيرة هذه هي التي ربطت بين الرجلين وشدت احدهما الى الآخر . هل كان روبيان يعرف ان رأس صاحبنا كونكاس بوربا يضم تلك البذرة من الجنون التي اعتقد احد الاطباء انه كشفها فيه ؟ لا شك في أن روبيان كان يجهل ذلك : كل مافي الامر انه كان يعده شاذا بعض الشذوذ . لكن هذا لاينفي ان تلك البذرة من الجنون لم تبرح رأس كونكاس بوربا في يوم من الأيام ، لا قبل ذلك المرض الذي أفناه شيئاً بعد شيء ، ولا بعده . ولقد كان هنالك لكونكاس بوربا اقرباء ، لكنهم كانوا في عام ١٨٦٧ قد ماتوا جميعاً . وآخر من مات منهم انما هو ذلك العم الذي ورث عنه كونكاس بوربا ثرواته . وظل روبيان الصديق الوحيد للفيلسوف . لقد كان يدير مدرسة للصبيان ، فلم يلبث ان أغلقها من اجل ان يفرغ للعناية بالمريض . كان قبل ان يصبح معلماً ، قد اقدم على عدة مشاريع ، لكنه مني بالاخفاق فيها جميعاً .

ظل روبيان يزاول مهنة الممرض هذه مدة خمسة أشهر ، أو ستة تقريباً . وكان صادق الاخلاص : صبوراً ، باشاً ، نشيطاً ، يطيع أوامر الطبيب ، ويجرع المريض أدويته في مواعيدها ، ويمضي ينزهه من دون أن ينسى شيئاً ، فلا هو يغفل عن خدمة البيت ، ولا هو يهمل قراءة الجرائد متى وصلت في صندوق ريو أو صندوق أوروبريتو .

وكان كونكاس بوربا يقول له متنهدا :

– أنت طيب ياروبيان .

فيجب : حقاً ماأعظم شجاعتك . إذا كنت أنا كذلك فما أنت بشرير !

وكان الرأي الذي يعلنه الطبيب هو أن كونكاس بوربا سيشفى شيئاً بعد شيء . لكن روبيان سأل الطبيب ذات يوم وهو يشيعه حتى الباب ، ماهي حالة صديقه حقاً . فعلم عندئذ أنه سيقضي نحبه لامحالة ، غير أن من الواجب مع ذلك أن نستمر على بث الأمل والرجاء في نفسه ، اذ ليس من الحكمة في شيء أن نكشف له عن الحقيقة ، فنجعل الموت أشق على روحه وأقسى .

فأجابه روبيان بقوله :

– صدقني إذا قلت لك أن الموت أمر سهل عنده . ألم تقرأ أبداً ذلك الكتاب الذي ألفه منذ عدة سنين ، وفيه يعالج موضوعاً من مواضيع الفلسفة ؟... لاأدري ماهو .

– لا لم أقرأ الكتاب ، لكن التفلسف شيء ، والموت حقاً شيء آخر .

٥

كان لروبيان منافس ينازعه قلب كونكاس بوربا : هو ذلك الكلب الجميل ، المتوسط القامة ، الأشهب اللون على بقع سود . كان كونكاس بوربا يصطحب الكلب حيثما يذهب . وكانا ينامان معاً في غرفة واحدة . وكان الكلب هو الذي يوقظ صاحبه في الصباح : يتسلق السرير ، ويأخذ الاثنان يتبادلان التحيات . ومن غرائب كونكاس بوربا أنه أسمى الكلب باسمه هو ، وكان يعلل ذلك بعاملين ،

أولهما ذو صلة بالعقيدة ، والثاني شخصي :

– ذلك أن « الطبيعة الانسانية » في عقيدتي هي مبدأ الحياة نفسه ، فهي مبثوثة في كل مكان ، قائمة أيضاً في الكلب ، فنستطيع اذن أن نسميه باسم انسان ، سواء أكان هذا الانسان مسيحياً ام كان مسلماً .

فقال له روبيان وقد تذكر اسم احد الخصوم السياسيين في المدينة :

– ولكن أليس من الأفضل والحالة هذه أن تطلق عليه اسم برناردو ؟

فأجابه كونكاس بوربا :

– هنا نصل الى العامل الشخصي ، اذا مت قبل كلبي العزيز ، وهذا ما أتوقعه ، بقيت بعد الموت في اسمه . هذا يضحكك ، أليس كذلك ؟

فأشار روبيان منكراً .

– بل ينبغي لك أن تضحك يا عزيزي ، لأن الخلود نصيبي أو مهربي ، ما في ذلك من ريب ، لسوف أعيش الى الأبد بكتابي العظيم . والذي لا يعرفون القراءة ، سوف ينادون الكلب باسم كونكاس بوربا ، و . . .

فلما سمع الكلب اسمه هرع الى السرير ، فنظر كونكاس بوربا منفعلاً .

– صديقي المسكين ، صديقي الطيب ، صديقي الوحيد .

– الوحيد ؟

– عفوك . انك لصديقي أيضاً . أنا أعرف أنك صديقي ، واني لأشكر لك ذلك أجزل الشكر . على المرء أن يغفر للمريض كل شيء . أيكون الهذيان قد بدأ منذ الآن ؟ ناولني المرآة .

أعطاه روبيان المرآة . فظل المريض بضع لحظات يتأمل وجهه الناحل ونظرته المحمومة التي تطل منذ الآن على عالم الموت ، على العالم الذي يسير المريض اليه بخطى بطيئة لكنها محققة ، ثم قال وهو يبتسم ابتسامة صفراء ساخرة :

– مظهري ينبيء عما أحسه في داخلي . انني مائت يا عزيزي روبيان ... ليس يجدي أن أحتج .. اني مائت .. ولكن ما هو الموت حتى تجزع منه هذا الجزع كله؟

– أعرف ، أعرف أن لك فلسفتك ... ولكن فلنتكلم عن الغداء . ماذا

تحب أن تأكل اليوم ؟

فنهض كونكاس بوربا على السرير ودلّى ساقيه اللتين يدرك المرء نحولهما الشديد من خلال السروال .

فأسرع روبيان يسأله :

– ماذا هنالك ؟ ماذا تريد ؟

فأجابه المريض مبتسماً :

– لا شيء ... فلسفتك ... انك تقول هذه الكلمة باحتقار شديد .. هيا كررها .. أحب أن أسمعها مرة أخرى . فلسفتك .

– ما هذا بالاحتقار . وكيف يكون لي أن أحتقر فلسفة ؟ كل ما أقوله هو أنك تستطيع أن تستخف بالموت ، لأن لك حججاً ، لأن لك مبادىء .

وبحث كونكاس بوربا عن نعليه بقدميه ، فجاءه روبيان بهما ، فانتعلها وأخذ يمشي ليريح ساقيه . ودغدغ الكلب ، وأشعل سيجارة . فأراد روبيان أن يغطي المريضُ جسمه ، فجاءه برداء وصدرة وثوب ومعطف ليختار منها ما يشاء . لكن كونكاس بوربا دفعها عنه جميعاً بحركة من يده . لقد تبدل وجهه الآن تبدلاً كاملاً ، فكأن عينيه الغائرتين تحللان ما يجري في دماغه . وبعد أن ظل فترة من الوقت يتجول في الغرفة طولاً وعرضاً ، وقف بضع لحظات امام روبيان .

٦

– من أجل أن تفهم معنى الموت والحياة حق الفهم ، يكفي أن أروي لك كيف ماتت جدتي .

– كيف ماتت ؟

– أقعد .

أطاع روبيان الأمر ، وقد ظهر في وجهه أعظم ما يمكن من الاهتمام ، بينما استمر كونكاس بوربا يسير في الغرفة طولاً وعرضاً .

ـ حدث ذلك في ريودو جانيرو ، في يوم من أيام الاعياد ، أمام « الكنيسة الامبراطورية » التي كانت يومئذ « الكنيسة الملكيـــة » . خرجت جدتي من الكنيسة ، واجتازت الفسحة التي أمـام البـاب ، لكي تمضي الى كرسي يحمله حمالون كان ينتظرها في ميدان « باسو » . المكان يعج بالناس ، لأن الشعب يحـلو له أن يرى كبريات السيدات وهن يركبن عرباتهن . وفي اللحظة التي قطعت فيهـا جدتي الفسحة التي أمام باب الكنيسة لتتجه ، نحو كرسيها الذي كان بعيـدآ بعض البعد ، فزع على حين فجأة أحد بغلي عربة من العربات ، واهتاج اهتياجاً شديداً ، فقلده البغل الآخر ، وفي غمرة الاضطراب والاصطخاب اللذين أعقبا ذلك ، سقطت جدتي على الأرض ، فداسهـا البغلان والعربة ، فنقلت فوراً إلى صيدلية في شارع ديزيتا ، وهرع الى نجدتها صيدلي ، ولكن كان الأوان قد فات ، فان جدتي التي شق رأسها وتحطمت ساقها و كتفهـا ، لم تكن اذ ذاك إلا جرحـاً فـاغراً ، فمـا انقضت دقائـق الا ولفظت أنفاسهـا الأخيرة .

قال روبيان :

ـ يا لهـا من مصيبة !

ـ لا .

ـ كيف لا ؟

ـ أسمع التتمة . اليك كيف وقع الأمر : لقـد كان صاحب العربة في الفسحة التي أمام الكنيسة ، وكان جائعاً ، بل جائعاً جداً ، لأن الوقت متـأخر ، ولأنه أفطر في ساعة مبكرة ، ولم يأكل في افطـاره إلا قليـلا . واستطاع من مكانه على الفسحة أن يومىء الى الحوذي أن يتقدم ، فضرب الحوذي البغلـين ليمضي الى سيده ، وبينما كانت العربة تسير التقت بحـاجز فقلبته ، وكان هذا الحاجز هو جدتي . فالفعل الأول في هذه السلسلة كلهـا إنمـا كان فعل محافظة على البقاء . كانت الطبيعة « الطبيعة الانسيّة » جائعة . فلو كان هنالك في مكان جدتي فأرة أو كلب لمـا ماتت جدتي ، ولكن ذلك

ماكان ليبدل الواقعة في ذاتها ، وهي أن « الطبيعة الانسية » كانت في حاجة الى أن تأكل . ولو كان هنـــالك ، في مكان الفأرة أو الكلب ، شاعر من الشعراء ، مثل بايرون أو جونسالفس دياس ، لاختلفت الحالة بعض الاختلاف ، بما قد قد يكتب فيها من مقالات رنانة كثيرة ، لكن جوهر الأمر لايتغير ، فالارض لم تتوقف حتى الآن عن الدوران لأن عـدداً من قصائد الشعر لم تظهر بعـد ولكن الطبيعة الانسية (وهذا فوق كل شيء) في حاجة الى أن تأكل .

كان روبيان يصغي محلقاً ، صادق الرغبة في الفهم . لكنه لم يدرك كل الادراك تلك الضرورة القطعية التي يعزو إليها صاحبه موت جدته . اذ لاشك في أن صاحب العربة ماكان ليموت جوعاً لو وصل الى بيته متأخراً ، في حين أن السيدة المسكينة قد ماتت ، ماتت الى الابد . وحاول روبيان أن يبسط لصاحبه مايساوره من شكوك ، ثم سأله :

– وما هي هذه الطبيعة الانسيّة ؟

– « الطبيعة الانسية » هي المبدأ . لكن لا ... لن أقول شيئاً ، فما أنت بقادر على أن تفهم ياعزيزي روبيان . فلنتحدث عن شيء آخر .

– بل أتم كلامك .

ولم يكن كونكاس بوربا قد انقطع عن المسير أثناء ذلك ، فتوقف عندئذ بضع لحظات وقال :

– هل تريد أن تكون تلميذي ؟

– من غير شك .

– حسن . ستنفذ اذن الى فلسفتي شيئاً فشيئاً . وسيكون اليوم الذي تهضمها فيه كل الهضم أجمل أيام حياتي ، اذ لاشيء ادعى الى نشوة السعادة من الحقيقة . صدقني اذا قلت لك أن « الطبيعة الانسيّة » غاية كل شيء . والذي اكتشفها ، أعني أنا ، هو أعظم إنسان في العالم . هه . انظر كيف يحدق اليّ كونكاس بوربا. ان « الطبيعة الانسية » هي التي تحدق ، لا هو .

– ولكن ماهي الطبيعة الأنسية ؟

– « الطبيعة الانسية » هي المبدأ . ان في كل شيء من الأشياء جوهراً مختبئاً هو واحد فيها جميعاً ... جوهراً وحيداً ، شاملاً ، أبدياً ، عاماً ، لاينقسم ، ولا يزول ، أو أقل كما قال كامونس العظيم :

« حقيقة موجودة في كل شيء »

« قائمة فيما يُرى ولا يرى على السواء »

فهذا الجوهر أو هذه الحقيقة ، هذا المبدأ الذي لايزول هو « الطبيعة الانسية » ، وقد اسميته بهذا لأنه يلخص الكون ، والكون هو الانسان . هل بدأت تفهم ؟

– قليلا . ولكن كيف يكون موت جدتك ؟ .

– الموت لا وجود له . فالتقاء قوتين منبسطتين بل نمو جسمين يمكن أن يؤدي الى زوال احدهما . أما الموت فلا وجود له في واقع الامر .... لا وجود الا للحياة ، لأن زوال شيء هوشرط بقاء الآخر ، والزوال لا يصيب اذن الجوهر العام المشترك ومن ثم كانت الحرب تحافظ على الحياة وتحسن اليها . تصور حقلا من حقول البطاطا وقبيلتين جائعتين . ان محصول هذا الحقل يكاد لا يكفي الا لاطعام احدى القبيلتين ، فاذا استأثرت احدى القبيلتين بالمحصول كله اكتسبت من القوة ما يكفيها لاجتياز الجبل والوصول الى سفحه الآخر الذي تنبت فيها البطاطا غزيرة . اما اذا اقتسمت القبيلتان محصول الحقل بسلام ، لم يغذهما المحصول تغذية كاملة ، فاذا هما تموتان جوعاً . فالسلام في هـذه الحالة يعني الزوال ، والحرب تعني البقاء . ان احـدى القبيلتين تفني الاخرى وتستولي على بقاياها . ومن ثم كانت نشوة النصر ، والاناشيد ، والهتافات ، والجوائز القومية ، وسائر مايعقب الاعمال الحربية . ولو لم تكن الحرب كذلك ، لما حدثت هـذه المظاهر ، لسبب عملي وهو أن الانسان لا يخلد ولا يحب الا ما هو ممتع له أو مفيد ، ولسبب منطقي وهو انه ما من احد يحتفل بشيء معناه عنده الدمار . فللمغلوب الكره أو الشفقة ، وللغالب البطاطا .

– ولكن مارأي من يزول ؟

– لا زوال . الظاهرة الفردية تغيب ، اما الجوهر فيبقى . ألم ترى ماء يغلي؟

يجب أن تتذكر ان الفقاعات تظهر وتغيب بغير انقطاع ، لكن الماء نفسه يبقى . وما الافراد الا هذه الفقاعات العارضة .

– نعم ، ولكن مارأي الفقاعة ؟

– لا رأي لفقاعة . هل هنالك شيء أدعى الى الحزن ، في ظاهر الامر ، من تلك الاوبئة الفظيعة التي تجتاح جزءاً من الكرة . ان ما نظنه شراً هو في واقع الامر خير ، لا لأنه يزيل الاجسام الضعيفة العاجزة عن المقاومة فحسب ، بل كذلك لأنه يتيح تحصيل معارف كثيرة ، ويتيح في آخر الامر كشف الدواء المنقذ . ان علم الصحة ثمرة قرون من القذارة . ونحن مدينون بعلم الصحة لملايين من الكائنات كانت تعيش في النتانة . ما من خسارة البتة . كل شيء ربح . اعود فأقول لك : ان الفقاعات تضطرب ، لكن الماء يبقى . هل ترى هذا الكتاب ؟ انه دون كيشوت . هبني هشمت نسختي . انني بذلك لاازيل الكتاب ، فالكتاب يبقى خالداً في النسخ الاخرى وفي الطبعات اللاحقة ، يبقى خالداً وعجيباً ، خلوداً رائعاً ، خلود هـذا العالم ، المتصف بالالوهية (وبما فوق الالوهية).

٧

وارهق كونكاس بوربا عياء ، فصمت ، وقعد وهو يلهث . فهرع روبيان يحمل اليه ماء ، ورجاه أن يضطجع ليستريح . لكن المريض اجاب بعد بضع لحظات بأنه في خير . كل ما هنالك انه قد فقد عادة القاء الخطب . ثم اشار الى روبيان ان يبتعد قليلا بحيث يستطيع ان يراه من غير جهد ، وطفق بعد ذلك يصف العالم وعجائبه وصفاً بارعاً .

مزيج من آرائه الخاصة وآراء غيره ، تضاف اليه صـور من كل نوع ، صور فيها من شعر الغناء مثل ما فيها من شعر الملاحم ، فما سمع روبيـان الا أن تساءل كيف يستطيع انسان مشرف على الموت ان يتحدث مثل هـــذا الحديث في مثل هذه الموضوعات .

قال له :

– هيا استرح قليلا .
ففكر كونكاس بوربا ، ثم أجاب :
– بل سأمضي اتنزه .
– لا الآن ، فأنت متعب كثيراً .
– لكن تعبي قد زال .
ونهض ، ووضع يديه على كتفي روبيان ، في ابوة .
– أنت صديقي ، أليس كذلك ؟
– يا له من سؤال !
– بل قل انك صديقي .
– كهذا الحيوان بل اكثر .
بذلك اجاب روبيان وقد فاضت نفسه رقة وحناناً .
فشد كونكاس بوربا على يديه ، وقال :
– حسن .

٨

افاق كونكاس بوربا من نومه في الغداة وقد عقد العزم على ان يسافر الى ريو دو جانيرو ... قال انه سوف يعود في آخر الشهر ... لأن له اعمالا يجب ان يقوم بها هناك ... وذهل روبيان . والمرض ؟ والطبيب ؟ فاجابه المريض بأن الطبيب دجال ، اما المرض فان تغيير الهواء لن يفاقمه ، أليس المرض والصحة ، ثمرتي شجرة واحدة ؟ أليسا حالتين للطبيعة الانسية ؟

وختم المريض كلامه بقوله :

– سأسوي هنالك بعض الاعمال الشخصية ... ثم انني قد رسمت لسفري خطة تبلغ من الروعة درجة لا تستطيع ان تفهمها . اغفر لي صراحتي ، لكنني استطيع ان اكون معك انت صريحاً .

وظن روبيان ان مشروع السفر هذا سينطوي مع الزمن كما انطوت قبله

مشاريع كثيرة ، لكنه اخطأ الظن . اضف الى ذلك ان صحة المريض كانت تبدو في تحسن حقاً ، فهو الآن لا يظل راقداً على فراشه ، بل يخرج ويكتب . وفي نهاية الاسبوع استدعى الكاتب بالعدل .

– الكاتب بالعدل ؟

– نعم . اريد أن أسجل وصيتي ، وفي وسعنا ان نذهب اليه معاً ..

وذهب الثلاثة ، لان الكلب لا يترك مولاه يخرج من دون ان يرافقه .

وسجل كونكاس بوربا الوصية وفقاً للاصول المتبعة ، وعاد الى البيت هادىء البال مطمئن النفس . اما روبيان فكان يشعر بقلبه يخفق خفقانا قويا .

– لن ادعك تسافر الى العاصمة وحدك طبعاً .

– لا نفع في ذلك . ثم ان كونكاس بوربا لن يصحبني ، ولا يمكن ان اعهد به الى احد غيرك . سأترك البيت كما هو ، وفي غضون شهر اعود . انني مسافر غداً ، ولا احب ان يعلم بسفري . اعتن به يا روبيان .

– اطمئن .

– هل تحلف ؟

– بأقدس ما أملك . أتظنني طفلاً ؟

– اسقه لبنه في نظام ، وناوله وجبات طعامه في مواعيدها . واغسله كذلك . وحين تمضي به الى النزهة ، حاذر أن يفلت منك ، بل الأفضل أن لا تخرج البتة ... نعم ، الأفضل أن لا تخرج .

– اطمئن .

كان كونكاس بوربا الآخر يُبكي صاحبنا كونكاس بوربا . لم يشأ أن يراه ساعة الرحيل . كان يبكي حقاً . لك أن تعد دموعه دموع جنون أو دموع حب ... لقد كانت على كل حال تهطل فتروي أرضه الميناسية[1] القديمة كقطرات أخيرة من عرق روح غامضة تهم أن تغيب الى الأبد .

(١) نسبة الى ولاية ميناس جيراس (المترجم) .

٩

بعد بضع ساعات مرت بخاطر روبيان فكرة رهيبة . قد يُظن به انه دفع صاحبه الى هذه الرحلة دفعاً ، ليعجل موته وليعجل بذلك استيلاءه على الارث ، ان كان في الوصية ارث . وأخذ ضميره يؤنبه في غير هوادة . لماذا لم يحل بينه وبين السفر بكل ما أوتي من قوة ؟ وتراءت له جثـــة كونكاس بوربا صفراء رهيبة ، ترشقه بنظرات العداوة والانتقام . فقرر أن يرفض الارث اذا وافت الرجلَ منيتُه أثناء هذه الرحلة .

أما الكلب فكان يقضي وقته شاخراً عاوياً محاولاً أن يهرب . أصبح لا يطيق ان ينام نوماً هادئاً ، فهو ينهض في الليل مرات كثيرة ، وأخذ يطوف أرجاء المنزل ، ثم يعود آخر الامر الى ركنه . وكان روبيان يناديه عند الصباح وهو في سريره ، فيهرع اليه الكلب فرحاً . كان الكلب يظن أن الذي ناداه هو صاحبه ، لكنه ما يلبث أن يدرك خطأه ، ومع ذلك كان يقبل ملاعبات روبيان ، ويرد عليها بمثلها ، كما لو كان روبيان يستطيع أن ينقلها الى صاحبه أو يستطيع ان يرجع صاحبه الى بيته . وأحب الكلب روبيان اذ كان عنده الصلة التي تربطه بحياته الماضية . لقد رفض في الأيام الأولى أن يأكل . ولاحتماله الجوعَ اكثر من الظمأ رضي ان يشرب الحليب الذي حاول روبيان ان يجرعـه إياه ، فيظل اللبن غذاءه الوحيد مدة من الزمان . وكان يظل بعد ذلك ساعاتٍ برمتها صامتاً حزيناً مقعياً مثل كرة ، أو متمدداً واضعاً رأسه بين قائمتيه .

وحين جاء الطبيب صعق من تهور المريض ، وقال ان الواجب كان يقضي بمنعه من السفر ، فالموت محقق لا محالة .

— محقق ؟

— عاجلاً أو آجلاً . هل اصطحب الكلب ؟

— لا يا سيدي . بقي الكلب معي ، وسألني صاحبي أن أعنى بأمره ، انك

لا تستطيع أن تعلم كيف كان يبكي وهو يسألني ذلك ، يبكي ولا يفرغ من البكاء .

وأضاف روبيان يقول دفاعاً عن المريض :

– والحق ان هذا الكلب يستحق تقدير صاحبه ، لكأنه انسان لا كلب .

ونزع الطبيب قبعته الكبيرة التي من قش ، فأصلح شريطها ، ثم ابتسم . انسان ؟ كيف يمكن أن يشبّه بانسان ؟ فأصر روبيان على رأيه ثم بدأ يشرحه بقوله : لست أعني طبعاً أنه انسان كالأنامي ، غير أن له جوانب عاطفية ، بل وجوانب عقلية . اسمع مثلا ..

همّ روبيان ان يحكي له أن ...

لكن الطبيب قاطعه قائلًا :

– لا يا عزيزي ، ستحكي لي ذلك فيما بعد ، أما الآن فعليّ أن أعود مريضاً مصاباً بالتهاب في الجلد . اذا وصلت من صديقك رسائل ، ولم تكن رسائل خاصة ، فانني أود لو أراها ، هل توافق ؟

وختم كلامه وهو يخرج قائلًا :

– وتحياتي وذكرياتي للكلب .

ان أناساً كثيرين أخذوا يهزأون بروبيان ، وبهذه الوظيفة الغريبة التي يتولاها ، وهو أنه يحرس كلباً ، بدلاً من أن يحرسه الكلب ، وطفقوا يتنادرون عليه ، ويغمزونه بألقاب السخر . الى أين وصل الاستاذ ؟ لقد صار حارس كلب . وكان روبيان يخشى رأي الناس وبدا ذلك له مضحكاً حقاً . فأخذ يهرب من نظرات الناس ، ويرمق الحيوان في اشمئزاز ، ويضرع الى جمع الأولياء ، حتى انتهى به الأمر الى كره الحياة . ومقتها لولا أمله في ميراث مهما يكن صغيراً ... انه لمن المستحيل أن لايترك له شيئاً يكون بمثابة ذكرى في أقل تقدير ...

١٠

بعد أسابيع ، وصلت إلى بارباسينا ، من ريودوجانيرو ، الرسالة التالية ،

مكتوبةً بخط كونكاس بوربا :

« لاشك أن صمتي بدا لك غريباً . هناك أسباب شخصية منعتني من الكتابة اليك ، الخ .. سأعود في القريب ، لكنني أريد منذ الآن أن أفضي اليك بأمر سري ، سري جداً .

« من أنا يارويبان ؟ أنا القديس أوغسطين . أعلم أنك ستبتسم ، لأنك جاهل يارويبان . إن الصداقة الحميمة التي بيننـــا تسمح لي بأن أقول لك كلمة أشد فظاظة من هذه الكلمة ، لكنني أتساهل معك هذه المرة ، آخر مرة ، أيها الجاهل ...

« اصغ الي أذن أيها الجاهل . انني القديس أوغسطين . اكتشفت ذلك أول أمس : اصغ واصمت . كل شيء في حياتينا متماثل ، أنا والقديس أوغسطين . كل منا قضى شطرا من حياته في الملذات والهرطقة — ذلك انني أصف بالهرطقة كل ماعدا عقيدتي في الطبقة الانسية — وارتكبنا كلانا سرقات ، سرق هو في طفولته بضع تفاحـات من قرطاجنة ، وسرقت أنا في ابان مراهقتي ساعة من صديقي براز كوباس . وامه وامي كلتاهما كانتا على جانب كبير من التقى والعفة . وكان يعتقد ، مثلي ، أن كل مافي الوجود خير ، وهذا مايبرهن عليه في الفصل السادس عشر من الباب الرابع من « الاعترافات » ، مع فرق واحد وهو أنه كان يرى أن الشر انحراف في الارادة ، وضلال من ضلالات عصر متخلف ، واستسلام للخطأ ، لأن الشر لاوجود له أصلاً ، أما أنا فأرى أن الرأي الأول من هذه الأراء هو وحده صواب ، فكل شيء خير ، تلك هي الحقيقة .

« تلك هي الحقيقة ايها الجاهل . لا ترو لأحد ما افضيت به إليك من سر ، هذا اذا كنت لا تريد أن تفقد أذنيك . اصمت ، واحتفظ بالامر كله لنفسك ، واشكر العناية الإلهية أن لك صديقاً هو رجل عظيم مثلي ، وان كنت لا تفهم ذلك . سوف تفهمني آخر الامر . ومتى عدت الى بارباسينا شرحت لك ، بعبارات بسيطة تناسب عقل حمار من الحمير ، ما معنى قولنا : رجل عظيم . وداعاً . بلغ عزيزي المسكين كونكاس بوربا مودتي . لا تنس أن تقدم اليه اللبن . . ولا

تنس غسله كما ألف . وداعاً . وداعاً . وسلمت للمخلص لك من قرارة قلبه .

« كونكاس بوربا »

كادت تسقط الرسالة من يدي روبيان . وقدّر بعد أن فكر بضع لحظات انها قد تكون مزاحاً من صديقه ، فأعاد قراءتها . لكن القراءة الثانية لم تزد على أن عززت شعوره الاول ، وهو ان صاحبه مجنون ، ما في ذلك ريب . مسكين كونكاس بوربا . اذن لم تكن تصرفاته الشاذة وتقلبات مزاجه الكثيرة وحماساته المبالغة التي لا داعي اليها ، وسورات حنانه المفرطة ، لم يكن ذلك كله الا نذراً بالهاوية التي سيتردى فيها عقله . لقد كان يموت اذن ميتتين . ما كان أطيب قلبه وأشد مرحه ! صحيح انه كان في بعض الاحيان وقحاً ، ألا يمكن ان يكون مرد وقاحته الى مرضه ؟ وجفف روبيان عينيه اللتين اخضلتا بالدموع من شدة التأثر . ثم تذكر الارث الذي قد يتركه له صاحبه ، فما زاده ذلك إلا حزناً على الصديق الغالي الذي سيفقده .

وأعاد قراءة الرسالة مرة اخرى في بطء ، محللاً كل كلمة من كلماتها ، رجاء أن يدرك المعنى كله ، فعسى أن ترجع في جملة الامر الى مزاح يمزحه الفيلسوف. ان هذه الطريقة في شتمه على سبيل العبث ليست جديدة . لكن كل ما عدا ذلك يعزز الشكوك الاولى وأسفاه . ووقف روبيان عند السطر الاخير وقد غزاه اضطراب شديد . ألا يمكن أن يقال ان الوصية التي سجلها الرجل باطلة ، وان المواريث التي عينها لا يؤخذ بها ، ما دام الموصي على هذه الحال من الخبل العقلي؟ وانتاب روبيان دوار مفاجيء .

وبينما كانت الرسالة ما تزال مفضوضة بين يديه ، رأى الطبيب يدخل عليه بغتة ويسأله عن اخبار المريض . لقد أنبأه موظف البريد بوصول رسالة .

— أهذه هي الرسالة ؟

— نعم ، ولكن ...

– لعلها تشتمل على أخبار خاصة لا يجوز الاطلاع عليها ؟

– نعم ، تحمل الي خبراً خاصاً ، خاصاً جداً ، يتعلق بامور شخصية . باذنك.

قال روبيان ذلك ووضع الرسالة في جيبه . حتى اذا رأى الطبيب يذهب تنفس الصعداء . لقد أوشكت هذه الوثيقة الخطيرة التي قد تكشف عن حالة كونكاس بوربا العقلية أن يشيع أمرها . وبعد بضع لحظات ندم روبيان على ما فعل . لقد كان ينبغي له ان يطلع الطبيب على الرسالة ، وأخذ ضميره يؤنبه فرأى أن يبعث بالرسالة الى الطبيب ، فنادى عبداً ، لكنه ما لبث أن غير رأيه مرة اخرى لما وصل الخادم . قال لنفسه : ليس من الحكمة ولا من التبصر بالعواقب أن أفعل ذلك ، أن المريض سيعود قريباً – الأمر أمر أيام معدودة – وسيسأله عن الرسالة ، وسيتهمه بانه لم يحفظ السر وبأنه خانه ... وساوس عارضة لا تدوم طويلاً ...

قال للعبد :

– لا ، لا أريد شيئاً .

وعاد يفكر في الإرث مرة أخرى ، حسب مقداره . أيمكن أن يقل عن عشرة قونتات ؟[1] مستحيل . سيشتري اذن قطعة من الارض ، وسيشتري بيتاً ، وسيزرع كيت أو كيت ، أو سيشرع في البحث عن الذهب . ولكن ماذا لو كان المبلغ اقل من ذلك ؟ خمسة قونتات مثلا ... خمسة ؟ طبعاً لن يكون في هذه الحالة مبلغاً كبيراً ، ولكن يجب توقع ذلك . . وهبه خمسة قونتات ... هل خمسة قونتات مبلغ تافه ؟ .. انها على كل حال خير من لا شيء ... خمسة قونتات ... المهم أن لا تلغى الوصية ... لا بأس بخمسة قونتات .

١١

في مطلع الأسبوع التالي قرأ روبيان – وكان يتلقى الجرائد من العاصمة بفضل

(١) القونت = ١٠ آلاف كروزيرو = مليون رايش (المترجم) .

اشتراكات كونكاس بوربا — قرأ في احداها هذا الخبر : « توفي امس السيد يواكيم كونكاس بوربا دوسانتوس ، بعد ان احتمل آلامه بفلسفة تدعو إلى الاعجاب . كان المرحوم على جانب كبير من العلم ، وقد حارب في غير هوادة ذلك التشاؤم اليائس الشاحب اللون الذي سيفد الينا ذات يوم لأنه مرض العصر . كانت الكلمات الاخيرة التي نطق بها هي أن الألم ليس الا وهماً وأن بانجلوس ليس من الحماقة في الدرجة التي زعمها فولتير ... وكان حين نطق بهذا الكلام في أوج الهذيان . ولقد ترك ثروة طائلة . ووصيته في بارباسينا » .

١٢

قال روبيان متنهداً :

— لقد تخلص من العذاب .

ثم لم يلبث ان ادرك ، وهو ينعم النظر في النبأ ، انه يصور الرجل في صورة من ينعم بالاحترام والتقدير بين الناس كافة ، بل انه ينسب اليه شرف القيام بنضال فلسفي خطير . وما من اشارة الى الجنون . بالعكس ، ان نهاية المقالة يفهم منها انه لم يهذ الا في الساعة الاخيرة ، وذلك بتأثير المرض . الحمد لله . وأعاد روبيان قراءة الرسالة ، فبدا له ان افتراض المزاح أرجح فأعترف بأن كونكاس بوربا كان لا يخلو من روح الفكاهة . لا شك انه أراد ان يهزأ به . لقد ذكر القديس أوغسطين وكان يمكن أن يذكر القديس أمبرواز أو القديس هيلير . انه كتب إلى روبيان رسالة معماة من اجل ان يحيره ، حتى اذا عاد أخذ يضحك عليه للحيلة التي دبرها له . رحمة الله عليك أيها الصديق . لقد كان سليم العقل ، كان سليم العقل لكنه مات . انه ارتاح من الالم الآن .

ولما رأى الكلب قال متنهداً :

— مسكين يا كونكاس بوربا .... لو علمت ان صاحبك قد مات ...

ثم قال يخاطب نفسه :

« الآن وقد تحررت من كل التزام ، سأعطيه لهذه الخادم آنجليكا الطيبة » .

١٣

ذاع النبأ في المدينة في كلها ، وأرسل الخوري والصيدلي والطبيب يسألون عن صحة الخبر . وجاء موظف البريد الذي قرأ النبأ في الصحف ، جاء بنفسه يحمل الى روبيان رسالة وصلته بالصندوق . قال لنفسه : قد تكون الرسالة من المتوفي (رغم انه لم يتعرف خطه) .

وبينما كان روبيان يفض الرسالة ، ويركض ببصره الى التوقيع فيقرأ : براز كوباس . قال له موظف البريد :

– اذن أغمد صاحبنا سلاحه آخر الأمر ؟

وكانت الرسالة بطاقة بسيطة ، هذا نصها :

« لقد توفي صديقي المسكين كونكاس بوربا أمس في بيتي وكان قد وصل منذ مدة متسخاً ممزق الثياب . هذه نتيجة من نتائج مرضه . وقبل أن يموت رجاني ان أكتب اليك لأبلغك نبأ وفاته ، ولأنقل اليك أيضاً جزيل شكره . أما ماعدا ذلك فسيتم وفقاً للاصول القانونية المتبعة » .

إن الشكر قد جعل وجه صاحبنا يمتقع . غير أن الاصول القانونية ردت اليه ألوانه . طوى روبيان الرسالة دون أن يقول شيئاً . وأخذ موظف البريد يتكلم متنقلاً من موضوع الى موضوع ، ثم انصرف . عندئذ أمر روبيان أحد العبيد أن يمضي الى السيدة آنجليكا ليعطيها الكلب ، وعلمّه أن يقول لها إنه يهدي اليها هذا الكلب زيادة على ماعندها من كلاب مادامت تحب الحيوانات هذا الحب كله ، وأوصاها أن تعنى به العناية التي ألفها ، وأضاف أن اسم الكلب هو اسم صاحبه المتوفي نفسه كونكاس بوربا .

١٤

كاد روبيان يسقط على قفاه حين فضت الوصية . هل حزرت السبب ، أيها القارىء ؟ لقد جعله المتوفي الوارث الشرعي الوحيد لثروته كلها . لم يكن حظ روبيان من الميراث خمسة قونتات ، ولا عشرة ولا عشرين ، بل كان الثروة كلها ، والمال بكامله ، الاملاك جميعها بغير استثناء ، البيوت التي يملكها في العاصمة ، وبيتاً آخر في بارباسينا ، العبيد ، الفوائد ، أسهم « بنك البرازيل » وغيره من الشركات ، الجواهر ، النقود ، الكتب ، كل شيء آل الى روبيان ، لم يحول منه جزء وليس هناك مواريث خاصة ، ولا هبات ، ولا اقتسام من أي نوع . ولم يفرض الموصي على وارثه الا شرطاً واحداً ، هو أن يحتفظ الى الابد بكلبه العزيز المسكين كونكاس بوربا الذي خلع عليه اسمه دليلاً على مايحمله له من حب . انه يطلب من روبيان أن يعامل الكلب كما لو كان الكلب هو الموصي نفسه ، وأن لايدخر جهداً في توفير الرخاء له وفي حمايته من الامراض ومن الهرب أو السرقة وفي الحيلولة بينه وبين كل شر يراد به ، وأن يعنى به عنايته بانسان لابكلب . وألزم روبيان أيضاً بأن يدفن الكلب ، حين يوافيه أجله ، في أرض يحسن اختيارها لهذا الغرض ، وأن يجعل له قبراً مهيباً يغطيه بالازهار والنباتات العبقة ، وعليه كذلك أن يخرج عظام الكلب عندما يحين الوقت فيضعها في صندوق من ثمين الخشب ، ويضع الصندوق في أكرم مكان من بيته .

١٥

ذلك هو الشرط الذي اشتملت عليه الوصية . وقد رآه روبيان طبيعياً جداً وهو في غمرة اهتمامه بالارث كان لا يرجو الا نصيباً يسيراً ، فاذا بالوصية تضع بين يديه الميراث كله . انه لا يستطيع ان يصدق . ولولا ان الناس صافحوه مهنئين مرات كثيرة ، في قوة تعدل قوة التهاني ، لما أيقن انه في ليس حلم . قال له الصيدلي الذي كان يقدم ادوية كونكاس بوربا :

- انتفع بحظك السعيد ايها السيد .

ان يكون وارثا فذلك وحده خير ... فكيف وهو الوارث الشرعي الوحيد.. لكأن هذه الكلمة وحدها تضخم الميراث . لقد ورث كل شيء ، كل شيء على الاطلاق ، لا تنقص منه ملعقة قهوة . ترى كم يبلغ الميراث كله ؟ كذلك تساءل روبيان . البيوت ، الدخل السنوي ، الاسهم ، الملابس ، الاطباق ، اللوحات التي كان كونكاس بوربا يملكها في ريو ، لأنه صاحب ذوق ، ولأنه كان رحمه الله ضليعاً في شئون الفن . والكتب ؟ لا شك انه يملك عدداً كبيراً من الكتب ، لأنه كان يستشهد دائماً بكتب كثيرة . ولكن ماذا يبلغ هذا الميراث كله ؟ مائة قونت ؟ ربما مائتين ؟ ليس ذلك بمستحيل ؟ وليس بمستغرب ان يبلغ ثلاثمائة قونت . ثلاثمائة قونت ثلاثمائة . ود روبيان لو يرقص في الشارع . لكنه هدأ نفسه . وسواء أكان المبلغ مائتي قونت أم ثلاثمائة ، فهو على كل حال حلم يهبط عليه من السماء ، حلم لن ينقضي .

وأخيراً انبثقت ذكرى الكلب من أعصار الافكار التي كانت تجتاز رأس صاحبنا . لقد رأى روبيان ان الشرط الذي اشتملت عليه الوصية كان طبيعياً جداً ، وان كان نافلا ، ما دام هو والكلب صديقين . أليس من الأمور البديهية أن يقطنا بيتاً واحداً ابقاء على ذكرى صديقهما المشترك الذي مات وحقق السعادة لهما كليهما ؟ لا شك ان الشرط الذي اشتملت عليه الوصية يضم أموراً غريبة ... حكاية الصندوق واشياء أخرى غيرها مما لا يعرفه جيداً ... لكنه سينفذ كل شيء ولو اطبقت السماء على رأسه ... واستدرك روبيان يقول . لا ... لا ... بل سأنفذ كل شيء بمعونة الله . ألا ما اطيبه من كلب ! ألا ما أروعه من كلب !

لم ينس روبيان انه حاول غير مرة ان تكون له ثروة ، وان محاولاته باءت كلها بالاخفاق في مهدها . كان يظن ان النحس يخالفه مع ان الواقع غير ذلك إذن . صدق المثل القائل : كل شيء ممكن بمعونة الله . حتى هذا الثراء الذي حصله لم يكن مستحيلا .

قال بصوت عال :

– أي شيء مستحيل ؟ لا شيء بمستحيل ؟ الا" انخداع الله ، ان ... الله لا يكذب وعده .

كان روبيان يسير على غير هدى ، يصعد شارعاً ويهبط آخر ، من دون ان يتجه الى بيته ، ومن دون ان يكون له هدف بعينه . وفجأة قامت في ذهنه مشكلة خطيرة . أيقيم في ريودو جانيرو أم يمكث في بارباسينا ؟ انه يريد ان يبقى في بارباسينا ليلمع نجمه بعد ان كان كابياً ، وليضع القذى في أعين الذين كانوا الى ذلك الحين لا يقدرونه ، وخاصة اولئك الذين سخروا من صداقته لكونكاس بوربا . لكنه لم يلبث أن انبعثت في خياله صورة ريودو جانيرو التي سبق أن عرفها بعفاتها وتدفق الحياة فيها ومسارحها التي لا تعد ولا تحصى ، دع عنك نساءها الجميلات اللواتي « يلبس ازياء فرنسية » . واختار اخيراً ان يقيم بريودو جانيرو . ان في وسعه دائماً ان يزور مسقط رأسه متى أراد .

١٦

صاح وهو يدخل الى البيت :

– كونكاس بوربا . كونكاس بوربا . هيه . كونكاس بوربا .

لا اثر للكلب . وعندئذ تذكر انه اهداه الى السيدة آنجليكا . فهرع يذهب الى بيتها الذي يقع في مكان غير قريب . وفي أثناء الطريق لم تكف الهواجس السود ، والأفكار الغريبة عن مهاجمة رأسه .. ربما هرب الكلب .. ربما ذهب احد اعدائه الى منزل آنجليكا بعد أن علم بأمر الوصية ، فسرق الكلب ليخفيه أو ليقتله . ماذا يكون مصير الميراث في هذه الحالة ؟. ومرت امام عينيه سحابة سوداء .. ثم اخذ يرى الامور رؤية أوضح .

قال لنفسه : « ليس لي بامور القانون علم ، ولكن يخيل الي مع ذلك انه لا شأن له بهذا كله . فالوصية تفترض ان الكلب على قيد الحياة وانه في البيت ،

فاذا كان قد هرب او مات ، فاننا لا نستطيع ان نخلقه . ويترتب على ذلك ان القصد الاول .. ولكن اعدائي يستطيعون مع ذلك أن يصطنعوا العلل . اذا رأوا أن الشرط الذي تشتمل عليه الوصية لم ينفذ » .

وقطر جسم صاحبنا في تلك اللحظة عرقاً بارداً ومرت أمام عينـــه مرة اخرى سحابة مظلمة . واخذ قلبه يخفق خفقانا قوياً . بدأ الشرط الذي اشتملت عليه الوصية يبدو له شاذاً غريباً . اصبح لا يدري الى أي ولي من الأوليـاء يضرع .. ونذر قداساً ، نذر عدة قداديس ، نذر عشرة قداديس . ولكن ها هو ذا يوشك أن يضل . فأسرع في سيره . ها هو ذا يلمح احداً . أليست هي السيـدة آنجليـكا نفسها ؟ نعم ، انهـــا هي بعينها ، واقفـة على باب بيتها تبتسم .

ـ ما اغرب وجهك يا صديقي المسكين ! لو رآك احد وانت تهز ذراعيك على هذه الصورة لحسبك مجنونا .

١٧

سألها روبيان وهو يتظاهر بالهدوء ، لكن وجهه شاحب :

ـ اين الكلب يا صديقتي الطيبة ؟

فقالت له :

ـ ادخل واجلس ، أي كلب ؟

قال روبيان وقد ازداد وجهه شحوبا :

ـ أي كلب ؟ الكلب الذي ارسلته اليك . أنسيت انني ارسلت اليك كلباً ليستريح هنا بضعة ايام ، ثم .. كلب له قيمة كبيرة .. انه ليس لي .. وقد بعثت به اليك من اجل ان .. أنسيت ؟

قالت مجمجة بسرعة :

ـ آ .. لا تحدثني عن هذا الحيوان .

السيدة آنجليكا امرأة قصيرة ، لا تكف عن الارتعاش ، واوداجها تنتفخ من الانفعال . رجته مرة أخرى أن لا يسألها عن الكلب .

– ولكن ماذا صنع لك ياسيدة آنجليكا ؟

– ماذا صنع لي ؟ وماذا يستطيع ان يصنع لي هذا الحيوان المسكين ؟ انه لا يأكل شيئاً ولا يشرب شيئاً ، ويظل يبكي كطفل ، ولا ينفك يبحث عن مخرج يفر منه .

فتنفس روبيان الصعداء . وظلت السيدة آنجليكا تصف شقاء الكلب ، لكن روبيان اصبح لا يصغي اليها ، فهو يحترق شوقا الى رؤية الكلب .

– انه هناك في آخر الدار ، في الحظيرة الكبيرة ، تركته هنالك وحده حتى لا تضايقه الكلاب الاخرى . ولكن هل جئت لأخذه ؟ ليس هذا ما قيل لي . لقد فهمت انه أصبح لي ، انه هدية منك .

– لسوف اعطيك ستة من الكلاب إذا استطعت . اما هذا فلا يمكنني ان اهديه اليك . ما انا بصاحبه ، وانما عهد به الي . لا تخافي .. سوف اعطيك واحداً من صغاره . احسب ان الخادم نقل اليك رسالتي مشوهة .

واتجه روبيان الى الحظيرة بخطى كبيرة ، تتبعه آنجليكا التي كانت ترافقه بدلا من أن تقوده . هنالك كان الكلب متمدداً بعيداً عن طعامه لم يمسه . وكانت هناك كلاب وطيور تتواثب من كل جهة عند مرورهما بها . وعلى مقربة من الحظيرة كان ثمة قن الدجاج ، والى جانب القن بضعة خنازير . وبعد الخنازير بقرة راقدة وسنى ، ودجاجتان تنقران بطنيها بحثا عن القردان .

قالت السيدة آنجليكا :

– انظر ما اجمل طاووسي !

لكن عيني روبيان لا تنظران الا الى كونكاس بوربا الذي كان يتشمم الارض نافد الصبر ، فما ان ازاح عبر باب الحظيرة حتى وثب الكلب على روبيان . الا انه لمشهد هذيان .. روبيان يداعب الكلب .. والكلب يرد على

مداعباته بعواء ونط ، ويلعق بيديه .

– يا إلهي ... لشد ما يحبك !

– يحبني فوق التصور يا عزيزتي الطيبة آنجليكا . الى اللقاء . أعدك بواحد من صغاره .

١٨

حين عاد روبيان والكلب الى بيتهما ، شعرا فجأة بحضور المتوفي . أحسا كلاهما بأنهما يسمعان صوته . وبينما كان الكلب يتشمم الاركان والزوايا جلس روبيان على المقعد الذي جلس عليه يوم شرح له كونكاس بوربا موت جدته شرحاً علمياً ، وراح يستعيد بذاكرته الحجج التي أدلى بها الفيلسوف ، لكنه لم يستطع ان يتذكرها الا نتفاً متفرقة مضطربة . حاول لأول مرة ان يركز فكره في تلك الحكاية الرمزية ، حكاية القبيلتين الجائعتين ، ففهم مغزاها . « للغالب البطاطا » . انه يسمع الآن ، بوضوح ، ذلك الصوت الأخن ، صوت الراحل العزيز ، وهو يعرض موقف القبيلتين ، والصراع الذي قام بينهما ، واسباب هذا الصراع ، وفناء احداهما ، وانتصار الاخرى . ودمدم يقول بصوت خافت :

– للغالب البطاطا .

الامر بسيط غاية البساطة ، واضح غاية الوضوح . ورمق سرواله العتيق الأغبر ، وردنجوته المرقع ، فقال في نفسه انه كان منذ قليل في عداد المغلوبين ، في عداد الفقاعات ، لكن ذلك قد مضى وانقضى ، وهو الآن من الغالبين . لا شك ولا ريب . لقد خلقت البطاطا للقبيلة التي تفني الاخرى ، حتى تستطيع أن تجتاز الجبل وأن تجني البطاطا التي على سفحه الآخر . هذه هي حاله ، لسوف ينزل من بارباسينا ، ليجني بطاطا العاصمة ويتذوقها . ويجب عليه ان يكون قاسياً لا يرحم . أليس هو القادر القوي ؟ وانتصب واقفاً على حين فجأة ، ورفع ذراعيه في حماسة ، وصاح بأعلى صوته :

– للغالب البطاطا !

ان العبارة لتعجبه قطعاً ، وانه ليجدها محكمة بارعة . لقد جمعت بين الايجاز والبلاغة ، والعمق والصدق . وراح يتخيل البطاطا في جميع الصور الممكنة ، ويصنفها على حسب مذاقها وشكلها وقيمتها الغذائية ، وشبع مقدماً من مائدة الحياة . لقد آن له أن يتخلص من الاطعمة الرديئة التي لا تزيد على أن تخادع الجوع ، والتي كانت غذاءه حتى الآن . له بعد اليوم الطعام الغني ، الطعام القوي ، الطعام الوافر الغزير . لسوف يأكل حتى يموت من فرط الأكل ، فإن مات مات في طنافس الحرير . ووعد نفسه مرة اخرى أن يكون قاسياً لا يرحم ، وتذكر العبارة التي تلخص مغزى حكاية القبيلتين ، بل تخيل انه سينقش لنفسه خاتماً يكون شعاره : للغالب البطاطا .

وسرعان ما نسي مشروع الخاتم . لكن العبارة نفسها ظلت ماثلة في ذهنه عدة أيام . للغالب البطاطا . انه لم يفهمها قبل الوصية . لقد وجدها غامضة لا تفسر . حقاً ان الضوء يختلف باختلاف النقطة التي تراه منها ، وان خير وسيلة لتقدير السوط أن تمسك بقبضته .

١٩

يجب أن لا يفوتنا أن نذكر أن روبيان تولى اقامة قداس على روح الفقيد ، وان كان يعلم أو يقدر أن الراحل العزيز لم يكن كاثوليكياً . ان كونكاس بوربا لم يهزأ بالكهنة ، لا ولا انتقد العقيدة الكاثوليكية . لكنه لم يكن يتحدث قط لا عن الكنيسة ولا عن المؤمنين . أضف الى ذلك أن ما كان يحمله لمذهب الطبيعة الانسية من احترام لا يتفق كثيراً مع الديانة الكاثوليكية في نظر الوارث. لكن هذا لم يمنع روبيان من اقامة القداس ، لأنه رأى ان ارادة المتوفي لا شأن لها في الأمر ، ولأن القداس لا يزيد على ان يكون تكريماً دينياً للراحل يتولاه الأحياء . وكان يرى عدا ذلك أنه ان لم يُقِم ، وهو الوارث الشرعي الوحيد

للراحل ، الصلوات التي لا يُضَنّ بها على أي انسان مهما يكن بائساً أو بخيلاً ، عرض نفسه لفضيحة في المدينة كلها .

ولئن امتنع بعض الناس عن المجيء حتى لا يروا النصر الذي فاز به روبيان ، فان عدداً كبيراً منهم – ليس من أهونهم شأناً – قد شهد القداس ، ورأى بأم العين الحزن الصادق الذي كان يضني روبيان ، معلم المدرسة سابقاً .

٢٠

منذ قطعت تصفية الميراث مراحل كافية ، أصبح روبيان يهتم بأمر سفره الى مدينة ريو دو جانيرو التي قرر أن يستقر فيها متى انتهى كل شيء . صحيح انه ما يزال مرتبطاً بالمدينتين كلتيهما ، ولكن من الممكن التنبؤ بأن الامور ستجري بخطى سريعة .

٢١

في محطة فاسوراس ركبت صوفيا القطار مع زوجها كرستيانو دو ألميدا اي باليا . ان كرستيانو رجل على جانب من السمنة ، في الثانية والثلاثين من العمر . أما صوفيا فهي بين السابعة والعشرين والثانية والعشرين . وقد احتلا المقعدين الخاليين الى جانب روبيان ، فرتبا السلال ورزم التذكارات التي جاءا بها من مدينة فاسوراس حيث مكثا أسبوعاً ، ثم عقدا أزرار معطفيهما وأخذا يتبادلان بضع كلمات بصوت خافت .

وبعد سير القطار لاحظ باليا صاحبنا روبيان الذي كان وجهه الهادىء الرضي مختلفاً عن وجوه المسافرين الآخرين الذين كانت وجوههم لا تنم الا عن الضجر والضيق . فبدأ كرستيانو الحديث قائلاً ان الاسفار في القطار متعبة جداً ، فأيد روبيان رأيه ، وزاد عليه أن القطار متعب وممل حتى لمن تعود السفر على ظهور الحمير . لكننا لا نستطيع أن ننكر أن السفر بالقطار تقدم ، فأجاب باليا :

– صحيح . انه تقدم كبير .

– لعلك مزارع ؟
– لا يا سيدي
– أتقيم في المدينة ؟
– فاسوراس ؟ لا .... وانما قضينا فيها ثمانية أيام . نحن نقيم في ريو دو جانيرو . انني لاأحس بأي ميل الى الزراعة ، رغم أنني أقدر هذه المهنة حق قدرها .

وانتقل الرجلان من الحديث عن الزراعة إلى الحديث عن تربية المواشي ، ثم تطرقا الى مشكلة الرقيق ، ومنها انتقلا الى الكلام في السياسة . فلم ينس كرستيانو أن يلعن الحكومة التي ادخلت في خطاب العرش عبارة عن امتلاك العبيد ، وأدهشه أن روبيان لم يشاطره هذا الاستنكار . ذلك أن المعلم السابق كان يعتزم أن يبيع جميع ماأورثه كونكاس بوربا من عبيد ، إلا واحداً كان بمثابة خادم . وكان يرى أن ذلك قد يسبب له بعض الخسارة ، لكن باقي الميراث يعوض هذه الخسارة الصغيرة تعويضاً كبيراً . ثم أن خطاب العرش ، وكان قد قرأه ، يطالب باحترام الارزاق المكتسبة ، فماذا يعنيه من امر العبيد الجدد اذا كان لاينوي أن يشتري عبيداً جدداً ؟ ولسوف يحرر الخادم الذي يحتفظ به متى ملك تلك الميراث . وغيّر باليا موضوع الحديث وطفق يتكلم في السياسة ، ومجلس النواب ، وحرب باراغواي ، أي في أمور عامة لم يكن روبيان يعنى بها الا قليلًا . وكان يبدو على صوفيا أنها تصغي الى الحديث اصغاء متخفياً . وكانت عيناها وحدهما تسطعان ، وهي لاتجهل جمالهما ، فكانت تنظر بهما تارة الى زوجها وتارة الى روبيان .

وبعد انقضاء عشرين دقيقة في هذا الحديث ، سأل باليا صاحبه قائلًا :
– أأنت باق في ريو أم أنت تنوي العودة الى بارباسينا ؟
– في نيتي أن أستقر بريو . فقد سئمت الريف ، وأريد أن أنتفع بالحياة ، حتى لقد اسافر الى أوروبا ، لكنني لما أقرر شيئاً في هذا الصدد بعد .

فالتمعت عينا باليا حين سمع هذا الكلام ، وقال :

– فكرة رائعة . لو كان في وسعي أن اسافر الى اوروبا لفعلت . غير انني لااستطيع ذلك الآن . لعلك ذهبت الى اوروبا من قبل ؟

– لا ، لم أذهب من قبل . ولذلك راودتني هذه الفكرة حين غادرت بارباسينا . يجب على المرء ان يتحرك قليلاً في هذه الحياة . لاأدري متى احقق هذا المشروع ، لكن لاشك في أنني سوف ..؟

– عين الصواب . يقال ان في تلك البلاد أموراً رائعة ، ولا عجب فهم اعرق منا كثيراً .. لكننا سندركهم في ذات يوم . ونحن في بعض الأمور نضارعهم ان لم نفقهم .. أنظر الى عاصمتنا مثلا .. لست أدعي انها تنافس باريز أو لندن .. لكنها جميلة جداً ، وسترى ..

– سبق ان رأيتها .

– سبق ؟

– نعم . منذ زمان بعيد جداً .

– ستراها اجمل مما كانت . لقد تحقق فيها كثير من التقدم في الآونة الاخيرة . وحين تذهب بعد ذلك الى اوروبا ..

– هل زرت اوروبا يا سيدتي ؟

كذلك قاطع روبيان صاحبه ، متجهاً بالكلام الى صوفيا .

– كلا يا سيدي .

فاعتذر كرستيانو قائلا :

– نسيت ان اعرفك بزوجتي .

فانحنى روبيان باحترام ، ثم التفت الى الزوج وقال له مبتسما :

– ألا تعرفها بي أيضاً ؟

فابتسم باليا كذلك ، وادرك ان كلا منهما ما يزال يجهل اسم الآخر ، واسرع يذكر اسمه .

– كرستيانو دي ألميدا أي باليا .

– بدرو روبيان دي ألفارنجا ، لكن جميع الناس يسمونني روبيان .

وأراحها تبادل الاسمين مزيداً من الراحة . ومع ذلك ظلت صوفيا لا تشارك في الحديث . لكنها تركت الكلام لنظرتها التي ازدادت الآن فتنة . كان روبيان يتكلم ويضحك ، ويصغي الى باليا متأثراً بهذه الصداقة بينه وبين رجل لم يره قبل ذلك أبداً . حتى لقد قال لصاحبه انه من الممكن ان يقوما بهذه الرحلة الى اوروبا معا ، فأجابه باليا بقوله :

– لكنني لا استطيع ان اسافر قبل عدة سنين .

– لست اقول أن نسافر الآن ، فأنا أيضاً لا استطيع أن اسافر فوراً . والرغبة التي قامت في نفسي حين غادرت بارباسينا لا تعدو ان تكون رغبة بغير تاريخ محـــدد . لا شك أنني مسافر ، اما متى اسافر فذلك لا يعلمه الا الله .

فانتهز باليا هذه الفرصة وقال :

– وأنا ايضـاً حين اقول انني مسافر بعـد بضع سنين ، فانما اريد أن اقول ايضاً : ان شاء الله . وقد لا يتعدى الأمر بضعة شهور . ان الله وحده يعرف ما هو خير لعباده .

قال ذلك وهو يصطنع ما يناسب هذا الكلام من وضع الاذعان والتسليم . ولكن ، لا صوفيا التي كانت تنظر الى قدميها ، ولا روبيـان الذي لم يصغ الى هذه الكلمات الأخيرة ، لاحظ ذلك . لقد كان روبيان يحترق شوقا الى ان يقص على رفيق السفر قصة السبب الذي ينقله الآن الى العاصمة . كانت الرغبة في الافضاء بالسر تحرق شفتيه حرقا ، ولم يكن هنـالك الا قليل من التردد يحول بينه وبين البوح بكل شيء ، وكان هـــذا التردد يضعف قليلا قليلا . علام لا يتكلم في الأمر ؟ ما هو بالجريمة على كل حال . ثم انه سيذيع ويعرفه الناس كافة .

دمدم يقول أخيراً :

– هناك قضية ميراث يجب أن أفرغ منها قبل كل شيء .

– من والدك المحترم ؟

– لا .. من صـــديق . . صديق عظيم حرص على اكون وارثـه الشرعي الوحيد .

– آ . .

– الوحيد . ثق أن امثال هـذا الصديق لم يبق منهم في هـــذه الايام كثير . كان أحسن الرجال ، يا لدماغه الجبار ! يا لذكائه الخارق ! يا لثقافته الواسعة ! كان في آخر حياته مريضاً جداً ، وهذا هو السبب فيما كان يتصف به سلوكه من عنف ومن غرابة في بعض الاحيان . هل فهمت ؟ رجـل غني مريض ، لا عائلة له ، فمن الطبيعي ان يكون صعب المراس . لكنه من ذهب على كل حال ، « من ذهب خالص » . اذا أحترم احداً احترمه الى الابد . كنا صديقين حميمين لكنه لم يقل لي شيئاً . وبعد ذلك ، في ذات يوم ، حين فضت وصيته على اثر موته ، اتضح انه أوصى لي بجميـع املاكه . هذه هي الحقيقة . جعلني الوارث الوحيد . لاحظ ان الوصية لا تشتمل على أي هبة لأحد غيري . ويجب ان أذكر أيضـاً انه لم يكن قد بقي من أهله أحد ، والشخص الوحيـــد الذي كان يمكن ان يصبح قريبه هو انا ، لو انـه تزوج اختي ، لكن اختي ماتت ، رحمهـا الله ، وبقيت أنا صديقه الوحيد . غير انه عرف كيف يبرهن على صداقته . أليس كذلك ؟

– من غير اي شك .

وكانت نظرة باليا ملتمعة ، فاذا هي تصبح الآن ساهمة ، اما روبيان فكان يحس في غمرة حماسته بأنه انتقل الى جنة مسحورة ليس لتغريد العصافير فيها من هدف الا ان تبارك حظه السعيد . لقد كان يسحره حقاً ان يتحدث عن الميراث . واعترف بأنه ما يزال يجهل مبلغ الميراث ، لكنه يستطيـع ان يحسب على وجه التقريب أن . . .

فقاطعه كرستيانو يقول :

– خير ان لا تحسب البتة . لن يقل المبلغ عن مائة قونت على كل حال ، أليس كذلك ؟

– طبعـــاً !

– ما عليك والحالة هذه الا ان تنتظر هادىء البال . وهناك شيء آخر ...

– لا أظن ان المبلغ يقل عن ثلاثمائة قونت ..

– قلت هناك شيء آخر : يجب عليك أن لا تتحدث في هذا الامر الى أناس لا تعرفهم . انني أشكر لك الثقة التي تفضلت فأوليتنيها ، لكنني أرى أن لا تبوح بامورك مثل هذا البوح لأول من تلقاه من الناس . ان اللطف والتحفظ لا يجتمعان دائمـاً .

٢٢

حين وصلا إلى ريو دو جانيرو افترقا أشبه بصديقين . وقد قال باليا لصاحبه ان بيته في سانتاتيريزا تحت تصرفه . ومضى المعلم القديم ينزل فندق « الاتحاد » وتواعد الرجلان أن يتزاورا .

٢٣

طلع الغد على روبيان وهو أشد ما يكون شوقاً الى رؤية الصديق الجـديد الذي انعقدت أواصر الصداقة بينه وبينه اثناء السفر ، وقرر ان يزوره في بيته بسانتاتيريزا بعد الظهر . لكن باليا هو الذي جاء يزور صاحبه منذ الصباح . فقد أراد أن يقدم اليه تحياته ، وأن يطمئن الى ان حالته على مـــا ينبغي لها ان تكون ، وأن يسأله ألا يؤثر أن يقيم في بيته الواقع على الجبل ؟ رفض روبيان أن ينتقل إلى منزل صاحبه ، لكنه ، قبل المحامي الذي دله عليـه ، وهو يمت الى باليا بقربى بعيدة ، ويعد من ألمع المحامين بريو رغم انه ما يزال في عنفوان الشباب .

– انتفع به ما دام لا يطلب الاجور التي تتناسب وصيته حتى الآن .

ودعا روبيان صاحبه إلى تناول طعام الغداء ، وصحبه الى مكتب قريبه ، غير عابىء باحتجاجات الكاب الذي كان يريد أن يرافقها . وسويت الامور بسرعة .

قال له باليا وهو يستأذنه بالانصراف :

– ستأتي الى منزلي بسانتاتيريزا هذا المساء للعشاء . لا ... لا تتردد . انني منتظرك قطعاً .

قال ذلك وانصرف .

٢٤

كان روبيان مرتبكا ، بسبب صوفيا خاصة . انه لا يعرف كيف يتصرف مع النساء . وذكر عندئذ – والذكرى جاءت في محلها – العهد الذي قطعه على نفسه ، وهو ان يكون قوياً لا يضعف . فذهب الى العشاء . ولقد كان موفقاً في الهامه . أين كان في وسعه ان يقضي لحظة امتع من هذه اللحظة ؟ ان صوفيا في بيتها اجمل منها كثيراً في القطار . في القطار ، كان معطفها يغطيها ، فما يرى منها المرء الا عينيها المتوقدتين . اما في سانتا تيريزا ففي وسع المرء ان يعجب لا بعينيها وحدهما بل بها كلها . كانت ترتدي ثوباً أنيقاً من الكتان يكشف عن يديها الفاتنتين ، بل ويكشف قليلا عن ذراعيها . هي الآن ربة البيت ، تتكلم كثيراً ، وتحيط الضيف بألوان العناية والرعاية . فحين انصرف روبيان كان في دوار .

٢٥

وتعشى في بيتها بعد ذلك كثيراً ، فكان يبدو في كل مرة خجولا متحفظاً . ولئن اضعف التعود شيئاً فشيئاً حماسة الايام الاولى ، فان شعلة متقدة لا يستطيع

اطفاءها كانت ما تزال تختبيء في قلبه ، ان صح انها تختبيء حقا . صحيح ان هناك اموراً أخرى ظلت تشغل بال صاحبنا مدة تصفية الميراث ، وخاصة حين طعن أحدهم في الوصية بحجة ان كونكاس بوربا لا يستطيع أن يوصي لأنـــه مجنون ، لكن صحة الوصية ما لبثت ان أُقرت ، وسرعان ما سوي الميراث . واحتفل باليا بالحادث ، فدعا الى عشاء في بيته حضره عـدا الاصدقاء الثلاثة ، المحامي وقاضي التحقيق ومأمور الاجراء . وكانت عينا صوفيا في ذلك المساء أجمل عينين في العالم .

٢٦

« لكأنهما تتبدلان في كل يوم . ما رأيتهما قبل الآن كما كانتا هذا المساء » . كذلك قال روبيان لنفسه وهو يهبط الجبل .

ثم جاء يوم الانتقال من الفندق ، وأقام روبيان في منزله بحي بوتافوجو ، وهو واحد من البيوت التي ورثها . وكان لابد من تأثيث البيت ، فقدم باليا لصاحبه في هذه المناسبة ، مرة اخرى ، خدمات كبرى ، اذ أرشده بذوقه ونصائحه ، وصحبـه من مخزن إلى مخزن ، ورافقه إلى محلات البيـع بالمزاد . وكانت صوفيا تصحبهما احياناً ، ذلك ان هناك اشياء لا تحسن اختيارهـا الا امرأة ، على حد قولها . فكان روبيان يسعد بصحبتها سعادة عظيمة ، ويلجأ الى جميع انواع الحيل ليطيل مدة وجودها الى جانبه ، فهو يطرح اسئلة لا محل لها ، ويخترع حاجات وهمية من أجـــل أن يطول الوقت الذي يستغرقه الشراء . وكانت صوفيـا تقبـل ذلك راضيـة مسرورة ، ولا تني تريـه الاشيـاء ، وتتكلم ، وتشرح .

٢٧

استعرض روبيان بخياله كله بعد أن احتسى قهوته جالساً في المكان الذي

تركناه فيه منذ قليل ، مسرحا بصره الى بعيد ، الى بعيد جدا . وظل يعبث بحزام ثوبه . وتذكر اخيراً ان عليه ان يقوم ليرى كونكاس بوربا ويفك رباطه . فهذا واجب عليه ان يقوم به كل يوم . فنهض ومضى الى آخر الحديقة .

٢٨

قال لنفسه وهو يسير : « ولكن ماهذه الرغبة التي تطاردني ؟ انها متزوجة ، وهي مع زوجها على خير وفاق ، وزوجها صديقي ، وهو يثق بي اكثر من ثقته بأي انسان آخر ... ففيم هذه الغوايات ؟ »

وتوقف عن المسير ، فتوقفت الغوايات أيضاً ... ياله من قديس كالقديس انطون ! قديس (علماني) . لكنه يختلف عن ذلك المعتكف في ان وساوس الشيطان كانت تستطيع بشيء من الالحاح ان تعجبه في آخر الامر . ومن ثم هذه التناقضات الدائمة :

« ما اجملها ! يظهر أنها تحبني حباً شديداً . ان لم يكن هذا حباً فما هو الحب ؟ انها تشد على يدي بكثير من اللذة وكثير من الحرارة ... لا أستطيع أن أتركها ... ولو طلبا الي ذلك ... الامر اقوى مني » .

سمع كونكاس بوربا وقع خطواته ، فأخذ ينبح ، فأسرع روبيان يخلصه ، وأحس في الوقت ذاته أنه يخلص نفسه بضع لحظات من الهم الذي حاصره . صاح به وهو يفتح له الباب :

— كونكاس بوربا .

فأسرع الكلب في الخروج . ياله من فرح ! يالها من حماسة ! ماهذه الوثبات يثبها حول صاحبه ؟ واخذ الكلب يلعق يد مولاه من شدة سروره ، لكن مولاه لم يزد ان لطمه ، فتراجع الكلب حزيناً ، واضعاً ذيله بين قائمتيه . غير أن صاحبه لم يلبث أن صفق باصابعه على حين فجأة ، فعاد الكلب يتواثب من جديد ، فرحاً ذلك الفرح نفسه .

– اهدأ ، اهدأ ...

وتبع كونكاس بوربا صاحبه روبيان الذي خرج من الحديقة ، ودار حول البيت ، تبعه سائراً تارة ، متواثباً تارة اخرى . انه يستمتع بحريته استمتاعاً كاملاً ، لكنه لايغفل عن مولاه لحظة واحدة . فهو يشخر ، وهو يتوقف من حين الى حين ليحك أذنه أو ليلتقط قملة على بطنه ، ثم يستدرك الزمن والمسافة واحدة، ويلتصق بنعلي صاحبه من جديد . كان يلوح له أن روبيان لايفكر الا فيه ، ولا يخرج الا ليتيح له التنزه وأن يعوض اللحظات الطويلة التي قضاها مربوطاً . فاذا وقف روبيان عن المسير رفع رأسه ، قائلاً لنفسه : لاشك أنه يفكر في أمري ، فهو بسبيل وضع خطة لنزهة نقوم بها معاً ، أو لمشروع آخر ممتع كالنزهة . ولم يكن يخطر بباله أن يلطمه صاحبه بيده أو أن يلكزه بقدمه . أنه مجبول من ثقة ، وسرعان ماينسى اللطمات ... انه لايحتفظ الا بذكرى المداعبات ولو جاءت من مولاه وهو في حالة ذهول . انه يريد أن يكون محبوباً . وحسبه أن يظن أنه كذلك ...

والحياة التي يعيشها لم تكن سعيدة كل السعادة ، ولا شقية كل الشقاوة . هنالك أولاً ذلك العبد الذي يغسله كل يوم بالماء البارد . انه لا يستطيع ان يألف أبداً هذا الاختراع الشيطاني . ولئن كان هذا الخادم الاسباني لا يطيقه فان الطباخ جان يحبه كثيراً . وروبيان كثيراً ما كان يغيب عن البيت ، الا أنه كان لا يسيء معاملته بل كان يتركه يدخل البيت ويسمح له بحضور الغذاء والعشاء وبمرافقته الى قاعة الاستقبال أو الى المكتب . وكان في بعض الاحيان يلاعبه وينططه ولكن متى جاء زائر ذو شأن اقتيد الى حظيرته . فاذا أبى أن يخرج وقاوم لم تجده المقاومة شيئاً ، لأن الخادم الاسباني يخرجه عنوة . انه يعمد في ذلك الى كثير من الليونة واللطف أول الأمر ، حتى اذا أدار روبيان ظهره ، شدّه من اذنه او من قدمه ورماه الى الخارج وأغلق جميع الابواب حتى يمنعه من العودة :

– كلب من جهنم .

فكان الكلب يحزن أشد الحزن لهذا الفراق المفاجيء ، وينكسر قلبه ، ويمضي يقبع في ركن من الاركان ثم يظل على حاله هذه صامتاً مدة طويلة . كان يدور على نفسه ثم يدور الى ان يهتدي الى وضع مريح فيسكن ويغمض عينيه لكنه لا ينام وانما هو يستجمع افكاره وذكرياته ويحاول ان يربط بينها : ان قامة مولاه القديم تبدو له في بعض الاحيان كأنها في ضباب ، بعيدةً بعيدةً ، لكنها ما تلبث أن تمّحي شيئاً بعد شيء ، ثم تختلط بقامة صاحبه الجديد ، فاذا الرجلان شخص واحد . ثم تراوده أفكار أخرى ...

افكار كثيرة ، مسرفة في الكثرة . هون عليك أيها القاريء ! ما هذه الأفكار أخيراً إلا أفكار كلب ، الا غبار افكار ! ولعلك تقول انها اقل من غبار . انظر مع ذلك الى هذه العين التي تنفتح من حين الى حين ساهية لتتأمل اللانهاية . ألا ترى فيها انعكاساً لشيء ما ، لشيء لعله يلتمع في أعمق طبيعة الكلب هذه ، شيء ليس ذنبه ولا اذنيه ولكنه مع ذلك جزء منه ؟ بأي اسم يمكن ان اسمي هذا الشيء ؟ ألا ما أفقر لغة الانسان !

وكان الكلب ينام في آخر الامر ، وكانت لحظات حياته كلها تعود في حلم الى رأسه : خليط صاخب من ذكريات الماضي وصور الحياة الحاضرة . فاذا أفاق من نومه نسي كل شيء لكنه كان يحتفظُ منه بشعور ما لا أجرؤ ان أصفه بالكآبة حتى لا أحنقك كثيراً أيها القاريء العزيز . ان في وسع المرء ان يصف منظراً من مناظر الطبيعة بقوله انه منظر كئيب لكنه لا يستطيع أن يصف بذلك الوصف كلباً . ان كآبة منظر من مناظر الطبيعة قائمة في أنفسنا . أما إسناد مثل هذا الشعور الى كلب فهو يفترض ان الكآبة تنبع من مصدر غير ذاتنا . ومهما يكن من أمر فان التعبير الذي كان يظهر في وجه الكلب لا يدل على الفرح . ولكن كان يكفي أيسر أمر من الأمور : أن يصفر له الطباخ أو أن يوميء إليه مولاه إيماءة تنم عن الصداقة ، حتى يسترد كل حماسته فاذا عيناه

تتوهجان واذا ببوزه يرتفع من اللذة ، وإذا بأقدامه تثب وثبات غريبة ليست في الحسبان .

٢٩

ظل روبيان بقية الصباح مشرق المزاج مغتبط النفس . واليوم يوم احد . وهذان صديقان يجيئان لتناول طعام الغداء على مائدته . شاب في الرابعة والعشرين من سنه قد بدأ منذ قليل يبدد أموال أمه ، ورجل في نحو الخامسة والاربعين لم يبق عنده شيء يبدده .

الاول اسمه كارلوس ماريا والثاني اسمه فريتاس . والرجلان كلاهما يعجبان روبيان لكن اعجابه باحدهما يختلف عن اعجابه بالآخر . ليست السن وحدها هي التي كانت تقرب بينه وبين فريتاس اكثر مما كانت تقرب بينه وبين كارولوس ماريا . ان طبع فريتاس ايضاً كان يحببه إليه . كان فريتاس يجيد الثناء على كل شيء ، ويتقن فن ازجاء المديح اللطيف لكل طبق من أطباق الطعام ولكل نوع من أنواع الخمور ! وكان لا ينصرف من بيت صاحبه إلا وقد حشى جيوبه بانواع السيجار دليلاً على تقديره لها واعجابه بها . وقد عرفه روبيان في مطعم بشارع البلدية ذهب يتعشى فيه ذات يوم ، هنالك قصوا عليه قصة هذا الرجل وحدثوه عن حظه الحسن والسيء ولكن من غير دخول في التفاصيل فقطب روبيان وجهه : ان فريتاس « حطام » ومعاشرته لن تحمل إليه أي متعة شخصية لا ولن تجلب له الاعتبار والتقدير . لكن فريتاس لم يلبث أن أخذ على عاتقه تبديد هذا الشعور الاول من نفس روبيان : انه رجل لامع الذكاء ظريف حاضر البديهة يجيد رواية النوادر ، يحسب المرء حين يرى مرحه انه ينعم بايراد لا يقل عن خمسين قونت . وحين تحدث روبيان عن الازهار الجميلة التي يزدان بها بيته سأله أن يسمح له بزيارته ليراها لانه كان يعشق الازهار . فما هي إلا أيام حتى جاء الى بيت روبيان فعلا قائلاً انه يريد رؤية تلك الورودات الجميلة وانه لم يمكث الا

بضع دقائق ، ويرجو خاصة أن لا يزعج روبيـــان ان كان مشغولاً . وأرضى غرور روبيان كثيراً أن صاحبه ظل يتذكر الحديث الذي دار بينهما ، فـنزل الى الحديقة حيث وقف فريتاس منتظراً ، وأخذ يريه الوردات بنفسه ، فوصفها فريتاس بأنها رائعة ، حتى لقد بلغت حماسته في انعام النظر اليها أنه كان لا بد من انتزاعه انتزاعاً من كل شجرة من أشجار الورد لينتقل الى شجرة أخرى . كان يعرف اسم كل شجرة من هذه الاشجار ، بل لقد ذكر أنواعاً كثيرة منها كان روبيان يجهلها ويجهل وجودها ، وكان يصف هذه الانواع فيقول انها كيت وكيت وان حجمها كذا (مشيراً إلى الحجم بتدوير الابهام والسبابة) ، وكان يذكر أسماء الاشخاص الذين يملكون منها شجرات ممتازة ، غير ان وردات روبيان تعد من أجود الانواع ، فهذه مثلا هي من اندر الورد ، وكذلك تلك الاخرى .

وكان البستاني يصغي إليه دهشاً . حتى اذا انتهت الزيارة قال روبيان :

– تعال نشرب قليلا . ماذا تحب ان تشرب ؟

لم يرغب فريتاس في شيء بعينه ، لكنه مدح موقع البيت ، وأنعم النظر في تحف البرونز واللوحات والاثاث ، ثم نظر الى البحر وقال :

– حقاً انك لتعيش يا سيدي عيشة رجلٍ راقٍ .

فتبسم روبيان راضياً . أن لكلمة الرجل الراقي وقعاً جميلًا في أذنه ، حتى لو قيلت في معرض التشبيه ! ووصل الخادم الاسباني حاملًا صينية الفضة وعليها ألوان منتقاة من الاقداح وأنواع الشراب . انها للحظة ممتعة عند روبيان : قدم بنفسه الشراب لصاحبه ثم أوصاه بأن يذوق نوعاً من أنواعه قيل له أنه أفخرها جميعاً . فابتسم فريتاس ابتسامة من لايصدق وقال :

– لعل في هذا شيئاً من المبالغة .

وجرع جرعة وأخذ يتلمظ ببطء ليذوقهـا ، ثم جرع جرعة ثانية فثالثة ، فاعترف وقد ظهر في وجهه معنى النشوة بأن الشراب رائع حقاً . ترى أين عثر عليه روبيان ؟ فأجاب روبيان بأن أحد أصدقائه ، وهو صاحب متجر كبير

للخمور ، أهدى اليه زجاجة منه ، فبلغ من اعجابه به انه لم يلبث أن طلب منه ثلاث « دزينات » .

وما هي إلا فترات قصيرة حتى توثقت علاقـــات الصداقة بين الرجلين . واصبحت زيارات فريتاس لصاحبه على الغداء أو العشاء تزداد شيئاً بعد شيء ، حتى لقد ازدادت أكثر مما كان يقدر لهـــا أن تزداد ... هل من السهل على امرىء أن يقاوم رجلاً يحرص هذا الحرص كله على رؤية وجوه صديقة ، ويسعد بذلك هذه السعادة كلها ؟

٣٠

سأله روبيان ذات يوم :

– قل لي ياسيد فريتاس . . . هبني رغبت يومـــاً من الأيام في السفر إلى أوروبا ، فهل تصحبني ؟

– لا

– لماذا ؟

– لأن صداقتي لاتكون بغير استقلال ، وقد لانتفق على خطة الرحلة .

– آسف . انني اقدر ميلك الى المرح .

– أنت مخطىء ياسيدي ، ان وراء قناعي الضاحك لوجهاً حزيناً . ان ما اؤثره هو الخرائب والاطلال . فاذا سافرت الى اوروبا بدأت بزيارة خرائب اثينا ثم ذهبت الى المسرح لا شاهد تمثيلية « متسول الخرائب » ، وهي مأساة فظيعة ، ثم مضيت الى مجالس القضاء لأشهد المحاكمات التي تفصل في الافلاسات ، والتي نرى فيها رجالات دمرت ثرواتهم . . .

كان روبيان يضحك . انه يحب هذه الصراحة ويحب هذه الحرارة البليغة .

٣١

هل يرضي حبك للاطلاع ، ايها القارىء العزيز ، ان تعرف الآن نقيض

فريتاس ؟ انظر اذن الى الضيف الآخر الذي يتناول غــداءه مع الرجلين : كارولوس ماريا . اذا كان الاول يملك مزايا « الصراحة والحرارة البليغة » الـتي يقدرها روبيان تقديراً عظيماً ، فانه لمن الواضح ان الثاني هو نقيض ذلك تماماً . لن يدهشك اذن ان تراه يدخل الصالون بخطى بطيئة ، وفي وجهه فتور وكبرياء ، حتى انه ليأبى النظر الى فريتاس حين يقدم اليه . ان فريتاس الذي لعنه في سره بتودد ، لتأخره (فقد شارفت الساعة على الثانية عشرة) لم يلبث ان غمره بسيل من احط انواع عبارات التملق .

وتستطيع ان تدرك أيضاً ، أيها القارىء ، ان صاحبنا روبيان كان ، رغم ايثاره فريتاس ، يضمر لكارلوس ماريا احتراماً أعظم . لقد انتظره حتى الآن ، وهو مستعد لأن ينتظره حتى الغد ! لكن كارلوس ماريا كان لا يحترم واحداً من الرجلين لا روبيان ولا فريتاس !

ولننظر اليه من كثب : رجل قوي البنية صافي النظرة هادئها ، يدل ظاهره كله على الثقة بالنفس . يحس المرء حين ينظر اليه انه مسيطر على نفسه ، وانـه كذلك أكثر سيطرة على غيره انه ينظر الى كل شيء من عل ، وله ضحكة هي الى السخر أقرب منها الى المرح . هاهو ذا يجلس الى المائدة ، فيتنـاول شوكة وسكينة ، ويفض (فوطته) . انك تشعر عند كل حركة من حركاته شارة الشرف التي ينعم بها على صاحب البيت ، شارة شرف أو شارات من الشرف ، ذلك لأنه يتواضع فيتفضل بتناول الطعام على مائدته ، ولا يعامله كما يعامَلُ فلاح من غلاظ الفلاحين .

على ان الغداء انقضى في مرح رغم هذه الفروق بين الضيفين . وكان فريتاس يلتهم لقماً مضاعفة ، ولا يسمح لنفسه إلا بلحظات قصيرة من الهدنة . وسرّه أن اعترف في قرارة نفسه بانه لو بدأ الطعام في الموعد المضروب له (وهو الساعة الحادية عشرة) لما تلذذ به هذا التلذذ كله . لا شك ان المشرف على الغرق ما كان له أن يبتلع الطعام بسرعة أكبر من هذه السرعة ! وبعد عشر دقائق استطاع

ان يشرع في الكلام : انه الآن ابتسام كله ! واخـــذ ، وهو يفيض حركات واشارات ، يسرد في كثير من التدفق عدداً كبيراً من القصص الخفيفة والنوادر المضحكة . فكان كارلوس ماريا يستقبلها كلها تقريباً بجد عابس من قبيل الاستخفاف ، لذلك اصبح المسكين روبيان لا يجرؤ أن يضحك لها رغم انه كان يراها فكهة . وفي آخر الغداء بدأ كارلوس ماريا يتخلص من جموده قليلا ، وأصبح يتكلم ، حتى لقد قص على صاحبه بضع مغامرات غرامية كان قد سمع بها . وعندئـــذ سأله فريتاس على سبيل التملق ألا يستطيع أن يروي لهما بعض مغامراته الخاصة، فانفجر كارلوس ماريا ضاحكا وقال :

– يا له من دور تريدون لي أن أمثله !

فتكلم فريتاس قائلا انه لا يطلب اليه إشادةً وانما هو يسأله أن يسره وقائع. ولا ضير في هذا قطعاً ، وما من أحد يستطيع ان يفترض على كل حال ...

فقاطعه كارلوس ماريا موجهاً هذا السؤال الى صاحب البيت :

– أأنت راض عن اقامتك ببوتافوجو ؟

فعض فريتاس على شفتيه غيظاً من هذه المقاطعة ، ولعن الرجل في سره مرة أخرى ، وغاص في مقعده مغلق الوجه ، وأخذ ينظر الى صورة معلقة بالجدار. أجاب روبيان بأنه راض كل الرضى عن اقامته ببوتافوجو ، وان الشاطىء رائع حقاً . فقال كارلوس ماريا :

– لا شك في ان المنظر جميل ، لكنني لم استطع في حياتي ان اطيق الروائح التي تفوح هنا في بعض الاحيان .

وأضاف ملتفتاً إلى فريتاس :

– ما رأيك ؟

فاستقام فريتاس وأخذ يشرح رأيه ، فقال انهما كليهما على حق ، لكنه ألح خاصة على ان الشاطيء ساحر حقاً رغم كل شيء . ولم يدع لشيء من غيظه ولا انزعاجه ان يظهر اثناء كلامه ، حتى انه تلطف فلفت نظر كارلوس ماريا الى نثارة

من الفاكهة كانت قد تشبثت بشاربه .

ودقت الساعة الواحدة بعد الظهر حين شارف الغداء على الانتهاء . كان روبيان صامتاً ، يتذكر اطباق الطعام واحداً بعد واحد ، ويستعرض جميع مراحل هذه الوجبة ، ويرمق الاكوس الفارغة والفتات المتبعثر راضياً مسروراً ، ويرقب ما على المائدة من فوضى تؤذن بقرب احتساء القهوة . ومن حين الى آخر كان يلقي نظرة على الخادم الذي يرتدي ملابسه الرسمية . حتى لقد لاحظ كارلوس ماريا مغتبطاً أشد الاغتباط بعد اولى الانفاس التي نشقها من احدى لفائف السيجار التي قدمها اليه . وفي هذه اللحظة دخل الخادم يحمل سلة صغيرة مغطاة بمنديل رقيق مع رسالة وصلت الآن .

٣٢

سأل روبيان :

– من مرسل هذا كله ؟

– السيدة صوفيا .

كان روبيان لايعرف خطها بعد ، فهذه أول مرة تكتب فيها اليه . ما عسى أن يكون الخبر ؟ ان اصابعه ترتجف ، وفي وجهه يظهر الاضطراب الذي يهزه . وفيما هو يفض الرسالة ، رفع فريتاس المنديل الذي يغطي السلة ، دون تحرج ، فاذا السلة مملوءة بثمار الفراولة . وقرأ روبيان الرسالة منفعلا أشد الانفعال . وهذه هي بضعة الاسطر التي تضمنتها :

« أبعث اليك بهذه السلة الصغيرة من الفاكهة للغداء ، آملة ان تصلك في موعدها . يجب ان تأتي الينا هذا المساء حتما لتناول طعام العشاء . فذلك امر اصدره كرستيانو .

صديقتك المخلصة

« صوفيا »

سال روبيان وهو يطوي الرسالة :

– ما هي هذه الفاكهة ؟

– فراولة .

– وصلت بعد فوات الأوان . فراولة ؟

كذلك ردد الكلمة دون ان يعرف ماذا يقول .

قال له فريتاس ضاحكا ، بعد خروج الخادم :

– لا داعي الى الاحمرار يا صديقي العزيز . تلك أمور تقع كثيراً للعشاق ...

فقال روبيان وقد ازداد وجهه احمرار :

– للعشاق ؟ ولكن في وسعك أن تقرأ الرسالة ، فترى بنفسك أن ...

وكاد يمد الرسالة ، لكنه عدل عن ذلك ، ووضعها في جيبه . كان منفعلاً أشد الانفعال ، يتقاسمه الاضطراب والفرح في آن واحد .

قال له كارلوس ماريا :

– ليس في امكانك ان تنكر ان هذه الالتفاتة الرقيقة انما جاءت من شخص يحبك . ثم انه لا اعتراض على هـــذا ، فالحب قانون عام . واذا كانت امرأة متزوجة ، فليس يسعنا الا ان نحمد لك هذا التكتم ...

فقاطعه المضيف يقول :

– ناشدتك الله ، ارجوك .

فتابع كارلوس ماريا كلامه يقول :

أهي اذن أرمل ؟ سيان ... في هـذه الحالة ايضاً يحمـــد التكتم . اكبر خطيئة ، بعد الخطيئة نفسها ، إفشاؤها . ولو كنت مشرعاً لاقترحت ان يحرق جميع أولئك الذين يقترفون جريمة افشاء السر في هذه الامور ، ولقضيت بأن يجروا الى العذاب باحتفال كالإحتفال الذي كان وقفاً على متهمي محاكم التفتيش ، مع فرق واحد هو أن يلبسوا معطفـــاً مغطى بريش ببغاء بدلاً من قميص الكبريت .

وضحك فريتاس حتى كاد يختنق من الضحك ، وكان ينقر على المائدة من قبيل التصفيق ، فتمتم روبيان وقد امتقع لونه فجأة ، انهـــا ليست بالمتزوجة ولا هي بالأرمل .

فأجابه كارلوس ماريا :

– هي اذن فتاة ؟ فمتى يكون الزواج ؟ ما ينبغي لك أن تتردد فقد آن الأوان.

ثم أضاف وهو يتناول بأصابعه بعض الثمار :

– فراولة الخطوبة . أن لها شذى كشذى أزهار البرتقال .

أصبح لايعرف ماذا يقول . وانتهى آخر الأمر الى التراجع ، فقال ان الثمار قد بعثت بها اليه زوجة أحد أصدقائه . فغمز كارلوس ماريا بعينه . أما فريتاس فقال ان كل شيء قد اتضح الآن ، ففي البداية كان السر الذي يحيط بالسلة ، وكذلك طريقة ترتيب السلة ، وحتى مظهر الثمار التي بدا أنها ثمار « زانية » (قال ذلك ضاحكا) ، ذلك كله كان يطبع الأمر بطابع الخطيئة وبجـــافاة الاخلاق ، أما الآن فقد سويت المسألة .

واحتسى الصحب القهوة صافية ، ثم انتقلوا الى الصالون . ظل روبيان يبدو قلق البال رغم احتياطه . وبعد لحظة من تفكير ، قدر أن ظنون صاحبيه الاولى ترفع قدره وترضي غروره : أن تخون امرأة زوجهـا من أجله . حتى لقد انتهى الى الاعتقاد أنه أسرف في الدفاع عن نفسه بتلك الحرارة المفرطة . لقد كان في وسعه أن يعترف بأن الأمر أمر خاص حقاً ، ما دام لم يذكر أي اسم. على أنه من الممكن أن تكون حرارة انكاره قد تركت هي نفسها عند محدثيه شيئاً من الشك ، ومن الريبة ... ان هذا يعزيه ، وها هو ذا يبتسم .

نظر كارلوس ماريا الى ساعته . انها الثانية . يجب عليه ان ينصرف . شكره روبيان ألف مرة ومرة على تفضله بقبول الدعوة ، ورجاه أن لا يتـــأخر في تكرار الزيارة . أليس من الممتع أن يقضوا يوم الأحد من حين الى حـين في مثل هذه الاحاديث الودية ؟

صاح فريتاس وهو يقترب :

– فكرة عظيمة .

وكان قد دس نصف « دزينة » من لفائف السيجار في جيبه ، فهمس في اذن روبيان حين خرج :

– اخذت التذكار المعتاد . ستة أيام من المتعة ، متعة في كل يوم .

فقال له روبيان :

– خذ مزيداً .

فأجابـه :

– لا ... لكنني سأجيء لاخذ لفائف اخرى .

شيعها روبيان حتى الباب الحديدي . وحين سمـــع كونكاس بوربا أصواتهم هرع من آخر الحديقة ليحييهم في حماسة ، وليحيي مولاه خاصة . وقـــد اهتم الكلب بكارلوس ماريا ، حتى لقد أراد أن يلعق يـــده ، لكن صاحبنا سحبها مشمئزاً ، فلكز روبيان الكلب بقدمه ، فهرب الكلب معولاً . وافـــترق الاصحاب .

قال كارلوس ماريا لصاحبه فريتاس :

– الى أين أنت ذاهب ؟

فقدر فريتاس أن كارلوس ماريا ربما كان ذاهبـاً الى زيارة في نواحي سان كليمانت ، ولما كانت يحب اصطحابه أجابه بقوله :

– أنا ذاهب الى آخر الشاطىء .

فقال الآخر :

– أما أنا فألى الجهة الاخرى .

٣٣

بعد أن رآهما روبيان ينصرفان ، عاد الى الصالون وأخذ يقرأ بطاقة صوفيا

مرة ثانية . ان كل كلمة من كلمات هذه الرسالة غير المنتظرة سر" من الاسرار لكن التوقيع هو اعتراف حقاً . لقد ذيلت الرسالة بتوقيعها : « صوفيا » ، « صوفيا » فقط . لم تضف الى اسمها الشخصي أي اسم . أما قولها : « صديقتك المخلصة » فهو مجاز ولا شك . وأما الكلمات الأولى : « أبعث إليك بهذه السلة الصغيرة من الفاكهة للغداء » ... فهي تدل على براءة نفسها الطيبة الكريمة ؟ لقد رأى روبيان هذا كله ، وأحسه بغريزته . وفجأة وجد نفسه يقبل الورقة ، بل لقد أخطأت التعبير ... وجد نفسه يقبل الاسم ، الاسم الذي سميت به عند تعميدها ، الاسم الذي نادتها به أمها مراراً ثم انتقل الى زوجها رمزاً الى عقد الزواج ، ثم طار الآن من جميع هؤلاء الذين ملكوه الى حين ليجيء اليه ، اليه هو ، هو روبيان ، في ذيل صفحة من الورق .. صوفيا . صوفيا . صوفيا.

٣٤

– لماذا تأخرت هذا التأخر كله ؟

كذلك سألته صوفيا عندما ظهر على باب الحديقة في سانتاتيريزا .

– لم ينته الغداء إلا في الساعة الثانية ، وبعد الغداء قمت بترتيب بعض الاوراق . ثم انني لم أتأخر كثيراً (أضاف ذلك وهو ينظر الى ساعته) والساعة تكاد لا تبلغ إلا الرابعة والنصف

قالت صوفيا وهي تظهر العتب :

– الاصدقاء يصلون متأخرين دائماً .

فشعر روبيان بأنه مذنب ، لكن وقته لم يتسع حتى للاعتذار . فأمامه ، قرب المنزل ، اربع سيدات جالسات على مقاعد من حديد ، ينظرن اليه نظرة غريبة وهن صامتات . انهن مدعوات صوفيا ينتظرن بفارغ الصبر وصول الثري الشهير روبيان . فقدمته صوفيا اليهن . ان ثلاثاً منهن متزوجات اما الرابعة فهي فتاة أو قل هي عانس ، لها من العمر تسعة وثلاثون عاماً ، ولها عينان سوداوان

أتعبها الانتظار . انها ابنة ضابط برتبة ماجور يقال له سيكويرا ، لم يلبث أن ظهر في الحديقة .

قال الماجور لروبيان منذ قدم اليه :

– ان صديقي باليا قد حدثني عنك سابقاً . وفي وسعي أن أؤكد انه نعم الصديق لك . لقد قص علي قصة المصادفة التي وثقت عرى الصداقة بينكما . خير الصداقات في بعض الاحيان صداقة تقوم مصادفة . اليك هذا المثال : في عام ١٨٣٠ ، قبل عهد الوصاية بقليل ، تعرفت بصديقي الذي أصبح أعز أصدقائي حينذاك ، بمصادفة تشبة هذه المصادفة كل الشبه . تم ذلك في صيدلية برناردس الذي كان يلقب بـ « حنا ذي الربلتين الضخمتين » ... يخيل الي انه كان في شبابه بين عام ١٨٠١ و ١٨١٢ يضع لساقيه ربلتين اصطناعيتين . لقد بقي له اللقب على كل حال . الصيدلية في شارع سان جوزه ، عند زاوية شارع الميزيريكورد ... حنا ذو الربلتين الضخمتين .. وانت تعلم أن الربلة الاصطناعية تجمل حقاً منظر الساق ... اسمه الحقيقي برناردس ، حنا آلفس برناردس ... وصيدليته في شارع سان جوزه ... وهو مكان كنا نلتقي فيه لنتحدث ونتناقش حتى ساعات متأخرة من الليل . كنا نذهب مرتدين المعاطف ، حاملين العصي ، حتى لقد كان بعضنا يحمل فوانيس . أما أنا فلا ... كنت أرتدي معطفاً فحسب ... كنا نذهب الى هنالك لابسين المعاطف . وبرناردس – أقصد آلفس برناردس ؛ فذلك هو اسمه – أصله من ماريكا ، لكنه نشأ هنا في ريو ... ، حنا ذو الربلتين ، الضخمتين ، ذلك هو لقبه . يقال انه كان في شبابه يضع ربلتين اصطناعيتين ، اذ كان من فتيان المدينة الأنيقين . لقد ظللت أتذكره زمناً طويلا ... حنا ذو الربلتين الضخمتين ... كنا نذهب الى هنالك لابسين المعاطف ...

غرق روبيان تحت هذا السيل من الكلام . لكنه وقد وقع في الفخ ، لا يرى مخرجاً يفر منه . ان الماجور يحاصره من كل جهة . ليس هناك أي باب للخروج واستمر سيل الكلام ينهمر إلى غير نهاية . لو استطاع روبيان ان

يلقي نظرة على جهة السيدات لسره على الأقل أن يلاحظ انه كان موضـــع استطلاعهن جميعاً ، وانه يلفت نظر تونيكا ابنة الماجور بوجه خاص . لكنه لم يستطع حتى ذلك ، والماجور لا يلوح عليه انه سيقطع هذا السبيل المنهمر ، ماذا اقول ؟ بل هذا البحر المصطخب . وجاء اخيراً باليا يحمل اليه قارب نجاة ... كانت صوفيـا قـد ذهبت تقول لزوجهـا ان روبيان وصل ، فنزل باليا الى الحديقة بسرعة ليحيي صديقه ويقول له : « تأخرت كثيراً » . كان الماجور قد شرع عندئذ في سرد قصة لقب الصيدلي من اولها ، فترك فريسته ومضى يلتحق بحلقة السيدات . وخرج بعد قليل .

٣٥

لا شك في أن هؤلاء السيدات المتزوجات جميلات . وحتى العانس منهن لم تكن دميمة ، في الخامسة والعشرين من سنها . لكن صوفيا قد كسفتهن جميعاً .

والحق ان هذه المرأة ليست بالمرأة التي لا تضارع ، كما كان يتراءى لصاحبنا ، لكنها كانت في الواقع جميلة جداً . انها واحدة من تلك النساء اللواتي يصقلهن الزمن ببطء يوماً بعد يوم ، كنحات دقيق ، فاذا هن تحف جميلة حقـاً . ان صوفيا توشك ان تتم الثامنة والعشرين من عمرها ، وهي الآن أجمل ممـا كانت في السابعة والعشرين . وفي وسعنا أن نفرض انها ستبلغ الثلاثين قبل ان يفرغ النحات من لمساته الاخيرة ، هذا اذا لم يشأ ان يستمر في عمله سنتين أو ثلاث سنين أيضاً .

ان عينيها مثلا قد تبدلتا الآن عما كانتا عليه اثناء تلك السفرة التي كانت يبدو خلالهـا أنها تتابعان الحديث بين روبيان وباليـــا . لقد اصبحتـا احلك سواداً ، وهما لا تتابعان الآن شيئاً ، حتى انـه ليخيل الى النـاظر اليهما انهما هما اللتان تتحدثان ، و يالحديثهما ماأبلغه ! وفمها أصبح يبدو أنضر نضارة وأطرى طراوة ؛ وكتفاها وذراعاها ويداها قد ازدادت رشاقة ، ويزيد رشاقتها ما تقوم به من

حركات مدروسة واشارات مقصودة . وحتى تكاثف حاجبيها — وهو ما كانت تضيق به صوفيا وتكرهه . وما وجده روبيان نفسه لاينسجم وسائر وجهها — كان وان لم يقل عن حاله السابقة يسهم في اسباغ هذا الطابع الخاص على وجهها.

كانت صوفيا في ذلك المساء ترتدي أبهى حلة . لقد شدت صدرها وخصرها بقميص صغير من الصوف بندقي اللون ، قميص بسيط ، لكنه أنيق . وفي أذنيها قرطان من اللؤلؤ الطبيعي ، كان روبيان قد أهداهما اليها في عيد الفصح .

ان هذه المرأة الشابة هي ابنة موظف عجوز من موظفي الدولة ، تزوجت في العشرين من عمرها كرستيانو دي ألميدا أي باليـــا الذي كان يعمل وسيطاً تجارياً وكان في الخامسة والعشرين من عمره . ان باليا يحسن كسب رزقه ، فهو امرؤ نشيط بارع ، وذو ادراك قوي للأعمال ، حتى لقد استطاع في عام ١٨٦٤ ، رغم قلة خبرته ، أن يشم — ليس هنالك كلمة اخرى نستعملها في هذا المقام — نعم ، أن يشم الافلاس الصرفي الذي كان يتهيأ ، وقال لنفسه : سيحدث شيء في يوم قريب أو بعيد ، فالوضع معلق بخيط راهن ، وعند أول صرخة تنذر بالخطر سينهار كل شيء .

لكن عيبه هو أنه كان ينفق أكثر مما يكسب . انه يحب الترف حبـــاً شديداً . فايراداته ، ما حصّله منها وما سيحصله ، كانت تتبخر حفلات وأثواباً أو حلياً لزوجته ، ومقتنيات كثيرة الانواع يشتريها راضياً لتزيين بيته ، وخاصة اذا كانت على آخر زيّ أو كانت مبتكرات حديثة . وكان في مقابل ذلك مقتراً على نفسه بعض التقتير ، الا فيما يتصل بالطعام . وكان يرتاد المسرح كثيراً رغم أنه لا يحبه حباً خاصاً ، فهو لايملّ حفلات الرقص مثلما يمل المسرح . والحق انه كان لايكثر من الخروج استمتاعاً بالخروج ، وانما يخرج ليطلع الناس على جمال عيني زوجته ، على جمال عينيها وجمال صدرها . لقد كان في الواقع محباً للظهور حباً غريباً : كان يلبس زوجته أثواباً عارية النحور حتى يستطيع جميع الناس أن يحسدوه على حظه . فهو من

هذه الناحية شبيه بالملك كاندول (١) ، لكنه أكثر احتشاماً من بعض النواحي ، واكثر صخباً من نواح أخرى .

ويجب هنا أن ننصف المرأة الشابة . انها لم تستكن لنزوة زوجها في اول الامر الا على مضض . لكنها بلغت من اثارة الاعجاب بها انها اصبحت في آخر الامر تحب عرض مفاتنها لتسعد برؤيتها انظار الناظرين (وما اسرع ما تصبح العادة طبيعة ثانية) . يجب ان ننصفها فما نصورهـا خيراً مما هي ولا شراً . لا شك أن حب الظهور عندها كان يمكن أن يكتفي باظهار عينيها الضاحكتين ، المثيرتين ، الجذابتين ، الجذابتين وكفى ، فكأنها اللافتة المعلقة على باب فندق حجراته كلها مشغولة .. فالناس تتمهل امام جمال اللافتـة — تتمهل وتتأمل ثم تمضي . كان حسبها هذا ، وما من شيء يوجب عليهـــا ان تعرض المزيد من مفاتنها ومع ذلك استسلمت لارادة زوجها . غير أن باب الفندق — اذا صح أن نطلق هذا الاسم على قلبها ، قد ظل مغلقاً ، بل ظل محكم الاغلاق .

٣٦

قال روبيان لنفسه . « ما اجملها يارب . انني لأحس بان من الممكن أن ارتكب فضيحة » .

هبط الليل ، وصاحبنا مسند ظهره الى احدى النوافذ ينظر الى صوفيـا ، وصوفيا تنظر اليه .

كان هنالك سيدة تغني . ان ازواج السيدات الثلاث قد قطعوا لعبهم بالورق وجاءوا الى الصالون بضع لحظات ينصتون الى غناء المغنية التي هي زوجة احدهم . وكان باليا يرافق غناء المغنيـة بالعزف على البيانو ، لذلك لم يستطع أن يرى النظرات المتبادلة بين زوجته وصاحبه الثري . لست ادري هل كان هنـــالك

(١) الملك كاندول ، ملك (ليديا) كان يحب ان يعرض زوجته على نديمه سافرة ، فأحبت هذا النديم واتفقت معه على قتل زوجها (المعرب)

اشخاص آخرون أيضاً . لكن ما اعلمه على كل حال هو أن هناك شخصاً لاحظ سلوكها ملاحظة كاملة : وهذا الشخص هو تونيكا بنت الماجور .

وظل روبيان يردد لنفسه قوله . « ما أجملها يا رب . اني لأحس بأن من الممكن أن ارتكب فضيحة » . ظل يردد لنفسه قوله هذا ، وهو ما يزال مسنداً ظهره الى النافذة ، محدقاً الى المرأة الشابة التي ما انقطعت هي ايضاً عن التحديق اليه .

٣٧

لا يستغرب المرء أن تلاحظ تونيكا نظراتها المتبادلة ، ذلك أنها لم يكن لها من هم منذ وصول روبيان الا أن تلفت نظره اليها . ومن اجل ذلك كانت عيناها البائستان — عيناها اللتان عمرهما تسع وثلاثون سنة ، اللتان لم تستطيعا حتى الآن أن تجدا رفيقتين ، اللتان كانتا تدلفان من التعب الى اليأس — قد استردتا بعض الالتماع . ويجب ان نذكر أن التجربة الطويلة قد علمت تونيكا كيف تستعمل عينيها وكيف تسبغ عليها حين الحاجة كل ما يشتهى من العيون الناعسة . فكان من السهل عليها ان تعدهما لمهاجمة صاحبنا الثري .

ورغم ان قلبها قد اصيب بخيبات كثيرة ، فقد اخذ يخفق مرة اخرى . شيء ما قال لها ان السماء ارسلت اليها هذا الثري الريفي حلا لمشكلة زواجها . والحق انه غني اكثر مما كانت تتمنى من غنى . انها لم تكن تطلب الغنى . انها لم تكن تطلب الا زوجاً . وقد قامت بجميع حملاتها الزواجية دون ان تقيم وزناً للاعتبارات المالية . وقد قلّت مطامعها كثيراً منذ بعض الوقت . حتى أن آخر حملاتها كانت مطاردة لطالب صغير فقير !

ولكن من يدري لعل السماء قد كتبت لها ان يكون زوجها رجلا غنياً . كانت تونيكا تؤمن بسيدتها العذراء ، عذراء الجبل بلا دنس . واخذت تطوق القلعة بحنكة وشجاعة .

قالت في نفسها : « الاخريات متزوجات جميعاً » .

ولم تلبث ان لاحظت ان نظرات روبيان وصوفيـا لا تفترق . ولاحظت مع ذلك ان نظرات صوفيا اقل من نظرات روبيان واقصر ، وبدا لها أن مرد ذلك بطبيعة الحـــال الى ما يقتضيه الظرف من احتياطـات . ربمـا كانا عشيقين .. وأحزنتها هذه الفكرة . لكن الامل انتصر . اذ بين لها ان الرجل بعد ان يقوم بتجربة عاطفية أو عدة تجارب عاطفية ينتهي دائمـاً الى الزواج . والمشكلة اذن انما هي الوصول الى الاستيلاء عليه فاذا اراد ان يتزوج وان يبني اسرة تولى هذا الميل قتل كل ميل آخر في نفسه ، هذا إذا صح ان في نفسه ميلًا آخر .

وها هي ذي تضاعف جهودها حاشدة كل مفاتنها من تحريك المروحـــة امام وجهها في خفة ورشاقة ، الى ارتعاش الشفتين . الى غمزات العينين ، الى المشي جيئة وذهاباً اظهاراً لأناقة الجسم وجمال القد . انها لم تدخر من ذلك كله شيئاً . وهذه هي الخطة القديمة التي كانت تستعملها دائماً . ولئن لم تنجـح حتى الآن فلا ضير ! أليس هذا هو المبدأ الذي يقوم عليه (اليانصيب) ؟ ان يوم الربح يعوض كل الخسارات الماضية ويزيد ...

ولكن حين أخذت السيدة تغني لاحظت تونيكا كيف أن روبيان وصوفيـا يشرب كل منهما الآخر بنظراته شرباً ، فاختفت شكوكها وأيقنت ان الامر ليس أمر لفتات عارضة طارئة . وانما هو تأمل حقيقي يـذهل البصر عن سائر ما في الوجود . وعندئذ ترجع في أذنيهـــا ذلك الصوت الحزين ، صوت نعيق الغراب الذي ينعى كل أمل : انتهى الى الابد(١) .

وظلت مع ذلك تناضل فظفرت بجلوس روبيان الى جانبها بضع دقائق وحاولت أن تتمتم له ببضع عبارات جميلة تذكرت انها قرأتها في احـدى الروايات ، أو

(١) بالانجليزية في الاصل ، والعبارة من قصيدة لادجار آلان بو عنوانها « الغراب » (المترجم)

اوحى إليها بها ما في الظرف من حزن وكآبة ، فكان روبيان يصغي ويجيب، لكنه لا ينقطع عن مراقبة صوفيا ، ويقلق حين تترك الصالون أو حين تعود اليه ؛ حتى لقد جاوز ذهوله الحدود في احدى المرات : كانت تونيكا تعترف له بانها تتمنى ان تعرف ولاية ميناس ومدينة بارباسينا خاصة ، فكيف المناخ هنالك ؟ فلم يزد على ان ردد ترديداً آلياً :

– المناخ !

لقد كان ينظر الى صوفيا التي كانت واقفة أمامه مديرة اليه ظهرها ، تتحدث الى سيدتين جالستين .. انه يتأمل جمال قولها وحركة جسمها المنتصب انتصاب باقة من الازهار منبجسة من آنية . ان رأسها أشبه بزهرة مانجوليا لا نظير لها ، قد غرست قائمة في وسط الباقة . ذلك ما كان روبيان يتأمله حين سألته تونيكا عن مناخ بارباسينا ، فلم يزد على أن ردد كلمتها ترديداً لا يشتمل حتى على لهجة الاستفهام .

٣٨

عزم روبيان أمره . لم يبد له في يوم من الايام أن قلب صوفيا يدعو قلبه بمثل هذه اللجاجة الى السير معه في طريق من التخفي لا يرجع منه المرء عامة الا وقد هرم وانطفأت حرارته . بعض الناس لا يرجعون أبداً . وآخرون يتوقفون في منتصف الطريق . وكثيرون لا يتجاوزون حتى عتبة الباب !

٣٩

كان القمر رائعاً . وهناك ، على الهضبة ، بين الارض والسماء ، تشعر النفس ، مهما تكن قليلة الجرأة ، انها قادرة على أن تواجه جيشاً عدواً فتفنيه ، فكيف والجيش حليف ؟ كانت صوفيا قد أعطت روبيان ذراعها ليمضيا الى الحديقة ويريا ضوء القمر . وقد دعت تونيكا الى مرافقتهما فأجابت الفتاة المسكينة

بان قدمها موجعة ، وانها ستلحق بها بعد قليل . ولكنها لم تفعل .

ظل الاثنان صامتين بعض الوقت . ومن النوافذ المفتوحة كان الاشخـــاص الآخرون يرون يتحدثون ، وفيهم الرجال الذين انقطعوا عن اللعب بالورق . الحديقة صغيرة ، لكن سلم درجات الصوت الانساني يتيح لهما أن يتبادلا كلمات جميلة دون أن يسمع حديثهما احد .

وتذكر روبيان ، على حين فجأة ، تشبيهاً قديماً جداً ، مستمداً من قصيدة من قصائد عام ١٨٥٠ ، هذا إذا لم يكن شائعاً في أي نثر من أي زمان : عيناك نجوم الارض ، والنجوم عيون السماء . كذلك قال لهـــا بصوت خافت مرتعش .

دهشت صوفيا أشد الدهشة . واذا بجسمها الذي كانت إلى ذلك الحين تسنده كله إلى ذراع روبيان يتصلب فجأة ... لقد اعتادت أن ترى صاحبنا قبل ذلك خجولاً ... النجوم ؟ العيون ؟ وأرادت أن لا يمزح هذا المزاح ، لكنها لم تعرف كيف تدبر جوابها بحيث لا تدحض قناعة تشارك فيها ، ولا تشجعه مع ذلك على الاسترسال . ومن ثم خيم صمت طويل .

تابع روبيان يقول :

– مع فرق واحد ، هو أن النجوم أقل جمالا من عينيك . ولكن ما هي النجوم في حقيقة الامر ؟ لئن جعلها الله عالية هذا العلو كله فربما كان ذلك لأنها تفقد كثيراً من بريقهـا اذا هي رئيت من قرب أما عيناك فلا . انهما على قربهما مني هذا القرب كله ، تظلان واسعتين ، متلألئتين ، بل تظلان أشد تلألؤاً من السماء .

ان روبيان يبدو لها الآن بفصاحته وجرأته مختلفاً كل الاختلاف عن عهدها به . ولم يتوقف روبيان عن الكلام ، بل تابع حديثه حول هـذا الموضوع نفسه . انه ليس غنياً بالأفكار والموقف رغم ماطرأ على صاحبنا من تبـدل ، خليق بأن يُنضب معين افكاره بدلا من أن يوحي اليه بأفكار جديدة . وكانت

صوفيا لا تدري ماذا تفعل . لقد جاءت الى الحديقة في صحبة حمل وديع هادىء ، فاذا هي الآن مع ذئب شره يتضور جوعاً .

كان لابد من أن ترد بشيء ما ، أن تضطره الى السكوت ، أن تقول له انه يسير في طريق لا تحب أن تسير فيه ، ولكن على ان لا تغضبه وأن لا تطرده .... وبحثت صوفيا عن مخرج ، لكنها لم تجد مخرجاً ، لأنها كانت تصطدم دائماً بهذا السؤال الذي لم تعثر له على حل . أتتظاهر بأنها فهمت ، أم تتجاهل ذلك ؟ وتذكرت عندئذ اللفتات اللطيفة والكلمات الرقيقة التي بذلتها لروبيان ، وتذكرت العناية الخاصة التي أحاطته بها . انه لمن المستحيل اذن ان تتظاهر بأنها تجهل معنى هذه العبارات الغزلية التي يقولها . ولكن كيف تعترف بأنها فهمتها ثم لا تطرده فوراً ؟ تلك هي المشكلة .

كأن النجوم في اعلى السماء كانت تضحك من هذا الموقف المعقد .

اما ان القمر رآهما ، فلا ضير .. ان القمر يجهل فن الهزء والسخر . والشعراء الذين يجدونه حزيناً كاسف البال يدركون أنه كان ذات يوم عشيق احدى النجوم الشاردة ، وان عشيقته قد هجرته بعد بضعة قرون . ومن يدري ؟ لعلهما مايزالان عشيقين ، ولعل الخسوف (واغفروا لي جهلي بعلم الفلك) ان لا يكون الا موعد غرام ، ولعل الاسطورة التي تروي ان ديانا هبطت الى الارض لتلقى أنديميون أن تكون اذن صادقة . ولكن لماذا هبطت الى الأرض ؟ أي ضير في أن يلتقي العشيقان في السماء نفسها ، كما تلتقي الجداجد هنا على الأرض بين اوراق الشجر ؟ ان الليل يتولى ستر كل شيء بغلالته الكريمة .

ثم ان القمر وحيد ، والوحدة تحمل صاحبها على الجد . ولا كذلك جمهرة النجوم انها اشبه بعصابة من الفتيات الجميلات الفرحات المهذارات ، يضحكن ويتحدثن بصوت واحد معاً عن جميع الاشياء وجميع الناس .

لست أنكر انهن عفيفات . ولكن ذلك يكون عندئذ أسوأ وأنكى ،

فهن يضحكن اذن دون أن يفهمن .. النجوم العفيفات .. ذلك هو الاسم الذي يطلقه عليهن عطيل الرهيب وتريسترام شاندي المرح ، كلاهما . ان المرء لا يستطيع ان يتخيل رجلين يبلغ التعارض بينهما في القلب وفي العقل على السواء ، ما يبلغه التعارض بين هذين الرجلين . ومع ذلك نراهما يتفقان في هذا الأمر ، وهو انهما كليهما يصفان النجوم بالعفة . وهذه النجوم العفيفات تسمع الآن كل شيء ، تسمع كل ما تجاسر فم روبيان المتهور على أن يلقيه في اذن صوفيا المبهورة . ان اقل ما اصبح من الممكن أن يوصف به صديقنا الخجول (يا أيتها النجوم العفيفات !) هو انه متحلل . الا نستطيع ان نقول انه « ابليس » نفسه ، حاول ان يخدع المرأة الشابة بجناحيه الملائكيين اللذين وهبهما له الله ، ثم اذا به يخفيهما فجأة في جيبه ، ويتعرى ليظهر قرنيه الخبيثين فوق قمة رأسه ؟ انه وهو يضحك ، انه وهو يضحك تلك الضحكة المواربة التي يصطنعها الخبثاء ، يعرض عليها في آخر الامر لا ان يشتري روحها فحسب ، بل ان يشتري جسدها أيضاً .. يا ايتها النجوم العفيفات !

٤١

تمتمت صوفيا تقول :

— فلنعد .

وقد أرادت ان تسحب ذراعها ، لكن روبيان أمسك بها . لا .. لماذا نعود ؟ نحن هنا مرتاحان ، مرتاحان جداً .. أين يمكن أن يتوافر لنا من الراحة ما يتوافر هنا ؟ أم تراني أضايقك ؟ فأجابت صوفيا بانه لا يضايقها ، بالعكس .. ولكن عليها أن تعود الى الصالون لتعنى بضيوفها .. انهم هناك منذ مدة طويلة .

— منذ اقل من عشر دقائق . ما عشر دقائق ؟

— ولكن قد يلاحظون غيابنا .

ارتعش روبيان حين سمع كلمة « غيابنا » .. غيابنا « نحن » ... ورأى في ذلك بداية تواطؤ . ربما لاحظوا « غيابنا » حقاً . انها على حق . يجب

أن يفترقا . لكنه يريد أن يسألها شيئاً واحداً ، بل شيئين . الاول هو أن لاتنسى هذه الدقائق العشر الرائعة مدى الحياة ، والثاني هو أن تنظر كل يوم ، متى هبط المساء ، الى « صليب الجنوب » ، لانه سيفعل ذلك هو أيضاً ، فتتصل روحاهما عندئذ اتصالاً حميماً بين الله والبشر .

كان هذا الرجاء شعرياً ، لكنه كان وحده كذلك فلقد كان روبيان ، وهو يشد على المرأة الشابة ليمنعها من الذهاب ، يرشقها بنظرة ملتهمة ، فلا حركته ولا نظرته تشتمل على أي أثر من شعر . وأوشكت صوفيا ، أن توجه اليه كلمة حادة ، لكنها تذكرت أن روبيان صديق وفيّ للاسرة فصمتت . وأرادت أن تضحك ، لكنها لم تستطع ذلك ، فحرنت في أول الأمر ، ثم أذعنت ، ثم توسلت وتضرعت . تضرعت اليه باسم أمه التي لاشك أنها في السماء ... لكن روبيان لم يعبأ بالسماء ، ولا بأمه ، ولا بشيء . وكان يمكن أن يقرأ المرء في وجهه قوله : ما السماء ؟ ما أمي ؟

دمدمت المرأة الشابة تقول بصوت خافت :

– آي ... حطمت أصابعي .

وعندئذ أخذ روبيان يثوب إلى صوابه ، فخفف الضغط على أصابعها لكنه لم يتركها . قال لها :

– طيب ...اذهبي ، ولكن يجب أولاً ...

ومال ليقبل يدها فاذا هو يسمع صوتاً قريباً يرده إلى الاحساس بالواقع رداً كاملًا .

٤٢

– هيه ! تتأملان جمال ضوء القمر ؟ انه رائع ، أليس كذلك ! ليلة خلقت للعشاق .... حقاً إنه رائع .. لم أر ليلة كهذه الليلة منذ زمن بعيد .. انظرا ماأجمل الأنوار تحت .. انها رائعة والهية ... مثل أعلى للعشاق ... العشاق يحبون دائماً ضوء القمر ... في زماني ، بمدينة ايكاراهي ...

انه الماجور الرهيب سيكوبرا . لم يعرف روبيان ماذا يقول . حتى اذا انقضت لحظات الدهشة الاولى استعادت صوفيا روعها ، فقالت ان الليلة جميلة حقاً ، وأضافت أن روبيان يصر على القول ان ليالي ربو لا يمكن أن تضاهي ليالي بارباسينا ، وقد قص في هذه المناسبة نادرة عن كاهن يقال له ماندس ... اسمه ماندس . أليس كذلك ؟

فدمدم روبيان يقول :

– ماندس ، نعم ، الكاهن ماندس .

لم يكن في وسع الماجور ان يخفي دهشته . فانه قد رآهما بأم عينه وقد تماسكت يداهما ومال روبيان عليها برأسه قليلاً ، ورأى انتفاضتها حين وصل الى الحديقة ، فكيف يزعمان انهما كانا يتحدثان عن كاهن اسمه ماندس ؟ ونظر الى صوفيا فلم ير الا وجهاً ضاحكاً هادئاً لا سبيل للاضطرابات اليه ... لا أثر لخوف أو انزعاج . انها لتتحدث في انطلاق عفوي ... جعل الماجور يقول لنفسه : لعلني قد أسأت الرؤية . لكن روبيان أفسد كل شيء . انه منزعج صامت ، لم يزد على أن اخرج ساعته فقربها من اذنه كأنها متعطلة ، ثم مسحها بمنديله مسحاً خفيفاً من دون أن ينظر إلى صوفيا ولا الى الماجور .

– استمرا في الحديث ... أما انا فعلي أن اذهب لأرى صديقاتي . لا استطيع ان ادعهن وحدهن . هل انتهى الرجال من لعبهم المنحوس ؟

فقال الضابط وهو ينظر الى صوفيا نظرة غريبة :

– نعم لقد انتهوا . حتى انهم سألوا عن السيد أين هو . ومن اجل ذلك جئت الى هنا عسى أن أجده في الحديقة . أأنتما هنا منذ مدة طويلة ؟

قالت صوفيا :

– بل منذ لحظة

ثم تركتها واتجهت نحو البيت بعد أن ربتت على كتف الماجور في مودة

وحرصت على ان تتحاشى الدخول من باب الصالون ، فدخلت من باب غرفة الطعام ، بحيث انها اذا لحقت بضيوفها ، ظنوا كانت أثناء هذه الغيبة تأمر الخدم بتهيئة الشاي .

واسترد روبيان صوابه ، لكنه مازال لا يجد ما يقول . وكان لزاماً عليه مع ذلك أن يقول شيئاً ما . نادرة الكاهن ماندس فكرة طيبة . لكن الصعوبة هي انه ليس هناك كاهن ولا نادرة . واحس انه عاجز عن أن يلفق أي شي . فاكتفى بأن دمدم قائلا :

– ها . . نعم ... الأب ماندس . حقاً لقد كان رجلا فكها هذا الكاهن ماندس .

قال الماجور وهو يبتسم :

– أنا أعرف هذا الكاهن . الكاهن ماندس ! أعرفه تمام المعرفة . رحمه الله . هل مكث في ولاية ميناس بعض الوقت ؟

دمدم الآخر مبهوتاً :

– أظن ذلك .

– أصله من ساكواريا . كانت تنقصه هذه العين (قال الماجور ذلك وهو يسدد اصبعه الى عينه اليسرى) . اذا كان هذا هو ، فانني أعرفه تمام المعرفة . أم لعل الذي ذكرتماه شخص آخر ؟

– جائز جداً .

– رحمه الله . كان رجلا لا مأخذ عليه ، لكنه كان يحب رؤية النساء الجميلات ، كما يحب المرء أن يتأمل لوحة جميلة لرسام كبير . وأي رسام كبير يمكن ان يقارن بالصانع الأعظم ؟ أنظر مثلا الى السيدة صوفيا . كان لا يصادفها في الشارع مرة الا ويقول لي بعد ذلك : التقيت اليوم بزوجة باليا الجميلة ... رحمة الله عليه . انه من ساكواريا ... ولا شك في انه كان على جانب كبير من حسن الذوق ... ان امرأة صديقنا باليا رائعة حقاً ، رائعة الوجه ، رائعة

الجسم ، بل انني لأراهـــا أقرب إلى حسن التكوين منها الى الجمال بالمعنى الاصلي .. ما رأيك ؟ .

اجاب روبيان :

ــ نعم ، ربما كنت على حق .

فاضاف الماجور وهو يشعل لفافة سيجار :

ــ زد على ذلك انها لطيفة وربة بيت ممتازة .

ان نور الثقاب قد بسط على وجه الماجور تعبيراً وحشياً ، أو تعبيراً عدائياً في اقل تقدير . وشعر روبيان بقشعريرة تسري في ظهره . ترى هل سمع الماجور شيئاً ؟ هل رأى شيئاً ؟ أم أنه حزر ؟ هل روبيان امام شخص متكتم ، أم هو امام شخص خبيث متآمر ؟ ان وجه الرجل موصد لا يمكن النفاذ اليه . ومهما يكن من امر فخير لروبيان ان يتوقع ما هو شر . ولو رأيت بطلنا على ذلك الوضع الحزين ، لحسبته واحداً من أولئك الملاحين الحذرين الذين ظلوا سنوات طويلة يبحرون على محاذاة الشواطىء فاذا هم يجدون أنفسهم ذات يوم وسط الامواج في عرض البحر . ومن حسن الحظ ان الخوف يوحي الى صاحبه ببعض الافكار في كثير من الاحيان . فها هو ذا روبيان يخطر بباله فجأة ان يتملق صاحبه ، فقال في غير تردد انه يجده شخصاً محبباً الى القلب كثيراً ، وانـــه يضع منزله الواقع على شاطىء بوتافوجو ، رقم كذا ، تحت تصرفه ، وانه يشرفه كثيراً ان تنعقد بينهما الصلات ، فليس له في ريو دو جانيرو الا عدد قليل من الاصدقاء : باليا الذي غمره بلطفه والسيدة صوفيا الكريمة المهذبة ، وثلاثة أشخاص آخرين أو أربعة . انه يعيش وحيداً ، وربما عاد الى ميناس .

ــ فوراً .

ــ لا .. لن أعود فوراً ، ولكن ربما عدت قريباً . انك لتعرف أن من عاش حياته كلها في مكان ما يصعب عليه كثيراً أن يألف الحياة في مكان آخر .

ــ هذا يختلف باختلاف الافراد والظروف .

– صحيح ... انه يختلف ، لكنه هو القاعدة العامة .

– ربما كان هو القاعدة العامة ، لكنك ستكون أنت الاستثناء من القاعدة. ان ريو مدينة شيطانية . فالمرء هنا يقع في الحب بسرعة كسرعة التقاطه الزكام. ولن تمضي لحظات حتى يجيء دورك . أراهن أنك ستصبح رجلاً متزوجاً قبل ان تنقضي ستة اشهر .

قال روبيان لنفسه : « اذن لم ير شيئاً » .

وأردف يقول فرحاً أشد الفرح :

– ربما ... ولكن في وسع المرء ايضاً ان يتزوج بميناس ... لا يعوزنا هناك كهنة .

فأجاب الماجور ضاحكا :

– ولكن يعوزكم هناك الكاهن ماندس .

فابتسم روبيان وقد لاح في وجهه الانزعاج ، وتساءل هل تضمر كلمات الماجور شيئاً من الغمز أم هي لا تضمر شيئاً من ذلك . ومن حسن الحظ أن الماجور استلم زمام الحديث وأخذ يتكلم في أمور لا أول لها ولا آخر . تكلم على الجو ، على المدينة ، وعلى الوزارة ، والحرب ، وعلى المارشال لوبيز ، وعلى غير ذلك ايضاً . . . لقد تغير الموقف تغيراً كبيراً . لا شيء كان يمكن أن يسر روبيان كما سره هذا السيل من الكلام الذي كان أشد غزارة من سيل الكلام الذي تدفق من الضابط عند وصوله . وكلما ازداد الضابط ايغالاً في حديثه الذي لا ينتهي ، ازدادت الغبطة العذبة التي تنتشر في قلب روبيان . وكان يحاول من حين إلى حين أن يقول بضع كلمات اذا استطاع ، لكنه كان لا ينقطع عن هز رأسه خاصة ، علامة الاستحسان والتأييد . واعتقد مرة أخرى أن الماجور لم ير شيئاً .

– بابا ... بابا .. أأنت هنا ؟

كذلك نادى صوت عند باب البيت .

انها تونيكا . لقد جاءت تبحث عنه لينصرفا . صحيح ان الشاي سيقدم بعد قليل ، لكنها أصبحت لا تطيق البقاء ، لأن صداعاً قد ألم بها . هـذا ما قالته لأبيها بصوت خافت . ثم مدت يديها الى روبيان . فطلب منها أن تبقى بضع دقائق أيضاً ، لأن والدها المحترم ...

فقاطعه الماجور يقول :

– لا تضيع وقتك سدى ، فهي الآمرة الناهية !

وألح روبيان على الماجور مرة أخرى أن يزوره في بيته ، بل رجاه أن يحدد للزيارة موعداً في هذا الاسبوع نفسه منذ الآن ، لكن الماجور أجابه بانه لا يستطيع ان يلزم نفسه بموعد محدد فوراً ، وبأنه سيجيء اليه متى استطاع أن يجيء . ان أوقاته مليئة ، فهناك عمله بالثكنة ، وهو عمل يستغرق وحده وقتاً طويلا ، ثم هناك ...

– أننصرف يا بابا ؟

– حالاً . هل رأيت ؟ لا أستطيع حتى الكلام لحظـة . هل استأذنت ، ترى أين قبعتي ؟

٤٣

أثناء هبوطها الرابية ، تحملت تونيكا تتمة حديث أبيها . انه حديث لا ينضب معينه ، تغير موضوعه لا أسلوبه . لكن تونيكا سمعت هـذا السيل من الكلام دون أن تنتبه له أقل انتباه . انها غارقة في تخيل كل ما حـدث ذلك المساء ، وفي تصور نظرات صوفيا وروبيان .

ووصلا الى بيتهما بشارع « سينا » ، مضى الأب إلى فراشه . أما البنت فلم تستلق على سريرها رأساً ، وانما جلست على كرسي صغير قرب منضدة كانت تحتفظ فوقها بصورة للعذراء . لا تظنوا أن عواطف كريمة هادئة تهز نفسها . انها وان لم تعرف من الحب شيئاً ، تفهم بعض الفهم ما هي الخيانة الزوجية . وبدت لها

صوفيا في صورة كريهة منفرة ، تراءت لها في ملامح شيطان ، نصفه امرأة ونصف أفعى . وشعرت نحوها فجأة بكره شديد ، وقررت أن تنتقم منها شر انتقام بابلاغ زوجها كل شيء . قالت لنفسها : « سأذكر له كل شيء ، شفاهاً أو كتابة ... لا بل شفاهاً ... سأقول له كل شيء ، يوم أنفرد به » .

وأطلقت العنان لخيالها ، فتصورت باليا وهو يُبهت للنبأ ، ثم تصورت غضبه ، وتصورت ما ستوجهه الى امرأته من تفريع وشتم : شقية ، حقيرة ، قذرة . ما أجل وقع هذه الكلمات في قلبها المستعر . وراحت ترددها فتجد فيها شفاء لغليلها هي . انه ليسرها أن تذل صوفيا بالخيال ، وان تتصور زوجها سيمرغها في الوحل ، ما دامت لا تستطيع أن تفعل بها ذلك هي نفسها ... قذرة ، حقيرة ، شقية ...

واستمر هذا الخنق الداخلي مدة طويلة ، استمر نحو عشرين دقيقة ... ثم هدأ قلب تونيكا ، وثاب إليها رشدها شيئاً بعد شيء . والحق انها كانت فقيرة الخيال ، لذلك لم تلبث أن عادت الى الواقع القريب . نظرت حولها ، فلم تر إلا غرفتها ، غرفة العانس ... كل شيء مرتب في فن ، في فن بارع خلع مظهر الحرير على قماش من الكريتون ، وخلع شكل الستائر على قطع بالية من النسيج ، واستطاع أن يزين أبسط الأشياء فيحيل منظرها القاسي الى منظر جميل ، واستطاع أن يبدل حزن الجدران العارية فرحاً ، وأن يخفي فقر الأثاث القليل . لكأنها قد أعدت كل شيء لاستقبال عريس حبيب .

لكن الريح اثناء عصفها الحانق لم تجلب لها في يوم من الايام الخطيب الذي طال انتظاره ، لا ولا قال لها الصبح الأبلج في يوم من الأيام أين عساها تعثر عليه . فلا شيء إلا ان تنتظر ، وان تنتظر ...

ولما هَدأ غضب تونيكا وسكن خيالها ، تأملت غرفتها المنعزلة مرة أخرى . وأخذت تفكر في صديقات طفولتها ، في صديقات المدرسة . لقد تزوجن جميعاً ، جميعاً ؛ وآخر واحدة منهن تزوجت ، وهي في الثلاثين من عمرها ، ضابطاً من

ضباط البحرية . لقد أنعش هذا الزواج آمـال تونيكا بعض الوقت ولم تكن مترددة ، خفق قلبها أول مرة لضابط صغير في الخامسة عشرة من عمرهـا ... ما أبعد ذلك العهد الآن ! مرت عليها خمس سنوات ، ثم أصبحت بعد ذلك في التاسعة والثلاثين ، والأربعون قريبة كل القرب . أربعون عاماً وما تزال عانساً . وشعرت تونيكا بقشعريرة تسري في جسمها . وظلت تنظر حولها ، فعـاد الى ذاكرتها كل شيء . وأخيراً نهضت نهوضاً مفاجئاً ، وسارت بضع خطوات ، ثم تهالكت على سريرها باكية .

٤٤

لا تحسبن أيها القاريء العزيز أن ألم تونيكا كان أعمق من غضبها . ان هذين الشعورين اللذين هزاها واحداً بعد واحد لا تختلف قوتهما وانما تختلف نتائجهما . أما الغضب فقد ظل عقيما ، وأما المذلة فقـد ولدت تلك النوبة المشروعة من البكاء . وليس معنى ذلك أن تونيكا لم تتمن أن تخنق صوفيا وأن تركلها برجليها وأن تمزق قلبها تمزيقاً وهي تلقي في وجهها تلك الشتائم المقذعة التي أسندتها الى زوجها ... لكن ذلك كله لم يتعد مرحلة الخيال . صدقني إذا قلت لك ان هناك طغاة لا يخطر ببالك أنهم طغاة .. وانما تعوزهم الفرصة . من ذا الذي يستطيـع أن يزعم أن كاليجولا لم يعد الى الحياة بضع لحظات في نفس هذه الفتاة ؟

٤٥

واحد يبكي وآخر يضحك . تلك هي سنة العالم يا سيدي العزيز ، وذلك هو ما يسمونه بالكمال الكلي العام . فان لم يكن ثمة الا دموع كان العـالم رتيباً مملا ، وان لم يكن ثمة قهقهات كان العالم متعباً . اما التوزيـع المناسب للاحزان والافراح ، للبكاء والضحك ، فذلك هو ما يهب العالم تنوعـه المنشود ويرد الى الحياة توازنها .

ان روبيان هو الفرح . انظر اليه وهو يهبط الهضبة ، وقـد غمرت قلبه

النشوة واخذ يشهد النجوم على سعادته بموسيقى لا تستطيع أي لغة أن تصفها . فلما وصلَ الى تحت بدت له الشوارع الخـــالية مليئة بجمهور نشيط متحرك ، وتحول الصمت في اذنه الى ضجة صاخبة ، وعلى كل نافذة خيل اليـه أن يرى قامة امرأة تميل اليه وتحنو عليه ، امرأة لها وجه أخاذ ، وحاجبان كثيفان . انهن جميعاً صوفيا ، صوفيا الوحيدة ، صوفيا الفريدة ، صوفيا التي ليس كمثلها امرأة ! وكان روبيان يتصور في بعض الاحيان انه قـد اسرف في الجرأة ، وانه لم يلتزم ما ينبغي التزامه من تحفظ . انـه يتخيل المشهد الذي جرى في الحديقة ، ويتصور ما أظهرته المرأة الشابة من مقاومة وتبرم ، فتنتـابه عندئذ قشعريرة ، ويرهقه أن يتخيل أنهما قد يغلقان باب بيتهما في وجهه بعد الآن ، وقد يقطعان كل صلة به .. كل ذلك لانه تعجل الامور .. نعم ، كان ينبغي له ان يصبر .. ان الفرصة لم تكن مناسبة البتـة .. كان البيت مليئـا بالناس والاضواء .. أي شيطان وسوس له ان يتحدث فجأة في الحب ، دون احتياط ودون تحفظ ؟ نعم ، لقد كانت على حق ، وانه ليستأهل ما صنعته اذ تركته هناك ومضت .

فـكان يخاطب نفسه عندئذ بصوت عال :

ـ لقد تصرفت تصرف مجنون .

انه لا يفكر الآن في العشاء الذي كان شهيـــاً ولا في الخمور التي كانت سخية ، لا ولا في الكهرباء التي تتموج في الهواء حين يكون المرء في صحبـة نساء جميلات . بل يرى انه كان مجنونا ، مجنونا يستحق أن يوثق .

ثم غير روبيان موقفـه ، فاذا هو مدافع بعـد أن كان متهما . أليست صوفيا نفسها هي التي جرته الى هذا السلوك : نظراتها الكثيرة الطويلة ، وضعها كله ، ملاحظاتها ، ايثارها اياه باجلاسه الى المائدة قربها وثم عنايتها به ، وهيئتها الناعسة اثناء حديثها اللطيف معه ، هذا كله كيف لا يعد تشجيعا ونداء ؟ وها هو ذا يلتمس لصاحبته الاعذار ، فيعلل التناقض الظاهر بين لفتات تلك المرأة ووضعها في الحديقة : أليست هذه اول مرة تسمع فيها مثل هذا الكلام من

شخص غير زوجها ؟ ألم يكن من حقها أن ترتعش واللقاء يتم على مقربة من مثل هذا العدد الكبير من الناس ؟ ثم انه قد اسرف في سرعة الكشف عن نفسه ، وتعجل الأمور تعجلا كبيراً . حقاً انه لم يبرهن على شيء من الاعتدال . كان ينبغي له أن يتقدم خطوة خطوة ، وان لا يضغط يدها الى الحد الذي يوجعها . وخلص روبيان الى هـــذه النتيجة : لقد كان خشناً . وعادة مرة اخرى يخشى ان يغلقا في وجهه باب بيتهما . ثم ارتد ثانية الى الامل . ففكر في وضع المرأة الشابة وفي تلك القصة التي اخترعتها هي نفسها ، أعني قصـــة الكاهن ماندس ، فرأى أنها دليل على التواطؤ ، وفكر كذلك فيما يحمله له زوجها من احترام .. لكنه حين وصل الى هذه النقطة من تفكيره ارتعش . ان هذه الفكرة تجعله يشعر بألم الضمير . نعم ، ان باليا يثق به . زد على ذلك أن باليا مدين له بمبلغ من المال ، عدا ثلاث حوالات قبلها من أجله .

قال لنفسه « لا استطيع وما ينبغي لي ان امضي الى ابعد مما مضيت » . ثم استدرك يقول انه لا بد له في الامر والحق يقال ، فهي التي تستثيره منذ مدة طويلة . فلتحاول بعد الآن ما شاء لها هواها ان تحاول . لا بد اذن من مقاومتها . لقد اقرضته هذا المال من دون أن يطلب مني ذلك تقريباً . كنت اعرف انه في حاجة اليه .. وبعد الذي اظهره نحوي من اهتمام .. صحيح ان الحوالات هو الذي طلب مني ان اوقعها ، لكنه لم يطلب شيئاً غير ذلك . ثم انني اعرف انه رجل نبيل شريف . اعرف انه يعمل كثيراً . ان شيطان المرأة هو الذي جاء يقف بيننا بعينيه الواسعتين وجسمه الجميل . ما اجمله من جسم يارب ! لقد كانت رائعة حقاً في هـذا اليوم . حين كانت ذراعها تلمس ذراعي ونحن على المائدة ، رغم كمي ..

كان روبيان قلقاً متردداً ، انه لا يريد ان يخون صديقـه ، لكن ضميره كان ينقسم عندئذ الى معسكرين متعاديين ، يهاجم اولهما الثاني ، ويرد الثاني على الاول مفسراً ، وكلاهما حائر ..

وبعد ان سار هكذا على غير هدى ، وجد نفسه فجأة في ساحة الكونستيتوسيون . فخطر له أن يذهب الى المسرح ، لكن أوان المسرح كان قد فات . فاتجه عندئذ نحو ميدان سان فرنسيسكو ليركب عربة ويعود الى بوتافوجو . كان هنالك ثلاث عربات ما لبثت ان اتجهت نحوه تعرض عليه خدماتها . ان سائقي العربات يكيلون المديح لخيولهم . أنظر الى هذا الحصان الجميل ، أنظر الى هذا الجواد الكريم .

٤٦

أيقظت ضجة الاصوات والعربات متسولا كان نائماً على درجات الكنيسة . جلس المسكين ليرى ما حدث ، ثم لم يلبث أن استلقى من جديد . لكنه افاق من نومه ، وها هو ذا راقد على ظهره يحدق الى السماء . ان السماء تحدق اليه ايضاً ، هادئة كهدوئه سواء بسواء . لكن السماء ليس لها من الشحاذ غضون وجهه ولا نعلاه الباليتان المثقوبتان ، ولا اسماله الخلقة . انها سماء رائعة ذات نجوم ، هادئة أولمبية ، كالسماء التي اشرفت من عليائها على زفاف يعقوب أو انتحار (لوكرس) . السماء والشحاذ ينظر كل منهما الى الآخر ، كطفلين يحاول كل منهما أن يضحك الآخر ، ولكن بوقار رفيع ، فلا تكبر ولا صغار ، كأن الشحاذ يخاطب السماء بقوله :

« لست بسباحقتي على كل حال »

وكأن السماء تجيبه بقولها :

« لا ولا أنت بعارج اليّ »

٤٧

لم يكن روبيان فيلسوفاً البتة . والمقارنة التي عقدها في هذه المناسبة بين همومه وهموم الفقير البائس لم تحمل اليه . الا طرفاً من الغيرة قال لنفسه « ان هذا الوغد لا يفكر في شيء . انه سينام بعد لحظة ، اما أنا .. »

– هيا اركب يا مولاي . حصاني من جياد الخيل . سنصل بعد خمس عشرة دقيقة .

وقال الحوذيان الآخران كلاماً من هذا القبيل ، ورددا الالفاظ نفسها تقريباً .

– تعال يا مولاي وسترى .

– انظر الى هذا الحصان الصغير .

– تفضل . لن تستغرق المسافة الا ثلاث عشرة دقيقة . بعد ثلاث عشرة دقيقة تكون في منزلك .

وبعد تردد طويل ركب روبيان اقرب عربة اليه ، وامر الحوذي ان يمضي به الى بوتافوجو . وتذكر عندئذ حادثة من حوادث شبابه كان قد نسيها من زمان طويل . ترى هل ذكرى هذه الحادثة هي التي حملت اليه على غير شعور منه حلًا للاضطراب الذي كان يهز نفسه ؟ ومهما يكن من أمر فان روبيان لم يكن يرغب في شيء الا ان يجد خلاصاً من هذه الافكار التي كانت تحاصره منذ نهاية تلك السهرة الجديرة بالذكر .

وقع ذلك منذ زمان بعيد جداً ، كان روبيان يومئذ في ريعان شبابه ، وكان فقيراً شديد الفقر . ففي ذات يوم ، في الساعة الثانية من الصباح ، خرج من البيت الذي يقيم فيه بشارع كانو (وهو اليوم شارع ٧ ايلول) ، ووصل الى ميدان سان فرنسيسكو دى باولا . ومن هناك أخذ يهبط شارع أوفيدور . كانت تدور في رأسه يومئذ بعض الهموم . انه يسكن عند صديق دعاه الى السكنى عنده مدة ثلاثة أيام ، وذلك منذ أربعة أسابيع . والناس تقول ان الضيف يحتمل ثلاثة أيام ، اما بعد ذلك فيصبح ثقيلا ... والامر الذي لا شك فيه هو أن روبيان الذي كان غراً بسيطاً كميناسي ، وكان مع ذلك كثير الشك والحذر كباولستي[1] ، كان في ذلك اليوم مهموم البال جداً لأنه قرر أن يترك بيت صديقه بأقصى سرعة ممكنة . ومنذ خرج من البيت واجتاز ميدان

(١) نسبة الى مدينة سان باولو .

سان فرنسيسكو وهبط شارع أوفيدور ، كان قد بلغ من فرط الغرق في أفكاره درجة لا يستطيع منها ان يسمع شيئاً ولا أن يرى شيئاً .

وفجأة ، عند زاوية شارع الاوريف ، أوقفه تجمع عدد من الناس يحيطون بموكب غريب . ففي وسط الموكب وقف رجل مرتد ملابس السلطة القضائية ، يتلو حكماً بصوت عال وحوله كاهن وجنود وأفراد بله يشاهدون ويسمعون . غير أن هناك زنجيين هما اللذان يلفتان الانتباه . أولهما نحيل متوسط القامة موثق اليدين ، مطرق الى الارض ، أشهب اللون ، في عنقه حبل مربوط ، والثاني يمسك بالحبل ، رافع رأسه ينظر إلى الامام ، ولونه شديد السواد لامع . انه يواجه فضول الناس غير هياب . حتى اذا انتهى القاضي من تلاوة الحكم أخذ الموكب الآتي من السجن إلى ميدان مورا ، يسير في شارع الاوريف .

ومن الطبيعي أن يتأثر روبيان بهذا المشهد تأثيراً كبيراً ، وقد لبث متردداً بضع ثوان ، كتردده في هذا المساء حين كان عليه أن يختار عربة . ان صراعاً داخلياً يمزقه . فجزء من نفسه يهيب به أن يقفل راجعاً وأن يمضي الى شأنه ، وجزء آخر يوحي اليه أن يسير مع الموكب ليشهد شنق الزنجي . انه لأمر نادر أن يرى المرء شنقاً . « هيا . بعد عشرين دقيقة ينتهي كل شيء . » — « بل دعك من هذا ، وعليك بأمور . » وأغمض صاحبنـا عينيه واستسلم للمقادير . ولكن المقادير لم تجعله يهبط شارع اوفيدور حتى يصل الى كيتاندا ، وانما قادته إلى شارع الاوريف خلف الموكب . قال لنفسه : لن أشهد تنفيذ الاعدام . انه لايريد أن يرى إلا سلوك المحكوم عليه ، ووجه الجلاد ، وباقي الاحتفال ... أما الشنق نفسه فلا يريد أن يراه . وكان الموكب الصغير يتوقف من حين الى حين فيعيد ضابط القضاء تلاوة الحكم بينما يهرع الناس الى أبواب بيوتهم أو يقفون خلف النوافذ . ثم يستأنف الموكب سيره ويستمر في تقدمه على هذا النحو من الفخامة . والتعليقات على الجريمة تنهمر غزيرة . هي جريمة قتل وقعت في ماتابوركوس . والقاتل يوصف بأنه رجل سفّاح كاسر . وهذا مابث في روبيان القوة اللازمة للنظر اليه دونما شفقة . لكن وجه المحكوم عليه بالإعدام ليس الآن وجه مجرم .

لقد حل الذعر محل القسوة . وأخيراً وجد صاحبنا نفسه في الميدان الذي سيتم فيه تنفيذ الحكم بالاعدام ، من دون أن يشعر بذلك . كان في الميدان أناس كثيرون ينتظرون ، انضم اليهم أولئك الذين كانوا يسيرون وراء الموكب ، فامتلأ الميدان بحشد كثيف .

قال روبيان لنفسه : والآن فلأمض الى شأني .

لكنه استدرك فقال ان المحكوم بالاعدام لم يصعد على المنصة بعد ، ولم ينفذ فيه الحكم فوراً وثمة اذن متسع من الوقت . وهبه بقي ففي وسعه أن يغمض عينيه ، كما فعل رجل يقال له ألبيوس أمام مشهد الحيوانات المفترسة . يجب أن نلاحظ هنا أن روبيان لم يسمع في حياته أحداً يتحدث عن ذلك الرجل الذي عاش في الأعصر الخالية . فلم يكن يجهل إذن أن الرجل أغمض عينيه ، بل كان يجهل أنه لم يلبث أن فتحهما من قبيل حب الاطلاع ...

ولكن ها هو ذا المحكوم عليه يصعد المنصة . ان رعشة تسري في الحشد كله . وبدأ الجلاد عمله . فاستدارت قدم روبيان اليمنى يمنة كأنما هو يريد أن يذهب، غير أن القدم اليسرى التي كانت تستلهم عاطفة مناقضة ظلت حيث هي ، وقام في نفس روبيان صراع دام بضع لحظات، كالصراع الذي قام في نفسه منذ قليل : « انظر الى هذا الحصان . — انظر إلى هذا الحصان الجواد . — لا تكن قاسي القلب . — لا تكن ضعيف الجنان » . على هذه الحال من التردد ظل روبيان بضع ثوان الى ان أزفت اللحظة الحاسمة . فشخصت الأعين كلها ومنها عيناه الى نقطة واحدة . لم يفهم روبيان ذلك الاحساس العجيب الذي أخذ بأحشائه وأوثقه في مكانه حتى لكأن يداً من حديد قد سمرته . ولم تدم اللحظة الحاسمة الا هنيهة خاطفة . اضطربت ساقا الرجل فجأة في تشنج ، ثم تصلب جسمه كله ، بينما وثب الجلاد الى كتفيه في مهارة . وسرت في الحشد همهمة . وصرخ روبيان . ثم لم ير شيئاً .

٤٨

— قد تكون قد لاحظت يا صاحب السعادة كيف أن حصاني سريع .

فتح روبيان عينيه وكان قد أغمضها نصف اغماض ، فرأى الحوذي يقرع سوطه قرعاً خفيفاً ليحث الحصان على العدو . انزعج روبيان في داخل نفسه من الرجل لأنه انتزعه من ذكرياته التي كان غارقاً فيها . صحيح انها ليست بالذكريات الممتعة ، ولكن هذه الذكريات البعيدة كل البعد تمتاز الآن باعظم مزية وهي انها تمنعه من التفكير في الحاضر كأنها اكسير عجيب . وها هو ذا الحوذي يوقظه فيفيق منتفضاً . ان العربة تصعد شارع لابا . حقاً لقد كان الحصان يلتهم المسافة التهاماً ...

وتابع الحوذي كلامه قائلا :

– ان هذا الحصان يكن لي حباً عظيمـــاً . اعرف ان ذلك أمر يصعب تصديقه . لكنني استطيع أن أقص عليك قصصاً خارقة في هذا الصدد . هنالك أناس يقولون انني الفق حكايات لكن ما أقوله يا سيدي هو الحقيقة الخالصة . يعرف الناس جميعاً ان الحصان والكلب خير صديقين للانسان . وربما كان الكلب يمتاز بهذا على الحصان ...

فما ان سمع روبيان كلمة « الكلب » حتى تذكر كونكاس بوربا فجأة . لاشك ان الحيوان ينتظره بفارغ الصبر . ان روبيان لم ينس الشرط الذي اشتملت عليه الوصية ، وقد حلف لينفذها تنفيذاً دقيقاً . ويجب أن نذكر من جهة أخرى انه لا يخاف ان يهرب الكلب فحسب ، بل يخاف كذلك أن يفقد امواله . وهذا الخوف لم يكن ليمحي من نفسه رغم كل ما كان يقوله له المحامي . كان المحامي يقول له : ان الوصية لا تشتمل على أي بند ينص على أن المال يئول الى شخص آخر اذا هرب الكلب ، وذلك ان الميراث لا يمكن أن يفلت منك ، ففيم الخوف من هربه ، ولعل الأفضل ان يهرب ، فتنقص همومك .. هذا كل ما في الامر . وكان روبيان يتظاهر بقبول هذه الشروح ، لكن الشك يظل قائماً في قرارة نفسه . ان ما يعرفه من امثلة كثيرة عن دعاوى طال امدهـــا ، وما يعرفه عن اختلاف الآراء القضائية في امر واحد بعينه ، وما قد يشنه حاسد أو حاقد من هجوم عليـــه ، وخوفه من أن يصبح ذات يوم فقيراً لا يملك

شروى نقير ، كل ذلك كان لا يزال ينقر في رأسه . وهذا هو السبب في انه فرض على الكلب ذلك الحبس القاسي ، وهذا هو السبب أيضاً في انه شعر بعذاب الضمير حين تذكر انه قضى فترة ما بعد الظهر وفترة السهرة دون أن يفطن الى كونكاس بوربا مرة واحدة .

قال لنفسه : « انني عقوق » .

ثم لم يلبث أن استدرك فقال انه أشد عقوقاً من ذلك أيضاً ، لأنه لم يتذكر كونكاس بوربا الآخر الذي اورثه كل شيء . وفجأة خطر بباله أن كونكاس بوربا الكلب وكونكاس بوربا الرجل قد لا يكونان الا مخلوقاً واحداً بعينه ، فلعل روح كونكاس بوربا الراحل قد تقمصت جسد كونكاس بوربا الكلب ، لا لتتطهر من خطاياها فحسب ، بل لتراقب المولى الجديد للكلب . ان زنجية من سان جوان دلري هي التي أدخلت في روعه أفكار التناسخ هذه حين كان صبياً . قالت له انها الارواح المثقلة بالخطايا تحل في اجسام الحيوانات ، حتى لقد حلفت له انها تعرف كاتباً بالعدل قد تحول الى قنفر أميركي ..

– ارجو من سعادتك أن لا تنسى ان تقول لي أين يقع البيت .

كذلك قال له الحوذي فجأة . فأجابه روبيان :

– قف هنا .

٤٩

نبح الكلب من داخل المنزل ، ولكن ما ان دخل روبيان حتى هرع اليه فرحاً اعظم الفرح ، فغمره روبيان بملاطفاته رغم انه كان منزعجاً أشد الانزعاج . كان يتصور أن الراحل قد يكون ثاوياً فيه ، فتسري في جسمه قشعريرة قوية . وصعد الاثنان درجات المصطبة ، ثم لبثا عليها بضع لحظات في ضوء مصباح أمر روبيان أن يظل مشتعلاً . ان صاحبنا روبيان أقرب الى التصديق الساذج منه الى الايمان .

ما من عقيدة كانت تدفعه الى أن يهاجم أي شيء أو أن يدافع عن أي شيء . حتى ليمكن تشبيه ذهنه بقطعة رخوة من الشمع لم ينقش عليها شيء حتى الآن. وقد وهبت له حياة ريودي جانيرو هذه الميزة الخاصة : وهي أن يستطيع في عالم يضم اناساً قليلي التصديق ، أن يظهر بمظهر الجاحد ...

وبانتظار أن يُفتح له الباب ، اخذ ينظر الى الكلب . وأخذ الكلب ينظر اليه نظرة يحق المرء معها أن يتصور أن كونكاس بوربا الاصلي قائم فيه . انها تلك النظرة الممتلئة بالتأمل التي كان يصطنعها الفيلسوف حين يتحدث في كبريات المشكلات الانسانية ... واقشعر بدن روبيان مرة اخرى . لكن خوفه ، على شدته ، لم يكن من القوة بحيث يشل يديه ، وها هو ذا يمر بهما على رأس الكلب ، ويدغدغ أذنيه ورقبته .

– مسكين كونكاس بوربا . أنت تحب مولاك ، أليس كذلك ؟ انك تعرف أن روبيان صديق وفي لكونكاس بوربا ...

والكلب يحرك رأسه تحريكاً بطيئاً ، من اليسار الى اليمين ومن اليمين الى اليسار ، ليتيح لصاحبه أن يحسن مداعبة اذنيه الطويلتين المتهدلتين ، ثم يرفع ذقنه ليحك له صاحبه رقبته ، وصاحبه يطيع ... وعينا الكلب ، اللتان كانتا من اللذة مغمضتين نصف اغماض ، قد ظهر فيهما ذلك المعنى الذي كان يظهر في عيني الفيلسوف حين كان يشرح لروبيان ، من على سريره ، أموراً لا يفهمها روبيان إلا قليلا أو لا يفهمها البتة .. واغمض روبيان عينيه . وفُتح له الباب أخيراً . فودع الكلب لكنه كان بتودده وتحببه اليه اثناء الوداع كمن يطلب اليه أن يدخل . وتولى الخادم الاسباني ارجاع الكلب الى تحت .

أمر روبيان الخادم بقوله :

– لا تضربه .

ولم يضربه الخادم ، لكن ارجاعه الى تحت كان وحده أمراً مؤلماً ، فظل الكلب الطيب يئن في الحديقة مدة طويلة . دخل روبيان ، فخلع ثيابه ،

ورقد على سريره . آه .. حقاً لقد عاش يوماً حافلا بالانفعالات المتنوعة المتناقضة ، من أحلامه عند الصباح وغدائه مع صديقيه ، الى فكرة التقمص التي راودته ، بالاضافة إلى ذكرى المشنوق والى اعترافه بالحب ، وهو اعتراف لم يقبل في الظاهر قبولا حسناً ، لكنه لم يصد كذلك صداً عنيفاً ، كما انه لم يعد سراً خافياً ... وهذا انكى ما في الامر .

كل شيء يختلط الآن في رأس روبيان ؛ وفكره ينقذف من جهة الى جهة ككرة من المطاط بين يدي صبي . ولكن الاحساس بالحب اقوى احساس . ان روبيان دهش من نفسه ، بل نادم على موقفه . غير أن الندامة لا وجود لها الا في ضميره ، أما خياله فلا شيء يستطيع ان ينتزع منه صورة صوفيا ... دقت الساعة الاولى من الصباح ، ثم دقت الثانية فالثالثة .. ما تزال صوفيا تلوح من بعيد .. وما يزال الكلب ينبح تحت ... والنوم لا سبيل اليه .. الساعة قد دقت الثالثة ، ولكن منذ متى ؟ هاهي ذي تشير الآن الى الثالثة والنصف . وأخيرا ، بعد تلك الخواطر كلها غلبه النوم في لحظة . كانت الساعة عندئذ تقارب الرابعة من الصباح .

٥٠

أيتها القارئة العزيزة ، لا تحسبي أن ذلك اليوم الحافل قد انتهى . اننا لا نعرف ما الذي جرى بين صوفيا وزوجها بعد انصراف ضيوفها ، وربما كان ذلك أشيق من مشهد تنفيذ الحكم بالشنق .

عليك إذن بالصبر ، ولنعد إلى سانتاتيريزا مرة اخرى . ان الصالون مايزال مضيئاً لكنه مضاء بمصباح واحد ، اما المصابيح الاخرى فقد اطفئت ، وكان هذا المصباح الوحيد على وشك أن يطفأ هو أيضاً ، حين طلب باليا إلى الخادم ان يتريث قليلا . كانت صوفيا تهم أن تترك الحجرة ، لكن زوجها اوقفها فارتعشت .

قال لها :

– كانت حفلتنا موفقة جداً .

– نعم ، موفقة جداً .

– سيكويرا مزعج ، لكن مرحه يجعله محتملا على كل حال . كانت ابنته انيقة هذا المساء . هل لاحظت كيف كان راموس يلتهم كل ما يوضع في طبقه ؟ لسوف ترين في ذات يوم أنه أكل زوجته ...

قالت صوفيا مبتسمة :

– زوجته ؟

فأجابها زوجها :

– أوافقك على انها سمينة قليلا . لكن زوجته الأولى كانت اسمن منها ، ولا شك انها لم تمت ميتة طبيعية ، وانما ابتلعها هو ..

كانت صوفيا مسندة ظهرها الى الاريكة تضحك لامازيح زوجها . وتنادرا ببعض ما جرى في الحفلة أيضاً . وفجأة قالت صوفيا لزوجها وهي تدغدغ شعره :

– لكنك لا تعرف الى الآن اطرف حادثة وقعت في السهرة .

– ما هي ؟

– احزر .

صمت باليا بضع لحظات وهو ينظر الى امرأته محاولا أن يعرف ما هي تلك الحادثة التي هي اطرف ما حدث في السهرة . لكنه لم يستطع ان يحزر . افترض عدة فروض فكانت امرأته تهز رأسها نفياً . فقال لها أخيراً :

– ما هي اذن ؟

– لا ادري . احزر .

– لم استطع ان احزر . قولي ما حدث !

– على شرط .. لا اريد صراخاً ولا زعلا .

فاظلم وجـــه باليا . صراخ ؟ زعل ؟ ما عسى أن يكون الأمر اذن ؟ أصبح لا يضحك ، وانما تطوف على شفتيه ابتسامة مصطنعة ، شاحبة ، مدعنة . تفرس في وجه امرأته ، وسألها :

– ماذا حدث ؟

– هل تعدني بما طلبته منك ؟

– اعدك . ما هو الأمر ؟

– اذن فاعلم انني في هـــذا المساء سمعت شيئاً أقل ما يوصف به هو انه تصريح غرامي .

شحب وجه باليا شحوبا شديداً . انه لم يعدها بأن لا يشحب وجهه . نحن نعلم انه كان يبلغ من حبه لزوجته ذلك المبلغ الغريب وهو أن يعرض جمالهـا الى ابعد حد . لكن النبأ الذي تذكره الآن لا يمكن أن لا يثيره . ولاحظت صوفيا اصفراره المفاجيء ، وسرها انها اثارته هذه الاثارة الشديدة . ومن أجل أن تستمتع بهذه اللذة مدة اطول مالت بصدرها وحلت طارة شعرها التي كانت تضايقها قليلا ، ووضعت دبابيس شعرها في منديلها ، وتنفست تنفساً طويلا ثم هزت رأسها وأمسكت بيد باليا الذي ظل طوال ذلك الوقت واقفاً :

– هي الحقيقة يا عزيزي ، لقد تغزل احدهم الليلة بزوجتك .

فقال باليا وقد نفد صبره :

– ولكن من هو ذلك الوغد الذي تجرأ ..

– لا .. اذا غضبت هذا الغضب كله فلن اقول شيئاً . من هو ؟ أتريد أن تعرف من هو ؟ اذن حافظ على هدوئك . هو روبيان .

– روبيان ؟

– نعم ، وما كنت لأتصور صدور مثل هذا عنه . انـــه يبدو خجولا شديد الخجل ، متحفظاً شديد التحفظ . صدق من قال : ليس الراهب بمسوحه . ما من احد من الرجال الكثيرين الذين يزوروننا خاطبني يوماً بمثل ما خاطبني به

هذا الرجل . صحيح أنهم ينظرون الي لانني غير دمية .. لماذا تسير هكذا جيئة وذهابا ؟ قف .. لا اريد أن ارفع صوتي .. نعم . هكذا أحسن . لنعد الى الموضوع . انه لم يكاشفني بالحب مكاشفة صريحة .

– ها .. اذن لم يفعل ؟

كذلك قاطعها زوجها على الفور . فأجابته بقولها :

– لكن النتيجة واحدة .

وقصت عليه ماجرى في الحديقة ، منذ لحظة خروجها الى الحديقة مع روبيان حتى لحظة وصول الماجور . وختمت القصة بقولها :

– هذا كل ماحدث . وهو كاف لان تدرك أنه إذا لم ينطق بكلمة الحب فما ذلك الا لأن هذه الكلمة لم تراود شفتيه . لكني أؤكد لك أن يديه كانتا تتكلمان كلاماً واضحاً حين كانتا تشدان على اصابعي .. هذا كل شيء . غير أن علينا الآن ان نغلق الباب في وجهه ، سواء أفعلنا ذلك دفعة واحدة أم شيئاً بعد شيء . اما أنا فأفضل أن نغلق الباب في وجهه فوراً . على أن الامر لك ، تفعل ما تشاء . ما رأيك ؟

ظل باليا بضع لحظات ينظر الى زوجته نظرة بلهاء ، وهو يعض على شفته السفلى . ثم جلس على الاريكة دون أن يقول شيئاً . انه يفكر في الأمر . وها هو ذا يجد أن من الطبيعي أن تأسر فتنة زوجته رجلا من الرجال ، فلماذا لا يكون هذا الرجل روبيان ؟ لكنه كان يثق بروبيان ثقة عظيمة حتى لقد كتب بنفسه نص البطاقة التي ارسلتها اليه صوفيا مع سلة الفاكهة ، ولم تزد صوفيا على أن نسختها ووقعتها وأرسلتها . ما كان ليخطر ببال باليا يوماً أن روبيان يمكن ان يصرح بحبه لأي امرأة من النساء ، فكيف بصوفيا . ولكن هل الأمر امر حب حقاً ؟ الا يمكن ان يكون أمر مزاح يبيحه له ما بينه وبين الاسرة من مودة حميمة ؟ صحيح ان روبيان كان ينظر اليها كثيراً ، وكان يبدو له ايضاً أن صوفيا تبادله نظراته في بعض الاحيان .. وما هذا الا

تلطف من امرأة جميلة . ثم ما دامت العينان ملك يمينه هو ، أفلا يستطيع أن يتكرم على غيره ببعض نظراتهما أحياناً ؟ ما ينبغي لامريء أن يكون غيوراً على عصب بصري على كل حال . بذلك حدث باليا نفسه . ونهضت صوفيا ومضت الى البيانو تضع عليه المنديل الذي لفت به دبابيس شعرها ، ونظرت الى وجهها في المرآة لترى كيف صار شعرها بعد أن حلت طارته . فلما عادت الى الاريكة تناول زوجها يدها وقال لها وهو يضحك :

– يخيل الي انك تصدعين رأسك أكثر مما يستحق الأمر . ان تشبيه عيني امرأة بالنجوم ، أو تشبيه النجوم بعينيها ، شيء يستطيع المرء أن يفعله على مرأى ومسمع من جميع الناس ، حتى ليستطيع أن يهتف به في حشد من الناس شعراً أو نثراً . وذات العينين الجميلتين المسرفتين في الجمال هي المسئولة عن الأمر كله . ثم انني رغم كل ما قصصته علي ، ما زلت أعده ريفيا غراً .

– وهل الشيطان اذن ريفي غر ، لأنني قد رأيت فيه الشيطان نفسه . ثم ما قولك فيما طلبه الي من ان أتأمل صليب الجنوب في ساعة معينة من الليل لتلتقي روحانا ؟

فأجاب باليا قائلا :

– في هذا شيء من الحب طبعاً . ولكن ألا ترين أن مثل هذا العمل الساذج لايمكن أن يصدر الا عن نفس بسيطة بعض البساطة . هذه هي اللغة التي تستعملها البنات في الخامسة عشرة من العمر ... وهي اللغة التي يستعملها البله في جميع الازمان .... ويستعملها كذلك الشعراء . وما هو بالبنت ولا هو بالشاعر .

– صحيح ... ولكن ما قولك في أنه شد على يدي ليمنعني من مغادرة الحديقة؟

انتفض باليا حين سماع هذا السؤال . ان الشيء الذي كان لايزال يؤلمه أشد الايلام هو أن أيديهما قد تلامست وأن صاحبه لجأ إلى القوة ليحول بين زوجته وبين الانصراف . حقاً انه لو استطاع لذهب الى روبيان ليمسك بتلابيبه . غير

أن أفكاراً أخرى مرت بخاطره فمحت هذه الرغبة من نفسه ، فاذا بصوفيا التي خشيت أن تكون قد أهاجته ، تراه يرفع كتفيه احتقاراً ، ولا يزيد على أن يقول إن ذلك كان منه فظاظة في حقيقة الامر . وأضاف يقول :

– ولكن ، ياصوفيا ، كيف خطر ببالك أن تدعيه الى الحديقة لرؤية ضوء القمر؟

– لقد طلبت الى تونيكا أن تأتي معنا .

– ولكن حين رفضت تونيكا مرافقتكما كان ينبغي لك أن تجدي وسيلة للعدول عن الذهاب . والاعذار في هذه الحالة سهلة . أنت قيضت له الفرصة .

نظرت صوفيا اليه وقد قطبت حاجبيها الكثيفين ، وهمت أن تجيبه لكنها صمتت . واستمر باليا يفيض في هذا النوع نفسه من الكلام قائلاً ان الغلطة غلطتها هي ، وانه كان عليها أن لاتتيح له الفرصة ...

قالت امرأته :

– ولكن ألست أنت الذي قلت لي ان علينا أن نعامله في كثير من المراعاة؟ وما كان لي طبعاً أن أذهب معه الى الحديقة لو كنت أقدر ما سيحدث فيها ، ولكن أين لي أن أتوقع من رجل هادىء هذا الهدوء كله ، من رجل « لاأدري كيف أصفه » ، أن يخرج فجأة من قوقعته ليغازلني هذه المغازلة ؟

فقال لها زوجها وهو يبتسم ابتسامة متكلفة :

– اذن عليك بعد الآن أن تسيئي الظن في القمر والحديقة .

– ولكن ، يا كرستيانو ، كيف أكلمه حين يأتي الى هنا مرة ثانية ؟ لا ... انني أشعر بأنني لن استطيع ذلك قطعاً . اسمع ... الافضل ان لا نراه بعد اليوم أبداً .

فوضع باليا ساقاً على ساق ، وأخذ ينقر على حذائه . وظلا كلاهما صامتين فترة من الوقت . ان باليا يفكر في هذا الاقتراح الذي جاءت به امرأته ، لا لأنه يريد أن يتبعه ، بل لأنه لا يعرف بماذا يجيب زوجته التي تظهر هذا الاستياء كله ، وتتصرف تصرفاً يدل على شدة حرصها على كرامتها . انه لا ينبغي

له أن يشجب هذا الاقتراح ، ولا أن يتبعه ، فماذا عساه يصنع . ونهض ووضع يديه في جيبه ، وأخذ يمشي . وبعد بضع خطوات وقف امامها وقال :

– أغلب الظن أننا نصدع رأسنا بأمر قد لا يكون إلا ثمرة إفراط الشراب . ألم تلاحظي أنه كان لا يعاف شرب الكأس الذي يقدم إليه ؟ رأس خفيف وشيء من الانفعال ... فاذا هو يقول ما يقول ... لست أعني أنك لم تعجبيه ، كما أعجبته نساء كثيرات .. تذكري أنه كان منذ بضعة أيام في حفلة راقصة بقصر « كاتيتي » وانه عاد من الحفلة مفتوناً بالسيدات اللواتي لقيهن ، وخاصة بسيدة يقال لها مدام مانديس ، وهي ارملة ، فيما أظن .

فقاطعته صوفيا قائلة :

– ولماذا لم يطلب إلى تلك المرأة الجميلة ان تتأمل « صليب الجنوب » ؟

– انه لم يتعش هناك ، ومن جهة اخرى لم يكن ثمة حديقة ولا قمر . والذي أريد أن أقوله على كل حال هو أن صديقنا لم يكن على حقيقته في هذا المساء . ولعله يعض الآن أصابع الندم على ما بدر منه . ولعل نفسه تفيض بالخجل والشعور بالعار ، ولعله يتساءل هل في وسعه أن يعتذر ، أم الأفضل أن لا يثير الموضوع البتة . بل ان من الممكن جداً أن يمضي إلى حد التغيب فترة من الوقت ...

– أحسن .

– إلا إذا دعوناه .

– ولماذا ندعوه ؟

قال باليا وهو يجلس إلى جانبها :

– صوفيا ، لا أحرص الآن على الدخول في التفاصيل . كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني لن اسمح لمخلوق على وجه الارض ان يقصر في احترامك .

قال ذلك ثم صمت بعض الوقت ، وصوفيا شاخصة ببصرها إليه تنتظر أن يكمل كلامه .

– لن أسمح بذلك لمخلوق على وجه الأرض ، وويل لمن يجرؤ أن يلمسك ، وويل لك ايضاً إذا رضيت بذلك . انك لتعلمين حق العلم أنني لا أعرف في هذا الأمر هوادة ، ولا شيء يحمل إلي الثقة والهدوء إلا يقيني من عاطفتك أو قولي من حبك . ففيم أزعج نفسي بهذا الموقف الذي وقفه روبيان ؟ وتذكري أن روبيان صديقنا ، وأن له علي حق الاعتراف بالجميل .

– بضع هدايا ، وبضع حليّ ، وشرفات بالمسرح ، هذا لا يكفي لأن أتأمل معه « صليب الجنوب » .

قال باليا متنهداً :

– ليت هذا كل شيء .

– ماذا هنالك أيضاً ؟

– لا فائدة من الدخول في التفاصيل . هناك شيء آخر ... سأحدثك عنه فيما بعد . ويجب أن تكوني واثقة ، على كل حال ، أنه ما من شيء يمكن أن يحملني على التراجع لو رأيت فيما قصصته علي أمراً ذا بال . انــــني لا أرى فيما فيما قصصته علي أمراً ذا بال . وما هو في حقيقة الامر إلا غبي مسكين .

– لا .

نهضت صوفيا . أصبحت هي أيضاً لا تريد بالدخول في التفاصيـل . وتناول زوجها يدها ، لكنها ظلت لا تنبس بكلمة . ان باليا ينظر إليها مبتسماً وقـد أسند رأسه على ظهر الأريكة ، لا يعرف ماذا يقول . وقال بعـد بضع ثوان ان الوقت متأخر وانه سيأمر باطفاء جميـع الانوار ، ثم أضاف بعد صمت قصير :

– طيب ! سأكتب إليه غداً أن لا يدوس عتبة هذا البيت بعد الآن .

ونظر الى امرأته ينتظر منها أن تنهاه عن ذلك ، لكن صوفيا حكت حاجبيها ولم تجب بشيء . وكرر باليا اقتراحه ، ولعله كرره هذه المرة صادقاً ، فقالت له صوفيا في تذمر :

– اسمع يا كرستيانو ، من ذا الذي يطلب اليك أن تكتب اليه رسائل ؟

اني آسفة منذ الآن على اني حدثتك عن الامر . وكل ما هنالك انـني نقلت اليك ما عددته امتهاناً لكرامتي ، وحين اقترحت عليك أن نقطع صلاتنا بالرجل ذكرت أن علينا أن نفعل ذلك شيئاً بعد شيء أو دفعة واحدة !

– ولكن كيف نستطيع أن نقطع صلاتنا به دفعة واحدة ؟

– نغلق باب بيتنا في وجهه . على أنني لا أذهب الى هذا الحد . وفي وسعك أن تفعل ذلك شيئاً فشيئاً ان أردت ...

كان هذا تنازلاً من صوفيا ، وقد قبل باليا هذا التنازل راضياً . لكن وجهه لم يلبث أن اكفهر مرة أخرى ، وترك يد امرأته فجأة بحركة يائسة ، ثم لم يلبث أن أمسك بجسمها وقال لها بصوت أقوى :

– لكنني يا حبيبتي مدين له بمال كثير .

فوضعت صوفيا يدها على فمه ، ونظرت الى الممر مذعورة ، ثم قالت :

– طيب . دعنا من هذا الامر . وسأرى كيف يتصرف بعد الآن . وسأحاول أن أكون أكثر ابتعاداً عنه .. ولكن عليك أنت في هذه الحالة أن تظل كما كنت ، حتى لا يظهر انك على علم بما حدث . سأرى ما الذي أستطيع أن أفعله.

– أنت تفهمين يا صوفيا ، هنالك صعوبات تعترض أعمالي ، هنالك عقبات لم تكن في الحسبان ... استحقاق دفع هنا ، واستحقاق دفع هناك . وما لا أدري أيضاً !.. ومن اجل ذلك ... ولكن يجب أن نحتفظ بالابتسامة يا عزيزتي ... كل ما حدث ليس بذي بال ... أنت تعرفين مدى ثقتي بك

– تأخر الوقت ، هيا بنا الى النوم .

– نعم ، هيا بنا الى النوم .

كذلك ردد باليا وهو يقبل صوفيا على خدها . فدمدمت صوفيا تقول :

– بي صداع شديد . لعل السبب هو الرطوبة ، الا أن يكون تلك القصة الطويلة ... بي صداع شديد حقاً .

٥١

كان باليا قد استحم وحلق ذقنه وارتدى نصف ثيابه وأخذ يقرأ الجرائد بانتظار الافطار ، حين دخلت زوجته في صباح الغد الى مكتبه . كانت شاحبة بعض الشحوب . سألها زوجها :

– ألم يخف الصداع ؟

فخرجت من بين شفتيها جمجمة غير مفهومة ، لا هي نعم ولا هي لا . فأكد لها باليا أن صداعها سيزول في النهار . ان مرده الى تعب الحفلة وتأخر العشاء ... ثم استأذنها في انهاء قراءة مقالة تتصل بشئون الاعمال . ان المقالة تدور حول خلاف بين تاجرين في امر حوالات . فقد نشر أحدهما بالأمس مقالة في هذا الموضوع ، وها هو ذا الثاني يرد عليه اليوم . قال باليا وهو ينهي قراءة المقالة : رد كامل جداً . وشرح لزوجته مسألة الحوالات تفصيلا ، وأوضح مجرى العملية ، وجلا موقف الخصمين ، وتحدث عن الشائعات التي تدور في هذا الصدد ، مستعملا في ذلك كله تعابير تجارية محضة . وكانت صوفيا تصغي إليه وهي تتنهد ، لكن التشوه الذي تفرضه المهنة على صاحبها لا يعبأ بتنهدات النساء ، ولا بكياسة الرجال . ومن حسن الحظ أن طعام الافطار كان قد أعد أثناء ذلك .

لم تطعم المرأة الشابة إلا طبقاً من المرق . وفي الساعة الثانية بعد الظهر ، بينما كانت هي وحيدة ، مضت تجلس في الحديقة أمام باب البيت . وأخذت تستعيد أحداث قصة البارحة . انها في حالة نفسية ملتبسة لا يمكن تحديدها . نصفها عنب ونصفها تين . فهي نادمة على أن حدثت زوجها في الامر ، لكن ذكرى التعليلات التي حاول زوجها أن يقنعها بها تثيرها مع ذلك . وفيما هي غارقة في تأملاتها سمعت كلمات الماجور ترن في أذنيها واضحة متميزة : « هيه . تتأملان جمال ضوء القمر ؟ » . لم يكن ذلك إلا حفيف أوراق الشجر ، لكن أذنيها وجدت فيه اصداء الكلمات التي قالها الماجور في الليلة البارحة . انتفضت صوفيا . لقد كان سيكوبرا قليل التحفظ والكتمان . إنه يجب أن يحشر أنفه في شئون غيره ، هذا صحيح ، ولكن أتراه يمضي الى حد اذاعة الامر ونشره ؟ وتصورت صوفيا أن

الناس أخذوا منذ الآن يشتبهون فيها ويشهرون بها . وراحت تضع الخطط تلو الخطط . لن ترى بعد اليوم أحداً .. بل ستسافر ... في وسعها أن تسافر الى نوفا فريبورجو مثلاً ، أو الى مكان أبعد من ذلك أيضاً .. لقد أسرف زوجها حين طلب اليها أن تستقبل روبيان كأن شيئاً لم يحدث ، وخاصة للسبب الذي ذكره . انها لاتريد أن تعصي طلبه ولا أن تلبيه ، لذلك أصبحت لاتفكر إلا في السفر متعللةً بأي حجة ما . قالت متنهدة :

— هذا كله ذنبي أنا .

نعم ، كان ينبغي لها أن لاتحيط روبيان بتلك العناية كلها ، ولا أن تكون لطيفة معه ذلك اللطف كله ، ولا أن تسمح بنشوء تلك الصداقة الحميمة بينها وبينه .. عدا تلك النظرات التي تبادلاها في الليلة البارحة . فلو أنها فعلت ذلك لما حدث شيء ، هكذا راحت تفكر في ذلك تفكيراً لاحد ولا نهاية له . ان كل شيء يخنق صوفيا الآن . الازهار ، والاثاث ، وجدجد يغني ، وأناس يتحدثون في الشارع ، وقرقعة آنية البيت ، وسائقو العربات ذاهبين آيبين ، وحتى ذلك الزنجي الهرم الذي يصعد الرابية أمام بيتها . ان مشيته المستأنية تلطم أعصابها لطماً .

٥٢

ومر امام البيت شاب طويل ، فحياها تحية طويلة وهو يبتسم ، فردت صوفيا تحيته رغم انها دهشت أشد الدهشة . قالت لنفسها . « من عساه يكون ؟ »

وراحت تتساءل . اين تراني عرفته ، ذلك أن وجهه ليس غريباً عني ، ولا قامته ولا عيناه الواسعتان الهادئتان . اين تراني رأيته ؟ واستعرضت بذاكرتها عدة حفلات شهدتها ، لكنها لم تصل الى نتيجة . وتذكرت آخر الامر حفلة رقص أقامها في الشهر الماضي احد المحامين احتفالا بعيد ميلاده . نعم لقد التقت به هنالك . حتى لقد رقصا احدى الرقصات معا ، وذلك ما

يمكن ان يعد التفاتة منه ، لأنه لم يكن يرقص ابداً . وتذكرت انها سمعته يتحدث بعبارات عذبة جداً عن جمال المرأة قائلاً ان قوامه العينان والكتفان . (نحن نعلم أن صوفيا لا تستطيع أن تحد في هذا احداً) ولم يتطرق يومئذ الى أي موضوع آخر .. لم يتحدث الا عن العينين والكتفين .. كان في الكلام على هذا معيناً لا ينضب .. حتى لقد قص بضع نوادر وقعت له ... صحيح ان بعض هذه النوادر لم يكن شائقاً ، لكن الرجل كان مبدعاً في الحديث كل الابداع . وكان الموضوع الذي يدير عليه حديثه يناسب صوفيا . نعم انها تتذكر الآن كل شيء . ما ان تركها الرجل ليلتئذ حتى جاء باليا يجلس الى جانبها ويقول لها اسم هذا الرجل الذي راقصها ، اسمه الذي لم تدركه ادراكا واضحاً حين قدم اليها قبل ذلك : كارلوس ماريا . (هو ذلك الشخص نفسه الذي عرفناه على مائدة الغداء التي أولمها روبيان) قال لها زوجها وقد تملق غروره أن الرجل اهتم بزوجته خلال تلك المدة الطويلة كلها :

– انه أبرز شخصيات السهرة .

فصححت صوفيا كلام زوجها بقولها :

– من الرجال .

– اما شخصيات النساء فأنت أبرزها .

ذلك ما اسرع باليا بقوله وهو ينظر الى جسم امرأته ، ثم يدير طرفه في القاعة وقد ظهر في وجهه ذلك التعبير الذي تعرفه صوفيا حق المعرفة ، والذي كان لا يسيئها قط ، أعني التعبير عن انه هو السيد والمالك .

حين انتهت صوفيا من تذكر ذلك كله كان كارولوس ماريا قد ابتعد . على أن تذكر هذه الأمور كان هدنة قصيرة في معركة القلق التي كانت قد استولت عليها . كانت تشعر بألم في ظهرها ، وقد هدأ الالم بضع لحظات ، الا انه لم يلبث أن عاودها أشد مما كان . واسترخت صوفيا في قاع المقعد ،

واغمضت عينيها . وحاولت ان تجد سبيلا الى النوم لكنها لم تستطع . ان همومها عنيدة كالوجع الذي تحسه ، بل انها اقسى منه . وكان اصطفاق الأجنحة يقطع الصمت من حين الى حين . انها حمامات بيت مجاور تعود الى اعشاشها . لقد فتحت صوفيا عينيها في اول الأمر مرة أو مرتين عند مرورها ، ثم اعتادت هذه الضجة ، فظلت مغمضة عينيها لترى هل تستطيع حقاً أن تنام ، وبعد فترة من الوقت سمعت وقع اقدام ، فرفعت رأسها ظانة انه كارلوس ماريا في طريق عودته . لكنها رأت ساعي البريد يحمل اليها رسالة من الريف . فتناولت منه الرسالة ، وفيما كان الرجل يخرج من الحديقة تعثرت قدمه بمقعد فسقط الى الارض على طوله ، وتبعثرت الرسائل في جميع الجهات . فلم تملك صوفيا ان تحبس نفسها عن الانفجار ضاحكة .

٥٣

اغفروا لها هذا الضحك . أنا أعرف أن قلقها والليلة المسهدة التي قضتها وخوفها من اقاويل الناس ، أعرف ان ذلك كله يتعارض تعارضاً قويا مع هذه الضحكة التي ليست في محلها . ولكن لعلك ، ايتها القارئة العزيزة ، لم تري في حياتك ساعي بريد يهوي الى الارض على طوله . إن آلهة هوميروس – وهي آلهة لا بشر – كانت تتناقش ذات يوم في الاولمب مناقشة جدية بل حامية . وفيا هي تتناقش اخذت جونون المزهوة المتعجرفة تغار من أحاديث تيتيس وجوبيتر في الثناء على آشيل ، فقاطعت فجأة ابن ساتورن ، فأخذ جوبيتر يرعد ويعصف ، وأخذت زوجته من جهتها ترتعد غضباً . وكان الآخرون لا يزيدون على أن يتنهدوا أو ينتحبوا . ولكن حين تناول فولكان الاناء المملوء بالشراب وأخذ يسقي الحاضرين وهو يعرج ، انطلقت في الاولمب على حين فجأة نوبة جنونية من ضحك لا ينطفىء . لماذا ؟ انك يا سيدتي العزيزة لم ترى ساعياً ينقلب على ظهره في يوم من الايام .

وفي بعض الاحيان لا حاجة إلى سقوطه ، وفي أحيان اخرى لا حاجة الى وجوده ، بل يكفي تخيله أو تذكره . ما من عذاب مهما يكن عنيفاً يمكن ان يمنع ابتسامة عابرة أن تطوف بالشفتين حين تستيقظ في الخيال على فجـــأة ذكرى حادثة مضحكة مهما تكن تافهة . فلندع اذن صوفيا تضحك وتقرأ الكتاب الذي وصل اليها من الريف .

٥٤

بعد خمسة عشر يوماً بينما كان روبيان في بيته دخل عليه زوج صوفيا فجأة . لقد جاء يسأل صاحبه ما الذي حدث له ، وأين اختفى حتى لا يرى قط ؟ أكان مريضاً ، أم هو لا يحفل بأصدقائه الذين لم يوتوا من اليسار مثل الذي أوتيه ؟ تمتم روبيان ببضع كلمات ولم يتم جملته . فلاحظ باليـا أن في الصالة رجلا ينظر إلى اللوحات ، فقال خافضاً صوته :

– سامحني ، لم الاحظ أن عندك زوارا .

– أسامحك ؟ هو صديق مثلك . يا دكتور[1] ، أقدم لك صديقي كرستيانو دي ألميدا أي باليا . أظن إنني قد حدثتك عنه قبل الآن . صديقي الدكتور كاماشو ، جوان دوسوزا كاماشو .

حنى كاماشو رأسه محييا ، وقال بضع كلمات ، ثم أراد أن ينصرف . لكن روبيان أصر عليه أن يبقى . أليسا كلاهما صديقيه ؟ ثم ان ضوء القمر لن يلبث أن يضيء خليج بوتافوجو الرائع .

ضوء القمر – ألا يزال يذكر ضوء القمر ؟ وهذه العبارة « أظن انني حدثتك عنه قبل الآن » ، كل ذلـك أثر في الزائر الجديد تأثيراً جعله يصمت بضـع دقائق . ويجب أن نضيف الى هذا أن صاحب البيت كان لا يعرف ماذا يقول

---

(١) يطلق هذا اللقب في البرازيل مع المحامين ورجال السياسة وعلى جميع الاشخاص الذين لهم مقام هام . (المترجم)

هو أيضاً . وقعد الثلاثة ، روبيان على الاريكة ، وباليا وكاماشو على كرسيين متقابلين . وكان كاماشو محتفظاً بعصاه ، فوضعها على ركبتيه ، ثم أخذ ينقر بها أنفه وهو ينظر الى السقف . وكانت تسمع من الخارج قرقعة عربات وخيول ، تمازجها أصوات بعض الناس . الساعة هي السابعة والنصف من المساء ، بل هي تشارف الثامنة . وطـــال الصمت . لكن روبيان وباليا لم يلاحظا ذلك . وها هو ذا كاماشو يمضي الى النافذة وقد ملّ هذا الوضع ، ثم يهتف وهو يلتفت اليهما قائلا :

– هو ذا القمر قد ظهر .

فقام روبيان بحركة ، وقام باليا بحركة اخرى . ولكن لا تحسبوا انهما قاما بحركتيهما لغرض واحد . أما روبيان فقد أراد أن يتجه إلى النافذة ، وامـا باليا فقد أوشك أن يثب الى عنق صاحب البيت ، لا يدفعه إلى ذلك خوفه من أن يرى نبأ المغامرة ينتشر بين الناس وتذيع حوله الشائعات بقدر ما تدفعـه إليه ذكرى عنف روبيان في قبضه على يدي امرأته ليشدها اليه . ولكن أحداً من الرجلين لم يتم الحركة التي قام بها ... وسرعان ما وضع روبيان ساقا على ساق ، ومال نحو كرستيانو يسأله :

– هل تعلم انني سأتركم ؟

٥٥

كان باليا يتوقع كل شيء الا هذا . وزال غضبه لتحل محله دهشة أضيف اليها شيء من الأسف ، وذلك مالم تكن تتوقعه أنت أيضاً أيها القاريء العزيز ، أليس كذلك ؟ يتركهم ؟ طبعاً . سيغادر ريو دو جانيرو ! هذا هو العقـــاب الذي فرضه على نفسه للسيئة التي ارتكبها في سانتاتيريزا . لقد ندم على ما فعل فوراً ، وهو يشعر الآن بالخجل ، حتى أصبح لا يجرؤ أن يظهر أمام امرأة صديقه . تلك هي الفكرة الاولى التي خطرت ببال باليا . ثم انبثقت في ذهنـــه فروض

أخرى ، منها ن غرام روبيان ما يزال أقوى مما كان ، وأن سفره ليس سوى وسيلة للابتعاد عن موطن هواه . وخطر بباله كذلك أن وراء هذا السفر مشروع زواج . فأحدث له هذا التصور شيئاً من خيبة الامل . وامتزج هذا الاحساس الجديد بما شعر به من أسف للفراق القريب ، وبما شعر به من الغضب الذي أخذ يهدر في قرارة نفسه منذ لحظة . يا لها من فسيفساء عجيبة من العواطف ! كذلك ستقول ايها القاريء . نعم انها فسيفساء عجيبة من العواطف ، ولكن ثق أن الفسيفساء ذات اللون الواحد نادرة جداً في الحياة النفسية . وانما المهم بعد كل شيء ، ما دام التناظر مفقوداً ، أن لا تتنافر الالوان تنافراً شديداً . وذلك حال صاحبنا . فقد نحسب من النظرة الاولى التي نلقيها على مشاعره أن عواطف متنوعة أشد التنوع قد ارتسمت على صفحة نفسه – أقول ذلك للحفاظ على التشبيه بالفسيفساء – لكننا إذا أنعمنا النظر فيها من كثب أدركنا ما في كيانه من انسجام عام ووحدة نفسية ، رغم ما هنالك من تعارض في الألوان .

٥٦

ولكن لماذا كان روبيان بسبيل أن يتركهم ؟ ما هو الباعث على هذا القرار المباغت ؟

في اليوم الذي اعقب حادث سانتاتيريزا ، استيقظ روبيان من نومه مكتئب لمزاج خائر النفس ، حتى انه لم يحسن تناول طعام الافطار . فما من شيء كان في ذلك الصباح يشوقه . انه يدس قدميه في حذائيه شارد اللب فلا هو يتفضل بالقاء نظرة على التحف النادرة أو الثمينة التي يمتليء بها بيته ، ولا هو يطيق أن يحتمل وثبات الكلب الحارة اكثر من دقيقتين ، فما كاد يدخله الى الصالون حتى طرده . لكن كونكاس بوربا استطاع أن يفلت من رقابة الخدم وأن يتسلل الى الحجرة مرة أخرى ، فما كان من روبيان إلا أن لطمه على أذنيه لطمة جعلته يقف عن الوثب دفعة واحدة ، واستلقى على الارض وهو يحدق إلى مولاه .

كان روبيان حانقاً وخجلاً في آن واحد بما أقدم عليه بالأمس . تذكرون أننا رأينا من قبل ، في الفصل العاشر ، ان صاحبنا سرعان مايشعر بعذاب الضمير، رغم ان عذابه هذا سريع الزوال في أكثر الاحيان . وهنا يجب أن نشير الى ماكان يجعل عذاب الضمير هذا مقيماً بعض الشيء . في الحالة التي تحدثنا عنها من قبل كان الأمر أمر رسالة كتبها كونكاس بوربا الراحل ، وهي رسالة تدل دلالة واضحة على اضطراب صاحبها . لقد حرص روبيان على أن لايطلع الطبيب عليها رغم الفائدة التي يمكن أن يجنيها منها العلم وأن تجنيها منها العدالة . فلو قد اطلع الطبيب على تلك الرسالة لذهب عذاب ضميره ، ولكن كان يمكن أن يذهب الميراث أيضاً ، الميراث الصغير الذي كان يتوقع أن يرثه من صاحبه المريض . والآن يعاني ضميره عذاباً من محاولة دفع امرأة الى خيانة زوجها . صحيح أن روبيان كان في قرارة نفسه يحب صوفيا منذ زمن طويل . وصحيح أيضاً أن قوة سحرية دفعته الى الفعل ولكنه ماكان ليجرؤ على أن يكاشفها بحبه تلك المكاشفة التي أساءت استقبالها على ذلك النحو لولا موقف المرأة ولولا هياجه العارض في تلك اللحظة ؛ وبعد أن زالت أبخرة الليل ، أصبح الرجل لايشعر بالخجل فحسب ، بل يشعر أيضاً بعذاب الضمير . لئن تعددت الخطايا أن الاخلاق لواحدة .

ولكن دعونا الآن من العواطف والأفكار التي عصفت بروبيان على هذه الصورة خلال عدة أيام . لقد توقع روبيان في يوم الأحد التالي شيئاً ما ، توقع مثلاً أن تصل اليه بطاقة كالبطاقة التي وصلت إليه في يوم الأحد الماضي ، سواء أوصلت مع البطاقة فاكهة من ثمار الفراولة أم لم تصل . فلما جاء يوم الاثنين كان قد اتخذ قراره : إنه سيسافر الى ميناس ليقضي هناك شهرين . إنه يحس بالحاجة الى الإستجمام في جوّ بارباسينا . عزم على ذلك من دون أن يحسب للدكتور كاماشو حساباً .

كرر باليا سؤاله :

– ستتركنا ؟

– أظن ذلك . سأسافر الى ميناس .

فابتعد كاماشو عن النافذة وعاد الى الجلوس على الكرسي الذي كان قاعدا عليه ، وقال وهو يبتسم :

– كيف تسافر الى ميناس ؟ دعك الآن من ميناس . لسوف تسافر اليها حين الحاجة . وما أظن أن ذلك سيتأخر كثيراً على كل حال .

لم يكن دهش باليا من كلمات كاماشو أقل من دهشة من كلمات روبيان . من أين أتى هذا الرجل الذي يبدو ان له سيطرة كبيرة على صديقه ؟ وألقى عليه نظرة سريعة . انه متوسط القامة ، مستطيل الوجه ، قوى الفكين ، قليل شعر اللحية ، ذو أذنين بارزتين . ذلك كل ما أدركه باليا في هذه اللحظة القصيرة . ولاحظ مع ذلك أيضاً أنه يرتدي قميصاً ناعماً في ترف ، وأنه ينتعل حذائين أنيقين . لكنه لم يستطع أن يلاحظ عينيه ولا ابتسامته ولا اسلوبه في الحديث والحركة ، ولم يتح له أن يلاحظ بداية صلعه ولا يديه المعروقتين الشعراوين .

٥٧

كاماشو رجل من رجال السياسة . تلقى دراساته الحقوقية بكلية (رسيف) وعاد ليستقر في منطقته ويمارس مهنة المحاماة . لكن هذه المهنة لم تكن عنده لا ذريعة . انه منذ كان طالباً في الجامعة قد أنشأ جريدة سياسية ان لم تكن ذات اتجاه واضح معين فقد كانت تعج بافكار مستمدة من هنا ومن هناك ، معروضة باسلوب يمكن ان يوصف بانه جاف ومتنفخ معاً . وفي وسعنا أن نستمد من هذه الجريدة التي اصدرها في صباه بعض افكاره الاساسية .

« النظام في الحرية ، والحرية في النظام : ما من سلطة تسيء استعمال القانون إلا وتخون نفسها ، حياة المبادىء ضرورة أخلاقية للأمم الفتية والأمم القديمة على

السواء ، أعطني سياسة حكيمة أعطك مالية سليمة (بارون لويس) ، يجب أن نغطس في « أردن » الدستور من جديد ، أيها الحكام ، افسحوا المجال للرجال البواسل يكونوا لكم خير سند ، الخ الخ . »

لكنه ادرك وهو في البلد الذي ولد فيه ، أن أمثال بهذه الحكم ليس لها رواج ، وكذلك الأسلوب الذي كتبت به . وسرعان ما فطن حين أنشأ جريدة ثانية الى أن السياسة المحلية ليست بالامر المجرد الى هذا الحد . لذلك عدل عدولاً كاملاً عن تحليقاته الجميلة تلك ، وارتضى أن يركز جهوده في تسمية النواب المحليين ، والاهتمام بالاعمال التي تعود بالمنفعة على المنطقة ، والمشكلات الصغيرة الخاصة بالقرية ، من دون أن أن يَغْفل عن مكافحة الجريدة المعادية ، وعن ملء مقالاته بالاسماء الاعلام وغير الاعلام من كل جنس ونوع . وكان يعنى عناية دقيقة بالنعوت التي يطلقها على الأشخاص . فاذا هاجم الحكومة ألصق بها هذه النعوت حتماً : مشئومة ، متفسخة ، ملطخة بالعار ، فاجرة ، حتى اذا تبدلت الوزارة بتبدل الرئاسة ، اندفع في مناصرتها اندفاعاً لا يضارعه فيه أحد ، فتبدلت النعوت فصارت : فعالة ، رشيدة ، عادلة ، أمينة على المبادىء ، شعلة من حسن الادارة والتدبير ، الخ الخ . ودام هذا النوع ثلاث سنين ، استبد هوى السياسة خلالها بالمجاز الشاب .

وقد أصبح عضواً في مجلس المنطقة ، ثم عضوا في مجلس النواب ، فحاكماً لمنطقة من الدرجة الثانية (فأتيح له أن يرى جرائد المعارضة تغرقه بسيل من النعوت التي كان يستعملها هو من قبل : مشئوم ، متفسخ ، ملطخ بالعار ، فاجر ...) . لقد عرف كاماشو فترات صعود وفترات هبوط ، لكنه لم ينقطع يوماً عن الخطابة والكتابة والنضال العنيد ، سواء في مجلس النواب وفي غير مجلس النواب . لقد انتهى الى الاستقرار في العاصمة عضواً بمجلس النواب تحت شعار المصالحة الوطنية في عهد حكومة مركيز بارانا ، واستطاع أن يحصل على بعض التعيينات التي سعى إليها وتوسط فيها . ولكن لئن كان المركيز يسأله النصيحة في كثير الاحيان ، حتى ليفضي اليه ببعض مشاريعه ، فما من أحد كان يوقن بما يقوله

كاماشو ، لأن كاماشو ، كان لايتردد في الكذب اذا لزم الامر من أجل أن يسبغ على شخصه علو الشأن وخطورة المنزلة .

لكن الأمر الثابت على كل حال هو أن كاماشو يريد أن يصبح وزيراً ، وانه لا يدخر وسعاً للوصول الى تحقيق هذا الهدف ، حتى لقد كان ينتقل من جماعة إلى أخرى تبعاً للظروف سعياً وراء هذا الغرض . كان يلقي في المجلس النيابي خطبا طويلة عن الحكم ، محشوة بالارقام والمواد القانونية وخلاصات التقارير والاستشهادات بنصوص لكتاب فرنسيين (مترجمة ترجمة رديئة) . ولكن المسافة بين الكأس والشفتين كبيرة ، لذلك ظل الشراب الذي كان يمكن أن يطفىء ظمأه بعيدا عن متناول يـــده ، رغم كل ما فعل ، في حين أن اشخاصاً آخرين استطاعوا الوصول إلى هذا الهدف دون أن يبذلوا في سبيله ما بذله هو من حماسة .

ان في السياسة « عوانس » . وكاماشو يدخل الآن في عداد تلك الطبقة الحزينة الكئيبة ، طبقة أولئك الذين يتبدد أملهم في الزواج مع الزمن . لكنه لايجرؤ أن ينسحب من الميدان طائعاً مختارا . وما من أحد مع ذلك يعهد اليـه بأي وزارة حين تشكيل الحكومة ، حتى لو كان يضمر له احسن النيات . وأحس كاماشو بأن نجمه الى أفول ومن اجل ان يتظاهر بأن له نفوذاً لم يكن له منه شيء في حقيقة الأمر ، أصبح يكتفي بالظهور بمظهر الصديق لأصحاب السلطة ، والتحدث على رؤوس الاشهاد عن زياراته للوزراء وكبار رجال الدولة .

ولم يكن من الناحية المادية بغير موارد . ان اسرته صغيرة : زوجـــة ، وابنة تشارف الثانية عشرة من عمرها ، وابن بالمعمودية في التاسعة . والكسب الذي يجنيه من مهنة المحاماة يسد حاجات الاسرة في يسر وبحبوحـة . لكن السياسة في دمه . فهو لا يعنى بغيرها ، ولا يقرأ الا ما يتصل بها ، اما الادب والعلوم الطبيعية والتاريخ والفلسفة والفنون فقد ظلت بعيدة عنه كل البعـد . وحتى في القانون كانت معارفه محدودة . انه لم يحتفظ من الدراسة التي تلقاها في الجامعة الا ببعض طلاء قانوني ، تضاف اليه معرفة بالتشريـع اللاحق وخبرة أتاحت

له مهنة المحاماة أن يحصلها . لكن ذلك كان يكفيه ليرافع إلى القضاء ويكسب رزقـــه .

٥٨

لقد التقى روبيان منذ بضعة أيام أثناء سهرة ذهب يقضيها في منزل مستشار بالبلاط . كان الناس يتحدثون عن احتمال عودة المحافظين الى الحكم ، وعن احتمال حل المجلس . وقد شهد روبيان منذ قليل الجلسة الـــتي طلبت أثناءها حكومة ايتابوراهي الاقتراع على الميزانية ، فكان في تلك السهرة يتحـدث في حماسة عن مشاعره ، وعن الاروقة التي كانت تعج بالناس ، وعن الخطاب الذي ألقـــاه بونيفاسيو ، وعن الاقتراح فالتصويت . . كان واضحاً ان هذه الحماسة لا يمكن أن تصدر الا عن طبيعة ساذجة بعض الشيء ، بل كانت فوضى اشاراته ، وحتى حرارة كلماته ، تسبغ على حديثه بلاغة الصدق . وكان كاماشو يصغي اليـه في انتباه . ثم تذرع بحجة من الحجج ليمضي به إلى أحد الاركان ، وليسر اليـه بتعليقات خطيرة عن الموقف الراهن ، فكان روبيان يرد عليه بهزات من رأسه ، ولا يكاد يقول الا بضع كلمات قصيرة يؤيد بها كلامه ، قال له كاماشو أخيراً :

– لن يبقى المحافظون في الحكم مدة طويلة .

– تعتقد ؟

– هذا مؤكد . هم لا يريدون الحرب[1] ، لذلك لا بد أن يسقطوا حتما . انظر كم كنت نافذ البصيرة حين وضعت برنامج الجريدة !

– أي جريدة ؟

– سنتحدث عن ذلك فيما بعد .

وفي الغد تناولا طعام الغداء معاً في « فندق البورصة » . إن كاماشو هو الذي دعا روبيان . وحدثه عن الجريدة الذي أنشأها منذ بضعة أشهر ، والتي

---

(١) هي الحرب مع باراغواي (المترجم) .

يتخلص برنامجها في نقطة واحدة هي الاستمرار في الحرب مهما يكن الثمن .

لقد كانت الانقسامات في صفوف حزب الاحرار في اوج حدتها ، فبدا له أن خير وسيلة لخدمة حزبه هي أن يجعل له شعاراً حيادياً قومياً .

قال مختتماً كلامه :

– والآن يفيدنا هذا كثيراً ، لان الحكومة تجنح الى السلم . سأنشر منذ الغد مقالاً عنيفاً في هذا الموضوع .

كان روبيان آذاناً مصغية ، وكان نظره لايفارق صاحبه لحظة ، حتى اذا مال كاماشو برأسه الى صحنه انتهز هو هذه الفرصة ليبتلع بضع لقم على عجل . لقد أسكره أن ينفذ هذا النفاذ إلى أسرار السياسة . والحقيقة ان فكرة انخراطه في المعركة بنفسه ليجني من ذلك فائدة ما ، كأن يصبح عضواً في المجلس مثلاً ، كانت تملأ خيال صاحبنا منذ ذلك الحين بأحلام ذهبية . ولم يقل له كاماشو شيئاً غير ذلك . وفي الغد ذهب يزوره ببيته ، لكنه لم يجده . وقد جاء اليوم منذ لحظة ، قبيل وصول باليا على غير ميعاد .

٥٩

ألح روبيان يقول :

– نعم ، ولكن يجب أن أذهب إلى ميناس .

فسأله كاماشو :

– ولماذا ؟

وطرح عليه باليا هذا السؤال نفسه . لماذا يذهب الى ميناس ؟ اللهم الا أن لا يطول غيابه أكثر من بضعة أيام ... أم تراه ملّ العاصمة وسئمها ؟

– آ ... لا .... بالعكس .

بالعكس ، انه في العاصمة سعيد كل السعادة لكن يحن دائماً الى البلد الذي رأى فيه النور ، مهما يكن هذا البلد بشعا ، ومهما يكن موحشاً . وهذا الشعور

يكون أقوى حين لا يترك المرء بلده الا في سن الرجولة . انه يريد أن يرى بارباسينا مرة اخرى . ما من شيء يضارع بارباسينا حتماً . وافلت روبيان من من سيطرة صاحبيه افلاتاً تاماً خلال بضع دقائق . ان حبه لمسقط رأسه يجري في عروقه ، فلا الطموح ولا حب الظهور ولا اللذات العابرة ، لاشيء من ذلك كله يصمد أمام حنينه الى بلده . ولئن انطوى قلبه على شيء من النفاق في بعض الاحيان ، واستجاب لنداء المصلحة كثيراً ، فليس هذا القلب الآن الا قلب إنسان طيب سئم اللذات بل سئم ثروته نفسها .

ونظر كاماشو وباليا احدهما الى الآخر . كانت هذه النظرة أشبه ببطاقة تعارف تبادلها ضميراهما . كانت كافية ليحكم كل منهما على الآخر وليتفاهم معه ... انها خير من أي شرح . نعم يجب أن يحال بين روبيان والسفر . لأن ميناس قد تستأسره الى الابد . ووافقا على أن يسافر الى ميناس ، ولكن شريطة أن يؤخر هذا السفر ... أن يؤخره بضعة أشهر ... وربما ذهب معه باليا حينئذ . ان باليا لا يعرف ميناس ، وهذه فرصة طيبة لزيارتها .

سأله روبيان :

— أنت ؟

— نعم ، أنا . انني أرغب في السفر الى ميناس والى سان باولو منذ مدة طويلة . وما زلنا نرجيء السفر منذ سنة بكاملها من حين الى حين ... ان صوفيا تحب هذا النوع من الاسفار حباً شديداً . الا تذكر ... يوم التقينا في القطار؟ كنا عائدين يومئذ من فارسواس . لكن مشروع السفر الى ميناس لم يفارق خيالنا أبداً . نعم سنسافر نحن الثلاثة معاً .

فتعلل روبيان بقرب موعد الانتخابات ، لكن كاماشو تدخل فأكد له أنه ليس من اللازم أن يسافر الى ميناس لهذا الغرض وان الأولى ان تسحق الافعى من رأسها أي بالعاصمة . وفي وقت روبيان متسع بعد ذلك للسفر الى حيث يحب ، والحصول على جزائه أيضاً . تحرك بطلنا على أريكته جزاؤه ؟ لا شك أن

هذا الجزاء مقعد في مجلس النواب . أمل رائع . ان مثل هذا المطمع لم يدر في خلده يوماً حين لم يكن إلا شيطاناً تعيساً . لكن جنون العظمة يستبد به الآن ، ويثير رغبته في المجد والظهور الى أقصى حدود الإثارة الملهبة . وألح مرة اخيرة على ضرورة ذهابه الى ميناس لقضاء بضعة ايام ، ولكن الحقيقة توجب علي أن أذكر أنه أصبح لا يتمنى أن يوافق صاحبه على سفره .

كان ضوء القمر رائعاً . ان لمنظر الخليج من النافذة جمالاً بالغاً يستحيل على من يقطن ريو ان يقع على مثله في أي موطن من الارض . وكما رأى روبيان في الحلم خيال صوفيا يخطر لحظة من بعيد على سفح الرابية ، ثم يغيب شيئاً فشيئاً ، فكذلك كان صخب الجلسة الاخيرة في مجلس النواب لا يزال يدوي في أذنيه .

ومضى كاماشو الى النافذة ، ثم لم يلبث ان عاد فوراً ، فسأل روبيان :

— كم تمكث في ميناس ؟

— لا أدري بعد . لكن مكوثي هنالك لن يطول .

— على كل حال سنتحدث في هذا الامر غداً .

واستأذن كاماشو بالانصراف . وبقي باليا بضع لحظات ، ليقول صاحبه ان ان من الغريب ان يعود الى ميناس قبل أن يصفي ما بينهما من حساب . فقاطعه روبيان قائلاً :

— أي حساب ؟ ومن ذا الذي يطالب بحساب ؟

فأجابه كرستيانو :

— واضح أنك لست من رجال الاعمال .

— لست من رجال الاعمال . هذا صحيح . لكن المرء يدفع ديونه حين يقدر على دفعها . فكذلك جرت الأمور بيننا دائماً . ولكن من يدري ؟ كن صريحاً . أأنت في حاجة إلى شيء من المال ؟

— لا ... أشكرك أجزل الشكر . هناك صفقة أحب أن أعرضها عليك . لكنني أتركها ليوم يكون لنا فيه متسع من الوقت أكبر . وإنما جئت اليوم

لأراك ، حتى لا أضطر الى أن أنشر في الصحف اعلاناً أقول فيه « مفقود صديق اسمه روبيان العلامة الفارقة : له كلب » .

فاستملح روبيان المزحة . وحين خرج باليا شيعه الى ناصية شارع ماركيز دو ابرانتس . حتى اذا ودعه وعده أن يزوره في سانتاتيريزا قبل سفره الى ميناس .

٦٠

مسكينة ولاية ميناس . حين كان روبيان عائداً الى بيته وحده كان لا يفكر الا في وسيلة تسمح له بأن لا يذهب الى ميناس . ان اقوال صديقيه تترجع في أذنيه كأنها كتبت بأحرف من نار . « هنا يجب ان تقتل الافعى . هنا يجب ان يسحق رأسها » . « صوفيا تحب هذا النوع من الاسفار حباً شديدا . » حقاً ان ولاية ميناس مسكينة .

وفي الغد تلقى روبيان جريدة لم يكن قد رآها من قبل ، هي جريدة « الخفير » . ان الافتتاحية تهاجم الوزارة هجوماً عنيفاً ، لكنها تنتهي بنداء موجه الى جميع الاحزاب والى الأمة بأسرها . « يجب أن نغطس في « أردن» الدستور مرة أخرى » . وقد وجد روبيان المقالة رائعة ، وحاول أن يعرف أين تطبع هذه الجريدة حتى يشترك فيها . انها في شارع آجودا . وذهب الى هناك فور خروجه من منزله . حتي اذا عرف أن رئيس تحريرها ليس الا الدكتور كاماشو هرع يمضي إلى مكتبه .

لكنه كان لا يزال في شارع آجودا حين سمع صرخة موجعة تنطلق فجأة :

— ديوليندو ، ديوليندو .

كذلك كانت تعول امرأة امام مخزن من مخازن الأسرّة .

التفت روبيان فادرك على الفور ما وقع . ان طفلا في الثالثة او الرابعة من عمره يجتاز الشارع امام عربة كانت في تلك اللحظة تهبط المنحدر . وقد صار تحت أرجل الخيل تقريباً رغم ما بذله الحوذي من جهود . لوقفها . فما كان من

روبيان الا ان رمى بنفسه الى العربة فانتزع الطفل من الخطر . وحين تناولته امه من يدي روبيان لم تستطع أن تنبس بكلمة واحدة . كانت شاحبة أشد الشحوب وما تزال ترتجف . وأخذ بعض الاشخاص يشتمون الحوذي ، لكن رجلا أصلع كان في جوف العربة امره أن يتابع طريقه ، فأطاعه . لذلك فان ابا الطفل ، الذي كان في المخزن ، لم يجد العربة حين خرج هو ايضاً . كانت العربة قد انصرفت ، وأخذت تنعطف عند ناحية شارع سان جوزه .

قالت الام :

– كاد يموت . لا أدري ماذا كان يمكن ان يحدث لابني المسكين لولا هذا الرجل .

قام في الحي ما يشبه ثورة . الجيران يدخلون ليعرفوا ما حدث ، والاطفال والسود يتأملون هذه الجلبة الشديدة في الشارع مشدوهين . لكن الطفل الصغير لم يكن قد اصيب الا بخدش في كتفه اليسرى من أثر السقوط .

قال روبيان :

– لا شيء . على كل حال لا تدعوه يخرج الى الشارع هكذا بعد الآن . انه ما يزال صغيراً ...

أجاب الأب بقوله :

– شكراً يا سيدي . ولكن أين قبعتك ؟

فلاحظ روبيان انه قد اضاع قبعته . غير أن صبياً يرتدي اسمالا بالية كان قد التقطها ، وهو الآن يقف على باب المخزن ينتظر ان يستطيع ردهـا الى اصحابها . فأعطاه روبيان بضعة نقود مكافأة له ، وذلك امر لم يخطر ببال الصبي حين مضى يلتقط القبعة ، لأنه لم يفعل ما فعل إلا ليكون له نصيب من المجد في الحادثة . ومع ذلك قبل المكافأة مسروراً ، ولعل ذلك كان اول علم له بثمن الاعمال الخيرة .

قال الأب .

– ولكن انتظر ... أأنت مجروح ؟

كان على يد روبيان قليل من الدم . لقد جرحت راحة يده ، لكن الجرح يسير لم يشعر به إلا في تلك اللحظة . فهرعت ام الطفل تبحث عن مـــاء ومنشفة رغم احتجاجات روبيان الذي قال ان الامر يسير لا يستحق هذا العنـاء كله . وسرعان ماعادت المرأة تحمل الماء ، وفيما هي تغسل له يـده ، مضى زوجها الى الصيدلية المجـاورة يشتري شيئاً من المرهم . حتى اذا عولجت اليـد بالمرهم ربطها روبيـــان بمنديل . ونظفت المرأه قبعته بالفرشاة . وحين ذهب ، أغرقته المرأة وزوجها بوابل من عبارات الشكر لأنه انقذ حياة ابنها . امـا الناس الآخرون الذين كانوا على الباب وفي الشارع فقد أحاطوا به كأنهم أكليل من المجـد .

٦١

دخل روبيان مكتب كاماشو ، فسأله هذا :

– ما لديك ؟

فقصَّ عليه روبيان الحادثة التي وقعت في شارع آجودا . فاذا بالمحامي يغرقه بسيل من الاسئلة عن الطفل وابويه ورقم المسكن ، الخ . لكن روبيان قطـع الاستجواب قطعاً حاسماً . فسأله صاحبه :

– ألا تعرف اسم الطفل على الاقل ؟

– سمعتهم ينادونه ديولندو . ولكن دعنا من هذه السفاسف . لقـد جئت لاشترك في جريدتك . وصلني منها اليوم عدد ، واحب أن أسهم في ...

فأجابه كاماشو بأنه لاداعي الى الاشتراك ... فالجريدة من ناحية الاشتراكات تسير سيراً حسناً . وانما تعوزها الادوات الطباعية . ويجب التوسع فيما تنشره أيضاً . يجب ان نكثر من المواد ، وأن نزيد من عنايتنا بالانباء ، وكذلك بالمتنوعات واخبار البورصة والمرفأ ، ويجب اصدار صفحة تضم رواية مترجمة عن لغة

جنبية ، الخ . وعلى كل حال ، فلا الاعلانات ولا الدعاوة تعوز الجريدة ، ولعل وبيان أدرك ذلك .

– طبعا .

– لقد تم جمع رأس المال كله تقريباً . يجب أن يكون هنـــاك عشرة أشخاص ، يوجد منهم الآن ثمانية . أنا وسبعة آخرون . لم يبق الا أن نجد شخصين أيضاً ، فمتى انضم الينا شخصان آخران اجتمع لنا رأس المال كاملا .

تساءل روبيان بينه وبين نفسه : « ترى ما هو المبلغ المطلوب ؟ »

ان كاماشو صامت الآن ، يقرع حافة مكتبه بموسى ، ويلقي على روبيان من حين إلى حين نظرة مختلسة . وروبيان يطوف ببصره على الحجرة . ان اثاثها قليل . بضع ملفات على منضدة صغيرة الى جانب المحامي ، ورف مليء بالكتب : مؤلفات لوبون ، وبيبيرا اي سوزا ، ودالوز ، ومجموعة قوانين ، واخيراً صورة معلقة بالحائط تجاه المكتب .

قال كاماشو وهو يشير الى الصورة باصبعه :

– هل عرفت صاحب الصورة ؟

– لا ...

– بل أنت تعرفه . أنعم النظر .

– لم اعرفه .. حقاً لا أعرفه . أهو نونس ما شادو ؟

فقال النائب السابق وقد ظهر في وجهه الحزن :

– لا ... يستحيل أن تجد صورة جيدة لنونس ماشـادو . صحيح أن هناك صورة مطبوعة له ، لكنني لا اجدها جيـدة . ان هـــذه الصورة هي صورة المركيز .

– مركيز بارباسينا ؟

– مركيز بارانا . المركيز العظيم . صديقي الحميم ، لقـد حاول ان يجمع الاحزاب لذلك انضممت اليه . لكنه مات قبل الاوان ، ومات معـه العمل

الذي شرع فيه . على أنه لو حاول اليوم أن يتبع تلك السياسة نفسها لوجدني أعارضه . نعم ، لقد انتهى عهد المصالحة ، واليوم حرب لا هوادة فيها . يجب علينا ان نقضي عليهم قضاء مبرماً . اقرأ جريدة « الخفير » انها رفيقة النضال . ستوسل الى بيتك .

– لا

– لماذا ؟

خفض روبيان عينيه حين رأى تكشيرة كاماشو المتسائلة . ثم قال :

– ... لقد عزمت امري . أريد أن اعاون اصدقائي . أن اتلقى الجريدة مجاناً !؟.

– قلت لك . ان كل شيء يسير سيرا حسناً من ناحية الاشتراكات .

– صحيح ... لكنك قلت لي أيضاً انكم في حاجة الى شخصين آخرين لاكمال رأس المال .

– الى شخصين . نحن الآن ثمانية .

– وما مقدار رأس المال ؟

– رأس المال خمسون قونتا ، على كل شخص خمسة .

– عدني مساهما بخمسة قونتات .

فشكره كاماشو باسم المبادىء ، وقال انه كان ينوي ان يدعوه الى الانضمام اليهم ، فذلك حق اكتسبه روبيان بايمانه واخلاصه وحبه للقضايا العامة . اما وانه انضم اليهم من تلقاء ذاته ، فلم يبق لكاماشو الا أن يعتذر اليه عن انه لم يدعه الى الانضمام قبل الآن . واطلعه المحامي بعد ذلك على قائمة المكتتبين وعلى رأسهم هو نفسه . ألم يقدم الجريدة والادوات والاشتراكات وعمله على نحو بطولي حقاً ؟ واراد ان يستدرك ، لكنه كرر يقول بغير تواضع كاذب : عمل بطولي حقاً . لو قال غير ذلك لكذب . لقد كان منذ طفولته

يسحق الافاعي ، وغدت هذه العادة ملازمة له . نه يريد ان يقاتل ، ولسوف يموت وهو في القتال ، ولسوف يكفن بالعلم الوطني .

٦٢

وانصرف روبيان . وفيما هو يجتاز الممر التقى بسيدة فارعة الطول ترتدي ملابس سوداء ، وتسمع لمشيتها هفهفة حرير وقرقعة زجاج . فلما هم روبيان بهبوط السلم سمع صوت كاماشو يصيح بصوت أعلى من صوته المألوف :

ــ أوه . سيدتي البارونة !

فتوقف على الدرجة الاولى . وأخذت البارونة تتكلم بصوت بلوري . ان الموضوع موضوع دعوى. بارونة . ولكن لابد لروبيان أن يتابع هبوطه شاء أم أبى . وها هو ذا ينزل السلم ببطء حتى لايظهر عليه أنه وقف ينصت للحديث . ان عطراً غريباً لطيفاً يتموج في الهواء ... هو العطر الذي خلفته البارونة وراءها. شيء يطيش له اللب . انها بارونة ..واجتاز الباب الخارجي أخيراً ، فرأى مركبة واقفة . كان الوصيف منتصباً بقامته على الرصيف ، والحوذي قاعداً في مكانه ينظر الى الناس وهم يمرون . ان الرجلين كليهما يرتديان الملابس الرسمية . اي غرابة في هذا كله ؟ لاغرابة مطلقاً . انها سيدة تحمل لقباً ، سيدة غنية معطرة ، لعلها لاترفع دعوى الا قتلًا للوقت . الشيء الغريب في حالة روبيان الخاصة هو احساسه، من دون أن يدري لماذا ، بأنه لايزال ذلك المعلم الصغير المسكين ببلده باروباسينا .

٦٣

وفي الشارع التقى بصوفيا تصحبها سيدة متقدمة في السن وامرأة شابة . لكنه كاد لايلقي نظرة على المرأتين المجهولتين ، فعيناه لاتريان الا صوفيا . وتخاطبا دقيقة أو دقيقتين في شيء من الحرج ، ثم تابع كل منهما طريقه . وقد وقف

روبيان بعد قليل ينظر وراءه ، لكن النساء الثلاث كن يتابعن سيرهن دون أن يلتفتن .

قال روبيان لنفسه بعد الغداء : « أأذهب اليوم إلى هناك ؟ » .

وفكر طويلاً ، لكنه لم يستطع أن ينتهي الى اتخاذ قرار . فهو تارة يقول نعم ، وتارة يقول لا لقد وجد سلوكها غريباً ، لكنه تذكر ايضاً انها تبسمت له .. صحيح أن تبسمها كان قليلا ، لكنهــا تبسمت على كل حال . قال لنفسه : اذا جاءت أول عربة من اليمين ذهبت ، واذا جاءت من الشمال لم اذهب . وقعد على المقعد في وسط الصالون ليحسن مراقبة الشارع . وما هي الا لحظات حتى ظهر « طنبر » آتٍ من الشمال . حسم الامر . لن يذهب اذن الى سانتاتيريزا . لكن اللاشعور رد عليه : صحيح أن عليه أن يتقيد بالشرط الذي حدده بنفسه ، ولكن « الطنبر » ليس عربة ، وانما درج الناس على ان يسموا بهذا الاسم انواعاً اخرى من المركبات . وفي هذه اللحظة وصلت من اليمين عربات كثيرة كانت عائدة من جنازة . وذهب روبيان الى سانتا تيريزا .

٦٤

مدت صوفيا يدها اليه في لطف دون أي أثر من آثار الحقد . والسيدتان اللتان كانتا تسيران معها منذ قليل في الشارع هما الآن في البيت بملابس المنزل . وتم التعارف . اما الشابة فهي ابنة خالتهــا ، واما المتقدمــة في السن فهي خالتها .. صاحبة تلك الرسالة التي سببت سقوط ساعي البريد في الحديقة . ان اسمها دونا ماريا أوجوستا . وهي تملك أرضاً صغيرة في الريف وعدداً من العبيد وعليها بضعة ديون . فذلك كل ما تركه لها زوجها عدا الحسرات . والفتــاة تدعى ماريا بنديكتا ، وهو اسم قالت انه لا يعجبها كثيراً لأنه من اسمــاء العجائز ، لكن الام ردت عليها بقولها ان العجائز كن صبايا في زمانهن ، وان ما يحكى عن التناسب بين الاسماء واصحابها لا وجود له الا في خيال الشعراء وكتــاب الروايات . ان اسم ماريا بنديكتا هو اسم جدتهــا بنت لويز

فاسكونسلوس نائب الملك بنته المعمودية ، فماذا تريد خيرا من هذا ؟

قصَصْن ذلك كله على روبيان ، دون أن يبدو على ماريا بنديكتا أنها ترتاب فيه . ومن أجل أن تسوي صوفيا الامور ، أو لسبب آخر ، أسرعت تضيف أن أقبح الاسماء يصبح جميلا اذا كان صاحبه جميلا ، وعلى هذا يكون اسم ماريا بنديكتا ساحراً فاتناً .

وختمت كلامها بأن التفتت الى روبيان وسألته :

– أليس هذا رأيك ؟

فقالت ماريا بنديكتا وهي تضحك :

– كفى مزاحاً يا ابنة خالتي .

ولكن من حقنا أن نعتقد أن الخالة وروبيان لم يفهم أحد منهما تلك الحدّة ، فالخالة قد أخذ يغلبها النعاس ، وروبيان كان يلاعب كلباً صغيراً أسود العينين اهدي صغيراً الى صوفيا . انه حيوان نحيل ، كثير الحركة ، علق في رقبته جرس . ولكن لم يسع روبيان ازاء الحاح صوفيا الا أن يجيب بالموافقة رغم انه لم يعرف الامر الذي يدور عليه السؤال . وزعلت ماريا بنديكتا . والحق انها لم تكن على حظ عظيم من الجمال ، ولا ينبغي أن نسألها ابتسامة مغرية ولا نظرة فاتنة . لكنها تمتاز بالانطلاق في غير تكلف ، وليس فيها شيء مما في بنات الريف من خراقة ، ثم ان بها رشاقة فطرية تعوضها مما قد يعوز ملابسها من الانسجام .

لقد ولدت بالريف وهي تحب الريف . والأرض التي يمتلكها أهلها بالريف قريبة جداً . انها في ايجواسو . فكانت تأتي الى ريو من حين إلى حين لقضاء بضعة أيام ، لكنها ما ان تمكث بها ثماني وأربعين ساعة حتى ينفد صبرها وحتى تشتد رغبتها في العودة إلى منزلها بالريف . ولم تكن على جانب كبير من الثقافة . فقد علموها القراءة والكتابة ، وشيئاً من دروس الدين والخياطة ، ولا شيء غير ذلك . وفي الآونة الاخيرة (كانت وقتئذ في التاسعة عشرة من سنها) ألحت صوفيا أشد الالحاح على ضرورة تعلمها العزف على البيانو ، فوافقت الخالة على ذلك ، فجاءت

ماريا إلى ابنة خالتها فقضت عندها ... ثمانية عشر يوماً . لقد استحال عليها ان تمكث مدة أطول من هذه المدة . كانت في بعدها عن أمها تحس بحزن شديد وكآبة ممضة ... فما لبثت ان عادت الى الريف تاركة استاذها مشدوها مبهوتاً . ذلك انه قد وجد منذ الدروس الأولى ان تلميذته تملك موهبة قوية لتعلم الموسيقى .

– آ ... لا شك أبداً في انها موهوبة جداً .

وقد ضحكت ماريا بنديكتا كثيراً حين نقلت اليها صوفيا رأي استاذها فيها ، وأصبحت منذ ذلك الحين لا تنظر اليه نظرة جد . حتى لقد أخذت تضحك في بعض الأحيان ضحكاً قوياً أثناء الدرس . فكانت صوفيا تقطب حاجبيها من قبيل التأنيب ، كان الرجل المسكين يسأل عما حدث ، ثم يأخذ يعلل هذا الضحك من تلقاء نفسه بأنه ربما كان من ذكريات الصبا راودت خاطر الفتاة ، ثم يستأنف الدرس . لكن ماريا بنديكتا لم تتعلم ، آخر الامر ، لا العزف على البيانو ، ولا الكلام باللغة الفرنسية ، وهو النقص الثاني الذي كانت صوفيا ترى انه لا يغتفر . أما دونا ماريا أوجوستا فانها لم تفهم شيئاً من انزعاج ابنة اختها لهذا الامر . فلم تعلم الفرنسية ؟ وأجابتها ابنة اختها بقولها ان تعلم الفرنسية امر لا بد منه لاجادة الحديث ، وللقيام برحلات ولقراءة رواية ... فكانت الخالة تجيبها بقولها :

– لقد كنت سعيدة دائماً من دون أن أتعلم الفرنسية . وما أهل الريف الذين يتكلمون لغتهم القروية بأكثر شقاء من سكان المدن .

حتى لقد اضافت في ذات يوم قولها :

– ولن يعوزها المحبون بسبب جهلها الفرنسية . ان في وسعها أن تتزوج .. ولقد قلت لها ان في وسعها أن تتزوج متى أرادت ، وانني قد تزوجت أنا أيضاً ، ان في وسعها ان تدعني وحيدة في الريف أموت كما تموت بهيمة هرمة .

– ماما .

– ما الذي يحزنك ؟ سترين حين تُخطبين . فلسوف تسافرين مع الخطيب وتهجرينني . اليك ماريا جوزه ، أليس هذا ما فعلته ؟ انها تعيش فوق ، في ولاية سيبارا[1] .

قالت صوفيا :

– لكن زوجها قاضي صلح .

– قاضي صلح ، أو قاضي حرب ... سيان عندي ... المهم أن العجوز مزروعة في مكانها ... تزوجي ياماريا بنديكتا ، تزوجي ، أسرعي . حين أموت فسأكون إلى جوار ربي . لن يكون معي أولادي ، وانما تكون معي السيدة العذراء ، أمنا جميعاً . تزوجي ، هيا تزوجي .

كان هذا التنقيق كله يهدف الى غاية واضحة محددة ، هي أن تصرف ماريا بنديكتا عن الزواج باثارة شفقتها . واذا لم تصرفها عن الزواج صرفاً تاماً فلا أقل من أن تؤجله ما استطاعت تأجيله . لاأظن أن دونا ماريا أوجوستا قد اعترفت بهذه الخطيئة يوماً لكاهنها ، ولعلها لم تكن تدرك أنها ترتكب خطيئة، فما ذلك عندها الا ثمرة أنانية مردها الى الشيخوخة والمرض . لقد ظلت دونا ماريا أوجوستا تحاط بالحب والعبادة طوال حياتها . كانت أمها تعشقها عشقاً ، وبقي زوجها الى آخر يوم يحبها كما أحبها أول يوم . فلما مات هذان الشخصان نقلت الى ابنتيها ماكانت تشعر به من ظمأ الى الحب . وقد افلتت منها احدى بنتيها حين تزوجت ، فزواج الثانية يهددها اذن بوحدة رهيبة . وهي لذلك تفعل كل ماتستطيع أن تفعله لتحول دون وقوع هذه الكارثة .

٦٥

كانت زيارة روبيان قصيرة . فما أن دقت الساعة التاسعة حتى نهض يستأذن بالانصراف ، وكان يتوقع أن تستمهله صوفيا وأن تطلب اليه أن لايذهب قبل مجيء كرستيانو الذي يُنتظر وصوله من لحظة أخرى . كان يتوقع على الاقل أن

(١) ولاية بالشمال الشرقي من البرازيل (المترجم)

تقول له بحركة فجائية : أتنصرف منذ الآن ؟ ولكن صوفيا ضنت حتى بهذا . . وا كتفت بأن اليه مدت يدها في شيء من ذهول . على أنها كانت طبيعية جداً معه طوال مدة الزيارة ، فليس يبدو عليها أنها تحمل له أي حقد ... لكن عينيها لم تكونا ناعستين كما كانتا من قبل . فكأنه لم يحدث بينهما شيء مما حدث ، بل كأن ذكرى فاكهة الفراولة وضوء القمر قد زالت . كان روبيان يشعر بضيق وحرج ، فلا يدري ماذا يقول ، ولم تكن صوفيا كذلك فقد كانت تعرف ماذا تريد أن تقول حتى المعرفة ، وكانت اذا لزم الامر تنظر اليه وجهاً لوجه هادئة كل الهدوء .

تمتم يقول وهو يحمل بيده قبعته وعصاه :

– تحيتي لكرستيانو .

– شكراً . لقد ذهب يزور أحد الاصدقاء . ولكن يخيل الي انني اسمع وقع خطاه . لا شك في انه هو .

ولم يكن ذلك كرستيانو بل كارلوس ماريا . وادهش روبيان أن يرى كارلوس ماريا هنا ، لكنه لم يلبث أن قدر وجود السيدتين الاخريين هو السبب في مجيئه .. وربما كان أحد اقربائهما .

قال روبيان لكارلوس ماريا الذي قعد الى جانب دونا ماريا اوجوستا :

– كنت خارجاً لحظة وصلت أنت !

فقال كارلوس ماريا وهو ينظر الى صورة صوفيا :

– آ ...

وشيعت صوفيا روبيان حتى الباب ، وقالت له ان زوجها سيؤسفه حتما انه لم يكن بالبيت ، لكن الزيارة التي ذهب ليقوم بها هي من الزيارات التي لا يمكن ارجاؤها .. زيارة تتصل باعمال .. وسيذهب اليه كرستيانو معتذراً .

فاجاب روبيان :

– وفيم الاعتذار ؟

واراد أن يضيف شيئاً آخر ، لكن قبضة يد صوفيا وانحناءاتها في احترام مودعة اياه ، اشارتا اليه أن ينصرف ، فانحنى هو أيضاً . وفيما كان يجتاز الحديقة سمع صوت كارلوس ماريا يقول في (الصالون):

– احتج على زوجك يا سيدتي . انه رجل فاسد الذوق جداً .

فتوقف روبيان .

قالت صوفيا :

– ولماذا ؟

فتابع كارلوس ماريا كلامه يقول :

– بسبب صورتك هـذه التي وضعها في الصالون . فانت في الواقع اجمل منك في هذه اللوحة ، أجمل كثيراً .. قارنّ بانفسكن ياسيداتي .

٦٦

حين عاد روبيان الى بيته وتذكر كلمات كارلوس ماريا قال لنفسه . « يا لهذه البساطة التي قال بها ذلك كله .. ينقد الصورة من اجل ان يمدح صاحبة الصورة . والصورة مع ذلك تشبه صاحبتها شبهاً كبيراً .. »

٦٧

في صباح الغد بينما كان روبيان في سريره ارتجف فجأة . ذلك أن جريدة « الخفير » كانت أول جريدة فتحها ، فقرأ فيها المقالة الافتتاحية ، ومقالة لاحد المراسلين ، وبعض الاخبار ثم وقع بصره فجأة على اسمه .

– ما هذا ؟

نعم انه اسمه ، مطبوعاً بلون احمر قانٍ ممتداً على الصفحة بكاملها . والمناسبة هي الحادثة التي وقعت أمس في شارع آجودا . وبعد الدهشـة الأولى شعر روبيان باستياء شديد . يا لها من فكرة بشعة أن ينشر المرء على هذه الصورة جانباً من حياة الناس الخاصة ، لا سيما إذا عرفه من حديث جرى بين صديقين

وأبى ان يمضي في القراءة ، فهو يعرف ما تشتمل عليه المقـــالة ، لذلك رمى الجريدة ليتناول غيرها . لكنه كان — واأسفاه — قد فقد هدوءه كله ، واصبح لا يستطيع ان يركز انتباهه فيما يقرأ ، فهو ينط بعض الاسطر أو لا يـدرك معناها أو هو يصل الى اخر العمود فيتساءل كيف وصل الى آخره !

حتى إذا نهض عن سريره قعد على مقعد كبير الى جانب السرير وتنـاول جريدة « الخفير » مرة اخرى . وانصب بنظره على النبأ . انه يحتل أكثر من عمود . « أكثر من عمود لأمر تافه هذه التفاهة كلها » . كذلك قال لنفسه . ومن أجل أن يعرف كيف استطاع كاماشو أن يدبج كل هذا الكلام حول الموضوع أخذ يقرأ المقالة قراءة سريعة ، وهو غاضب من هذه النعوت التي نعته بها الكاتب ومن هذا الوصف الدرامي للحادث .

قال بصوت عال :

— استحق ذلك . لسوف يعلمني هذا أن أصون لساني .

واستحم وارتدى ثيابه ومشط شعره ، لكنـه لم يستطع ان ينسى اقوال الجريدة . أصبح يحس بأن كاتب المقالة قد راعاه حقاً بنشر نبأ هـذا الحادث الذي يعده هو تافهاً غير ذي بال ، وراعاه خاصة بمـا أسبـغ على الحادث من خطورة حتى لكأنه أمر سياسي مثقل بالنتائج الخطيرة . وحين جلس روبيان الى المائدة لتناول طعام الافطار عاد فتناول الجريدة ، فقرأ الأنباء الأخرى ، وقرأ قائمة التعيينـــات الحكومية ، وقرأ قصة جريمة وقعت في جارانيونس ، وقرأ التنبؤات الجوية ، الى أن وقع بصره مرة اخرى على المقالة المستنكرة بما يشبه القصد ، فأخذ يقرؤها الآن في تمهل . حتى اذا انهى قراءتهـا ، اعترف بانه لا يستطيع على كل حال أن يشك في صدق كاتبها واخلاصه . أما مبالغات الاسلوب فلعلها ترجع الى ان قصة الحادث قـد أثرت في نفس كاماشو تأثيراً بلغ من القوة أنه أفقده القصد والاعتدال . ذلك امر لا شك فيـه .. وتذكر روبيان دخوله الى مكتب النائب السابق ، وتذكر كيف قص عليه الحادث ،ثم عادت

به الذاكرة أيضاً الى الوراء ، فلاح له الحادث نفسه مرة أخرى . انه الآن وقد جلس جلسة مريحة في حجرة عمله يعيش المشهد من جديد : الطفل ، العربة ، الخيل ، عويل الام ، الوثبة التي وثبها بدافع قوة لاتقاوم ... انه مايزال يجهل كيف حدث ماحدث ... لكأن حجاباً قد أسدل على عينيه عندئذ فجأة ... لقد ارتمى على الطفل والخيل وقد صمت أذناه وعميت عيناه لايبالي الخطر الذي تعرض له هو نفسه ... وكان يمكن جداً أن يبقى هنالك وقد قلبته الخيل وهشمته العجلات ميتاً أو جريحاً ... وهبه جرح فقط ... أليست هذه هي الحقيقة ؟ ليس في وسع المرء إلا أن يعترف بأن اللحظة كانت حرجة ... والدليل على ذلك أن الام والجيران جميعاً ..

وخرج روبيان من تأملاته فقرأ المقالة مرة أخرى . اما انها قد كتبت كتابة جيدة ، فهذا مالا شك فيه . وأعاد قراءة بضع فقرات وهو يشعر بكثير من الرضى . لكأن هذا الشيطان قد شهد الحادث بنفسه ... ياله من وصف حي! ماأرشق هذا الاسلوب ! صحيح أنه بالغ في وصف بعض الوقائع - وهذا يرجع بلا ريب الى سوء الذاكرة - لكن هذه المبالغة نفسها لاتمجّها الاسماع . وشعر روبيان بشيء من الزهو وهو يرى اسمه يتكرر عدداً كبيراً من المرات . « صديقنا ، صديقنا الفذ ، صديقنا الشجاع ... » .

وعند الغداء ضحك روبيان من نفسه . انه لايرى الآن أن استياءه في الصباح لم يكن له مايسوغه . أي غرابة في أن يطلع كاماشو قراءه على حادث وقع فعلًا ، حادث شائق ، مؤثر ، حادث لايقع مثله كثيراً ؟ وحين خرج ، استقبله الناس بالتهنئة عدة مرات ، حتى أن فريتاس سماه سان فان سان دوبول . فكان يبتسم ، ويشكر ويتواضع قائلًا : أمر لايستحق الذكر . وصاح أحدهم :

- لايستحق الذكر ؟ اننا في حاجة إلى كثير من هذه الامور التي لاتستحق الذكر ! لقد انقذت حياة طفل !

وأخذ روبيان يقتنع ببطولته شيئاً فشيئاً ، وظل يصغي ويبتسم . وقص

الحادثة أيضاً على عدد من المستطلعين أرادوا أن يسمعوا نبأها من فم صاحبها نفسه . ورد بعض المستمعين بسرد قصص كانوا هم ابطالها . فهذا انقذ حياة رجل ، وذاك انقذ صبية كانت تستحم في غدير باسيو فأوشكت أن تغرق ... ثم رويت حكايات انتحار أمكن تفاديه بتدخل المنقذ الذي يروي القصة ، اذ انتزع المسدس من بين يدي البائس الشقي ، وحمله على ان يحلف انه . . . وهكذا كشعاع الشمس الذي يسقط على البيض فيفقس ، جاء هذا المجد الجديد الحار ، مجد روبيان ، ففجر على حين فجأة كل تلك الطائفة الكبيرة من المآثر التي كانت الى ذلك الحين مجهولة . وظهر لصاحبنا حساد أيضاً ، ومن هؤلاء الحساد من لم تسبق له به معرفة ، لكنهم غاروا منه لا لشيء الا لأنهم سمعوا المديح يكال له . وذهب روبيان الى كاماشو يشكر له مقالته ، ولم ينس أن يعتب عليه بعض العتب ، لأنه أفشى ما أفضى به اليه . لكن هذا العتب كان ضعيفاً حتى لكأنه تمتمة بأطراف الشفاه . ومضى بعد ذلك يشتري عدداً من نسخ « الخفير » ، ليرسلها إلى اصدقائه ببارباسينا . وما من جريدة أخرى أشارت إلى النبأ ، لكن روبيان عمل بنصيحة فريتاس ، فأعاد نشر الخبر في ركن « بريد القراء » من « جريدة التجارة » .

٦٨

قبلت ماريا بنديكتا أخيراً أن تتعلم الفرنسية والبيانو . لقد ظلت ابنة خالتها تلح عليها في ذلك كل لحظة خلال أربعة أيام ، حتى لقد بلغت من البراعة في اللجاجة أن دونا ماريا اوجوستا قررت أن تعجل العودة الى الريف مخافة أن تنتهي ابنتها إلى الانصياع . والحق ان ماريا قاومت كثيراً ، فكانت تقول ان هذه أمور زائدة ، وان فتاة الريف لاتحتاج أبداً الى فنون المدن هذه . ولكن كارلوس ماريا كان في ذات مساء هناك ، فطلب الى ماريا بنديكتا ان تعزف شيئاً ، فاحمر وجه ماريا احمراراً شديداً ، لكن صوفيا أنقذت الموقف بكذبة فقالت :

– لا تسألها هذا . انها لم تعزف مرة واحدة منذ وصولها . وهي تقول انها لا تعزف في هذه الايام الا لأهل الريف .

فقال الشاب ملحاً :

– هبينا من أهل الريف .

ومن حسن الحظ أنه لم يلبث أن انتقل الى موضوع آخر ، فجعل يتحدث عن الحفلة الراقصة التي أقامتها بارونة بيوهي (وهي تلك البارونة التي صادفها روبيان في مكتب كاماشو) ، فقال انها حفلة رائعة ... آ ... رائعة حقاً ... نعم . وأضاف أن البارونة تقدره تقديراً كبيراً .

وفي الغداة صرحت ماريا بنديكتا لابنة خالتها انها مستعدة لتعلم البيانو والفرنسية والكمان ، وحتى الروسية إذا أرادت . ولكن بقي أن تقتنع الأم . فلما علمت الأم بعزم ابنتها رفعت ذراعيها نحو السماء وصاحت : ماذا ؟ تتعلم الفرنسية ؟ تتعلم البيانو ؟ مستحيل . . والا فلن تكون ماريا بنديكتا ابنتي... وفي وسعها عندئذ أن تعزف على البيانو وأن تغني وأن تتكلم بلغة الرطنطو وباللغة الحثية أو بلغة الشيطان . فلعل الشيطان يأخذهم جميعاً في ذات يوم . لكن باليا استطاع أن يسمعها صوت العقل وأن يردها الى الصواب . قال لها ان هذه الدراسات ، مهما تكن نافلة في نظرها ، فهي الحد الادنى من الثقافة الواجبة لفتاة عصرية .

فقاطعته دونا ماريا أوجوستا تقول :

– ولكنني ربيت ابنتي في الريف وللريف .

– للريف ؟ من ذا الذي يعرف لاي شيء يربي المرء أولاده ؟ لقد كان والدي يهيئني لأن أكون كاهناً ، ومن أجل هذا تعلمت بعض مباديء اللاتينية . انك لن تعيشي ابد الدهر ، ثم ان حالتك المالية أقرب الى الارتباك ، ومن الممكن جداً أن تصبح ماريا بنديكتا وتمسي فاذا هي لا تملك شيئاً البتة ... البتة ؟.. لا ... فاذا ما دمنا احياء سنقاسمها كل ما نملك .. ولكن أليس من

الخير أن يكون المرء بعيد النظر وان يتبصر في العواقب ؟ انهـا تستطيع في المستقبل إذا حدث أن فقدتنا جميعـــاً ، أن تعيش في بجبوحة من مجرد تعليم الفرنسية والبيانو. فيكفي أن يكون في قوسها هذان الوتران حتى تضمن لنفسها مركزاً افضل . وهي جميلة ، كما كنت أنت جميلة في زمانك ، وهي تنعم أيضاً بمزايا خلقية عظيمة . فمن الممكن أن تجد زوجاً ذا يسار . أنت لا تعلمين أن في ذهني منذ الآن شخصاً اريده لها ، شخصاً رصيناً جاداً .

– ها . اذن ستتعلم الفرنسية والبيانو وفن الحب ؟

– فن الحب ؟ ماذا تقصدين بهذا الكلام ؟ أنا لم ازد على أن اشرت الى رأي شخصي ، إلى مشروع تراءى لي انه قـد يحقق سعادتها وسعـادة امها ... كان في ذهني .. ولكن حسبي هذا .. ياخالتي اوجوستا .

وقد ظهر في وجه باليا من الزعل ما حمل الخالة على ابدال لهجتها المرة بلهجة جافة ، دون أن ترضخ . غير ان الليل حمل اليها النصح . ان علمها بحالتها المالية ، واملها في ان يكون لها صهر ثري قد فعلا في اقناعها ما لم تفعله أي حجة من الحجج . ذلك ان الشباب الممتازين في الريف انمـا يصاهرون الاسر الكبيرة التي تملك اطيانا وتنعم بثراء وطيد . وانتهت بعد يومين الى اتفاق وهو أن تمكث ماريا بنديكتا عند ابنة خالتها ، وان تذهبا كلتاهما إلى الريف من حين الى حين ، وان تأتي الخالة الى المدينة في بعض الاحيان لرؤيتهما . حتى لقد قال باليا انه سيحاول متى سنحت الظروف المواتية ، ان يصفي اعمـــال السيدة العجوز بالريف ، وأن يجيء بها الى العاصمة لتستقر فيها استقراراً نهائياً . لكن دونا ماريا هزت رأسها حين سمعت هذا الكلام .

لا تحسبوا ان الامور كلها قد جرت على هذا النحو السهل الذي وصفته . فالحق انه كان هنالك ارتباك وعذاب وأسف وتمرد من جانب ماريا بنديكتا . وبعد عودة الام الى ارضها في الريف بثمانية عشر يوماً ارادت ماريا بنديكتا . ان تزورها ، فصحبتها صوفيا اليها ومكثتا هنالك اسبوعاً . وبعد شهرين جاءت الام الى ريو تقضي فيها بضعة ايام . واستطاعت صوفيـــا بكثير من الحنكة

والدراية أن تعوّد ابنة خالتها على متع المدينة شيئاً فشيئاً : على المسارح والزيارات والنزهات والحفلات والاثواب الأنيقة والقبعات الجميلة والجواهر وما الى ذلك . لئن كانت ماريا بنديكتا قوية الشخصية فهي لا تعدم ان تكون امرأة . لذلك أحبت هذه الطرائف كلها . غير أنها لم تتخل عن اقتناعها الحميم بانها تستطيع ، متى شاءت ، أن تحطم جميع هذه الروابط الواهنة وان تعود الى الريف . وكانت في بعض الاحيان ترى الريف في منامها أو تراه في أحلام اليقظة . وفي ابان الحفلات الراقصة الاولى ، لم يكن هيجان السهرة هو الذي يملأ قلبها حين عودتها الى البيت بل كان الذي يملؤه هو الحنين الى ايجواسو . وكان هذا الحنين يزداد كذلك في بعض ساعات النهار حين يرين على الشارع وفي البيت هدوء كامل . ذلك أن خيالها يطير عندئذ الى شرفة المنزل القديم التي الفت ان تشرب فيها القهوة الى جانب امها . وكانت عندئذ تتذكر العبيد والاثاث القديم والخفين الجميلين اللذين اهداهما اليها عرّابها – وهو مالك من اثرياء المالكين في سان جوان دلري – واللذين لا يزالان هناك ، لان صوفيا لم تسمح لها بأن تحملهما معها الى ريو .

وكان استاذ البيانو وأستاذ الفرنسية يجيدان مهنتها . واستطاعت صوفيا ان تفهمهما سرا ان ابنة خالتها متألمة من انها تدرس وهي في هذه السن ، وسألتهما ان يلتزما الصمت الكامل في شأن هذه الدروس . فوعداها بذلك . واكتفى استاذ البيانو بان قص على بعض زملائه قصة هذا الرجاء الذي تقدمت به اليه صوفيا ، فضحكوا من ذلك ضحكا كثيراً ، وراح كل منهم يقص بعض النوادر عن زبائنه . ومهما يكن من امر ، فان ماريا بنديكتا قد بلغت من سهولة التعلم ومن العناد في الاكباب على الدراسة ان ابنة خالتها نفسها كانت ترى من حين الى حين ان من اللازم أن تقطع عليها عملها لتقول لها :

– ارتاحي قليلا يا ابنتي .

فتجيبها الفتاة ضاحكة :

– بل يجب ان اتدارك الوقت الذي فات .

ومن أجل ان تحملها صوفيا على الراحة كانت تنظم لهـــا عندئذ نزهات

مرتجلة ؛ فتارة تزوران حياً من احياء المدينة ، وتارة تزوران حياً آخر . وكانت ماريا بنديكتا لا تضيع وقتها سدى اثناء ذلك ، فهي في بعض الشوارع تقرأ الاعلانات الفرنسية وتسأل ابنة خالتها عن معاني الكلمات التي تجهل معانيها . لكن ابنة خالتها كانت في بعض الاحيان لا تفوقها علماً بمعاني هذه الكلمات ، لان مفرداتها مقصورة على شئون الازياء ، واحاديث الصالونات لا تتعداها .

على ان ماريا بنديكتا كانت تتقدم بخطى سريعة لا في الفرنسية والبيانو فحسب ، بل في التلاؤم مع الوسط الجديد تلاؤما سهلا لم يكن في الحسبان . حتى لقد اصبحت تنافس صوفيا رغم ما لصوفيا من روح خاصة تسبغ على جميع قسماتها وعلى جميع حركاتها فتنة تنفرد بها . حتى لقد أخذ الناس ينظرون الى ماريا بنديكتا ويلاحظونها الى جانب ابنة خالتها رغم ما بينهما من اختلاف ، بل ان صوفيا التي كانت تمدح الفتاة في كل مكان ، اصبحت الآن تلتزم الصمت حين تمدح الفتاة أمامها ، ولكن دون أن تنقص من قيمتها طبعاً . وكانت ماريا بنديكتا تجيد الحديث ، لكنها إذا صمتت مدة طويلة ، فتلك « لحظات وجومها » على حد تعبيرها . وكانت ترقص رقصة التقابل بغير حماسة ، وذلك امر مستحسن في هذا النوع من السلوى ، وكانت كلفة بالنظر الى الناس وهم يدورون في زوبعة الفالس أو البولكا . وقد ظنت صوفيا أن الخجل هو الذي يمنعها من رقص الفالس أو البولكا ، فارادت أن تعلمها هاتين الرقصتين في البيت بحيث لا يراهما إلا كرستيانو عازفاً على البيانو ، لكن ماريا بنديكتا كانت ترفض ذلك دائماً .

وقالت لها صوفيا ذات مرة :

— هذا آخر معالم توحشك القروي .

لكن ماريا بنديكتا ابتسمت عندئذ ابتسامة بلغت من الغرابة أن صوفيا لم تلح . كانت هذه الابتسامة لا تدل على غضب ولا على أسف ولا على احتقار . احتقار ؟ وفيم الاحتقار ؟ ومن المحقق مع ذلك أن تلك الابتسامة كانت تبدو هابطة من عل . ومن المحقق أيضاً ان صوفيا كانت ترقص الفالس والبولكا في حماسة ،

وانه ما من امرأة أخرى تحسن الاستناد إلى كتف فارسها كما تحسن هي ذلك . وكارلوس ماريا الذي يكاد لا يرقص أبداً ، كان لا يرقص الفالس إلا مع صوفيا ، وكان يقول انه يقبل أن يراقصها دورة أو دورتين فحسب . لكن ماريا لاحظت في ذات مساء انهما رقصا طوال ربع ساعة .

٦٩

عدت الدقائق الخمس عشرة على ساعة روبيان الذي كان جالساً الى جانب ماريا بنديكتا . سألته عن الساعة مرتين : مرة عند بدء الرقص ومرة عند نهايته . وقد مالت الفتاة على الساعة لترى بنفسها عقرب الدقائق .

سألها روبيان :

– أأنت نعسة ؟

فنظرت اليه ماريا بنديكتا خلسة ، فادركت من هدوء وجهه ان سؤاله لا يشتمل على أي سخر . فأجابته بقولها :

– لا ... ولو ارادت ابنة خالتي ان تعود الى البيت مبكرة لساءني ذلك .

– آ... لا ... لن تعود مبكرة وهي لا تستطيع الآن أن تتعلل بصعود سانتاتيريزا ، فبيتها قريب من هنا كل القرب .

والواقع انهما كلتيهما تقيمان الآن في شارع فلامنجو ، والحفلة الراقصة مقامة في شارع آركوس .

ويجب ان أذكر لكم ان ثمانية اشهر قد انقضت الآن على بداية الفصل السابق . وان أموراً كثيرة قد وقعت اثناء هذه المدة . ان روبيان هو الآن شريك زوج صوفيا في محل للاستيراد يقع في شارع الفندق ، ويحمل اسم « باليا وشركاه » ذلك هو المشروع الذي أراد كرستيانو أن يعرضه على صاحبه في ذلك المساء الذي التقى فيه بالدكتور كاماشو ببيت بوتافوجو . وقد تردد روبيان مدة طويلة قبل أن يشارك في المشروع رغم أن كرستيانو قد صوره له عملا مضمون النتائج . لقد طلب اليه أن يدفع مبلغاً كبيراً من المال ، وهو امرؤ لا يفهم شيئاً من شئون التجارة ، ولا يحب ان يعنى بها البتة . أضف

الى ذلك أن نفقاته الشخصية كانت وحدها ضخمة ، وان ما يملكه من مال كان في حاجة الى نظام صارم في التوفير والى أن لا يصرف الا في الوجوه التي ينبغي لرب اسرة أن يصرف ماله فيها ، ثم ان المشروع الذي عرض عليه كان يبدو له غامضاً أشد الغموض ، لأنه لم يستطيع أن يفهم تلك الحسابات المعقدة التي قدمها باليا ، ولا ما اوضحه من تقديرات الارباح وقوائم الأسعار وجداول التعريفات الجمركية . ومن حسن الحظ ان الشروح الشفوية كانت تغني قليلا عن الاضابير الغامضة . فكان باليا يذكر لصاحبه اموراً هائلة كثيرة ، وينصحه بانتهاز الفرصة لتشغيل ماله من اجل مضاعفته .. اما اذا كان لا يثق بصاحبه فذلك امر آخر . وليس على باليا عندئذ إلا أن يشترك في ذلك المشروع مع جون روبرت الذي كان في الماضي شريكا في محل ولكنسون المؤسس عام ١٨٤٤ والذي عاد رئيسه الآن الى انكلترا اذا أصبح عضواً في مجلس النواب .

لم يقبل روبيان المشروع فوراً ، وإنما طلب امهاله خمسة ايام . لقد كان يحس انه حين يخلو الى نفسه يكون اكثر حرية . لكن الحرية لم تزده في هذه المرة الا ارتباكا وحيرة . حسب المال الذي انفقه الى الآن ، وقدر ما سبق أن ضيعه من الثروة الذي اورثه إياها الفيلسوف . وكان كونكاس بوربا راقداً في تلك اللحظة في غرفة صاحبنا ، فاذا هو يرفع رأسه مصادفة ويأخذ يحدق الى مولاه . فارتعش روبيان . انه لم يستطع في يوم من الايام أن يمحو من ذهنه محواً تاماً ان روح كونكاس بوربا الآخر يمكن ان تسكن في جسم الكلب . حتى لقد رأى في عيني الكلب هذه المرة معنى اللوم . ثم ضحك روبيان . هذه سخافة . هل يمكن ان يكون الكلب رجلا ؟ ومع ذلك خفض يده على غير شعور ، واخذ يدلك اذني الكلب كمن يريد ان يستميله اليه .

وبعد استعراض الاسباب التي تدعو الى الرفض جاء دور الأسباب التي تدعو الى القبول . الا يمكن أن يكون المشروع مربحاً ؟ الا يمكن أن يضاعف ثروته حقاً ؟ يضاف الى ذلك أن هذا مركز وجيه ، حتى لقد يعود عليه بفوائد كبيرة عند الانتخاب إذا أراد يوماً أن يرشح نفسه لمجلس النواب

كما فعل الرئيس السابق لمحل ولكنسون . وهناك سبب آخر اقوى . انه يخشى اغضاب باليا اذا هو رفض الاشتراك في المشروع ، ويخشى أن يظهر بمظهر من لا يريد أن يعهد اليه بالمال مع ان باليا قد رد اليه منذ بضعة أيام جزءاً من دينه عليه ، ووعده برد الباقي بعد شهرين .

لم يكن أي سبب من هذه الأسباب ذريعة يختفي وراءها سبب آخر ، وانما هي عرضت لذهنه من تلقاء نفسها . ولم تنبثق صورة صوفيا في خياله الا آخر الأمر ، رغم أنها ظلت طوال تلك المدة ثاوية في اللاشعور . انها احد الأسباب القصوى لما قرره ، لا بل هي السبب الوحيد الذي لا يعترف به . وهز روبيان رأسه كمن يريد أن يطرد الصورة من رأسه ، ونهض . وصوفيا لا تعوزها الحيلة ، فها هي ذي تعود الى لا شعور بطلنا فتعتصم به ، ولما كانت تحترم حق كل انسان في الحرية تركت له ان يقرر طائعاً مختاراً انه سيشترك في المشروع الذي عرضه عليه كرستيانو شريطة أن يعطي بعض الضمانات . هكذا تأسست الشركة التجارية ، وهكذا أسبغ روبيان على زياراته الدائمة مظهراً مشروعاً .

قالت ماريا بنديكتا بعد بضع ثوان من الصمت :

ـ ألا ترى يا سيد روبيان أن ابنة خالتي جميلة جداً ؟

ـ أوافقك كل الموافقة ، دون أن يقدح هذا فيما لك أنت من مزايا .

ـ جميلة وحسنة القوام .

ووافق روبيان كذلك راضياً . وراحا يتابعان بنظراتهما الراقصين اللذين يتموجان الآن في الصالون على أنغام الفالس . ان صوفيا فاتنة . كانت ترتدي ثوباً أزرق قاتماً ، عاري النحر كثيراً (للسبب الذي سبق أن بسطناه في الفصل ٣٥) . ان ذراعيها السافرتين البضتين اللتين يتلامع عليهما بريق الذهب تؤلفان مع كتفيها وصدرها مجموعة متسقة رائعة ، وان جسمها ينسجم مع أضواء الصالون انسجاماً طبيعياً جميلاً . وكان يزين رأسها تاج من اللؤلؤ الاصطناعي ، لكنه يبلغ من جودة التقليد انه يتسق كل الاتساق مع اللؤلؤتين الطبيعيتين اللتين تزينان أذنيها واللتين

كان قد أهداهما اليها روبيان .

ولم يكن كارلوس ماريا الى جانبها بالرجل الدميم فهو كما عرفنا ذلك من قبل رجل حسن القوام ، وما تزال له تلك النظرة الهادئة التي عرفناها فيه على مائدة روبيان ، وليس يتصف بما يتصف به شباب غيره من سلوك متكلف ومن حركات تتصنع الاحترام ، بل كل مافيه يوحي بنوع من الجلال الهاديء اللطيف الكريم . ومع ذلك ، لئن كان واضحاً من النظرة الاولى إنه اذ يراقص صاحبته انما يتفضل عليها ، لقد كان واضحاً كذلك انه كان مزهوا بمراقصة آنق سيدة في هذه السهرة . وهذان الشعوران لايتناقضان ، بل يلتقيان في ذلك الاحساس العميق الذي يتميز به كارلوس ماريا ألا وهو رضاه عن نفسه وإعجابه بها . وعلى ذلك كان وجود صوفيا في نظره عبادة ترفعها اليه احدى المؤمنات . لقد كان كارلوس ماريا لايدهش لشيء . فلو استيقظ ذات صباح فرأى نفسه امبراطوراً ، لما استغرب الا تأخر الوزارة عن المثول بين يديه لتهنئته .

قالت صوفيا :

ـ سأرتاح قليلا .

فسألها مراقصها :

ـ أتعبت أم ... مللت ؟

فقالت :

ـ بل تعبت فقط ...

واستاء كارلوس ماريا من سؤاله الذي يشتمل على الظن الآخر ، فأسرع يبعد هذا الظن قائلًا :

ـ طبعاً ، ولماذا تملين ؟ لكنني أظن أنك تستطيعين ان تبذلي لي هذه التضحية ، وهي أن تستمري في الرقص قليلا . خمس دقائق ؟

ـ خمس دقائق .

ـ ولا دقيقة زيادة ؟ اما أنا ففي وسعي أن استمر الى الأبد .

خفضت صوفيا رأسها . فاضاف كارلوس يقول :

– معك انت طبعاً .

وظلت صوفيا تحدق إلى الارض ، دون أن تجيب ، ودون أن توافق ، وحتى دون أن تشكر . وربما لم يكن ذلك منه إلا ملاطفة ، وفي العادة ان ترد المرأة على الملاطفة بشكر ... وهي لم تسمعه يتكلم على هذا النحو لأول مرة ، حتى لقد سبق أن صرح لها ذات يوم ، منذ مدة طويلة ، بأنها تستحق أن تكون في الصف الاول بين جميع نساء الارض . وأعقب ذلك صمت دام ستة اشهر : اربعة قضتها في بترويوليس وشهرين آخرين لم يظهر خلالها قط . انه لم يستأنف زياراته لها الا منذ مدة قصيرة ، فعاد يقول لها تلك المدائح نفسها ، سواء على انفراد أو على مشهد من الناس . واستمرا يرقصان ، لكنهما يلتزمان الآن صمتاً كاملاً . وأخيراً قطع هو الصمت قائلا : ان البحر في الليلة الفائتة كان يلطم الشاطيء في حنق أمام بيت صوفيا . فسألته :

– هل مررت هناك ؟

– كنت هناك . كنت ذاهباً الى جهة « الكاتيتي » ، وكان الوقت متأخراً ، فخطر لي أن أنزل حتى شاطيء فلامنجو . وكانت الليلة ساطعة الضوء ، فمكثت بين بيتك والبحر قرابة ساعة . أما أنت فأراهن أنني لم أخطر لك على بال . وكنت في أثناء ذلك أكاد أسمع تردد أنفاسك .

حاولت صوفيا أن تبتسم لكن كارلوس ماريا أردف يقول :

– كان البحر يلطم الشاطيء لطماً قوياً ... هذا صحيح ... لكن قلبي كان لايقل عن البحر قوة خفقان ... مع فارق واحد هو أن البحر غبي تتلاطم أمواجه من دون أن يعرف لماذا ، أما قلبي فيعلم حق العلم أنه يخفق لك أنت.

جمجمت صوفيا :

– أوه ....

أكان ذلك دهشة ؟ أكان استياء ؟ أكان ذعراً ؟ تلك أسئلة تعرض دفعة

واحدة . وأحسب أن المرأة الشابة نفسها ماكان لها أن تستطيع الاجابة عنها في وضوح ، من فرط ذهولها حين سمعت تصريح الشاب . ومن المحقق على كل حال انها لم تكذب كلامه . ولا أستطيع أن أزيد على هذا إلا أن جمجمتها كانت من الضعف والاختناق بحيث لم يكد يسمعها . أما هو فقد ظل أمام الناس ساكناً كأن عليه قناعاً ، فلم يعبر عن أي انفعال ، قبل التصريح ولا أثناءه ولا بعده ، حتى لقد احتفظ على أطراف شفتيه بتلك الابتسامة الساخرة المعهودة فيه حين يهزأ بأحد الناس ، كأنما هو قد أطلق نكتة لاذعة . ومع ذلك كانت عيون كثير من النساء تتجسس على وجه صوفيا وحركاتها وأوضاعها ونظرتها المنكسة الى الارض في عناد . وقال لها :

– وجهك يدل على الاضطراب ، فأخفه بالمروحة .

فاذا بصوفيا تأخذ بتحريك المروحة على غير شعور ، ورفعت عندئذ رأسها ، فأدركت انها محط انظار الناس جميعاً ، فامتقع لونها . الدقـــائق تجري سريعة كالثواني . لقد انقضت الدقائق الخمس التي حدداها ... انقضت منذ مدة طويلة ... وأتت الدقيقة الثالثة عشرة ... ووراءها تقفز دقيقة أخرى ، فأخرى... قالت صوفيا لفارسها انها تريد أن تجلس ، فقال لها :

– أوصلك ثم انسحب .

فأجابته بسرعة :

– بل تبقى ...

ثم أضافت مستدركة :

– الحفلة ناجحة جداً .

– نعم ... وأريد أن احتفظ منها بأجمل ذكرى . كل ما سأسمعه من كلام سيكون أشبه بنقيق الضفادع بعد تغريد طائر جميل ، طائر كالطيور التي عندك في البيت . أين تريدين أن أتركك ؟

– الى جانب ابنة خالتي .

٧٠

أخلى لها روبيان مكانه ، ومشى يرافق كارلوس ماريا . اجتاز كارلوس الصالون ومضى الى الحجرة الصغيرة التي تقع عند المدخل وتقوم مقام غرفة لخلع المعاطف . كان في هذه الحجرة عشرة رجال يتحدثون ، وكان روبيان ، حتى قبل الوصول إلى هذه الحجرة ، قد أمسك بذراع كارلوس ماريا في غير كلفة ليسأله أمراً ما . والحق انه كان لا يحفل بهذا الأمر كثيراً ، وانما كان يريد ان يؤخر الشاب قليلاً رجاة ان يحاول النفاذ الى ما يكن من نيات . لقد بدأ يعتقد أن الظن الذي يعذبه منذ زمن طويل قد يكون جائزاً بل صادقاً ، خاصة بعد هذه المحادثة الطويلة ، وبعد موقفها هي ازاءه .

كان كارلوس ماريا لايعرف شيئاً عن الهوى القوى الذي يعصف بقلب « الميناسي » ، هذا الهوى المكتوم المكبوت الذي كان صاحبنا لايرتجي منه الا ماقد تجود به عليه المصادفة ... مكتفياً باليسير اليسير وهو ان يرى حبيبته لا أكثر ، مسهد الليالي رغم ذلك ، دافعاً من ماله كل مايطلبه منه الزوج لأعماله التجارية ... ويجب أن نذكر انه لم يكن يغار من الزوج فعلاقة الزوجين الخالصة لم تثر في نفسه كرها لسيد صوفيا ومولاها الشرعي في يوم من الأيام ، ومرت الشهور تلو الشهور لاتغير عواطف روبيان ، ولا تطفيء آماله. اما أن يظهر له منافس غير الزوج فذلك ما اذهله ، فاذا هو يشعر بصفة الغيرة لأول مرة .

قال كارلوس ماريا وهو يلتفت :

— ماذا ؟

ودخل في الوقت نفسه الى تلك الحجرة التي كان الرجال العشرة يناقشون فيها امور السياسة — كدت انسى أن اقول ان الحفلة الراقصة قد اقيمت في منزل كاماشو لمناسبة عيد ميلاد زوجته . فلما وصل صاحبنا كان الحديث عاما ،

وكانوا يتكلمون جميعا في آن واحد لأن الموضوع واحد : زوبعة من الافكار من كل جنس ونوع ... واخيراً استطاع احدهم – وهو من اصحاب الرأي – ان يسيطر على الحلبة ، فساد الصمت بضع لحظات ، واخذ الآخرون ينصتون وهم يدخنون . قال صاحب الرأي :

– في وسعهم أن يفعلوا ماشاؤا ، لكن القصاص الأدبي لامفر منـــه . وستدفع الأحزاب ديونها مع الفوائد كاملة غير منقوصة الى آخر جيل . إن المبادىء لاتموت ، والاحزاب التي تنسى هذهْ الحقيقة تنتهيْ الى الوحل والمذلة .

وكان هناك رجل آخر شبه اصلع ، لايؤمن بالقصاص الأدبي ، أخذ يشرح رأيه . لكن رجلا ثالثاً لم يلبث أن اشار الى طرد بعض الجباة العامين ، فاذا العقول التي ضلت قليلًا في متاهات العقيدة . تسترجع نشاطها بسرعة : ان هؤلاء الجباة لايؤخذ عليهم شيء غير آرائهم ، وصرفهم لايسوغه أن يكون الذين حلوا محلهم اكفاء ... لكن احدهم متهم باختلاس ... وهناك آخر هو صهر رجـل اسمه ماركز قد اطلق رصاص مسدسه على رئيس مقاطعة سان جوزه دوس كامبوس ... وما قولـكم في العقداء الجدد ؟ الصيد الحقيقي للمشانق .

سأله روبيان حين رآه يأخذ معطفه :

– أأنت ذاهب ؟

– نعم . لقد نعست . هلا ساعدتني في ادخال هذا الـكم ؟ لقد نعست .

– لكنك تبكر في الذهاب . ابق . ان صديقنا كاماشو لا يجب ان يرى الفرسان ينصرفون . من ذا الذي يراقص الفتيات بعدك ؟

فأجاب كارلوس ماريا ، وهو يبتسم ، بانه لايميل الى الرقص كثيرا ، وانه راقص دونا صوفيا لأنها تحسن الفالس حقاً ، فلولا ذلك لما رقص . وقد نعس الآن فهو يؤثر سريره على جوقة الموسيقيين . قال ذلك ومد اليه يده في تعاظم ، فصافحه روبيان وهو مايزال غارقاً في شكوكه .

انه لايعرف كيف يفكر . لماذا يدعها في منتصف الحفلة بـدلاً من ان

ينتظرها ليشيعها حتى عربتها ، كما فعل في المرات السابقة ؟ .. لعل روبيان مخطىء اذن في ظنونه ... واخذ يفكر ، فتذكر ليلة سانتاتيريزا ... يوم تجرأ فصارح المرأة الشابة بعواطفه ، وتناول يدها الجميلة ، يدها الناعمة الرقيقة ... لقد قطع عليها الماجور يومئذ خلوتها . لكن لماذا لم يستأنف مصارحته ؟ انها لم يبد عليها الغضب .. وزوجها لم يلاحظ شيئاً ... وعاد روبيان يتصور ان كارلوس ماريا ربما كان غريمه ، وملأ عليه هذا التصور شعاب ذهنه . صحيح انه انصرف لنعاسه ولكن ماتعليل وضعها ازاءه ؟ واخذ روبيان يذهب الى باب الصالون حيناً ليرى صوفيا ، ثم يمضي يعتصم بركن من الاركان أو يقترب من مائدة اللعب . انه قلق ، مضطرب .

٧١

حين عادت صوفيا الى بيتها ، وأخذت تفض شعرها ، تحدثت عن السهرة حديثها عن سهرة مملة . كانت تتثاءب ، وقالت انها تشعر بألم في قدمها . ولم يؤيد باليا رأيها ، بل قال ربما كانت هي المتعبة ، وإذا كانت تشعر بألم في قدمها فمرد ذلك الى أنها قد أفرطت في الرقص . فأجابته بأنها لو لم ترفض لماتت ضجراً. واستمرت تنزع دبابيس شعرها ، وتضعها في آنية من البلور واحداً بعد واحد. وكان شعرها يتدلى على كتفيها اللذين لا يغللها إلا قميص ناعم من نسيج الكتان. وكان باليا وراءها ، فاذا هو يقول على حين فجأة : ان كارلوس ماريا يجيد رقص الفالس كثيراً فارتعشت صوفيا ثم نظرت اليه في المرآة ، فلاحظت ان وجهه لا يدل إلا على هدوء ، فأجابته مؤيدة رأيه قائلة انه يرقص الفالس رقصاً لا بأس به حقاً ..

– بل رقصاً ممتازاً يا سيدتي .

– ها ، نعم ... تمدح الآخرين لعلمك بأن أحداً لا يقدر أن يحل محلك . أعرفك حق المعرفة أيها المغرور .

فمد باليا ذراعه وأمسك بذقنها واضطرها الى النظر اليه : مغرور ؟ لماذا ؟ لماذا يكون مغروراً ؟

– آي ... لا توجعني .

كذلك قالت صوفيا متأوهة .

فقبل باليا كتفها ، فابتسمت بغير ضيق وغير صداع ، على خلاف ما حدث في تلك الليلة التي انقضت في سانتاتيريزا حين قصت على زوجها تمادي روبيان . لا شك أن هواء البحر أدعى الى سلامة الصحة من هواء الجبال .

وفي صباح الغد أيقظها تغريد عصافير المنزل في وقت مبكر كأنه يحمل اليها رسالة . وتكاسلت على سريرها ، وأغمضت عينيها ، لترى رؤية أوضح . ولكن ماذا ترى ؟ لا شك أن هواء شاطىء البحر أفضل ... وبعد نصف ساعة كانت صوفيا تتكىء على النافذة ، تتأمل الامواج التي تغنى على الشاطىء ، والامواج التي ترتفع بعيداً ثم تتكسر على مدخل المرفأ . والتهب خيال المرأة الشابة فتساءلت أليس هذا نوعاً من الفالس ترقصه الامواج ؟ وطارت هكذا على أجنحة خيالها . ثم وجدت نفسها آخر الامر تنظر إلى الشارع في مواجهة البحر كأنما هي تبحث عن أثر الرجل الذي كان هنالك أول أمس في غيهب الليل ... أحسب أنها استطاعت أن تهتدي أخيراً الى آثار مروره ، وان كنت لا أحلف على ذلك . ومن المحقق على كل حال انها قارنت عندئذ بين ما ترى وبين الاقوال التي سمعتها من الشاب.

« كانت الليلة ساطعة الضوء فمكثت بين بيتك والبحر قرابة ساعة . أما أنت فأراهن أنني لم أخطر لك على بال . وكنت في أثناء ذلك أ كاد أسمع تردد أنفاسك . كان البحر يلطم الشاطىء لطماً قوياً ... هذا صحيح ... لكن قلبي كان لا يقل عن البحر قوة خفقان ... مع فارق واحد هو أن البحر غبي تتلاطم أمواجه من دون ان يعرف لماذا ، أما قلبي فيعلم حق العلم أنه يخفق لك انت ».

ارتعشت صوفيا وحاولت أن تنسى هذه الكلمات ، لكن الكلمات كانت تأبى الا أن تتردد : « كانت الليلة ساطعة الضوء ... » .

٧٢

وبين جملتين شعرت بأن شخصاً يضع يده على كتفها . انه زوجها قد عاد من أقطاره وهو الآن ذاهب الى مركز المدينة . وها هو ذا يودعها في حرارة ، ويوصيها خيراً بماريا بنديكتا التي استيقظت ممتلئة بالأفكار السود .

صاحت صوفيا قائلة :

– استيقظت ؟

فأجابها كرستيانو :

– وجدتها في قاعة الطعام حين نزلت ، وقد استبدت بها تلك الرغبة في العودة الى الريف منذ صحت من نومها . لقد رأت حلماً ... لا أدري ماذا ...

– وجوم جديد ...

قالت صوفيا ذلك ، وبيدٍ رشيقة خفيفة اصلحت ربطة عنق زوجها ، ورفعت جيد سترته ، وودع كل منهما الآخر . ونزل باليا وخرج ، وظلت صوفيا واقفة على النافذة . وقبل ان يختفي عند ناصية الشارع التفت الى وراء ، فلوح كل منهما للآخر بيده على عادتها .

٧٣

« كانت الليلة ساطعة الضوء ، فمكثت بين بيتك والبحر قرابة ساعة ... اما أنت فأراهن ... »

وحين استطاعت أن تنتزع نفسها من أحلامها آخر الأمر ، كانت الساعة ، تحت ، تدق التاسعة . فحلفت صوفيا ، وقد غضبت من نفسها وعذبها ضميرها ، حلفت بأقدس ما عندها ، انها لن تفكر في الحادث بعد اليوم ابداً . قالت لنفسها انه حادث تافه لا يستحق ان تفكر فيه ، وان غلطتها الوحيدة هي انها سمحت للشاب أن يتمادى في وقاحته الى آخر حدودها . لكن عذرها في هذا انها لعلها تفادت بذلك وقوع فضيحة رهيبة ، لأن الشاب كان يمكن أن لا يتورع عن مرافقتها إلى

مقعدها وعن الاستمرار في مصارحتها على مرأى ومسمع من جميع الناس . وكان ذلك التصريح ما ينفك يتردد في ذاكرتها بتلك الكلمات نفسها وذلك الصوت نفسه : «كانت الليلة ساطعة الضوء ، فمكثت بين بيتك والبحر قرابة ساعة ...» .

٧٤

بينما كانت صوفيا تردد لنفسها التصريح الذي سمعته البارحة ، كان كارلوس ماريا يفتح عينيه ويتمطى ؛ وقبل أن ينهض من فراشه ليستحم ويرتدي ملابسه ويمضي في نزهة على الحصان ، أخذ يتذكر أحداث الأمس . تلك عادة من عاداته . انه لا يعدم أبداً أن يقع على حادثة أو كلمة أو أمر يسير يمكن أن يتملق غروره . هذه وقفة يقفها فكره للراحة ... هي مرحلة من الطريق يضع فيها قدمه على الارض ليسترد أنفاسه وليشرب على مهل بضع جرعات من الماء البارد . فاذا لم يجد أي حادثة ترضيه كل الإرضاء ، أو اذا لم تعد الى ذاكرته الا الوقائع التي لا ترضي لم يسئه ذلك ، فحسبه أن يتذكر كلمة قالها هو نفسه ، وحسبه أن يشعر بأنه عاش ، وان يستمتع بهذا الشعور ، حتى لا يعد أمس يوماً ضائعاً .

وظهرت صوفيا في ذكرى أحداث البارحة ، بل ظهرت من موكب هذه الأحداث في مكان بارز .. وتذوق كارلوس ماريا مرة أخرى الحديث الذي دار بينه وبين المرأة الشابة . لكنه حين وصل من استعراضه إلى تصريحه بالحب ، امتزج رضاه بشيء من الانزعاج . ترى ألم يسرف في الأمر ؟ ألم يورطه هذا الأمر في عهد أو حرج أو التزام ؟ وهب حسنات التصريح تفوق سيئاته ، فان كارلوس ماريا ظل يتردد بين ما للأمر وما عليه ، فلم يعرف ما هو الشعور الذي ينبغي ان يستسلم له . وحين تذكر انه قص على صوفيا نزهته الليلية على شاطىء فلامنجو ، لم يستطع أن يمتنع عن الضحك ، لان القصة كلها محض تلفيق . قد خطر بباله أن يخترع القصة أثناء الحديث ، فهو لم يذهب الى فلامنجو في الليل ، ولا راوده في لحظة من اللحظات أن يفعل ذلك . وانقطع أخيراً عن الضحك ،

وسرعان ما ندم على هذا الإفراط في المرح . إن اللجوء الى تلك الكذبة ينقص قدره في نظر نفسه . وخطر بباله أن يذكر الحقيقة لصوفيا في اول اجتماع يلقاها فيه ، لكنه لم يلبث أن أدرك أن تصحيح الموشح شر من الموشح نفسه ، وأن هناك موشحات كاذبة لا يعوزها الجمال الشعري .

واسترد تفاؤله . ورأى بخياله قاعة الرقص ، والنساء ، والرجال ، والمراوح تحركها أيدٍ نافدٍ صبرها ، والشوارب المشعثة من الحنق . وشعر بعطر الحسد والإعجاب ينتشر حوله . والحسد حسد غيره طبعاً .. أما هو فمبرأ من هذا العيب . والحسد والاعجاب اللذان يتخلجان في قلوب الآخرين هما ما يحدث في قرارة نفسه أكبر فرح . إن ملكة الحفلة قد ترامت عليه .. بهذا كان كارلوس ماريا يعبر عن التفوق الذي كان يريــد أن يخلعه على صوفيا .. مع شعوره بأن فيها عيباً هاماً هو نشأتهـا وتربيتها ، ذلك انه يرى أن ما تصطنعه هذه المرأة الشابة من آداب السلوك ليس من فطرتها وإنمـا هو مكتسب في وقت متأخر ، قبيل زواجها ان لم يكن بعده ، وما تزال آدابها حتى اليوم لا تفوق كثيراً آداب بيئتها .

٧٥

وانبثقت في خياله صور نساء أخريات يؤثرنه على غيره من الرجال لجمـال حديثه ومفاتن جسمه . ترى هل هو طامع فيهن جميعـاً ، يستحيل أن نعرف ذلك ، لعله طمع في بعضهن ، ولكن ممـا لا شك فيه أن صحبة كل واحدة منهن كانت تهيء له لذة متجـددة دائمـاً . ان اخلاق بعضهن فوق كل شبهة ، ومع ذلك يسرهن أن يجتذبنه اليهن ، فيستمتعن بصحبة الفتى الجميل ، دون أن تتعرض فضيلتهن لأي خطر ، مثلهن كمثل المشاهد الذي يتلذذ بغرام عطيل ، لكنه يخرج من المسرح دون أن يكون عليه أن يلوم نفسه على قتل ديدمونة .

فكأن جميع النساء يحطن بسرير كارلوس ماريا كاكليل من الأزهار . لسن

جميعاً في ريعان الصبا ، لكن امتياز المظهر يعوض عن نضارة الشباب . وهذا كارلوس ماريا يستقبلهن كمثل اله من آلهة القدماء كيف يستقبل عابداته الجميلات مع قرابينهن ، وهو جامد في المرمر المقدود منـــه . إن كارلوس ماريا يميز أصواتهن في وسط الدمدمة الشاملة ، لا يميزها كلها في الحق دفعة واحدة بل يميز ثلاثة منها أو اربعة في آن واحد .

وكان صوت صوفيا آخر صوت . أنصت اليه كارلوس ماريا وهو لا يزال يشعر ببقية من حب ، لكنه لا يحس تلك الحماسة التي ألهبت نفسه اول الأمر ، لأن ذكرى النساء الاخريات — وهن يمتزن جميعاً بمزايا كبيرة — تقلل الآن من شأن المرأة الجديدة التي تم اقتناصها . على أنه لا يستطيع أن ينكر انها كانت جذابة جداً ، وانها كانت ترقص الفالس معه رقصاً رائعاً . أتراه يقع في هواها آخر الأمر ؟ ها هو ذا يتذكر في هذه اللحظة قصة النزهة التي زعم أنه قام بها على الشاطىء ، فينهض عن فراشه مستاءاً معتكر المزاج . ماذا دهاني حتى لفقت هذه القصة ؟ وعاد يشعر بالرغبة في ذكر الحقيقة . انه يشعر الآن بذلك شعوراً أقرب الى الجد . ويقول في نفسه « الكذب خليق بالخـــدم واضرابهم .. »

وبعد نصف ساعة كان كارلوس ماريا يمتطي صهوة حصانه ويخرج من بيته الواقع في شارع « الانفاليد » . واذ كان يسير في اتجاه « الكاتيتي » تذكر أن بيت صوفيا يطل على شاطىء فلامنجو فلا عجب ان مال بالزمام قليلا ، فهبط احد الشوارع العمودية على البحر ، ليمر أمام بيت المرأة الجميلة التي تحسن رقص الفالس . لعلها الآن واقفة على النافذة ، ولعله سيراها تحمر قبل أن تحييه . ذلك كله طاف بخاطر الشاب في بضع ثوان .. حتى لقد عطف الزمام .. لكن قلبه — لا الحصـــان — جمح عندئذ متمرداً : أليس يسرع في الجري وراءها بعض السرعة ؟ ومال بالزمام الى الجهة الاخرى واستمر في نزهته .

٧٦

ان كارلوس ماريا يجيد ركوب الخيل . والناس الذين يمرون بذلك المكان أو يكونون على أبواب بيوتهم لا يملون من الاعجـــاب بقامة الفتى ، وسهولة حركته ، وجمال وضعه . تبدو عليه وهو فوق جواده هيئة الأمراء ، وهو يستقبل هذا الاعجاب على غموضه في سمـاحة (وهـذا التساهل هو الشيء الوحيد الذي يمن به على العامة) فمتى كان الأمر امر اجلال له رأيته يعد جميـع الناس بشراً على حد سواء .

٧٧

ـ استيقظت ؟ استيقظت ؟

هكذا قالت صوفيا حين وجدت ابنة خالتها تقرأ الصحف .

فانتفضت ماريا بنديكتا ، لكنها لم تلبث أن استردت هدوءها . لقد نامت نوماً مضطرباً واستيقظت في ساعة مبكرة . قالت : انني لم اخلق لمثل هذه السهرات التي تنتهي في وقت متأخر . فأجابتها الاخرى على الفور بأن عليها أن تتعود ذلك ، فالحياة في ريودوجانيرو ليست كالحياة في الريف حيث ينام الناس مـع الدجاج ويستيقظون على صياح الديكة . ثم سألتها عن رأيها في الحفلة الراقصة ، فرفعت ماريا بنديكتا كتفيها في غير مبالاة ، وتمتمت تقول انها حفلة ناجحة جـدا ، لكن صوتها كان من الانخفاض بحيث أن الكلمات القليلة التي أرادت أن تنطق بها لم تكد تسمع . وفي أثناء ذلك قالت لها صوفيا انها قد رقصت كثيراً الا الفالس والبولكا ، فلماذا لم ترقص الفالس والبولكا أيضـاً ؟ فرشقت الفتاة ابنـة خالتها بنظرة حانقة وقالت :

ـ لا احب ذلك ؟

ـ كيف لاتحبين ذلك ؟ هو الخجل .

ـ الخجل ؟

– اعني انك لم تتعودي .

– بل أنا لا أحب أن يشدني رجل الى صدره ، ويجعلني بين ذراعيه ، ويمضي يطوف بي على هذا النحو امام جميع الناس . انني اجد ذلك مؤذياً .

فما ان سمعت صوفيا هذا الكلام حتى اكفهر وجهها فلم تجب بشيء ، وغيرت موضوع الحديث . اخذت تتكلم عن الريف ، وسألتها هل صحيح انها راغبة في العودة الى بيتها كما قال كريستيانو . فأجابتها ماريا بنديكتا في قوة بينما هي تقلب الجرائد على غير هدى :

– نعم . انني لا اطيق أن أعيش بعيدة عن أمي .

– ولكن لماذا ؟ ألست سعيدة معنا ؟

فلم تجب ماريا بنديكتا بشيء ، بل كزت شفتيها وأخذت تجيل نظرتها في احدى الصحف ، كأنها تبحث عن شيء ما . كان واضحاً انها مضطربة قلقة . واصرت صوفيا على ان تعرف اسباب هذا التبدل المفاجىء ، وامسكت يديها ، فوجدتها باردتين .

قالت لها اخيراً :

– يجب أن تتزوجي . وعندي لك خطيب .

الخطيب هو روبيان . لقد كان باليا يريد ان يصل الى هذه النتيجة . انه يريد ان يزوج قريبته لشريكه ، فبذلك يظل كل شيء في داخل الاسرة . هذا ما كان يقوله باليا لامرأته . وقررت زوجته أن تتولى الامر بنفسها ، وقد سنحت الآن فرصة الوفاء بوعدها . ان في قبضة يدها خطيباً لماريا بنديكتا .

سألتها ماريا :

– من هو ؟

– واحد .

هل تصدقون أن صوفيا لم تجرؤ أن تنطق باسم روبيان ؟ ... لقد قالت لزوجها مرة أنها حدثت ماريا بنديكتا في الامر مع ان شيئاً من ذلك لم يحدث .

وها هي دي الآن تريد ان تقدم اقتراحها فعلا ، فيأبى الاسم ان يخرج من فمها . انه لغريب حقاً من هذه المرأة ، التي لا تشعر نحو روبيان بأي حب ، ان ترفض تقديمه لابنة خالتها . لكن الطبيعة قادرة على كل شيء ياسيدي العزيز . ان الطبيعة التي خلقت غيرة عطيل ، وخلقت غـيرة فارس جريو ، استطـاعت كذلك ان تخلق هذه الغيرة الاخرى ، غيرة امرأة تأبى أن تتخلى عن رجـل لاتريد أن يكون لها .

كررت ماريا بنديكتا سؤالها :

– ولكن من هو ؟

فاجابتها صوفيا :

– سأقول لك فيما بعد ، دعيني الآن ارتب الامور .

وانتقلت الى موضوع آخر .

فتغيرت هيئة ماريا بنديكتا . ان ابتسامة تعـبر عن الفرح والامـل تضيء الآن وجهها . وان عينيها تفيضان بمعاني الشكر ، حتى لكأنهما تريـدان ان تقولا شيئاً ما ، شيئاً غامضاً لايستطيع أحد أن يسمعه بله أن يفهمه .

– انها تحب ان ترقص الفالس . ثم ماذا ؟

من التي تحب ان ترقص الفالس ؟ ابنة خالتها . لقد رقصت كثيراً في الليلة البارحة مع كارلوس ماريا حتى ظن ان الرقص لم يكن الا حجـة . أن ماريا بنديكتا مقتنعة الآن بانها هي الدافع الوحيد الى هذه الخلوة الطويلة بين كارلوس ماريا وبين ابنة خالتها ... لقد تحدثا طويلا بـين الرقصات ، ولا شك أن الحديث كان يدور عليها هي ، لان ابنة خالتها تنوي أن تزوجها منه ، لكنها طلبت اليها ان تدع لها تدبير الامور . ربما كان كارلوس ماريا يراها دميمـة أو ثقيلة الظل . ولكن مادامت ابنة خالتها ستدبر الامور ! .. ذلك كل ما كان يقرأ في عيني الفتاة الملتمعتين .

٧٨

ذلك عن الفتاة ، أما روبيان فانه لم يتخل عن شكوكه بمثل هذه السهولة . وقد قرر أن يتحدث الى كارلوس ماريا ، حتى لقد ذهب إلى شارع الانفاليد في اليوم التالي ثلاث مرات . لكنه لم يجده ، فغير رأيه ، ولزم بيته بضعة أيام لا يخرج ، الى أن انتزعه من عزلته الماجور سيكورا ، اذ جاء يبلغه انه يقيم الآن في شارع « ٢ كانون الاول » . وقد أعجب الماجور اعجاباً شديداً بالبيت المترف الذي يسكنه صاحبنا ، وبما يضمه من زخرف وتحف ومذهبات وستائر وما الى ذلك . واتخذ من ذلك مناسبة للافاضة في حديث طويل عن أثاث قديم ما يزال يحفظ ذكراه ... ثم توقف عن الكلام فجأة ليقول لروبيان انه يجده حزينا مكتئب المزاج ، وان هذا طبيعي لأن ثمة شيئاً يعوزه :

– صحيح انك سعيد ، لكن هذا البيت يعوزه امرأة . يجب ان تتزوج . تزوج ثم قل لي بعد ذلك هل أنا على حق !

فتذكر روبيان السهرة التي قضاها في سانتا تيريزا ، السهرة التي دار فيها ذلك الحديث بينه وبين صوفيا، فأحس برعشة تسري في ظهره. لكن اقوال الماجور لاتشتمل على شيء من السخر ، ولا تخفي وراءها أي مصلحة . ان ابنته ما تزال على حالها التي تركناها عليها في الفصل الثامن عشر ، مع فارق واحد وهو أنها بلغت الأربعين من سنها . انها الآن في الاربعين وعانس . لقد بكت في يوم عيد ميلادها منذ الصباح . لم يزدن شعرها بوردة ولا شريط . وما من احتفال . ولا شيء إلا حديث طويل من أبيها على مائدة الإفطار عن طفولتها ، وبضع نوادر عن أمها وجدتها ، وعن القناع الذي لبسته في حفلة متنكرة ، وعن حفلة تعميد عام ١٨٤٨ وعن الدودة الوحيدة التي عاشت في احشاء كولونيل يقال له كاودوميرو ، لا شيء إلا ركام من الذكريات يمكن أن يقتل الوقت . لكن تونيكا لم تصغ إلى حديثه إلا قليلا لأنها كانت غارقة في أفكارها ، وكانت تذوق منذ الآن تلك المرارة الرهيبة ، مرارة العزلة الروحية التي ستعيش فيها ، آسفة أشد الأسف في الوقت

نفسه على ما بذلت من جهود في سبيل العثور على زوج . أربعون عاماً . لقد آن أوان التوقف .

لكن الماجور لم يكن في رأسه شيء من هذا كله ، وكان صادقاً كل الصدق : كان يجد أن بيت روبيان ليس فيه روح . وكرر يقول وهو يستأذن بالانصراف:

– تزوج ثم قل لي بعد ذلك هل أنا على حق !

٧٩

وما ان خرج الماجور حتى ارتفع صوت بهذا السؤال :

– ولم لا ؟

فنظر روبيان حوله مذعوراً فلم يجد الا الكلب ساكناً ينظر اليه . لقد كان من السخف بمكان أن يظن السؤال صادراً عن كونكاس بوربا – أو قل عن كونكاس بوربا الآخر المتقمص جسمَ الكلب – لذلك ابتسم صاحبنا في احتقار ؛ لكنه في الوقت نفسه كرر الحركة التي وصفناها في الفصل التاسع والستين ، فمد يده وأخذ يحك أذني الكلب وعنقه في حنان ، لاعتقاده أن من شأن هذا أن يرضي الراحل إذا صح رغم كل شيء أنه متقمص جسمَ الكلب ...

هكذا ازدوج بطلنا ، ولكن أمام نفسه من غير جمهور يراه !

٨٠

غير أن الصوت كرر يقول : « ولم لا ؟ » واستمر روبيان يفكر .

نعم ، لماذا لا يتزوج ؟ لعل ذلك أن يخلصه من هذا الهوى الذي يفترسه شيئاً فشيئاً بلا أمل ولا عزاء . ثم ان الزواج باب يطل على المجهول . نعم ، يجب أن يتزوج ، أن يتزوج بسرعة ، أن يعرف كيف يتزوج .

كان قريباً من مدخل الحديقة حين أخذت هذه الفكرة تشغله . ثم عاد الى داخل البيت ، بعد ان صعد درجات المصطبة وفتح الباب ، وهو لا يعي شيئاً

البتة . وفي اللحظة التي أغلق فيها الباب ردته الى الواقع وثبة كونكاس بوربا الذي كان يرافقه . أين الماجور ؟ وأراد أن ينزل مرة أخرى ليجده ، لكنه لم يلبث ان تذكر انه قد شيعه حتى الشارع منذ لحظة . لقد فعلت ساقاه كل شيء . قادتاه وحدهما ، فما اصطدم بشيء ولا ضل السبيل ، من اجل ان تبيحا لرأسه ان ينصرف إلى تأمله انصرافاً أكمل . مرحى للساقين الطيبتين ! الساقين العزيزتين ! ما عسى يفعل الفكر لولاهما ؟

يا للساقين العظيمتين ! لقد ظلتا تقودانه حتى أوصلتاه الى الأريكة ، وتمددتا معه في رفق ، بينما استمر فكره يتعمق في فكرة الزواج هذه . الزواج وسيلة للهرب من صوفيا . وربما كان أكثر من ذلك ايضاً ...

نعم ، ربما كان ايضاً وسيلة لأن تسترد حياته وحدتها التي فقدتها بتغير البيئة والثروة . غير أن هذا الرأي لم يأت من فكره حقاً ، ولا من ساقيه ، وإنما أثاره شيء آخر لم يستطع أن يميزه تمييزا حسناً ولا تمييزاً سيئاً ، شأنه في ذلك شأن العنكبوت . ماذا يعرف العنكبوت عن موزارت ؟ لا شيء . والعنكبوت مع ذلك يصغي الى نشيد من أناشيد الموسيقي الكبير مسروراً . والقط الذي لم يقرأ يوماً الفيلسوف كانت ، ربما كان حيواناً متفلسفاً . الحق ان الزواج قد يكون هو الخيط الذي يتيح له أن يسترد ما افتقده من شعور بالوحدة . ان روبيان يشعر الآن بكل ما تشتمل عليه حياته من تفكك . حتى أصدقاؤه الذين يحبهم كثيراً ويتملقونه كثيراً يسبغون على حياته طابع الرحلة .. رحلة يتغير فيها اللسان دائماً بتغير البلد ، فهو التركية تارة ، وهو الاسبانية أخرى ، وهكذا دواليك ... وان صوفيا لتسهم في خلق هذه الحال . انها متغيرة أشد التغير ، متبدلة أشد التبدل . فالايام تمضي تلو الايام وصاحبنا يسعد على وجه ، ولا تخيب آماله على وجه .

كان روبيان لايعمل شيئاً . ومن أجل ازجاء الوقت وملء ساعات الفراغ الطويلة كان يحضر جلسات محكمة التمييز أو مجلس النواب ، ويشهد الاستعراضات

العسكرية ، ويقوم بنزهات طويلة ، حتى اذا جاء المساء قام بزيارات لافائدة منها أو ذهب الى المسرح دون أن يجني من ذلك أية متعة . وكان بيته بما يسوده من ترف باهر وبما يتموج في هوائه من أحلام ، لايزال ادعى مكان الى راحة باله وهدوء فكره .

وقد أخذ منذ قليل يملأ جزءاً كبيراً من وقته القراءة . فكان يقرأ روايات، لكنه لايقرأ الا الروايات التاريخية التي كتبها الكسندر دومـــا أو الروايات المعاصرة التي ألفها فوييه ، على أنه كان يقرأ روايات فوييه في صعوبة لانه لايعرف الفرنسية معرفة كافية . أما روايات الكسندر دوما فمن حسن الحظ أن هنالك ترجمات لها . وكان مع ذلك يجازف فيقرأ كتباً أخرى ، اذا كانت الأحداث التي تقص هذه الكتب تجري هي أيضاً في جو مجتمع ارستقراطي ملكي. فكانت مشاهد بلاط فرنسا التي يتخيلها الكسندر دوما المدهش ويصف مواكب نبلائها ، المسايفين ، المغامرين وكذلك محافل الكونتيسات والادواق الذين يصورهم فوييه أشبه بنباتات مرهقة تعيش في بيوت من زجاج ، وكذلك تلك الاحاديث المتعالية أو الفكهة ، البارعة على كل حال ، التي يديرونها جميعاً ، كان ذلك كله يفقده الاحساس بالزمن . وكان في جميع الاحيان تقريباً يدع الكتاب يسقط من يده آخر الأمر ، ويظل سادرا متأملا غائم العينين . فلعل مركيزا من الزمان القديم يقص عليه عندئذ طرفاً من الماضي .

٨١

حلم بالحفلة قبل أن يحلم بالخطيبة . ولم يمتليء رأسه في ذلك اليوم وفي الأيام التي أعقبته الا بالبذخ والابهة والعربات — هـذا أذا أمكن أن يوجد عربات من تلك العربات القديمة الفخمة التي رأى صورها في نقوش الكتب العتيقة !.. يالها عربات عظيمة رائعة ! وأقوى لذة كان يشعر بهـا هي أن يذهب في أيام لاعياد ينتظر الامبراطور على باب القصر ليرى وصول الحاشيـة الامبراطورية

وخاصة مركبة صاحب الجلالة . يالها من مركبة ! ماهذه الابعاد ! ماهـــذه النوابض ! ماهذه الالوان اللطيفة العريقة ! والخيول التي تجر المركبة ثمانية أو عشرة ، والحوذي الذي يقودها وقور وقار البابا ... وكانت تأتي بعـد ذلك عربات أخرى ، أقل عظمة من الاولى طبعاً ، لكنها تبلغ من العظمة مع ذلك مايكفي لاثارته إعجاباً بها .

لقد كان في وسعه أن يستعمل لزواجه واحدة من تلك المركبـات ، أو مركبة أصغر منها ، لولا أن المجتمع قد تساوى كله في استعمال العربة الحديثة المبتذلة . لابأس . سيركب العربة الحديثة . وها هو ذا يراهـا مزدانة الجوف بأبهى حلة . كيف تكون هذه الحلة ؟ انه لايعرف الآن ذلك معرفة تامة ، لكنها ستكون من نسيج غير شائع ، من شأنه أن يسبغ عليها طابع الندرة . وستجرها جياد فذة . وسيرتدي الحوذي ملابس مرصعة بالذهب ... ملابس لم ير الناس مثلها من قبل . وسيكون المدعوون جميعاً من علية القوم ، سيكون بينهم قادة كبـار ودبلوماسيون ورجال من أعضاء مجلس الشيوخ ، ووزير أو وزيران ، وكثير من رجال الأعمال . وسيكون بينهم سيدات ، سيدات من الطبقة الراقية . وأخذ روبيان يذكر أسماءهن . هاهو ذا يراهن مقبلات ، وقد وقف في أعلى سلم القصر يرمق بطرفه نهاية السجادة الكبيرة الصاعدة اليه . وهاهن اولاء يجتزن الدهليز ثم يصعدن الدرجات باحذيتهن الصغيرة المصنوعة من الدمقس .. ان عددهن في أول الامر قليل ... ثم يزداد العدد ويزداد . العربات تصل تلو العربات ... ثم يصل الكونت والكونتيسة أونتيل ... ان الكونت رجل وسيم الوجه ، والكونتيسة سيـدة على جانب عظيم من الرقي . ويقول له الكونت عند وصوله : « ها نحن اولاء قـد جئنا ايهـــا الصديق العزيز » ، وتقول الكونتيسة : « حفلتك رائعة حقاً ياسيد روبيان » .

وفجأة يصل سفير البابا ... ها ... نعم ... لقد نسي روبيان أن سفير البابا هو الذي سيزوجها . ها هو ذا يجيء . هذان هما جورباه البنفسجيان ... وعيناه

الواسعتان النابوليتان . انه يتحدث حديثاً حاراً مع وزير روسيا . ان أجمل أعناق المدينة تتألق الآن تحت أضواء الثريات المصنوعة من الكرستال والذهب ، فبعضها قائم ، وبعضها مائل على المراوح تنفتح وتنطوي بغير انقطاع . وهناك النجوم المتلألئة على أكتاف رجال الجيش ، وهناك الاكاليل الجميلة تزين رؤوس النساء . وتعزف الجوقة الموسيقية رقصة فالس . فتمضي أذرع الرجال المستديرة في اناقة ورشاقة ، تبحث عن الاذرع العارية التي تلبس قفازات تصل الى المرفق . ويأخذ الرجال والنساء يدورون في القاعة ازواجاً أزواجاً : خمسة أزواج ، عشرة ، اثنى عشر ، عشرين ... ويكون العشاء رائعاً أيضاً . كرستال من بوهيميا واطباق من هنجاريا ، وخزف من سيفر ، وخدم انيقون يرتدون جميعاً ملابس عليها شارة هي الحرف الاول من اسم روبيان .

٨٢

هذه الاحلام كلها كانت تذهب وتجيء في رأس روبيان . ترى أيُّ ساحر بروسبيرو (١) خفي أحال الجزيرة المبتذلة جنة عجيبة « هيا يا آريبل ، جيء برفاقك الى هنا لأطلع هذين الزوجين على بعض معجزاتي » . ان الكلمات هي كلمات الملهاة ، لكن الجزيرة لم تكن هي نفسها ، لا الجزيرة نفسها ولا الجنة . لم تكن الجزيرة الا رأس صاحبنا ، ولم تكن الجنة آلهة ولا قصائد ، بل بشراً ونثراً . لكنها حافلة مع ذلك بآيات الجلال . يجب ان لاننسى أن بروسبيرو الذي جاء ذكره عند شكسبير هو دوق ميلان ، ولعل هذا سبب وجوده في جزيرة صاحبنا .

والواقع ان الخطيبات اللواتي كن يظهرن الى جانب روبيان في مواكب هذه الاحلام التي تدور على عرسه كن جميعاً فتيات ذوات ألقاب ، وكانت اسماؤهن جميعاً من اكثر اسماء الطبقة الارستقراطية في بلادنا رنيناً ورواجاً . واليكم تعليل ذلك : لقد عثر روبيان منذ بضعة اسابيع على مفكرة من وضع ليمرت ، فلما قلب صفحاتها وقع

(١) احد ابطال شكسبير في ملهاة (العاصفة) (المعرب) .

على فصل الالقاب . ولئن كان روبيان يعرف عدداً من هذه الألقاب ، لقد كان بعيداً عن معرفتها كلها . واشترى المفكرة ، واخذ يقرؤها ثم يعيد قراءتها من اول سطر الى آخر سطر ، من المراكيز الى البـــارونات ، ثم يعود القهقرى فيردد الاسماء التي يجدها جميلة ، ويحفظ كثيراً منها على ظهر القلب ، ويتناول في بعض الاحيان قلما وورقة ، فيختار لقباً حديثاً أو قديماً ، ثم يكتبـه عدة مرات متتالية كأنه صاحبه وكأنه يوقع به على ورقة :

مركيز بارباسينا

مركيز بارباسينا

مركيز بارباسينا

مركيز بارباسينا

مركيز بارباسينا مركيز بارباسينا

ويظل يفعل ذلك الى آخر الصفحة ، مغيراً خطه مرة بعد مرة ، فهو تارة باحرف كبيرة وتارة باحرف صغيرة ، وهو تارة مائل الى شمـال ، وتارة قائم تماماً : كان يكتب على جميع الاشكال الممكنة . حتى اذا انتهى ، تنـــاول الورقة وراح يقارن بين التواقيع ، ثم ترك الورقـة وغرق في احلام عميقـة . هـــذا هو السبب في أن خطيباته اللواتي يصورهن له الخيال كن من طبقـة الاشراف . لكن اسوأ ما في الأمر أن قسماتهن جميعاً كانت هي قسمات صوفيا . قد يشبهن في أول الأمر جارة له أو فتاة رآها أمس في الشارع . وقد يكن في أول الأمر نحيفات أو بدينات . لكنهن ما يلبثن أن يتغيرن ، فاذا هن يسمن أو ينحلن ، واذا وجوههن تصير الى ذلك الوجه المشرق ، وجه صوفيا الجميلة ، وقد اتقدت عيناها أو هدأتا . ألا يمكن اذن أن يفلت منها في يوم من الايام ولو تزوج ؟ وخطرت بباله ذات مرة فكرة موت باليا . كان ذلك في يوم من الأيام عند خروجه من بيتها ، بعد أن قالت له أموراً كثيرة رائعة لكنها غامضة . ولقد غرق روبيان عندئذ في سعادة كبيرة ، لكنه لم يلبث أن منع نفسه من ذلك متطيراً . وبعد

بضعة أيام عاد يفكر في مشروع زواجـــه تفكيرا نهائياً ، لأن صوفيا غيرت موقفها منه مرة أخرى . الا أن باليا نفسه هو الذي كان ينتزعـه من أحلام الزواج مرة بعد مرة .

– أأنت مشغول هذا المساء ؟

– لا .

– اذن اليك هذه البطاقة للاوبرا ، شرفة رقم ٨ ، الصف الاول على الشمال .

وكان يصل قبل الاوان لينتظرهما وليقدم لصوفيا ذراعه . فاذا كانت رائقة المزاج كانت السهرة رائعة ، أما اذا لم تكن كذلك كانت السهرة عذاباً كعذاب الشهداء على حد تعبيره الذي قاله يوماً للكلب :

– كانت سهرة الامس عذاباً كعذاب الشهداء يا صديقي المسكين .

فنبح الكلب يجيبه :

– تزوج وستقول لي بعد ذلك هل كنت على حق .

فأجابه وهو وهو يمسك بقائمتيه من أمام ويضعهما على ركبتيه :

– نعم يا صديقي المسكين . أنت على حق . أنت في حاجة الى صديقة طيبة توليك من العناية ما لا أستطيع أو ما لا أعرف . أما زلت يا كونكاس بوربا تذكر صاحبنا كونكاس بوربا ؟ ما كان أطيبه وأعظمه من صديق . لقد كنت أحبه كل الحب أنا أيضاً ، وكانت صداقتنا قوية . لو كان حياً لشهد زواجي ، ولشرب الانخاب – أو لشرب نخب العريسين على الأقل – ولصنعت له من أجل ذلك قدحاً من ذهب وماس ... ما اعظمك يا كونكاس بوربا ! ..

كان عقل روبيان يشارف الهاوية .

٨٣

وذات يوم خرج من بيته ابكر مما اعتاد ، وكان لا يعرف اين يقضي أول النهار ، فعزم على الذهاب الى المخزن الذي يملكه هو وباليا . لقد انقضى أسبوع لم

يذهب خلاله الى فلامنجو لان صوفيا كانت تعاني نوبة من نوبات فتورهـــا في معاملته . فلما وصل الى المخزن رأى كرستيانو يرتدي ثياب الحداد . ذلك أن خالة امرأته ، دونا ماريا أوجوستا ، قد توفيت في بيتها بالريف . وقد وصل نبأ وفاتها أول أمس في ساعة متأخرة من النهار :

— أهي أم تلك الفتاة ؟

— هي نفسها .

وتكلم باليـا عن المتوفاة في حنان طافح ، ثم قص على صاحبه ما تعانيـه ماريا بنديكتا من حزن شديد قائلا : ان منظرهـا مؤلم حقـاً . وسأله لماذا لا يأتي في هذا المساء نفسه الى فلامنجو ليساعدهما في التسرية عنهـا . فوعـده روبيان بالمجيء .

— تعال . انك بمجيئك تقدم لنا معونة . والفتـاة المسكينة تستحق هـذه المعونة . انها فتاة ممتازة حقاً ، أنت تعرف ذلك . انهـا على جانب عظيم من التربية الحسنة ، بل من التربية الصارمة . أما من ناحية المزايا الاجتماعية ، فلئن لم تغرس فيها منذ الطفولة ، لقد تداركت ما فاتها من وقت في سرعة مذهلة بمعونة صوفيا . ويالها من ربة بيت ! حقاً أيها الصديق العزيز .. لا أظن أن من الممكن أن نجد في سنها فتـاة أكمل منها . ستبقى الآن معنـا . ان لها اختاً متزوجة من قاضي صلح في سيارا ، ولهـا كذلك عراب في سان جوان دلري كانت المرحومة لا تني تشيد بفضائله . ولست اظن أنه سيطلب التحـاق ماريا بنديكتا به ، وهبه فعل ، فلن أدعها تسافر . هي الآن لنا . لن ننفصل عنها لمجرد ان عرّابها يريد أن ينزلها في وصيته . وختم باليا كلامه ، وهو ينفض باصبعه بعض الغبار عن (ياقة) روبيان ، ختم قائلا : ستبقى هنا .

شكره روبيـان . واذ كانا في المكتب ، أي في آخر المخزن ، نظر روبيان من خلال قضبان الحاجز ، فرأى رزماً من البضاعة تدخـل المخزن ، فسأل ما هـــذه الرزم ، فاجابه باليا أنها قماش من قطن انكليزي . فردد في غير مبالاة :

– قماش من قطن انكليزي .

قال له باليا :

– بالمناسبة ، هل علمت أن محل موارس وكونيا قـد أخذ يسدد جميع ديونه كاملة ؟

وكان روبيان لا يعرف من الأمر شيئاً ، ولا يعرف أن هناك محلا يملكه هذان الشريكان ، ولا يعرف هل لهما أو ليس لهما ديون عليه . فلم يزد على أن أصغى إلى النبأ مظهراً سروره به ، ثم تهيأ للانصراف . لكن شريكه استمهله بضع لحظات . ان وجه شريكه يعبر الآن عن فرح شديـد ، حتى لكأنه لم يفقد أحداً من اسرته وعاد يتكلم عن ماريا بنديكتا فقال أنه ينوي أن يزوجها وأنها ليست من أولئك الفتيات اللواتي يستجبن لأول شاب أنيق ، أو اللواتي يركبن رؤوسهن . انها على جانب عظيم من حصافة الرأي ، وتستحق زوجاً ممتازاً ، تستحق شخصاً جاداً كثير الجد ..

– صحيح .

فدمدم شريكه فجأة يقول :

– اسمع . لا تعجب لما سأقوله لك . أعتقد أنك أنت الرجل الذي سيتزوجها .

فاجاب روبيان مبهوتاً :

– أنا ؟ لا .. لا ..

وأضاف يقول فوراً للتخفيف من وطأة الصراحة في رفضه :

– أنا واثق أنها فتاة كاملة من جميع النواحي . ولكنني .. الآن .. لا أنوي أن أتزوج .

– لا يقول أحد أن تتزوج غداً أو بعد غـد . والزواج أمر لا يرتجل ارتجالاً . ما أريد أن أقوله هو أنني احس أنك ستتزوجها . وأنت تعرف ما هي تلك الاحساسات التي تتنبأ بالمستقبل . ألم تحدثك صوفيا أبداً عن احساسي بهذا الأمر .

– أبدا .

– غريب . يخيل الى انها ذكرت لي أنها حدثتك في الامر مرة أو مرتين .

– جائز . أنا كثير الذهول .. ولكن في أي أمر حدثتني ؟ في مشروع زواجي من هذه الفتاة ؟

– بل في أمر هذا الاحساس الذي يخالجني . ولكن حسبنا الآن هـذا . ولندع للزمن أن يفعل فعله .

– الى اللقاء .

– الى اللقاء . تعال هذا المساء في وقت مبكر .

٨٤

« اذن لقد كانت صوفيا تريد أن تزوجني » كذلك أخذ روبيـان يفكر عند خروجه من المخزن . تلك طبعـاً اسرع وسيلة للتخلص مني . تريد أن تزوجني ، أن تجعلني ابن عم لها .. وقد قطع روبيان جزءاً كبيراً من الشارع قبل أن يصل الى هذا الافتراض الثاني : لعلها لم تنس ، وإنمـا كذبت على زوجها عامدة حتى تحول دون تحقق هذا المشروع . فاذا صح هذا ، فالموقف مختلف كل الاختلاف . وبدا له هذا التعليل منطقياً . واستمر يسير في طريقه وقد استرد هدوءه .

٨٥

لكن الزمان يبدو طويلا جـداً حين لا يدري المرء ماذا يعمل ، وان استطاع أن يبلغ من الهدوء مبلغاً كبيراً . ان تحرق روبيان الى حلول المساء من أجل أن يذهب الى فلامنجو كان يشعره بأن الساعات ليس لها نهاية . ان الوقت مبكر ، انه أبكر من أن يعمل صاحبنا أي شيء ، ابكر من أن يذهب إلى شارع أوفيدور أو يعود الى بوتافوجو . وكان الدكتور كاماشو في فاسوراس يدافع عن أحد المتهمين أمام محكمة الجنايات . وليس هناك أي تسلية

عامة منتظرة ، فلا احتفال في مكان ولا وعظ في كنيسة . لا شيء ، لا شيء على وجه الاطلاق . وأخذ روبيان يضرب في الشوارع على غير هدى من فرط سأمه وملله ، يقرأ اللافتات تارة ويتوقف تارة أخرى ليراقب أتفه حادث يقع لعربة من العربات . كيف لم يشعر بمثل هـذا السأم يوماً في ميناس ؟ وظل اللغز بلا جواب .. ان المرء يجد في ريو دي جانيرو من التسليات ما لا يجد مثله في ميناس ، وكثيراً ما تسلى روبيان في هذه المدينة فعلاً ، غير أنه يعاني مع ذلك هنا هذه الساعات من الضجر الثقيل .

من حسن الحظ أن لهؤلاء الذين لايدرون ماذا يعملون رباً يسعفهم . فها هو ذا روبيان يتذكر أن فريتاس (انكم تعرفون فريتاس ، ذلك الرجل الفرح دائماً) مريض بمرض خطير . فاستوقف روبيان عربة وذهب يعوده في بيته الواقع على شاطىء فورموزا . وظل يتحدث مع المريض قرابة ساعتين . لكن المريض نام أخيراً . فاستأذن روبيان أمه بالانصراف ـ وأمه رمَّة حقاً ـ حتى اذا وصل الى الباب قال لها قبل أن يمضي :

ـ لابد انك في حاجة الى بعض المال .

واذ عضت السيدة العجوز على شفتيها وغضت طرفها ، أردف يقول :

ـ ليس هذا عاراً . لئن كان العسر محزناً ليس هو بالعار قط . واحب أن تقبلي مني هذا المبلغ الذي سأتركه لك من اجل ان تواجهي به بعض النفقات ، وستردونه الي في ذات يوم حين تقدرون أن تردوه .

وكان قد فتح محفظته واخرج منها ست ورقات نقدية كل واحدة منها بعشرين الف قرش ، فطواها ووضعها في يد السيدة العجوز . ثم فتح الباب وخرج . فبلغت العجوز من الدهشة درجة لم يخطر ببالها معها أن تشكر له صنيعه . فلما سمعت صوت العربة وهي تتحرك هرعت الى النافذة . لكن الرجل الذي احسن اليها كان قد غاب .

٨٦

ثم ذلك كله عفواً ، حتى أن روبيان لم يتسع وقته للتفكير فيه إلا بعد أن استأنفت العربة سيرها . ويظهر أنه رفع عندئذ ستارة النافذة الصغيرة لينظر الى خلف . لكن العجوز كانت وقتئذ ترجع الى داخل البيت ، فلم يلمح الا ذراعها . وشعر روبيان بكل السعادة التي يشعر بها امرؤ حين يدرك انه صحيح الجسم معافى . وأسند ظهره الى مقعده ، وزفر زفرة عميقة من شعوره بالراحة ، ونظر الى الشاطىء ثم مال الى امام لأنه لم يستطع أن يرى الشاطىء تماماً حين مجيئه .

قال له الحوذي وهو سعيد كل السعادة بهذا الزبون الطبيب الذي وفق اليه :

— أيعجب هذا سيادتك ؟

— كثيراً .

— أما جئت الى هنا من قبل ؟

— احسب أنني جئت ، ولكن منذ زمان بعيد ، في اول رحلة قمت بها الى ريودوجانيرو . ذلك أنني من ميناس ... هل لك أن تقف قليلاً ؟

فوقف الحوذي حصانه ، فنزل روبيان ، وأمر الحوذي أن يسير بالعربة على سرعة خطاه .

ان هذه البقع الكبيرة من الخضرة التي تنبجس من الماء على مقربة من روبيان تشكل منظراً رائعاً حقاً . وما اقربها من الشارع ! لقد اراد روبيان ان يتأملها من كثب ، حتى اصبح لايبالي الشمس . نسي المريض وأم المريض وقال لنفسه : لو كان البحر كله على هذه الشاكلة قد نثرت فيه الاراضي والنباتات نثراً ، لكان ذلك يستحق الإبحار . وغير بعيد من هذا المنظر ، على مسافة خطوات ، كان يرى شاطىء لازاروس وشاطىء سان كرستوفان .

تمتم روبيان يقول :

– برايا فرموزا (١) اسم على مسمى .

غير أن الشاطىء يتغير الآن وجهه . فابتداء من ساكودو ألفيريس يجد المرء بيوتاً مبنية على جهة البحر . ومن حين الى حين تحل محل الابنية قوارب قد ارتفعت أشرعتها في الهواء وغطست في الوحل أو التراب . ولمح روبيان على مقربة من هذه القوارب اطفالاً حفاة الأقدام يرتدون قمصاناً ، قد أخذوا يلعبون حول رجل منبطح على بطنه رافع احدى ساقيه في الهواء . والاطفال يضحكون جميعاً ، غير ان واحداً منهم يضحك اكثر من سائرهم ، لأنه كان يعجز عن رد ساق الرجل الى الأرض . انه طفل صغير في الثالثة من عمره ، يتشبث بالساق مستميتاً ، وينزلها شيئاً فشيئاً حتى لتكاد تلامس الارض ، لكن الرجل لايلبث عندئذ ان يتحرك فاذا هو يرفع الساق والطفل كليهما .

تلبث روبيان بمكانه بضع لحظات يراقبهم فلما لاحظ الصبي ان هناك من يراقبه ضاعف جهوده ، لكنه فقد عندئذ انطلاقه على طبيعته . وتوقف الصبية الآخرون عن اللعب ، وهم اكبر منه سناً ، وأخذوا يتفرسون في روبيان . لكن روبيان لايميز شيئاً . انه يرى كل شيء فيما يشبه الضباب . وظل يسير مدة طويلة ، فقطع ساكو دو ألفيريس ، وقطع جامبوا ، وتوقف قليلاً امام المقبرة الانكليزية ذات القبور القديمة المغروسة في الرابية ، ووصل اخيراً الى حي ساوودي . وهناك رأى شوارع ضيقة ، واخرى منحدرة ، وبيوتاً متجمعة على سفوح التلال أو على قممها ، وازقة صغيرة . ومنازل قديمة جداً – يرجع عهد بعضها الى العصر الملكي – منازل متآكلة ، مبقعة مترنحة ، قد جعلها تقادم الزمن سوداء لكنها تعج بالحياة ... فأثار هذا كله في نفسه الشعور بالحنين ... الحنين الى الاسمال البالية ، والحياة الكادحة الصعبة ... الهادئة مع ذلك كل الهدوء . غير ان هذا الشعور لم يدم الا قليلاً . ولم يلبث السحر الذي في نفسه ان فعل فعله : انه لجميل جداً أن يتخلص المرء من الفقر .

---

(١) يعني هذا الاسم « الشاطىء الجميل » (المعرب) .

٨٧

وصل روبيان الى آخر شارع ساوودي . انه يهيم الآن على وجهه حائر العينين ، لايلوي على شيء . ومرت قربه امرأة لم تكن جميلة ولا انيقة ، يدل ظاهرها على أنها فقيرة ، لكن جميع قسماتها تفوح منها النضارة . لعلها في الخامسة والعشرين من عمرها ، وهي تمسك طفلا من يده . تعثر الطفل بين ساقي روبيان فقالت المرأة الشابة وهي تشده :

– ماهذه الحركات أيها الغبي . .

ومال روبيان إلى الصبي يساعده ، فقالت وهي تبتسم :

– شكراً جزيلًا .

ثم حيته . فرفع روبيان قبعته وابتسم لها كذلك . ومرة أخرى استولت على نفسه الرغبة في أن تكون له أسرة . « تزوج ، ثم قل لي هل أنا على حق ، » ووقف ونظر الى خلف ، فرأى المرأة الشابة تبتعد بخطى سريعة ، بينما الطفل تضطرب ساقاه الصغيرتان الى جانبها ليلحق بها . وتمهل صاحبنا في سيره وأخذ يفكر في النساء اللواتي يمكن أن يعزفن معه انشودة الزواج بأيد أربع على موسيقى كلاسيكية جادة اذا كان هنالك شيء من ذلك . وفكر حتى في ابنة الماجور التي لاتعرف الا بضع رقصات من رقص المازوركا . لكنه سمع على حين فجأة ترجع صوت القيثارة . قيثارة الخطيئة تنقر عليها أصابع صوفيا ، وبدا له صوت هذه القيثارة رائعاً ومصمماً في آن واحد ، فتبدد بذلك كل صفاء مشروعه الأول ... لكنه أصرّ بعض الاصرار ، وحاول أن يرتد الى الموسيقى الاخرى ، فطفق يفكر من جديد في المرأة الشابة التي لقيها في شارع ساوودي ، وفي حركاتها الحلوة الرشيقة ، وفي الصبي الصغير الذي كانت تمسك بيده.

٨٨

وحين رأى العربة تذكر مريض برايا فورموزا . فتنهد وقال :

– مسكين يافريتاس .

وسرعان ماتذكر المال الذي تركه لأم المريض ، فرأى أنه أحسن صنعاً . وحين خطر بباله أنه ربما كان قد أعطى العجوز ورقة أو ورقتين زيادة على ما كان ينبغي له أن يعطيها ، أسف على أنه تصور هذا التصور ، ومن أجل أن يتخلص من هذه الفكرة التي راودت ذهنه تخلصاً كاملاً ، صاح بصوت عال :

– يا لها من عجوز مسكينة ، يا لها من عجوز مسكينة !

٨٩

واذ راودته هذه الفكرة مرة أخرى ، هرع نحو العربة ، فصعد اليها ، وجلس ، ثم أخذ يكلم الحوذي هرباً من افكاره :

– نزهة طويلة . حقاً انه لمكان جميل هنا ، وانه لمكان عجيب أيضـــاً ، بشواطئه وشوارعه التي تختلف كل الاختلاف عن الاحياء الاخرى . انني أحب هذا كثيراً ، ويجب أن أتردد إلى هذا المكان كثيراً .

فابتسم الحوذي ابتسامة بلغت من الغرابة أن روبيان ظل منها متحيراً أشد التحير . انه لا يعرف ماذا كان في كلامه من أمر يثير الضحك . أتراه استعمل كلمة يمكن أن يساء فهمها في ريودوجانيرو ؟ لكنه كرر لنفسه الجملة بكاملها فلم يكتشف فيها شيئاً من ذلك . ان جميع الكلمات التي تضمهـا الجملة هي من الكلمات الرائج استعمالها . ومع ذلك ظلّ الحوذي يبتسم ، وظل وجهه على تلك الحال نفسها يعبّر عن مزيج من الاحترام والمكر معاً ، وأوشك روبيان أن يسأله عن السبب الذي يحمله على هذا ، لكنه أمسك في الوقت المناسب ، اذ تولى الآخر استئناف الحديث ، قال :

– سيادتك تحب اذن هذا الحي كثيراً . اسمح لي أن لاأصدق هذا الكلام . وعليك أن لا تزعل ، فلست أريد ان أؤذي شعورك ، وما أنا بالرجل الذي يغضب زبوناً رضياً مثلك . لكنني لا أصدق حقاً أن الحي هو الذي يعجبك .

فسأله روبيان مجازفاً :

– ولماذا ؟

فهز الحوذي رأسه ذات اليمين وذات الشمال ، وظل يقول انه لا يصدق شيئاً من هذا الكلام ، لا لأن الحي غير جدير بالاعجاب بل لانه من الواضح أن روبيان يعرف هذا الحي من قبل حق المعرفة . فعاد صاحبنا يكرر ماقاله له في المرة الاولى ، ذاكراً انه لم يعد الى هذا الحي بعد رحلته الاولى الى ريودوجانيرو منذ زمان طويل ، وانه لم يحتفظ بأي ذكرى عنه . ولكن الحوذي ظل يضحك ، فكلما ازداد زبونه جزماً وقطعاً في كلامه ، ازداد هو تبسيطاً ، حتى أصبح يعبر عن قوله : لا ، بحركات من يده ورأسه وشفتيه ... وختم قائلا :

– أنا أعرف هذا الامر . وليست عيناي في جيبي . لعل سيادتك تظن أنني لم الاحظ كيف نظرت الى المرأة الشابة التي مرت منذ هنيهة ؟ ان هذا وحده يدل على أن لك حساً مرهفاً وانك تحب ...

تملق هذا الكلام غرور روبيان ، فابتسم ابتسامة خفيفة ، لكنه لم يلبث أن استدرك سائلاً :

– أي امرأة شابة ؟

فأجابه الرجل :

– ألم أقل لك ؟ سيادتك متحفظ جداً ، وحسناً تصنع على كل حال . لكنني امرؤ متكتم ليتك تعرف كم مرة عملت هذه العربة في أمثال هذه الروحات والغدوات .. ومنذ مدة قصيرة أقلت شاباً وسيما أنيق الهندام ... شاباً من طراز عال .. وكان الامر أمر نساء طبعاً ... ذلك يُلاحَظ من أول وهلة .

فقاطعه روبيان قائلاً :

– ولكنني ...

أصبح روبيان لا يستطيع أن يحافظ على هدوئه . ان الظن الذي يعبر عنه

الحوذي لا يسيئه .. والحوذي يتصور أن صاحبنا مايرال يريد أن يخفي مغامرة.. أردف يقول :

– اسمع . انني أعرف ما أقول حق المعرفة . مثلك كمثل ذلك الشاب الذي يسكن في شارع الانفاليد ... تماماً ... وفي وسع سيادتك ان تكون مطمئناً كل الاطمئنان الى أنني لن أقول شيئاً ، ولن أفشو سراً . وتلك على كل حال أمور لا شأن لي بها . لكنك لاتستطيع أن تحملني على الاعتقاد بأن رجلاً من الرجال يمشي من برايا فورموزا الى هنا على الاقدام للذة المشي ، مع أن هناك عربة تحت تصرفه لقد ذهبت سيادتك الى الموعد المضروب ، ولكن الشخص الذي أردت لقاءه لم يجيء ...

– أي شخص ؟ لقد ذهبت أعود مريضاً هو صديق لي يوشك أن يموت .

كرر الرجل يقول :

– تماماً كذلك الشاب الذي يقطن شارع الانفاليد . لقد ذهب هو الى خياطة زوجته ، كما لو كان متزوجاً !

سأله روبيان وقد لاحظ اسم الشارع في هذه اللحظة :

– شارع الانفاليد .

فأجاب الحوذي :

– لاأستطيع أن أزيد شيئاً على ماقلت . لقد كان آتياً من شارع الانفاليد.. شاب له شاربان ، وعينان واسعتان ، بل واسعتان جداً . لو كنت امرأة لعشقته أنا ايضاً ... أما هي فلا أدري من أين كانت آتية ، ولو عرفت ذلك ماقلته .. كل ما أعلم أنها كانت جميلة جداً .

واذ رأى أن زبونه يصغي الى كلامه محملقاً تابع يقول :

– آ . . . سيادتك لاتستطيع أن تتصور . . . لاهي بالطويلة ولا هي بالقصيرة ... جميلة الجسم ، قد حجبت نصف وجهها بوشاح . فتاة جميلة حقاً . الفقراء يستطيعون أن يقدروا الجمال كما يقدره غيرهم .

دمدم روبيان يقول :

— ولكن ماذا حدث ؟

— ماذا حدث ؟ وصل كسيادتك على عربتي هذه ، ثم نزل ودخل بيتاً نوافذه محكمة الاغلاق ، قائلًا انه ذاهب الى خياطة زوجته . واذ لم أكن قد سألته شيئاً ، واذ كان طوال الطريق صامتاً غارقاً في أفكاره ، أدركت مابنفسه. وربما كانت هذه هي الحقيقة من جهة أخرى ، ذلك أن هنـــاك خياطة تقطن شارع الهارموني حقاً ...

— الهارموني ؟

— لا ... طيب . تكاد سيادتك تنتزع مني سري . فلنبدل الموضوع ولن أقول بعد الآن شيئاً .

وكان روبيان ينظر الى الرجل مذهولاً ، وصمت هـذا دقيقتين أو ثلاث دقائق ، ثم لم يلبث أن أرف يقول :

— ثم انه ليس هناك امور كثيرة اضيفها على ماذكرت . لقد دخل الرجل ومكثت انا انتظره . وبعد نصف ساعة لمحت هناك بعيداً طيف امرأة ، فقدرت على الفور الى أين هي ذاهبة . وسرعان ما صدق ظني . فقد اقتربت ثم اقتربت وهي تنظر خلسة الى جميع الجهات ، فلما مرت امام البيت لم اقل لها شيئاً ولم تكن هي الاخرى في حاجة الى أن تقرع الجرس وانما حدث ما يحدث في الحكايات الخرافية : انفتح الباب من تلقاء نفسه ، فانسلت الى داخل البيت . أتظن أني اجهل هذه الامور ؟ وكيف تريد سيادتك لمثلي أن يربح قرشاً من هنا وقرشاً منهناك زيادة بغير هذا ؟ ان ما يدره العداد لا يكاد يطعم صاحبه. فلا بد من اللجوء الى مثل هذه الوسائل الصغيرة .

٩٠

حدث روبيان نفسه وهو في بيته بملابسه السود قائلا : لا . . . لا . . . يستحيل أن تكون هي .

انه منذ عودته لم ينقطع عن التفكير في القصة التي حكاها له الحوذي . وقد حاول أن يطرد هذه القصة من ذهنه ، بترتيب اوراقـــه ، اما بالقراءة ، أو بتصفيق اصابعه بغية ان يرى تواثب كونكاس بوربا ، لكن الصورة ظلت تطارده قال له عقله ان هناك كثيراً من اطياف النساء الرشيقات ، ولا برهان على أن طيف المرأة الذى لاح للحوذي في شارع الهارموني هو طيف المرأة الشابـة . لكن الطمأنينة التي حملها هذا التفكير الى قلبه لم تدم طويلا . فسرعان ماخفض رأسه وعاد يطلق خياله غامضاً وراء شخص — ليس الا صوفيا نفسهـا — يسير ثم يدخل على حين غرة في بيت لم يلبث ان اغلق بابه فوراً ... وفجأة بلغت الصورة من شدة الوضوح في ذهنه انها جعلته يحدق الى الحـــائط ، كأنه باب البيت الذي في شارع الهارموني ماثل الآن امامه . وجرت بقية التصورات بعد ذلك في رأسه كما يلي : هـاهو ذا يقرع البـــاب ، ثم يدخل ، ثم يثب الى عنق الخياطة ، ويجبرها على ان تقول الحقيقة اذا هي ارادت أن لا تموت . فاذا بالمرأة المسكينة تعترف له بكل شيء ازاء هذا التهديد ، ثم تقوده الى حيث يرى السيدة . فاذا هي غير صوفيا . وشعر روبيان بخجل من نفسه حـين ثاب الى رشده :

« لا ... لا ... يستحيل أن تكون هي . »

وارتدى صدرته ، ومضى يعقد ازرارها امام نافذة تطل على الفسحة الخلفية . كان عمود من النمل يمر في هذه اللحظة على قاعدة النافذة . وما اكثر ما رأى هذا المشهد من قبل . لكنه تناول في هذا اليوم منشفة ضرب بها النمل ضربتين من دون ان يدري لماذا ، فقتل منه عدداً كبيراً . لعل واحدة من النمل لاحت له « لاطويلة ولا قصيرة ، جميلة الجسم » . وما هي الا لحظة حتى نـدم على مابدر منه . ما شأن النمل وماهي علاقته بشكوكه ؟ ومن حسن الحظ ان زيزاً اخذ يغني في هذه اللحظة ، فجاء غناؤه موافقـــاً الى درجة جعلت صاحبنا يتوقف عن عقد ازرار صدرته ... ززززز ف . ف . ف ززززز ... ف .ف.ف

ايتها الطبيعة ، ما كان أعظم حكمتك ، وما كان اروع كرمك حين وضعت زيزاً حياً الى جانب عشرين نملة ميتة ! تلك هي بلا ريب الفكرة التي ستدور في ذهن القاريء ، ولكنها لم تدر في ذهن روبيان ، فمن لم يقدر في يوم من الايام على تقريب الوقائع بعضها من بعض لاستخلاص النتائج منها ، فلن يبدأ ذلك الآن بينا هو يكمل عقد ازرار صدرته ، فكيف بـه وهو لا يسمع شيئاً ولا ينتبه لشيء غير الزيز .. مسكين ايها النمل الميت ! عد الآن الى هوميرك الغولي (الفرنسي) ، وناقشه الحساب . ان الزيز هو الذي يضحك الآن مصححاً الحكاية :

أكنت تسيرين ؟ اني سعيد بذاك فموتي اذن الآن ! [١]

٩١

ودق جرس الغداء في أثناء ذلك ، فاصطنع روبيان هيئة هادئة كل الهدوء حتى لا يلاحظ مؤاكلوه شيئاً (ان له في كل يوم ضيوفاً أربعة أو خمسة) . ووجد ضيوفه في الصالون يتحدثون وهم ينتظرونه . فلما دخل عليهم ، هبوا واقفين ومضوا اليه يصافحونه في حرارة . وعندئذ استولت على روبيان رغبة قوية عارمة في أن يعطيهم يده ليقبلوها . ولكنه أمسك الوقت المناسب ، دهشاً هو نفسه من هذه الفكرة التي خطرت بباله .

٩٢

وفي المساء هرع الى فلامنجو . لم يستطع ان يتحدث الى ماريا بنديكتا التي كانت في غرفتها فوق ، مع صديقتين لها هما فتاتان من الجيران . وقد جاءت صوفيا تستقبله عند الباب ، فقادته الى غرفة صغيرة كان فيها خياطتان تعدان ملابس الحداد . وكان كريستيانو قد وصل منذ هنيهة ، ولكنه لم ينزل بعد .

---

(١) بالفرنسية في الأصل ، والاشارة هنا الى حكاية الصرار والنملة للشاعر الفرنسي لافونتين الذي جعل النملة تشمت بالصرار .

قالت له صوفيا :

– اجلس هنا .

وجلست معه . لقد كانت رائعة في ذلك المساء ! ان كلماتهـا التي تتخللها ابتسامة ودّية عفة ، كانت رصينة ورقيقة معاً . حدثته عن خالتها وابنة خالتها ، وعن الجو والخدم والحفلات ، وعن نقصان المـــاء ، وعن طائفة كبيرة من الامور كانت تكتسي في فمها قيمة عظيمة سواء أكانت في حد ذاتها تافهـة أم لا . وكان روبيان يصغي اليها مسحوراً . ومن أجل أن تشغل نفسها كانت تخيط في الوقت نفسه بعض الستائر ، وكلما حانت لحظة من صمت التهم روبيان بعينيه يديها الرشيقتين اللتين تبدوان كأنهما تلعبان بالابرة لعباً .

سألته صوفيا :

– هل تعلم أنني بسبيل تشكيل لجنة من السيدات ؟

– اجهل ذلك . وما غاية هذه اللجنة ؟

– ألم تسمع نبأ ذلك الوباء الذي اجتاح مدينة بولاية آلاجواس ؟

أجابته بذلك ثم ذكرت أنها قد بلغت من الحزن لهذا الامر درجة قررت معها على الفور ان تنظم جمعية من السيدات لجمع التبرعات . وقد جاء موت خالتها فقطع المساعي الاولى التي بذلتها في هذا السبيل ، ولكنها ستستأنف العمل فور الانتهاء من القداس التذكاري الذي سيتم في نهاية الأسبوع الاول من الحـداد . وسألته رأيه في الامر . فقال :

– يخيل اليّ ان الفكرة جيدة جداً . أليس في اللجنة رجال ؟

– بل سيدات فقط .

ثم ختمت كلامها بقولها ضاحكة :

– الرجال يقدمون مالاً .

وسرعان ما قرر روبيان بينه وبين نفسه أن يكتتب بمبلغ كبير حتى يحض أولئك الذين يكتبون بعده على أن يكونوا أسخياء . ان كل ما قصته صوفيـا

كان هو الحقيقة بعينها . ولكن من المؤكد أيضاً ان انشاء اللجنة سيذيع صيتها وسيساعدها على الارتفاع درجة في سلم المجتمع . ومن أجل ذلك كان السيدات التي اختارتهن أعضاء في اللجنة لا ينتمين الى الحلقة المألوفة من صلات صوفيا . حتى انه لم يكن بينهن الا واحدة اعتادت أن تحييها . وبوساطة أرملة لمع نجمها في المجتمع فيما بين ١٨٤٠ و ١٨٥٠ ، فاحتفظت برهافة ذلك العهد والحنين اليه ، ظفرت صوفيا باشراك جميع أولئك السيدات في عملها الخيري واصبحت منذ ذلك الحين لا تستطيع أن تفكر في أمر غير هذا الامر . فاذا بدت في بعض الاحيان نائمة على كرسيها الهزاز عند المساء ، لم تكن في حقيقة الامر نائمة ، وانما هي قد أغمضت عينيها لتزداد قدرة على تخيل نفسها بين رفيقاتها في اللجنة وهن جميعاً من عيون السيدات . فمن السهل على القارىء والحالة هذه أن يفهم السبب الذي من أجله كان هذا الموضوع مركز الحديث بين صوفيا وروبيان . ومع ذلك كانت صوفيا تهتم بصديقها من حين الى حين . فتسأله عن معنى هذه الغيبات الطويلة ؟ كيف تنقضي ثمانية ايام ، وعشرة أيام ، وخمسة عشر يومـاً ، واكثر من ذلك في بعض الاحيان ، من دون أن يزورها ؟ وقد اجابها روبيان بأن عليها أن لا تتصور وراء غيابه سبباً خاصاً ، ولكنه حين قال ذلك ظهر عليه من شدة الانفعال مما جعل احدى الخياطتين تلكز الاخرى بقدمها . ومنذ تلك اللحظة أصبحت هاتان المرأتان — حتى حين يسود الصمت لحظة ويتخلل تلك اللحظة رنين الابر وصرير المقصات وحفيف قطع القماش الذي يمزق — لا تحولان بصرهما عن صاحبنا الذي كان لا ينفك من جهته عن التحديق الى ربة البيت في عناد .

وفي أثناء ذلك جاء من يقول ان هناك شخصاً قدم معزياً وهو رجل يعمل مديرا لأحد المصارف . وقد أبلغ باليا بنبأ قدومه ، فنزل يستقبله . واستأذنت صوفيا صاحبها بالغياب عنه بضع لحظات ، ومضت الى ماريا بنديكتا .

٩٣

حين بقي روبيان مع المرأتين اخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ولكن من

دون أن يحدث كبير ضجة ، حتى لا يزعج أحدا . ان بعض عبارات باليا كانت تصل الى الصالون : «على كل حـال ، في وسعكم ان تثقوا ...» ، «ليست ادارة المصارف لعبة من لعب الاطفـــال ...» ، . وكان مدير البنك لا يقول كبير شيء ، وانما كان يتكلم بلهجة جافة وصوت خافت .

وها هي ذي احدى الخياطتين تطوي الثوب الذي بين يديها ، وترتب قطع القماش والمقصات وبكرات الخيطان في تعجل شديد ،قائلة قد تأخر وانها ذاهبة .

ــ انتظري دقيقة يا دوندون . أنا أيضاً ذاهبة .

ــ لا ... لا ... لا أستطيـع . كم الساعة يا سيدي ، من فضلك ؟

اجابها روبيان :

ــ الثامنة والنصف .

ــ رباه كم تأخرت !

ولكي يقول روبيان شيئاً ما سألها لماذا لا تنتظر قليلا كما تطلب اليها رفيقتها فأجابته في احترام :

ــ لا انتظر الا دونا صوفيا . ألا تعرف أين تسكن ؟ انهـا تسكن في شارع ياسيو . أما أنا فيجب أن اسير حتى شارع الهارموني . والطريق من هنا الى هناك طويلة .

٩٤

وما هي الا لحظة حتى نزلت صوفيا ، فاذا هي تجد روبيان قد تبدل تبدلا كاملا واصبح زائغ النظر فسألته عما به ، فأجابها بأن شيئاً من الصداع قد ألم به ولا شيء غير ذلك . ومضت دوندون . واستأذن مدير المصرف بالانصراف ، فشكر له باليا لطفـــه ، وقال ان زيارته شرف عظيم له . أين هي قبعته ؟ ووجد القبعة . واعطاه المعطف كذلك . واذا بدا على المدير أنه ما يزال يبحث عن شيء ما ، سأله كريستيانو أهي العصا ؟ فاجابه المدير :

ــ لا يا سيدي . هي المظلة . أظنها هذه . نعم هي هذه . الى اللقاء .

فقال له باليا :

– أكرر شكري . شكراً جزيلا . ضع قبعتك ، فالجو رطب ، وليس بيننا تكلف . شكراً . شكراً جزيلا .

قال ذلك وهو ينحني نصفين ، ويصافح يده بكلتا يديه .

فلما عاد الى داخل البيت هبط الى شريكه الذي كان يصر على الانصراف . فانضم الى صوفيا يسأله أن يمكث قليلا ، ونصحه أن يحتسي قدحاً من الشاي ، فيشفى من الصداع فوراً . ولكن روبيـــان رفض . قالت له المرأة الشابة وهي تصافحه :

– ان بك برودة كبيرة كبرودة الثلج ، فلماذا لا تنتظر قليلا . لا شيء انفع من ماء المليسة ، سآتيك بشيء منه .

فاوقفها روبيان قائلا لا داعي إلى ذلك ، فهو يعرف هذا النوع من التوعك وليس يذهبـــه الا النوم . وأراد باليا أن يرسل من يحضر له عربة . لكن روبيان أجابه بان هواء الليل قد ينفعه ، وانه واجد عربات عند « الكاتيتي » على كل حال .

٩٥

« سوف ادركها قبل الكاتيتي » . كذلك قال روبيان لنفسه وهو يصعد شارع « البرنس » .

لقد قدر أن الخياطة سلكت هذا الطريق . ولمح بعض القامات في كل جهة من جهات الشارع من بعيد . وبدا له أن احداها قامة امرأة . فقال لنفسه . « لا شك أنها هي » ، وأخذ في السير . لقد كان مضطربا أشد الاضطراب ، كما تقدرون ذلك : شارع الهارموني ، خياطة ، سيدة ، أبواب تفتح ثم تغلق . فليس يدهشنا ، والحالة هذه ، أن نراه يصدم في تعجله سيداً كان يمشي الهوينا خافض الرأس . لـقد صدم الرجل ، حتى أنه لم يعتذر اليه ، بل اسرع مزيداً من الاسراع اذا رأى المرأة تسير هي أيضاً سيراً سريعاً جداً .

٩٦

ان الرجل الذي صدمه روبيان لم يكد يلحظ ذلك . لقد كان يسير غارقاً في افكاره ، لكنه مغتبط منشرح الصـــدر خالي البال من كل هم ومن كل قلق . انه مدير المصرف الذي زار باليا معزيا . لقد شعر بالصدمة ، لكنه لم يحفل بها قط ، بل سوّى معطفه ، وعاد الى تفكيره ، وتابع طريقه هادئاً .

ويحسن ان نذكر في تعليل عدم اكتراثه بالصدمة أنه قد عانى خلال ساعة واحدة من هذا اليوم ألوانا من الانفعال متعارضة اشد التعارض . لقد ذهب أول الأمر الى بيت وزير من الوزراء يلتمس منه لاحد اخوته امراً من الامور . وكان الوزير قد فرغ من غدائه فجلس يدخن هادئاً لا ينبس بكلمة . فعرض عليـــه مدير المصرف الامر عرضاً مضطرباً أشد الاضطراب مكرراً ومعيـداً قوله ومغفلا بعض الأشياء منتقلا من جملة الى أخرى بغير صلة ظاهرة ، ومن أجل أن يكون في وضعه مايدل على الاحتشام والتوقير ، جلس جلسة غير مريحة ، وقـد جمدت شفتاه تبسماً في احترام ، وراح يصطنع التحيات تلو التحيات في خضوع ومذلة ويعتذر . وقد طرح عليه الوزير عندئذ بعض الأسئلة ، فأجاب اجابة طويلة بل اجابة مسرفة في الطول ، وأنهى كلامه بتسليم الوزير مذكرة في الأمر . ثم نهض ، وشكر ، وصافح الوزير ، ومشى ، فشيعه الوزير حتى الشرفة ، وهناك انحنى مرتين ، مرة بعلم ووعي وذلك في أعلى السلم ، ومرة بغير وعي وذلك في الحديقة تحت ، حيث لم يجد أمامه وزيراً بل باباً من زجاج ومصباحاً للشرفة. ولم يلبث أن دس رأسه في قبعته ومضى . لقد خرج عندئذ شاعراً بالمذلة حانقاً علي نفسه ، لا لعدم بلوغه غايته فحسب ، بل لما اضطر الى اصطناعه من مجاملات ، والى تقديمه من اعتذارات ، والى اتخـاذه من وضع مهين ، ولسائر تلك السلسلة من أعمال التذلل التي قام بها دون أن يجني منها في آخر الأمر الى أي ثمرة . وعلى هذه الحال من الشعور انما وصل الى بيت باليا .

لكن نفسه استردت هدؤها خلال عشر دقائق ، نتيجة لتحيات الاحترام التي

غمره بها رب البيت ، ولدابه على هز رأسه تأييداً ، ولتبسمه الدائم ، ناهيك عن الشاي ولفائف السيجار التي قدمها اليه . لقد اصطنع المدير عندئذ القسوة والاستعلاء والترفع ، ولم ينبس ببنت شفة ، حتى لقد كشر أنفه احتقاراً حين عرض عليه باليا رأياً من الآراء ، فأسرع هذا مسلماً بسخافة الفكرة التي دارت في خلده . وقد قلد المدير الحركات البطيئة التي رآها في الوزير ، حتى اذا انصرف كان رب البيت لا مدير المصرف هو الذي ينحني انحناء قوياً .

فلما صار في الشارع كان قد تبدل رجلاً آخر . فهذا هو السبب في مشيته الهادئة التي تفيض ثقة ، وفيما يرين على قلبه من طمأنينة ، حتى تلقى صدمة روبيان في غير مبالاة . كان وهو يتذوق مذلة كرستيانو أمامه ، ينسى شيئاً بعد شيء مذلته أمام الوزير .

حين وصل روبيان الى « الكاتيتي » كانت الحياطة تتحدث مع رجل ينتظرها هنالك ، ثم لم يلبث الاثنان أن مضيا معاً الى جهة جلوريا ، وقد تشابكت ذراعاهما كأنهما زوج وزوجة . أهما متزوجان ؟ أم هما صديقان لا أكثر ؟ وغابا عن نظر روبيان عند أول عطفة . فتلبث روبيان بالمكان ساكنا لا يتحرك وهو يتذكر مرة اخرى اقوال الحوذي ، والباب ، والشاب ذا الشاربين ، والسيدة الجميلة القوام ، وشارع الهارموني ... شارع الهارموني ... نعم لقد قالت : شارع الهارموني ...

وقد اضطجع روبيان متأخراً ، بعد أن لبث واقفاً على النافذة مدة طويلة ، والسيجار بين شفتيه ، وهو غارق في تأمل لانهاية له ، يحاول أن يجد تعليلا لهذا الامر كله . لاشك أن دوندون هي الشخص الثالث في قصة الحب هذه ، لايمكن أن يكون الامر غير ذلك . لقد كان في نظرتها تكتم وتخف . كذلك فكر روبيان .

سأعود غدا ، سأبكر في الخروج من البيت فانتظرها عند ناصية الشارع . سوف أعطيها مائة الف قرش ، مائتي ألف ، خمسمائة الف ... لكنها ستعترف بكل شيء .

فلما بلغ منه التعب مبلغه ، نظر الى السماء . هذا هو صليب الجنوب .. آه ... ليتها وافقت على أن تنظر معه الى صليب الجنوب . اذن لتغير كل شيء بالنسبة الى الاثنين كليهما . ولاح له ان مواكب النجوم تؤيد ماذهب اليه ظنه فهي تلتمع التماعاً غير مألوف . واخذ روبيان يتأملها وهو يتخيل ألف مشهد ومشهد من مشاهد الحب – حالماً بما كان يمكن أن يقع . حتى اذا سئم قلبه هذا الغرام الوهمي ، تصور فجأة أن صليب الجنوب ليس كوكباً فحسب ، وانما هو كذلك وسام شرف(١) .

وسارت أفكاره عندئذ في طريق اخرى . ان اتخاذ صليب الجنوب وساما قومياً يسعى اليه الناس هذا السعي كله فكرة عبقرية . وتذكر انه رآه قبل ذلك على صدور من خدموا الدولة . انه لزينة جميلة ، زينة نادرة بوجه خاص . وهتف يقول :

– عظيم .

وكانت الساعة تشارف الثانية حين ترك النافذة . اغلق النافذة ومضى يرقد في سريره . ولم يلبث أن نام . واستيقظ في الغداة على صوت الخادم الاسباني يحمل اليه رسالة .

٩٨

استيقظ روبيان منتفضاً ، وجلس في سريره دون أن ينتبه للخط الذي على الظرف ، وفض البطاقة وقرأ :

« قلقنا امس أشد القلق بعد ذهابك . لايستطيع كرستيانو أن يعودك الآن ، لأنه صحا من نومه متأخراً ، وعليه أن يذهب الى مفتش الجمرك . طمئنا عن صحتك . تحيات ماريا بنديكتا وتحيات .

صديقتك الشاكرة

« صوفيا »

(١) هو الجوق الامبراطوري للكروزيرو (صليب الجنوب) .

– قل لحامل الرسالة ان ينتظر .

وبعد عشرين دقيقة اعطى العبد الذي حمل الرسالة جوابها . أن روبيان هو الذي اعطاه الجواب . وسأله عن صحة السيدتين ، فقال له انها بخير ؛ فناوله بضعة نقود قائلا له : اذا احتاج يوماً الى شيء من المال فما عليه الا ان يجيئه في المساء ، فدهش الصبي وحملق ، ووعد روبيان بتنفيذ كل مايريده منه . قال له روبيان في حنان :

– الى اللقاء .

ولبث ساكناً بينما أخذ حامل الرسالة يهبط درجات المدخل ، حتى اذا أوشك أن يجتاز الحديقة كلها سمع صوتاً يصيح به :

– انتظر .

فعاد ادراجه ليجيب النداء . وكان روبيان قد هبط الدرجات من جهته ، فاتجه الشخصان كل منهما نحو الآخر ، فلما التقيا توقفا دون ان يقول أحد منهما شيئاً . وانقضت دقيقتان طويلتان لم يفتح روبيان خلالهما فمه . وأخيراً لم يزد على ان سأله عن صحة السيدتين ، وهو السؤال الذي طرحه عليه منذ هنيهة ، فلم يكن على الصبي الا أن يؤكد له ماقاله من قبل .

وأجال روبيان طرفه في الحديقة . ان الورد وازهار المرجريت تفيض جمالاً ونضارة ، وأن القرنفل قد اخذت تتفتح أكمامه . وثمة ازهار اخرى ، ثمة بنفسج ونباتات متسلقة ، فكأن هذا العالم الصغير كله يحدق الى روبيان بعين خفية صائحاً به :

– أيها القلب المريض ... اطفىء نار رغبتك ... اقطفنا وأرسلنا ...

قال روبيان :

– طيب . بلغ السيدتين تحياتي . ولا تنس ماقلته لك . اذا احتجت الي فائت الى هنا . ألم تضيع الرسالة ؟

– لا ... لا ... هي ذي ياسيدي .

– خير لك أن تضعها في جيبك ، ولكن حاذر ان تدعكها !

قال الصبي وهو يرتب الرسالة :

– لن ادعكها ياسيدي . لاتخف .

٩٩

خرج الصبي . وظل روبيان يتجول في الحديقة ، واضعاً يديه في جيبي ثوبه . انه ينظر الى الازهار . أي ضير في ان يبعث ببعضها ؟ هي هدية معتادة ، لا بل هي هدية يكاد يكون ملزماً باهدائها . اما ينبغي له أن يرد اللطف بمثله ؟ لقد أخطأ اذ امتنع عن ارسال بعض الازهار . وهرع الى الباب ، لكن الصبي كان قد بعد . وخطر ببال روبيان عندئذ ان ظروف الحداد تستبعد هذا النوع من الهدايا ، فهدأت هذه الفكرة خاطره .

واستأنف تجواله في الحديقة ، فاذا هو يرى على الارض رسالة قرب صخرة ، فانحنى وتناول الرسالة ونظر في العنوان ... انه « خطها » ، انه ذلك الخط الفريد الذي لا يكتب مثله غيرها . ومن أجل أن يزداد يقيناً قارنه بخط البطاقة التي تلقاها منذ قليل . خط واحد بعينه . اما اسم المرسل اليه فليس الا اسم الشيطان: كارلوس ماريا .

قال لنفسه بعد بضع دقائق : « حقاً . ان الصبي الذي حمل الرسالة الي كان يحمل هذه الرسالة ايضاً . وسقطت منه » .

وبعد ان قلب الرسالة على جميع وجوهها تساءل ما عسى ان يكون مضمونها . آه ... مضمونها . ما عسى أن يكون المكتوب في باطن هذه الورقة المجرمة ؟

هو الفسق والعهر ، وربما لغة الاثم والجنون كلها ملخصة في بضعة اسطر . ونظر الى الرسالة في الضوء ليرى هل يستطيع أن يقرأ منها كلمة أو كلمتين ، لكن الورق كثيف ، ولا يمكن ان يشف عن شيء ، فلما خطر بباله على حين

فجأة ان حامل الرسالة قد يدرك بعد قليل انه فقد الرسالة فيعود ادراجه باحثاً عنها ، اسرع يضعها في جيبه وهرع الى البيت .

حتى اذا دخل اخرجها وعاد يتأملها . ان يديه تترددان مترجحتين ترجح ضميره . انه اذا فض الرسالة عرف كل شيء . واذا قرأها ثم احرقها لم يطلع احد على نصها ، واستطاع هو ان يستقر على حال بدلاً من ان يظل قلقاً امام هذا الركام من الفظاعات ... وليست الالفاظ من اختراعي ايها القارىء الصديق ، وانما هي ألفاظه بعينها . فهو الذي كان يطلق هذه الشتائم ويطلق غيرها أيضاً ، بينما هو جالس في وسط الصالون ساكناً محدقاً الى السجادة التي تمثل رجلا تركياً مسترخياً واضعاً غليونه في فمه ومسرحاً بصره التائه نحو البوسفور ... نعم ، لا شك أنه البوسفور ...

— يا الرسالة الملعونة !

كذلك همهم يقول بصوت أصم ، مردداً عبارة سمعها قبل بضعة أسابيع في المسرح . ان هذه الجملة الصغيرة التي كان قد نسيها الى تلك اللحظة ، تعبر وحدها عن التشابه الروحي بين المشهد والمشاهد .

وتضاعفت رغبته في فض الرسالة . ليس عليه من أجل ذلك الا أن يقوم بحركة يسيرة . مامن أحد يستطيع أن يراه ، فاللوحات المعلقة في الحائط هادئة لاتبالي ، والتركي الذي تمثله في السجاد مايزال يدخن وينظر الى البوسفور . لكن صاحبنا ظل مع ذلك يشعر بوسواس تردعه عن فض الرسالة . صحيح انه وجد الرسالة في حديقته ، لكن الرسالة ليست له ، وانما هي للشخص الآخر . انها أشبه بمال وقع بين يديه ، أفليس من واجبه أن يرد المال الى صاحبه ؟ واعاد الرسالة الى جيبه وهو يحس بالحسرة . وتساءل هل يبعث الرسالة الى الشخص الموجهة اليه أم يردها الى صوفيا ؟ ثم استقر رأيه أخيراً على الحل الثاني ، لأنه ربما أتاح له أن يقرأ الحقيقة في وجه المرأة الشابة . قال لنفسه . « سأقول لها انني وجدت رسالة ، وقبل أن أعطيها اياها سأرى في وجهها أهي خائفة أم لا . أتراها يشحب لونها؟

ساهددها عندئذ ، وساحدثها عن شارع الهارموني . وسأحلف لها أنني على استعداد لأن أنفق ثلاثمائة فونت ، بل ثمانمائة ، بل ألفاً ، بل الفين ، بل ثلاثة آلاف إذا اقتضى الامر ، من أجل خنق هذا الشخص الحقير ... » .

١٠٠

لم يصل أحد من رواد البيت لتناول طعام الغداء . انتظر روبيان نحو عشر دقائق ، حتى لقد أرسل خادماً الى الباب يرى هل ظهر أحد . لم يظهر أحد ... فكان لابد له من أن يعزم على تناول طعامه وحده .

كان روبيان ، بوجه عام ، لايطيق وجبات الطعام من غير ضيوف . لقد بلغ من تعوده حديث أصدقائه وملاحظاتهم ونكاتهم وكذلك ماكانوا يحيطونه به من مظاهر الاحترام ، انه اذا طعم وحده فكأنه لم يطعم شيئاً . لكنه كان في ذلك اليوم أشبه بشاوول ينتظر داودا قادراً على أن يطرد الروح الخبيث الذي تسلط عليه . حتى لقد أمسى ممتلئاً حقداً على حامل الرسالة الذي تركها تسقط منه . لقد كان من الافضل له ان يجهل كل شيء . ثم أخذ يتردد مرة اخرى . هل يرد الرسالة ؟ أم يحتفظ بها الى غير ميعاد ؟ كان روبيان يخشى أن يعلم . فهو تارة يعدل عن ذلك ولا يريده . ويمكن أن نقول ان رغبته في المعرفة لم تكن في آخر الأمر الا الأمل في ان يكشف ان ليس ثمة شيء .

وظهر داود اخيراً ، بين تناول الجبن وشرب القهوة ، ظهر في صورة الدكتور كاماشو ، الذي رجع من فاسوراس في الليلة البارحة . وكداود الذي حدثت عنه التوراة ، كان مع الدكتور كاماشو حمار يحمل خبزاً ، وجرة خمر ، وماعز . لقد ترك أحد النواب ميناس مريضاً خطيراً ، وبدأ يعد العدة لترشيح روبيان بالكتابة الى مختلف شخصيات تلك الولاية . ذلك ماقصه على روبيان منذ اولى جرعات القهوة .

– أنا ارشح ؟

– اذا لم ترشح أنت ، فمن عسى يرشح ؟

وأوضح له كاماشو انه لايمكن ان يكون هنالك من يفضله مرشحاً . ألم يقدم خدمات كبيرة حين كان بميناس ؟

– بعض الخدمات ، نعم .

– اما الخدمات التي قدمتها هنا فلها شأن كبير خاص . ألم تساعدني في دعم الجريدة التي تنطق بلسان المباديء ؟ الم تتلق معي الضربات التي كيلت لي ، ناهيك عن التضحيات التي نقوم بها جميعاً من الناحية المالية ؟ لقد تم الامر ، وليس لك ان تحتج . سأعمل كل ما في وسعي من اجلك . ذلك كل ما أريد ان أقوله لك . ثم انك بذلك تحل خلافنا .

– أي خلاف ؟

– الخلاف الذي قد يحدث بين الدكتور هرمنجلدو ، من كاتاس التاس ، والكولونيل روموالد ، اذ يقال أنهما كليهما سيرشحان نفسيهما اذا شغر مكان ، ومن شأن هذا أن يشتت أصوات الناخبين .

– طبعاً . ولكن ماذا اذا أصرا ....

– اعتقد أنهما لن يصرا حين أجعل زعماء الحزب يؤكدون لهما هذا القرار ؛ ذلك أن من الاشياء التي رموني بها ، أنني لست مفوضاً لحسم الامر ، فاعترفت بأن هذا صحيح في هذه الحالة التي لم تكن في الحسبان ، ولكنني أضفت أنني أتمتع بثقة زعمائي كاملة ، وأن زعمائي سيؤيدونني ولا ريب . عليك أن تعد الامر منتهياً . ماذا تظن ؟ أتظن أنني أبذل هنا كل ماأبذل من وقت ومال وموهبة ثم لا أستطيع أن أستخدم صديقاً قدم كل هذه البراهين على اخلاصه للمباديء ؟ لا ... لا ... لابد من أن يصغوا الي ويؤيدوا اقتراحي .

تأثر روبيان ، فطرح عدداً من الاسئلة عن الصراع الذي سيقوم ، وعن النصر الذي سيعقب الصراع . هل من الضروري ان نقدر النفقات منذ الآن ؟ أترانا

في حاجة الى كتاب توصية ؟ الى تقديم طلب ؟ كيف يكون في وسعنا أن نطلع على حالة المريض ؟ الخ ... فأجاب كاماشو عن الاسئلة جميعها ، ولكنه أوصى صاحبه كذلك بكثير من الحذر ، قائلاً : رب أمر يسير في ميدان السياسة ، يبدل مجرى حملة من الحملات ويكتب النصر للخصم . وهبك لم تخرج من المعركة منتصراً، فانك ستخرج منها رابحاً ، لان اسمك سيسجل في الحوليات الانتخابية ، وتلك سابقة لها قيمتها . وختم كلامه بقوله :

– عليك بالثبات والصبر .

ثم لم يلبث أن أضاف :

– وهل انا نفسي الا مثال للصبر والثبات ؟ ان منطقتي واقعـة بين أيدي طائفة من قطاع الطرق . نعم من قطاع الطرق ، فليس لهؤلاء البديارو اسم غير هذا الاسم . واكثر من ذلك (أقول لك هـذا على ألم وأرجو أن يظل سراً مكتوماً بيننا) ان لي اصدقاء يتآمرون علي ، أناساً طامحين ليس لهـم ضمير يردعهم ، فهم يحاولون أن يخرجوني ليحلوا محلي ... يا لهم من أوغاد ! آه يا عزيزي روبيان ... ان حكايات السياسة هـذه تشبه عـــذاب سيدنا يسوع المسيح ... ليس ينقصها شيء ، لا التلميذ المرتد ولا التلميذ الخائن . تاج الشوك ، والصفعات ، وخشبة التعذيب ، والنهاية هي الموت على صليب الافكار بمسامير الحسد والغيبة ونكران الجميل ...

وهذه العبارة التي وافت قريحته من حرارة الحديث ، لاحت جـديرة بأن يكتب فيها مقالا ، فثبتها في ذاكرته ، ثم سجلها بعد ذلك على قطعة من الورق قبل أن يأوي الى فراشه . لكن في تلك اللحظة ، بينما كان يردد هذه العبارة في ذهنه ليثبتها في ذاكرته ، قال له روبيان إن ذلك لحظة من انفعـال عصبي لا أكثر ، وان عهده به انه قادر دائماً على المشروع في أعمال كبيرة ... وما ينبغي له أن يخشى هؤلاء المنافقين .

– أخشى هؤلاء المنافقين ؟ طبعاً لا ... اني امرؤ لا اخاف حتى الغيلان

ان كان للغيلان وجود . انى اقف لهم بقدم ثابتة . وليحذروا منا حين نصل الى الحكم . لسوف يدفعون الثمن يومئذ غالياً . اسمع ما أقوله لك . في السياسة لاشيء يغتفر ولا شيء ينسى . ما يفعله المرء يدفع ثمنه .

ثم أردف يقول وهو يبتسم :

– صدقني ان الانتقام لذة ... لذة رائعة . اذا حسبنا حسنات السياسة وسيئاتها غلبت الحسنات السيئات آخر الامر . صحيح ان هناك أناساً ينكرون الجميل ، ولكن المرء يستطيع ان يعاقبهم : يعزلهم ، يسجنهم أو يطاردهم ..

وكان روبيان يصغي خاضعاً مفتوناً . ان احساساً بالقوة كان يشع من كاماشو ، وكانت عيناه تقدحان شرراً . وكانت اللعنات تنبجس من فمه كلعنات أشعيا ، حتى لكأن المرء يرى أكاليل النصر تتلألأ فوق جبينه منذ الآن . فكأن كل اشارة من اشاراته رمز . وكأنه وهو يفتح ذراعيه بحركة متعاظمة ، يعرض برنامجاً بكامله . كان يسكر أملا .. وكان في سكره فرح . وفي لحظة من اللحظات وقف أمام روبيان وقال :

– اسمع ايها النائب العزيز . حاول أن تلقي خطابا تطلب فيه إغلاق باب المناقشة . « سيدي الرئيس .. » هيا ردد معي « سيدي الرئيس ، ابيح لنفسي أن أطلب اليكم .. »

فقاطعه روبيان بنهوضه على حين فجأة . لقد عراه نوع من الدوار . وها هو ذا يرى نفسه داخلا على مجلس النواب لاداء القسم والنواب قيام . ان رعشة تسري في جسمه . ومشيته مترددة . لكنه يجتاز القاعة رغم كل شيء ، ويصعد سدة الرئاسة ، ويحلف اليمين التقليدية . لعل صوته كان يرتجف قليلا في تلك اللحظة ..

١٠١

كان روبيان على تلك الحالة النفسية حين نعي اليه فريتاس . فسكب دمعة ، خلسة . وتكفل بنفقات الدفن . وفي الاصيل من الغداة شيع الراحل الى المقبرة وقد أرادت أم صديقه حين رأته يدخل الصالون ، ان تركع عند قدميه .

لكن روبيان شدهـا اليه من ذراعيها في الوقت المناسب فحال بينها وبين الركوع ، فكان لهذه الحركة من بطلنا وقع كبير في نفوس الحاضرين جميعاً . وجاءه أحدهم فصافحه ، ثم قاده الى ركن من الاركان ، وأخذ يروي له بصوت خافت كيف أنه صرف من الخدمة منذ بضعة أيام بغير حق .. عمل ظالم مرده الى المؤامرات ...

— انظر . . . هو وكر أوباش . واعذرني اذا استعملت هذه اللفظة .

وحانت ساعة الجنازة . فأخذت الأم تودع فقيدها وداعاً يمزق القلب . قبلات وانتحابات وصيحات .. كل ذلك في آن واحد معاً . ولم تستطع النساء أن تنتزعها من هناك . فالتجأت الى رجلين ، واضطر الرجلان الى استعمال القوة . كانت تصرخ وتصر على أن تعود الى جثمان أبنها : ابني ، ابني المسكين .

وتابع الرجل المصروف من الخدمة يقول :

— هذه فضيحة . ويظهر أن هذا العمل لم يرض عنه الوزير . ولكنك تعرف كيف تجري الامور ، فمن أجل أن لا يزعل المدير ...

— بم بم بم ...

كذلك كانت تدوي أصوات المطارق حين أخذوا يسمرون التابوت .

واستجاب روبيان للطلب الذي تقدموا به اليه وهو أن يمسك أحد حبال الغطاء الذي يغطي التابوت ، فترك الرجل المصروف من الخدمة لشأنه . وكان هنالك في الخارج عدد من المتسكعين المتفرجين . وعلى النوافذ جيران يحنون على الشارع بعضهم فوق بعض ، وقد امتلأت أعينهم بذلك الفضول الذي يوقظه الموت في نفوس الأحياء . ويجب أن نذكر أنه كانت هنالك ايضاً « مركبة » روبيان الفخمة التي تختلف كل الاختلاف عن العربات الاخرى . لقد كان الناس يتحدثون من قبل عن هذا الصديق ، صديق المتوفى ، فجاء حضوره الآن مصدقاً لما كان يدور على الالسن من شائعات . واصبح الراحل محاطاً بشيء من الاعتبار .

وفي المقبرة لم يكتف روبيان بان يهيل على التابوت أول حفنة من التراب ،

استجابة لرجاء جميع الناس ، وانما لبث بعد ذلك منتظرا الى أن انتهى الحفارون من ردم الحفرة بمجارفهم الكثيرة ردماً تاماً . وكانت عيناه مخضلتين . حتى اذا انتهى كل شيء ، مضى وقد أحاط به سائر الحاضرين . وعند باب المقبرة مد قبعته بحركة واسعة ذات اليمين وذات الشمال ، محيياً جميع الرؤوس المكشوفة المطأطئة . ولما صعد في مركبته ، سمع هذه الكلمات تقال بصوت خافت :

– يظهر أنه عضو بمجلس الشيوخ ، أو قاض من قضاة محكمة الاستئناف ، أو شيء من هذا القبيل .

لقد هبط الليل بينما كان روبيان راجعاً الى بيته يفكر في ذلك المسكين الذي دفنه مثل قليل . وها هو ذا يلتقي في شارع سان كريستافون ، بمركبة اخرى . يتبعها جنديان على صهوتي جواديهما . تحمل هو أحد الوزراء في طريقه الى مقابلة الامبراطور . مد روبيان رأسه من باب العربة ، ثم أدخله ، ولبث لحظة يصغي الى وقع خطوات الجوادين . انها خطوات موقعة واضحة كل الوضوح رغم الضجة الناشئة عن وقع حوافر الخيول الاخرى . وبلغ تنبه ذهن صاحبنا من القوة أنه ظل يسمع وقع هذه الخطوات رغم أن المسافة بينه وبين الموكب قد أصبحت اكبر من ان يصل اليه الصوت في الواقع ... تك ... تك ... تك ...

١٠٣

بعد وفاة دونا ماريا أوجوستا بأسبوع أقيم لها القداس التذكاري المعتاد في كنيسة سان فرنسيسكو دوباولا . وقد حضر روبيان القداس ، ورأى هنالك ماريا . ولم يكن في حاجة الى اكثر من ذلك حتى يستعجل الرسالة . فما هي الا ثلاثة أيام حتى وضع الرسالة في جيبه وهرع الى فلامنجو . كانت الساعة الثانية بعد الظهر . لقد ذهبت ماريا بنديكتا ترد الزيارة للجيران الذين واسوها في خلال الايام الاولى من حزنها . وصوفيا وحيدة في البيت تهم أن تخرج .

قالت له وهي تدعوه الى الجلوس :

- لا بأس ، سأبقى ، أو أخرج فيما بعد .

فأجابها روبيان أنه لن يؤخرها كثيراً ، وأنه لم يجيء الا ليرد اليها ورقة .

- اجلس على كل حال . في وسع المرء أن يرد ورقة وهو جالس .

كانت صوفيا من الجمال بحيث تردد روبيان في أن يقول لها الكلمات القاسية التي هيأها . كانت رائعة في ملابس الحداد كأن ثوبهـــا قالب احاط بجسمها احاطة القفاز الاسود باليد . انها الآن جالسة ، ويمكن أن يري المرء قدميها وحذاءيها الصغيرين المسطحين وجوربيها الحريرين ، وهي كلها أشياء تطلب العفو والرحمة ، أما السيف الذي في داخل الغمد - وهذا هو التعبير الذي استعمله كاتب قديم في وصف النفس - فكان يبدو عاجزاً كل العجز عن أن يجرح أي انسان . بالعكس .. بل كان يبدو نقياً نقـــاء البلور . وأوشك روبيان أن يضعف لكن الكلمات الاولى التي فاه بها لا تسمح له بالتراجع .

قالت صوفيا :

- ما هي الورقة ؟

فاجابها متجلداً :

- هي ورقة أظنها خطيرة . ألا تتذكرين أو تعلمين أنك أضعت رسالة ؟

- لا .

- هل تكتبين رسائل في كثير من الاحيان ؟

- في بعض الاحيـــان . ولكنني لا أتذكر أنني كتبت شيئاً على جانب كبير من الخطورة . أرني .

كانت عينا روبيان تائهتين . فلم يقل شيئاً ولم يفعل شيئــاً . ونهض كمن يريد أن يخرج . ولكنه لم يخرج . وبعد بضع لحظـــات من الصمت والقلق أردف يقول في غير غضب :

- ليس سراً لديك أنني احبك . انت تعرفين ذلك ولا تطردينني ولكنك في الوقت نفسه لا تستجيبين لعواطفي ، وتكتفين باثارتي بهـــذا الموقف الذي

تقفيه مني . لم أنس بعد سهرتنا في سانتاتيريزا ، ولا رحلتنا في القطار حين كنا جالسين نحن الاثنين وبيننا زوجك . أتذكرين ؟ ان تلك الرحلة قد سببت شقائي . فمنذ ذلك اليوم سلبت قلبي . أنت خبيثة . انت كأفعى . ماذا صنعت لك ؟ أما أن لا تحبيني فذلك أمر أقبله ، ولكن لماذا لم تزيحي عن عيني غشاوة الضلال فوراً .

قاطعته صوفيا تقول وهي تنهض وتنظر الى جهة الباب :

– اسكت . هذا شخص قادم .

ولم يصل أحد . لكن كان يمكن أن يسمع كلام روبيان ، لأن روبيان كان يزداد حماسة أثناء حديثه وكان يرفع لهجته شيئاً بعد شيء . وها هو ذا يرفع صوته الآن اكثر من ذي قبل . انه لا يرافع الآن من أجل أن يربح قضية ، وانما هو يفرغ ما في قلبه لا اكثر من ذلك ولا أقل . صاح يقول :

– لا يهمني أن يسمع كلامي احد . في وسع الناس أن يسمعوني . سأقول لك الآن كل ما بنفسي ، وستطردينني بعد ذلك وينتهي كل شيء . . لا . . ليس يحق لاحد ان يعذب انسانا هذا التعذيب . .

– اسكت ، استحلفك بالرب .

– أي رب ؟ اصغي الى التتمة ، لانني قررت أن لا أبقي في نفسي شيئا .

واشتد قلق صوفيا ، وكانت تخشى حقاً أن يسمع احد الخدم كلام روبيان فرفعت يدها وكمت بها فمه . فلما لامست هذه اليد المعبودة شفتيه عقل لسانه . فسحبت صوفيا يدها وتهيأت للخروج من الصالون . ولكنها ما ان وصلت الى الباب حتى وقفت . وكان روبيان قد مضى الى النافذة ليروح عن نفسه ، ويسترد هدوءه .

١٠٤

لبثت صوفيا تتنصت بضع ثوان ، ثم رجعت الى الصالون ، ومضت مع

خشخشة تنانيرها نجلس على اريكة (الاطلس) الازرق التي اشتروها منذ مدة قصيرة . والتفت روبيان فرآها تهز رأسها هزة تأنيب . وقبل أن يفتح فاه بكلمة وضعت اصبعها على فمهـا متوسلة اليه أن يلزم الصمت ، ثم أومأت اليـه بيدها أن يقترب ، فأطاعها . قالت :

– اجلس .. اجلس على هذا الكرسي .

فلما جلس أردفت تقول :

– جميع الاسبـــاب تدعوني الى أن اغضب منك ، لكنني لن أفعل ، لعلمي بانك طيب القلب ، ولانني ادرك أنك صـادق . فاذا ندمت على ماقلته لي ، صفحت عنك .

قالت صوفيا ذلك وضربت بمروحتها الجهة اليمنى من ثوبها لتسوى ثنيـة من ثناياه ، وحركت أساورها البلورية السوداء ورفعت ذراعيها ثم تركتهما تسقطان على ركبتيها ، وأخذت تنتظر جواب روبيان وهي تطوي مروحتها ثم تنشرها ، فاذا بروبيان يهز رأسه متمنعاً على خلاف ما كانت تتوقع . قال :

– لست أرى ما يوجب أن أندم ، واني لأوثر أن لا تصفحي عني . ومهما يكن من أمر فإني لن أنساك أبداً ، شئت ذلك أم لم تشائيه . في وسعي أن أكذب ، ولكن علام الكذب ؟ أنت التي لم تكوني صادقـــة ، أنت التي غررت بي ...

أنهضت صوفيا جذعها .

– ... لا تغضبي ... لست أريد أن أهينك ، ولكن اسمحي لي أن أقول لك أنك انت التي غررت بي في غير رحمة البتة . أن تحبي زوجك ، فهذا أمر أقبله ، وقد غفرته لك . أما ان ...

قالت صوفيا مبهوتة :

– أما ماذا ؟

فوضع روبيان يده في جيبه فأخرج الرسالة ومدها اليها . فلما رأت صوفيا

اسم كارلوس ماريا امتقع لونها امتقاعاً شديداً . ولاحظ روبيان شحوبها ، لكنها ما لبثت أن سيطرت على نفسها ، وسألته ما معنى هذه الرسالة .

– هي رسالة منك .

– نعم هي مني .

وتابعت تقول في هدوء :

– ولكن ماذا أقول في هذه الرسالة ؟ ثم من أعطاك إياها ؟

وهم روبيان أن يشرح ، لكنه قدر أن ما قاله حتى الآن كاف ، فحياها لينصرف .

قالت صوفيا :

– من فضلك ... فض هذه الرسالة بنفسك .

– لم يبق لي هنا ما أعمله .

– لاتذهب ، فض الرسالة ، هذه هي . اقرأها كلها .

كذلك تابعت المرأة الشابة كلامها وهي تمسك به من كمه .

لكن روبيان شد ذراعه بعنفه ومضى يتناول قبعته ، ثم خرج . ولم تجرؤ صوفيا ان تغادر الصالون ، خوفاً من الخدم .

١٠٥

خلال اللحظات الاولى التي اعقبت ذلك ، ظلت صوفيا في حالة عصبية لم تسمح لها حتى التفكير في الرسالة . واخيراً تناولتها فقلبتها ثم قلبتها وهي لا تستطيع أن تحزر مضمونها . لكنها ، بعد ان استردت كل هدوئها ، تذكرت شيئاً فشيئاً ان الرسالة تشتمل على منشور « لجنة الآلاجواس » ومزقت الظرف فاذا هو المنشور حقاً . ترى كيف وقعت هذه الورقة بين يديه ؟ ومن اين جاءته هذه الشكوك ؟ هل تصورها من تلقاء نفسه ، ام ان احداً صورها له ؟ هل هنالك سعايات ؟ ومضت الى الصبي الاسود الذي كلف حمل المنشور

الى كارلوس ماريا ، فسألته هل اوصل الرسالة ، فعرفت منه الحقيقة ، وهي انه حين وصل الى شارع الانقاليد ، لم يجد الرسالة في جيبه ، فكتم الامر عن سيدته خوفاً منها .

وعادت صوفيا الى الصالون وقد عدلت عن الخروج . ووضعت الرسالة والظرف ناحية من اجل ان تظهر روبيان عليهما ، فيرى بام عينه أن ليس في الامر شيء . ثم خطر ببالها انه قد يحسب ان الورقة قد ابدلت ، فدمدمت تقول : « لعنة الله » ، وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا .

واخذ سيل من الذكريات يغزو ذهن صوفيا . وتسمرت امامها صورة كارلوس ماريا ، بعينيه اللتين تشبهان عيني طيف ، محبوب ومكروه في آن واحد . وأرادت صوفيا ان تطرده ، لكنها لم تظفر بذلك ، فهو يرافقها عن يمينها وعن شمالها ولايفقد شيئاً من رجولته القوية ، ولا من تعاليه الماكر . وهي تراه في بعض الاحيان منحنيا ينطق بتلك الكلمات التي سمعتها منه اثناء احدى حفلات الرقص ، تلك الكلمات التي سببت للمرأة الشابة ساعات طويلة من الارق واياما كثيرة من الامل ، ثم انتهت الى الضياع في غياهب الوهم . ان صوفيا لم تستطع ان تفهم في يوم على الايام اخفاق هذه المغامرة . ومع ذلك فقد كان يبدو أن كارلوس ماريا يحبها حقاً ، وما من أحد اكرهه على أن يكاشفها بعواطفه تلك المكاشفة الجريئة ، ولا على أن يقف تحت النافذة في ظلمة الليل ، كما ذكر لها ذلك . وتذكرت أيضاً اجتماعات اخرى به ، وكلمات عابرة مختلسة ، ونظرات حارة طويلة ، فلم تستطع أن تدرك كيف ان هذا الهوى العنيف كله لم يؤد في آخر الامر الى شيء. ربما كان السبب في ذلك أن الرجل لم يكن يحمل لها في يوم من الايام حباً ، وان الامر كله لا يعدو أن يكون عبثاً أو أن يكون وسيلة يتحقق بها كارلوس ماريا ماله على النساء من سلطان الاغراء . انه لم يكن الا رجلا مغروراً بنفسه ، وانساناً مستهتراً تافهاً .

وماذا يعنيها آخر الامر من هذا السر ؟ ان كارلوس ماريا رجل تافه كل التفاهة . وقد اصبح لا يوقظ في نفسها إلا الاشمئزاز والاحتقار . وراحت تضحك اخيراً على كارلوس ماريا ، وهي تحس أن ضميرها يعذبها من تفكيرها فيه ، واستمرت تحوم حول هذا الموضوع زمناً طويلا رافعة عينيها الى السماء كالملاك ، منتقمة من ذلك الابله — انها تسميه الآن بالأبله — . ولكن أليست تولي هذا الامر اكثر مما يستحقه من اهتمام ؟ والتفتت افكارها عندئذ ، في غضب ، نحو روبيان الذي اخرج مثل هذا الرجل من ظلمة النسيان بحكاية المنشور هذه ... ثم عادت تأملاتها الاولى ، الى كلمات كارلوس ماريا ... اذا كان جميع الناس يرونها جميلة ، فلماذا لا يراها جميلة وهو الذي تجرأ أن يصرح لها بذلك ؟ آه .. لعلها كانت تستطيع أن تجعله يركع على قدميها لو لم تظهر له تلك الضعة كلها ، ولو لم تتأثر بمدائحه ذلك التأثر كله .

وفجأة سمعت الخادم التي كانت في الحجرة المجاورة قرقعة شيء ينكسر ، فهرعت الى الصالون فرأت سيدتها واقفة هنالك وحدها . قالت صوفيا :

— لا شيء .

— خيل الي أنني سمعت ...

— هو هذا التمثال الصغير قد سقط لمي . حطامه

صاحت الخادم :

— الصيني .

انه تمثال من القيشاني يمثل رجلًا صينياً . تمثال بريء مسكين يوضع عادة في أعلى أحد الرفوف . وقد وجدته صوفيا بين أصابعها ، لا تدري كيف ، ولا متى ، فلما تذكرت ضعتها التي أرادتها لنفسها ، لم تستطع أن تكبح جماح غضبها وهو غضب على نفسها في أغلب الظن — فرمت التمثال الصغير على الارض . يا للتمثال المسكين ... لم ينفعه أنه كان من قيشاني ولا أن باليا هو الذي أهداه اليها .

— ولكن كيف أمكن يا سيدتي أن ...

— اذهبي .

وتذكرت صوفيا موقفها من كارلوس ماريا ، تذكرت ما استطاع ان ينتزعه منها من رضوخ سهل ، وتذكرت ما كانت تقابله به من صفح ، وما كانت ترشقه به من نظرات ، وتذكرت كيف كانت تدع له يدها في سهولة .. نعم ، ذلك هو الامر . لقد رمت بنفسها عليه . ثم تبدلت عواطفها . ربما كان ينبغي البحث عن سبب آخر مختلف عن ذلك ؟ وراحت صوفيا تنبش ذاكرتها عسى أن تقع على سبب لذلك الهجران . هل بدرت منها حركة فيها فتور أو جفاء ؟ هل بدر منها شيء من الاهمال ؟ فتذكرت انها لم تجرؤ ذات يوم ان تستقبله وهي وحيدة فأمرت أن يقال له انها ليست في الدار . نعم ، من الجائز جداً ان يكون هو السبب . ان كارلوس ماريا رجل متكبر تجرحه اي اهانة . لقد عرف انهم كذبوا عليه ... ذلك هو السبب الحقيقي .

١٠٦

١٠٦ أو قل الفصل الذي يتساءل فيه القارىء حائراً : كيف يتفق حزن صوفيا هذا والقصة التي رواها الحوذي ؟ ولعله يسأل : أيكون موعد شارع الهارموني ، وصوفيا ، وكارلوس ماريا ، وحكاية ذلك الحب العارم الآثم ، أيكون ذلك كله أراجيف ؟ نعم ، انه أراجيف ، لكنها أراجيف لفقها القارىء وروبيان ، لا ذلك الحوذي المسكين الذي لم يذكر أي اسم من الاسماء ، ولا قص حكاية واقعة . وذلك ما كان في وسعك ، أيها القارىء ، أن تدركه لو أنك تأنيت في قراءة الاسطر التي ولدت شكوك روبيان . نعم يا صديقي العزيز .. عليك أن تتساءل بنفسك : هل يمكن أن تكون تلك القصة كلها صادقة ؟ هل كان لرجل ذاهب الى مغامرة من هذا القبيل أن يقف عربته أمام البيت الذي يلقى فيه عشيقته ؟ انه لو فعل ذلك لكان أشبه بمن يأتي بشاهد الى مكان الجريمة . ان بين السماء والارض من الطرق اكثر مما تتخيل فلسفتك ..

أليس هناك طرق تقطع ذلك الطريق ويمكن أن تنتظر فيها العربة ؟

— صحيح .. وقد أعوز الحوذي ها هنا شيء من الخيال . ولكن ما الفائدة التي يجنيها من تلفيق هذه القصة ؟

لقد قاد الحوذي روبيان الى منزل مكث فيه صاحبنا قرابة ساعتين دون أن يصرفه . ثم رآه يخرج من البيت ويركب العربة ثم ينزل منها فوراً ليمشي على قدميه طالباً اليه أن يتبعه . فخلص من ذلك انه امام زبون غريب الاطوار . ولكنه لم يخطر بباله حتى تلك اللحظة أن يلفق شيئاً . فاذا بامرأة معها صبي صغير — وهي المرأة الشابة التي ذكرنا انه رآها في شارع ساودي — تمر ، فيرمقها صاحبنا بتلك النظرة العاطفية الحزينة ، فقدّر الحوذي عندئذ أن الرجل ليس متلافا فحسب ، وانما هو كذلك فاسق ، فأخذ يحدثه عن الغزوات التي تخيل اسنادها اليه . ولئن ذكر شارع الهارموني ، فما ذلك الا لقربه من الحي الذي جاءا منه . ولئن قال انه قاد رجلا من شارع الانفاليد فلعل ذلك راجع الى أنه قد أركب رجلا من ذلك المكان فعلا بالامس — وربما كان هذا الرجل هو كارلوس ماريا نفسه — أو لعله راجع الى أن موقف عربته هو في ذلك المكان . المهم انه التقط ظرفا من شأنه أن يجسد قصته ، تماماً كما نتخذ من ذكريات النهار مادة ننسج منها أحلام الليل . وليس جميع الحوذيين بقادرين على أن يخترعوا حكايات ، وحسبه فضلا انه استطاع أن يبني من قطع واقعية شيئاً متماسكا .

ولم يبق إلا تلك المصادفة التي جعلت احدى الخياطتين تقيم في شارع الهارموني . وهذه مصادفة حقاً . لكن الخياطة هي المسئولة عن ذلك . فلم يكن ليعز عليها أن تجد لنفسها مسكناً في مركز المدينة لو شاءت أن تترك زوجها ومهنتها . لكن هذين الشيئين هما اللذان كانت تحرص عليهما فوق حرصها على أي شيء في هذا العالم . ولم يكن هذا على كل حال بالسبب الكافي لأن اسقط تلك الأسطر أو أن أختم الكتاب .

تهيأت صوفيا لاستقباله . وقد وطنت نفسها على أن تنتهز الفرصة لتشرح له أمر الرسالة شرحاً مشفوعاً بالايمان المغلظة ، حتى يدرك أنها لاتخشى من ذكر الحقيقة شيئاً . لكن ماعزمت عليه ذهب سدى . لأن روبيـــان لم يظهر ، وانقضى أحد آخر ، وانقضت آحاد اخرى ... وارسلت اليه صوفيا مع ذلك ذات يوم قسيمة تبرع للآلاجواس ، فاكتتب بخمسة قونتات .

قال له شريكه حين ذهب روبيان الى المخزن يحمل اليه الورقة :

– هذا كثير .

فأجابه روبيان :

– لن أكتتب بأقل من ذلك .

– أبيح لنفسي أن الفت نظرك الى انك تستطيع ان تتبرع بكثير، دون ان تتبرع بهذا المبلغ كله . هل تظن أنه لايشترك في هذا التبرع الا ثلاثة اشخاص أو اربعة ؟ إن اناساً كثيرين قد ارسلت اليهم اليوم قسيمة كالقسيمة التي ارسلت اليك ، حتى أن المرء ليرى هـذه القسائم في واجهات الحوانيت بميدان « التجارة » ... فليكن تبرعك بمبلغ أصغر .

– كيف أستطيع ذلك ، لقد كتبت الرقم .

– من السهل جداً أن تغير الرقم 5 فتجعله 3 ، وثلاثة قونتات مبلغ عظيم . صحيح أن هنالك مبلغ اكبر ، لكن اصحابها لا يستطيعون أن يتبرعوا بأقل منها بحكم مراكزهم أو ثرواتهم . ان بومفين مثلا قد اكتتب بعشر قونتات .

فلم يستطع روبيان أن يكبح ضحكة صغيرة ساخرة انطلقت منه ، وهزرأسه ، ولم ينزل عن قونتاته الخمسة . ولو صحح لوضع وراء الرقم 5 رقم 1 ، حتى يصبح المبلغ خمسة عشر قونتاً ، فيزيد تبرعه على المبلغ الذي اكتتب به بومفين .

وأردف باليا يقول :

– في طاقتك أن تتبرع بخمسة قونتات ، بعشرة قونتـات ، بخمسة عشرة قونتاً . لكن رأس مالك يحتاج إلى شيء من حسن التدبير ، وأنت تبعثره حقاً ...

لاحظ أن انتاجه قد قل منذ الآن ...

لقد كانت أموال روبيان مودعة عند باليا في الصندوق الحديدي بالمخزن (أسهم ، ريع أملاك ، الخ) . كان باليا هو الذي يقبض الارباح والايرادات، ويقبض أجور البيوت الثلاثة التي حمله على شرائها بثمن بخس منذ زمن ، واتضح أن ريعها كبير . وكان له أيضاً أنواعاً كثيرة من قطع النقد الذهبي ، لأن روبيان كان مولعاً بجمعها من اجل التمتع بتأملها . وقد أصبح باليا أدرى بمجموع الاموال التي تتألف منها هذه الثروة من صاحبها نفسه ، وكان يرى ما يصيبها من نقص في غير انقطاع . فألح يقول : ان ثلاثة قونتات كافية . ومما يبرهن على إخلاصه انه زوج مؤسسة اللجنة . لكن روبيان أصر على أن يتبرع بالقونتات الخمسة . حتى لقد انتهز الفرصة فسأل صاحبه عشر قونتات أخرى ، لأنه في حاجة إليها ، فأخذ باليا يحك رأسه ، وقال بعد بضع لحظات :

– معذرة . فيم حاجتك الى عشر قونتات ؟ ألست توقن أنك ستضيعها ، أو أنك ستخاطر بها على أقل تقدير ؟

ولكن روبيان هزيء باعتراض باليا قائلًا :

– لو كنت اوقن انني سأضيعها لما جئت اطلبها . وفي الامر بعض المخاطرة مافي ذلك شك ، لكن من لم يخاطر بشيء لم يفز بشيء . انني في حاجة اليها لأمر من الامور ، أو اقل لثلاثة امور : اثنان منها قرضان مضمونان ، وهما لايتجاوزان قونتاً ونصفاً على كل حال ، والثالث مشروع يكلف ثمانية قونتات ونصف ... لماذا تهز رأسك وانت لاتعرف شيئاً عن هذا المشروع .

– طبعاً . لو سألتني نصيحتي ، لو حدثتني عن المشروع وعن الاشخاص ، لاستطعت ان اعرف هل لك ان تخاطر او لا . ولكنني اخشى ان يؤدي هذا كله الا الى ضياع مالك . هل تتذكر اسهم تلك الشركة التي كان اسمها « اتحاد رؤوس الأموال الشريفة » ؟ لقد قلت لك يومئذ ان هذا الاسم الفخم لايدل الا ان على الغاية هي التغرير بالناس وتشغيل عدد ممن لايصلحون لشيء . لكنك

لم تشأ ان تصدقني ، فرأيت بنفسك ماحدث . هبطت قيمة الاسهم الى ادنى درجة، ولم يبق في هذا الفصل ايرادات لها .

– ماعليك اذن الا ان تبيع هذه الاسهم . بعها . يكفيني ان استرد رأس مالي . او خذ القونتات العشرة من صندوق محلنا . سآتي الى هنا مرة اخرى ان شئت . او ارسل المبلغ اليّ ببوتافوجو . واذا كنت تؤثر رهن بعض الاسهم ، فافعل.

فقاطعه باليا يقول في صرامة :

– لا ... لا ... لن افعل شيئاً من هذا . لن اعطيك عشرة قونتات . لن اخضع لك في كل امر بعد الآن . ان من واجبي ان اقـــاوم . قروض مضمونة ! ليتني اعرف اصحاب هذه القروض ؟ الا تلاحظ انهم يقترضون مالك ، ثم لايردونه اليك ابداً ؟ اشخاص لايستحيون أن يُتعشوا كل مساء في بيت دائنهم ، مثل كورديرو الذي رأيته عندك . لاادري هل الآخرون مدينون لك بمال ايضاً ، لكن ليس يدهشني ان يكونوا كذلك . ارى ان الكيل قد طفح . وما فاتحتك في الامر على هذا النحو الا لانني صديقك . ولن تستطيع ان تقول ذات يوم انني لم احذرك في الوقت الذي ينفع فيه التحذير . من أي مورد تعيش في المستقبل اذا أنت أتلفت كل ما تملك ؟ ان محلنا يمكن أن يفلس ...

– لا ... لا ...

– بلى . كل انسان يمكن أن يفلس . لقد شهدت بنفسي افلاس سوتو ، صاحب المصارف ، عام ١٨٦٤ .

كان روبيان يجيل في خاطره آراء شريكه ، لأنه يجدها صائبة أو سديدة ، بل لأنه يراها في صورتها الخشنة ،بعض الخشونة ، صادرة عن نية حسنة . فشكر لباليا نصائحه من صميم قلبه ، لكنه لم يأخذ بها ، فهو يصر اصراراً مطلقاً على أن يعطيه صاحبه عشر قونتات ، غير أنه وعده بأن يكون في المستقبل أشد حذراً ، وأبعد عن الاستجابة للرجاء والتوسل . ثم أليس يملك من المال ما يفيض؟ فقال له باليا مصححاً :

– ما يفيض ، ربما ... أما ما يوهب فلا ...

ثم أردف يقول :

– لقد فات الوقت اليوم . وسآتيك بالقونتات العشر غداً . ولكن لماذا لا تجيء الى بيتنا في فلامنجو فتأخذها بنفسك ؟ ماذا صنعنا لك حتى تقاطعنا هذه المقاطعة ، أو ماذا صنعنا لك اذ يظهر ان الخلاف بينك وبينها مادامت اراك هنا . ما الذي حدث حتى تعاقبها هذا العقاب ؟

كذلك تابع باليا كلامه ضاحكاً .

فحول روبيان نظرته . كانت كلمات باليا تبدو له مشتملة على شيء من السخر . انه يهزأ به كما لو كان على علم بكل شيء ، فلما عاد ينظر اليه في وجهه ذلك السؤال نفسه ، فأجابه بقوله :

– لم تصنعا لي شيئاً . وسأجيء اليكم في غد مساء .

– تعال على العشاء .

– على العشاء لا أستطيع ، لأن عندي اصدقاء . لكنني سأجيء بعد العشاء .

وأضاف يقول وهو يحاول ان يضحك :

– لا تعاقبها ، فانها لم تصنعا لي شيئاً .

قال باليا بينه وبين نفسه منذ خرج شريكه « لا شك أن أحداً قد تسلط عليه ... احداً يغار من صداقتنا ، فهو ... ومن الجائز أيضاً أن تكون صوفيا قد دبرت له مكيدة لتبعده عن البيت ... »

وظهر روبيان مرة أخرى على الباب . انه لم يكد يصل الى ركن الشارع حتى رجع أدراجه ليقول لصاحبه أنه سيجيء يأخذ المال من المخزن لحاجته اليه في وقت مبكر ، ولكنه سيزورهم في المساء . انه في حاجة الى المال قبل الساعة الثانية بعد الظهر .

١٠٩

في تلك الليلة حلم روبيان بصوفيا وماريا بنديكتا . رآهما في ارض خلاء

لا ترتديان إلا تنورة وقد تعرى ظهرهما تماماً ، وأخذ زوج صوفيا يجلدهما في غير رحمة بسوط ذي ستة سيور ينتهي كل منها بدبوس ، وذلك معاقبة لهما ، فالدم ينزف من جسميهما واللحم يتمزق ويسقط على الارض ، وهما تعولان وتستغفران وتتلويان من فرط الألم . فاذا سألتني الآن عن السبب الذي من أجله كانت صوفيا هي الامبراطورة أوجينا وكانت ماريا بنديكتا احدى وصيفاتها لم أستطع أن أجيبك جواباً دقيقاً . وقديماً صاحت احدى شخصيات دالفارس دي آزيفيدو : « كذلك هي الأحلام ، نعم ، كذلك هي الاحلام يا بانسيروزو » . على أنني ، شخصياً ، أفضل رأي الشيخ بولونيوس الذي قال بعد أن سمع خطاباً مطولاً هاذياً طويلا من هاملت : « إنه منسجم حتى في هذيانه » فعندي أن في هذا الخلط بين صوفيا والامبراطورة أوجينا شيئاً من الاتساق ، وكذلك فيما نحن قاصوه عليك الآن مما سيبدو أشد غرابة ايضاً .

فما إن رأى روبيان هذا المشهد حتى أوقف العقاب مستاء ، وأمر بشنق باليا وانهاض الضحيتين . وقد قبلت احداهما ، وهي صوفيا ، أن تركب العربة المكشوفة التي كانت تنتظر روبيان ، ومضت العربة بهما كليهما خبباً ، أما هي فكانت نضرة مغناجاً كأنها لم تصب بشيء ، وأما هو فكانت تلوح في وجهه معاني النصر والسيطرة . والعربة كان يجرها في أول الأمر حصانان ، لكن الحصانين أصبحا ثمانية ، أصبحا أربعة ازواج جميلة متوافقة . والشوارع والنوافذ سوداء من كثرة ازدحام الناس ، والازهار تهطل عليهما كالمطر المدرار ، والاهازيج تنطلق من كل حدب وصوب ... ويشعر روبيان أن الامبراطور نابوليون الثالث . والكاب في العربة أيضاً ، إلى جانب صوفيا .

ولم يقف هذا الحلم عند حد ، ولم يحدث ما يكدره . ويفتح روبيان عينيه على حين فجأة . أهو برغوث قرصه ؟ شيء من هذا القبيل على كل حال . « كذلك هي الأحلام يا بانسيروزو » . لكنني أعود فأقول انني أوثر ما قاله بولونيوس . « إنه منسجم حتى في هذيانه » .

اعطى روبيان القرضين ، وحقق المشروع . فأما المشروع فكان مساهمة في شركة يقال لها . « شركة تحسين الاقلاع والرسو في ميناء ريو دي جانيرو » ، وأما القرضان فكان أحدهما سداداً لدين متأخر على جريدة « الخفير » ، دين مستعجل تتوقف الجريدة عن الصدور ان لم يدفع ...

قال كاماشو حين ذهب اليه روبيان بالمال :

– عظيم . وشكراً جزيلا . تصور أن امرأ تافهاً كهذا كان يمكن ان يختنق بسببه صوت جريدتنا الناطقة بلساننا . هذه أشواك المهنة ويا للأسف ان الشعب لم يثقف ، فهو لا يعرف اولئك الذين يعملون من اجله ولا يدعمهم ، اولئك الذين يخوضون المعركة كل يوم دفاعاً عن حرياته الدستورية . تخيل أننا لو لم نملك هذا المبلغ لفقدنا كل شيء ، ولعاد كل منـــا الى شئونه الصغيرة ، ولحرمت المبادىء ممن يدافع عنها دفاعاً صادقاً .

فقال روبيان محتجاً :

– لن يحدث هذا ابداً .

– أنت على حق . وسنضاعف الجهود . وستكون جريدة « الخفير » مثل آنتي التي تتحدث عنها الاسطورة ما ان تلامس الارض مرة حتى تنهض اشـد بأساً مما كانت .

قال كاماشو هذا ثم نظر في رزمة الاوراق النقدية . هي قونت ومائتـا كروزيرو ، أليس كذلك ؟ سأل هـــذا السؤال ثم وضع الاوراق في جيب سترته . واستمر يقول انهما يستطيعان الآن أن يطمئنا ، فقد هبت الريح تدفع الجريدة الى الامام ، ان كاماشو يفكر في بعض الاصلاحات المادية . حتى لقد مضى الى ابعد من ذلك فقال :

– علينا أن نهيء برنامجاً ، وأن نستثير همم رفاقنـا في العقيدة ، وأن نهاجمهم إذا اقتضى الامر .

– كيف ؟

– كيف ؟ بأن نهاجمهم .. لا ، اقصد أن نهاجمهم ، وإنما أقصد أن نقومهم ! واضح ان جريدة الحزب قد أسرفت في الرخاوة بعض الاسراف . وإذا كنت أسميها جريدة الحزب ، فلأن جريدتنا هي جريدة افكار الحزب . هل تدرك الفرق ؟

– نعم نعم .

– اقول ان الجريدة توشك أن تصبح رخوة بعض الرخاوة !

قال ذلك وهو يقبض باصابعه على سيكار قبل أن يشعله . وتابع كلامه :

– فيجب إذن ان نلح على المبادىء ، ولكن بصراحة ونبل ، مقتصرين على قول الحقيقة . ثق أن الزعماء في حاجة الى ان يسمعوا الحقيقة من افواه اصدقائهم ، من أفواه انصارهم . أنا لم اكن في يوم من الايام عدو المصالحة بين الاحزاب ، حتى لقد ناضلت في سبيل تحقيق هذا الهدف . ولكن المصالحة يجب أن لا تعني الوقوع في حبائل الخديعة . اليك هذا المثال من منطقتي : ان جماعة بنيارو لا يفوزون بتأييد الحكومة الا من أجل طردي . ورفاقنا في المبدأ ، بدلا من ان يحاربوا هؤلاء الناس لأن الحكومة تدعمهم ، هل تعرف ماذا يعملون ؟ انهم يدعمون جماعة بنيارو .

– لا بد أن لجماعة بنيارو هؤلاء شيئاً من النفوذ .

قال كاماشو وهو يغلق اغلاقاً عنيفاً علبة الكبريت التي كان بسبيل فتحها :

– ليس لهم أي نفوذ . واحد منهم مجرم مشهور . وآخر كان صبي حلاق . ثم انتسب ، والحق يقال ، الى كلية رسيف ... اعتقد ان ذلك كان في عام ١٨٥٥ ، عقب موت عرابه الذي ترك له بعض الاموال . ان حياته لفضيحة من الفضائح . انه ما كاد يحصل على الاجازة حتى دخل المجلس الاقليمي ! رجل أبله ! لو صح انني بابا لصح أنه مجاز !

وتفاهما على التغييرات السياسية التي يجب ادخالها على الجريدة . وذكّر كاماشو

صاحبه روبيان بأن ترشيحه للانتخابات لم يخفق الا بسبب معارضته زعماء الحزب .. بسبب معارضة بعض زعماء الحزب (هكذا استدرك مصححاً) . فأيده روبيان . وذلك ما سبق أن عرفه من صديقه في حينه . وقد أوردت هذه الذكرى ما كان يشعر به من غيظ لهذا الاخفاق . لقد كان يمكن لا بل كان يجب ان يدخل المجلس النيابي . وهؤلاء الافراد هم الذين لم يشاؤا ذلك . قال روبيان بينه وبين نفسه : ولكن سيرون في يوم من الأيام نتيجة ما جنوا من اثم وسيندمون على ماصنعوا . لسوف يذهلون ولسوف يجنون من الغيرة يوم يرونه نائباً ، عضواً في مجلس الشيوخ ، وزيراً . كان خيال صاحبنا متى أوراه صديقه ، يقـذف على الفور ناراً ولهباً ، وينبغي أن لانرى في ذلك ، على كل حـال ، بغضاً ولا حسداً ، يجب ان لانرى فيه الا طموحاً بريئاً ، واطمئنانـاً هادئاً الى الامجاد الباهرة التي تنتظره . وقد اسعد كاماشو ان يراه متفقاً معـه في الرأي . قال :

ـ الناس جميعاً يرون هذا الرأي . واظن ان اصدقاءنا لن يؤذيهم بعض التهديد .

وفي ذلك المساء نفسه تلا على روبيان المقالة التي يناشد فيها الحزب أن لا يؤخذ بالمناورات الغدارة التي تقوم بها الحكومة إذ تدعم في بعض الاقاليم اناساً فاسدين لاقيمة لهم . وهذه هي الخاتمة التي يختم بها كاماشو مقالته .

« ان الاحزاب يجب ان تكون موحدة الصفوف خاضعة للنظام . وهناك من يزعم ـ « وما أعجبه من زعم » (١) .

ان هذا النظام وهذا الاتحاد يجب ان لا يبلغنا حد ازدراء المنافع التي تسقط من بين ايدي خصومنا،« ولشد مايضحك ذلك » (٢) من ذا الذي يستطيع ان يكفر هذا الكفر دون أن يرتعش من ذاك جسمه كله . وهب الامر كذلك ، هب المعارضة استطاعت مرة أن تغمض عينيها عن فساد الحكومة فيما يتصل باحتقار القوانين واستغلال السلطة وعن كل هذا التفسخ وكل هذه المغالطات . ان مثل هذه الحالات التي يجب من جهة اخرى ان تكون حالات استثنائية ، لايمكن

(١) باللاتينية في الاصل .
(٢) باللاتينية في الاصل .

ان تكون مقبولة الى حين يكون المراد تشجيع العناصر الطيبة لا السيئة . ان في جميع الاحزاب خونة ماكرين . ومن مصلحة خصومنا أن يرونا نضعف لقاء تأييد يوهب للفئة الفاسدة من الحزب . هذه هي الحقيقة . ونكرانها يؤدي بنا الى حرب داخلية ، أي الى تمزق في روح البلاد نفسها . ولكن لا .. ان الافكار السديدة لاتموت . انها راية العدالة . لسوف يطرد الباعة من الهيكل ، ولا يبقى إلا المؤمنون والاطهار ، اولئك الذين يغلبون المبادىء على المصالح التافهة ، المحلية ، الزائلة . ان جميع الذين لايكونون على هذه الشاكلة سيجدوننا حرباً عواناً عليهم . « ذلك قدر محتوم » (١) .

١١١

حبذ روبيان المقالة في حرارة . وقال انها رائعة ، ولكن لعلها ليست عنيفة عنفاً كافياً ، فكلمة « الباعة » مثلاً جيدة ، ولكن اذاقيل « الباعة الاوباش » كان ذلك اجود .

قال كاماشو :

– « الباعة الاوباش » ؟ هناك عيب واحد في قولنا « الباعة الاوباش » هو تكرر حرف الباء في الكلمتين . باعة أوبا .. باعة أوباش . الا تجد أن هذا لا يقع في الاذن وقعاً جميلا ؟

– ولكنك أتيت قبل ذلك بكلمتين يتردد فيهما حرف واحد : Vès vis

– بل vae Victis ، « الويل للمغلوب » هذه جملة لاتينية ! لعلنا نستطيع ان نضع جملة اخرى . نستطيع أن نقول مثلا « التجار الاوباش » .

– « التجار الاوباش » .. لا بأس ..

– صحيح ، لكن كلمة « تجار » ليس فيها من القوة ما في كلمة « باعة » .

– لماذا لا تدع اذن كلمة الباعة في محلها . ان عبارة « الباعة الاوباش » عبارة قوية . ولن يلاحظ احد حكاية تكرر الباء هذه الكلمتين . أنا مثلا لا يلفت

(١) باللاتينية في الاصل .

نظري هذا النوع من الامور ابداً . انني احب ما هو عنيف « الباعة الاوباش » !
كرر كاماشو يقول بصوت خافت :
– الباعة الاوباش ، الباعة الاوباش . ان العبارة اجود . الباعة الاوباش . موافق .

وقد قال هـــذه الكلمة الاخيرة وهو يصحح النص ، ثم أعاد القراءة . لسوف يطرد الباعة الاوباش من الهيكل ، ولا يبقى الا المؤمنون والاطهار ، اولئك الذين يغلبون المبادىء على المصالح التافهة المحلية الزائلة . ان جميع الذين لا يكونون على هذه الشاكلة سيجدوننا حربا عواناً عليهم . ذلك قدر محتوم .

قال روبيان وهو يشعر بعض الشعور بانه كاتب المقال :

– عظيم

– أأعجبك ؟ هناك اناس يرون ان اسلوبي قد احتفظ بالنضارة التي كانت له منذ ايام الدراسة . قد يكون هذا صحيحاً ، لست ادري ، وشعوري على كل حال هو انني لم أتغير . يجب ان اكون قاسياً ، يجب ان نكون قساة .

الآن اريد ان اكون قد اتبعت في هذا الكتاب الطريقة التي اتبعها كثير من المؤلفين – وهم جميعاً من الاقدمين – والتي قوامها شرح مضمون فصل من الفصول بعنوانه : « كيف وقع الامر الفلاني على هذا النحو او على ذاك » . فتلك هي الطريقة التي اتبعها برنادرين ريبيرو وكثير غيره من خيرة الكتاب . وحسبي ان اذكر من بين الكتب الاجنبية ، دون ان ارجع الى سرفانتس او حتى الى رابليه ، مؤلفات فيلدنج وسمولت التي يمكن ان يقرأ كثير من فصولها بالنظر في عناوينها . تناول مثلا كتاب تومجونس ، الجزء الرابع ، الفصل الاول ، تجد هذا العنوان : « خمس صفحات من الورق » . الامر واضح ، بسيط ، لايخدع احداً . هي خمس صفحات لااكثر من ذلك ولا اقل . فالذين لايحبون ان يقرأوها لايقرأونها ، والذين يحبون ذلك يقرأونها ، ومن اجل هؤلاء انما يختم المؤلف هذا الفصل في لطف قائلًا : « الآن ننتقل الى الفصل التالي من غير تمهيد » .

١١٣

فلو كانت هذه الطريقة هي المتبعة في هذا الكتاب لكان العنوان التالي يشرح كل شيء : « كيف ان روبيان وقد سره التصحيح الذي ادخله على المقالة اخذ ينشيء ويجتر كثيراً من العبارات حتى انتهى من ذلك الى ان كتب جميع المؤلفات التي سبق له ان قرأها » .

لعل بعض القراء لايكتفون بهذا الكلام ، ويريدون تحليلا كاملا لهذا التطور الذي تمّ في ذهن بطلنا . ولكن هلاّ قدروا ان الصفحات الخمس التي كتبها فيلدنج لاتكفي لهذا الغرض ؟ ان ثمة هوة تفصل بين الجملة الاولى التي شارك روبيان في كتابتها وبين انتحاله لنفسه جميع المؤلفات التي سبق ان قرأها . ومن المحقق ان اصعب شيء لقيه هو الوثوب من تلك الجملة الى الكتاب الاول ، ثم سارت الامور بعد ذلك سيراً سهلا ... ولكن التحليل سيظل طويلا مسرفاً في الطول وسيظل مملّا كثير الاملال ، حتى على هذه الصورة. وخير لنا أن ندع هذا كله وان لا نتذكر إلا شيئاً واحداً : هو أن روبيان عد نفسه خلال بضع دقائق كاتب عدد كبير من المؤلفات التي كتبها غيره .

١١٤

ولكنني أتساءل في مقابل ذلك هل الفصل التالي يمكن ان يلخص كله في عنوانه وحده .

١١٥

حافظ روبيان على قراره في أن لا يرى صوفيا بعد ذلك . انه على الاقل لم يذهب الى فلامنجو . لكنه رآها ذات يوم تمر في عربة مع سيدة من سيدات لجنة الآلاجواس ، فحنت رأسها وهي تبتسم ابتسامة حلوة وتلوح بيدها محيية ، فرد التحية برفع قبعته ، وشعر بشيء من الانفعال لكنه لم يتسمر في مكانه محدقاً

إليها كما كان يتفق له ذلك في السابق ، وانما اكتفى بالقاء نظرة على العربة وهي تتابع سيرها . وتابع سيره هو ايضاً ، وحاول أن يفسر لنفسه ، وهو يفكر في امر الرسالة ، هذه التحية الودية التي حيته بها ملوحة بيدها ، هذه التحية الودية الخالية من أي تحرج ومن أي حقد ، كأن لم يكن بينهما شيء . ترى هل مرد هذه البشاشة التي لم يكن يتوقعها من صوفيا ، الى تبعاتها كعضو من أعضـــاء اللجنة ، والى وجود رفيقتها معها ؟ ولكن روبيان لم يخطر بباله هذا الغرض . وانما تساءل : « أتكون مجردة من الكرامة الى هذا الحد ؟ ألا تتذكر تلك الرسالة التي وقعت عليها والتي كانت موجهة الى ذلك المتحذلق الذي يقطن شارع الانفاليد ؟ ألا إن هذا لكثير ألا انه لإسراف . لكأنها تتحداه ، لكأنها تريد أن تقول له انها غير عابئة ، وانها ستكتب ما تشاء من رسائل . حسناً . لتكتب ما تشاء من رسائل . ولكن فلتكلف نفسها نفقة ارسالها بالبريد مضمونة... وهي نفقة ليست بالباهظة كثيراً ... » .

ورأى نفسه لاذع النكتة فأخذ يضحك . وكان من شأن هذا ، بالاضافة الى تحية كبيرة حياه بها رجل اثناء مروره ، أن محا من نفسه كل المرارة التي ولدتها فيه هذه الذكريات . فنسي الامر كله ، واصبح لا يفكر الا في القضية التي كان ذاهباً من اجلها الى « مصرف البرازيل » .

فلما وصل الى المصرف التقى بشريكه الذي كان خارجاً منه .

قال روبيان :

– أظن انني لمحت دونا صوفيا منذ لحظة .

– أين ؟

– في شارع أوريف . كانت في عربة مع سيدة اخرى لا اعرفها . وانت كيف حالك ؟

قال باليا دون ان يجيب عن سؤال صاحبه :

– رأيتها ولم تتذكر شيئاً ؟ ألم تتذكر ان عيد ميلادها يقع بعد غد في

يوم الاربعاء ؟ لست اسألك أن تجيء على العشاء ، فما بي من جرأة على ذلك ، ولو سألتك ان تجيء لكنت ادعوك الى ضجر . غير ان احتساء قدح من الشاي ينتهي في لحظة . فهل لك ان تجود علي بهذه السعادة .

فلم يجب روبيان على الفور . لكنه قال اخيراً :

– سأجيء على العشاء . يوم الاربعاء ؟ ثق أنني سأجيء . يجب ان اعترف بانني كنت ناسيا . ولكن هناك اشياء كثيرة تشغلني . هل لك ان تنتظرني في المخزن ؟ سأجيء بعد نصف ساعة .

ووصل قبل انقضاء نصف الساعة ، طالباً من باليا أن ينقده قونتين . وقد اصبح باليا لا يعارض في تبذيرات شريكه . ولئن كان يقول له كلمة من الكلمات من حين الى حين في هدوء . لقد نقده المال هذه المرة في غير اكتراث . واشترى روبيان قبل ان يعود الى بيته قطعـــة من الماس ، ارسلها الى صوفيا في يوم الاربعاء مع بطاقة ضمنها تهنئة ببضع كلمات .

وكانت صوفيا في مخدعها تنتعل حذائيها حين حملت اليها الخادمة هـديته . إنها ثالثة هدية تتلقاها في هذا اليوم . وانتظرت الخادمة ان تفض سيدتها الصرة لترى مافيها هي أيضاً . فلما فضت صوفيا الصرة ورأت الجوهرة الرائعة لبثت مبهورة . فص جميل جداً من الحجر في وسط عقد . لقد كانت تتوقع أن تكون الهدية جميلة ، لكنها منذ وقوع الحوادث الاخيرة أصبح يصعب عليها أن تتصور أن يكون كريماً هذا الكرم كله . وأخذ قلبها يخفق .

– ألا يزال حاملها هناك ؟

– بل مضى . ما اروعها يا سيدتي !

واغلقت صوفيا العلبة ، وأكملت انتعال حذائيها وظلت جالسة وحـدها زمناً تفكر في الماضي . ثم نهضت وهي تقول لنفسها :

– لاشك في أن هذا الرجل يعبدني عبادة .

وقررت أن ترتدي ملابسها ، لكنها خطرت امـــام المرآة فتوقفت بضع لحظات اخرى . لم تكن تحب شيئاً كما تحب أن تتأمل نفسها في المرآة ، وأن

تقف معجبة تنظر الى تقاطيع جسمها الرائعة ، الى ذراعيها العاريتين ، وحتى الى عينيها اللتين تسطعان سطوعاً قوياً من اعجابها بنفسها . انها تحتفل في هذه الأيام ببلوغها السنة التاسعة والعشرين من عمرها ، وترى أنها لاتقل الآن جمالاً عما كانت عليه في الخامسة والعشرين . ولم تكن في ذلك على خطأ . ووضعت مشدها وأحكمت ربطه ، فأتاحت لصدرها أن يبرز بروزاً أخاذاً . وخطر لها عندئذ أن تجرب العقد لترى هل يناسبها ، فتناولته ، فطوقت بــه جيدها . رائع ! وأدارت رأسها من اليمين الى الشمال ، ثم من الشمال الى اليمين ، واقتربت ثم ابتعدت ، وتصنعت بعض الملامح ونشرت في المخدع مزيداً من النور . إنه ما يزال رائعاً ! وتأكدت ان قفل العقد سليم ، فاحتفظت بالعقد على جيدها . وكررت تقول :

– هذا الرجل يعبدني عبادة .

قال روبيان لنفسه وهو ذاهب الى العشاء في فلامنجو : قد يكون هناك . ولكنني أستبعد أن يكون قد قدم هدية أجمل من هديتي .

وكان كارلوس ماريا هنالك حقاً ، يتحدث مع إحدى سيدات لجنـــة الآلاجواس ، ومع ماريا بنديكتا . ولم يكن عدد المدعوين كبيراً ، وكانوا منتقين انتقاء . فلا الضابط سيكويرا ، ولا ابنته ، ولا احد من الاشخاص الذين عرفهم روبيان اثناء العشاء بسانتا تيريزا ، كانوا هناك ، بل بضع سيدات من لجنة الآلاجواس ، ومدير احد المصارف (هو المدير الذي زار الوزير) وزوجته وبناته ، وشخصية اخرى من شخصيات المصارف ، وتاجر انكليزي ، ونائب ، وقاض من قضاة محكمة التمييز ، واحد مستشاري مجلس الدولة ، وعدد من رجال الأعمال .. ويكاد يقتصر الحفل على هؤلاء .

ورغم أن صوفيا كانت في ذلك المساء في قمة مجدها ؛ فانهـــا نسيت سائر الحاضرين حين لمحت روبيان يدخل الصالون ويتقدم نحوها . لقد رأت في وجهه غير ماعهدت أن ترى فيه من معـان ، ورأت مشيته مشية واثق من نفسه ، ورأت رأسه مرفوعاً : لقد رأته على نقيض ما كان عليه من خراقة وخجـل ،

سواء كان مرد ذلك الى أنه تبدل فعلاً ، أم الى أنها لم تره منـــذ زمن . وصافحته صوفيا بقوة وهي تدمدم شاكرة . حتى اذا قاموا الى المـــائدة ، دعدته الى الجلوس قربها ، واجلست على الطرف الآخر رئيسة اللجنة . وكان روبيان ينظر الى كل شيء نظرة من يشعر أنه أعلى من غيره : لم تبهره قيمة المدعوين ، ولا فخامة الجو الذي يسيطر على القاعة ولا الترف المبسوط على المائدة : لا شيء من ذلك كله يبهره . وحتى ما كانت تبذله له صوفيا من اهتمام كثير وانتباه خاص لم يسكره رغم أنه سرّه . ولم يزد ذلك صوفيـا إلا اهتماماً به ورعاية له ، وكانت عيناهـــا تغمرانه بلطف خاص . وبحث روبيان بنظره عن كارلوس ماريا فرأى انه لايزال هناك ، بين السيدتين اللتين كان يتحدث اليهما منذ برهة في الصالون ، وهما ماريا بنديكتا وعضو لجنة الآلاجواس . ولاحظ صاحبنا أن كارلوس ماريا كان لا يعنى الا بها ، ولا يتبادل وصوفيا نظرة .

قال بينه وبين نفسه : « لعلهما يخفيان لعبتهما ! »

وخيّل اليه حين نهض جميع الناس عن المائدة أنهما تراشقا نظرة ، لكنه لم يثق بهذا كل الثقة ، لما حدث عندئذ من جلبة . وذلك كل ما استطاع أن يلاحظه . وأسرعت صوفيا تتناول ذراعيه ، وقالت له وهي تسير معه :

— انتظرتك طوال الوقت منذ ذلك اليوم المشهود ، ولكنك لم تعد بعده أبداً . وكان من حقي مع ذلك أن اصر على رؤيتك لأستطيع أن أشرح لك موقفي : سنتحدث في هذا الأمر بعد ذلك .

ولم يلبث روبيان أن مضى الى غرفة التدخين . فأصغى هنالك الى الحديث دون أن يقول كلمة واحدة ، وقد بدا عليه الذهول حتى اذا انصرف جميع الضيوف لبث وحده جالساً على أريكة من الجلد ، وقـــد خلا رأسه من أي فكرة . كان خياله وحده هو الذي يعمل ، بل كان هذا الخيال نفسه يعمل في شيء من التثاقل والكسل .. ربما كان ذلك لأنه أفرط في الطعام ! انه يسمع أصوات ضيوف السهرة يصلون ، والبيت يمتلىء شيئاً بعد شيء ، وضجة الحديث

تقوى وتشتد ، وهو لا يخرج من أحلامه . حتى صوت البيانو الذي قطع جميع الأصوات الأخرى ، لم يردّه إلى الارض . الا أن حفحفة حرير في الغرفة أنهضته واثباً على حين فجأة ، فارتد الى الواقع ارتداداً كاملاً . قالت صوفيا :

— ها ... أنت هنا ... انك تعتصم في هذا المكان تجنباً للضجر . ألا تريد حتى سماع الموسيقى الجميلة ؟ ظننت أنك انصرفت ، وكنت بسبيل البحث عنك .

ولما كانت لا تريد أن تضيع دقيقة من الوقت ، راحت تقص عليه من دون أي تمهيد ما نعرفه من أمر الرسالة التي عثر عليها في حديقة بيته ، وذكّرته بأنها طلبت اليه أن يفض الرسالة بنفسه وأن يقرأها ، من قبل أن تفضها هي . أي برهان كان يمكنها ان تقدمه دليلاً على براءتها أقوى من هذا البرهان ؟ وكانت تتكلم بسرعة ، وقد ظهر في وجهها الجد والوقار كما ظهر فيه التأثر والانفعال. حتى لقد اخضلت عيناها في لحظة من اللحظات ، فجففتها ، ولكنها ظلتا حمراوين. فأمسك روبيان بيدها ورأى دمعة أخيرة — دمعة صغيرة — تنحدر على خدها وتصل الى ركن فمها . فحلف لها عندئذ أنه يصدق كل ما قالته له ، نعم حلف لها . ولكن فيم تبكي ؟ وجففت صوفيا عينيها مرة أخرى ، ومدت اليه يدها وهي تفيض شكراً ، وقالت :

— إلى اللقاء القريب .

كانت الموسيقى ما تزال تصدح . فقال لها روبيان ان أحداً لن يأتي فيزعجها ما داموا يستمعون الى الموسيقى ، فأجابته بقولها :

— ولكنني لا أستطيع أن أغيب مدة طويلة . وهناك أوامر يجب أن أصدرها الى اللقاء القريب .

فقال روبيان ملحاً :

— أرجوك ، اسمعي ...

فوقفت صوفيا ، فقال لها :

اسمعي ، دعيني أقول لك ، ربما لآخر مرة ...

– لآخر مرة ؟

– من يدري ؟ هذا جائز جداً . ليس يعنيني كثيراً هذا الرجل ولا ما يفعله، ولكن قد ألتقي به هنا ؛ ولست أحب أن أتشاجر معه .

– لسوف نلتقي به هنا في جميع الأيام . ألم يبلغك كرستيانو النبأ الى الآن؟ انه سيتزوج ماريا بنديكتا .

فتراجع روبيان خطوة الى وراء .

وأردفت صوفيا تقول :

– نعم سيتزوجان . نبأ مفاجىء ولا شك ، لأنه لم يكن في الحسبان ؛ فإما أنهما كانا يحسنان اخفاء ما عقدا النية عليه ، وإما أنه كان حباً يشبه الصاعقة . وكيف كان الأمر فهما على وشك الزواج . لقد روت لي ماريا بنديكتا قصة طويلة بهذا الصدد ، وأكد لي شخص آخر صدق هذه الرواية . والأمر واحد على كل حال ، هو أنهما قد أعجب كل منهما بالآخر ، وصارح كل منهما الآخر. وسيتزوجان قريباً . ولقد قال له كرستيانو حين حدثه في الأمر ، إن الموافقة منوطة بي أنا .. كما لو كنت أمها ! وقد وافقت فوراً ، وكل ما أتمناه لهما هو أن يسعدا . والمرء يحس أنه فتى طيب ، وهي فتاة فذة ما في ذلك ريب ، فكيف لا يسعدان ؟ إنه لزواج موفق . لقد ورث هو عن أبويه ثروة كبيرة ، وماريا بنديكتا لا تملك شيئاً البتة ، لكنني هذبتها وثقفتها كما تعلم . لا شك أنك تذكر أنها حين جاءت الينا كانت أشبه بحيوان متوحش : كانت لا تعرف شيئاً على الاطلاق . وأنا التي هذبتها وثقفتها . ومهما يكن من أمر ، فهذا ما يحدث اليوم ، ولا شك في أن خالتي تستحقه ولا شك في أن ماريا تستحقه أيضاً . ذلك هو الموضوع ، سيتزوجان قريباً جداً . ألم تلاحظ اليوم أنهما ظلا معاً لم يفترقا لحظة واحدة ؟ اننا لم نعلن الأمر رسمياً حتى الآن . لكن أصدقاء الأسرة قد يكونون على علم به .

الحديث طويل من شخص كان مستعجلاً ذلك الاستعجال كله . ولم تلاحظ

صوفيا ذلك الا متأخرة بعض التأخر . قالت لروبيان وهي توصيه أن يذهب الى الصالون : الى اللقاء بعد لحظة .

كان البيانو قد صمت وكانت تُسمع ضجة خفيفة من تصفيق وحديث .

١١٦

سيتزوجان ؟ اذن فكيف أمكن أن ...؟ ماريا بنديكتا ... ان ماريا بنديكتا هي التي تتزوج كارلوس ماريا ... أدرك روبيان كل شيء الآن . اذن لم يكن الأمر كله الا خطأً والتباساً . ماظن أنه حدث مع شخص قد حدث مع شخص آخر ، هكذا يمكن أن يصل المرء الى الغيبة بل الى الجريمة ..

تلك هي الافكار التي دارت في رأس روبيان أثناء اتجاهه الى قاعة الطعام حيث كان حشم البيت يعدون مائدة الليل . وتابع يقول وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً :

– هه ... لقد كان باليا يريد أن يزوجني ماريا بنديكتا ، من دون أن يدور بخلده أن القدر يهيء لها خطيباً آخر . هو فتى جميل . هو خير منها على كل حال . ان ماريا بنديكتا لاوجود لها اذ يكاد لايكون لها وجود إذا قيست بصوفيا . ولكن الحب هذا شأنه . سيتزوجان ، سيتزوجان قريباً ... أتراه يكون زواجاً فخماً ؟ ربما ! يخيل الي ان باليا يعيش الآن في بحبوحة أوسع... والقى روبيان في الوقت نفسه نظرة على الأثاث ، واطباق القيشاني ، واواني البلور ، والستائر . آ... نعم ... سيكون زواجاً فخماً . ثم ان الخطيب غني ...

وفكر روبيان بعد ذلك في المركبة التي سيحتاج اليها في هذه المناسبة ، وفي الخيول التي يجب أن تجرها . وتذكر أنه رأى منذ بضعة أيام فى الأنجنيو فليو حصانين رائعين سيبهران الأبصار . فقرر أن يوصي على حصانين آخرين شبيهين بهما تماماً ، مهما يكن الثمن . ويجب عليه كذلك أن يقدم هدية الى الخطيبة . وبينما كان يفكر فيها رآها تدخل قاعة الطعام . قالت له :

كذلك قالت ماريا بنديكتا بعد بضع لحظات .

فأجابت دونا فرناندا :

– أيتها العذراء ! ألا إن هذا لكفر ... بل هو ياصغيرة كفران . فمن جهة أولى يجب أن لايحب المرء أحداً كما يحب الله ، ومن جهة ثانية فان أي زوج ، ولو كان سيئاً ، خير من أجمل الأحلام ...

١١٩

« أي زوج ، ولو كان سيئاً ، خير من أجمل الأحلام » .

هذه الحكمة ليست رومانسية كثيراً . واحتجت ماريا بنديكتا . أليس الحلم خيراً من البكاء ؟ ان للحلم نهاية ، أما الزوج السيء فقد يعمر طويلا .

قالت ماريا بنديكتا تختم كلامها :

– أنت تقولين هذا لأن الله أعطاك ملاكاً ... هاهو هذا يصل .

– لا تقلقي . سيكون لك ملاكك أيضاً . بل انني لأعرف ملاكاً رائعاً أخبئه لك . أنت تعلمين أن الملائكة ليست بعيدة جداً عني .

ومن بعيد رآها تيوفيلو ، زوج دونا فرناندا ، فأقبل عليهما . وكانت بيده جريدة مدعوكة . وبدون أن يحيي الضيفة اتجه بالكلام الى امرأته ، فقال لها وهو يكز أسنانه :

– هل تريدين أن تعلمي ماذا صنعوا لي يانانا ؟ ان خطـــابي الذي ألقيته بتاريخ ٥ قد نشر اليوم . فانظري في هذه الجملة . لقد قلت في خطـابي : **في حالة الريب عليك بالامتناع ، فبذلك ينصح الحكماء** . فقلبوا الجملة هكذا : **في حالة الدين عليك بالامتناع** ... حقاً ان هذا لايطاق . لاحظي أن الموضوع الذي كان يدور عليه الكلام هو موضوع اعتمادات لوزارة البحرية ، وقد قيل أثناء المناقشة . ان النفقات كانت باهظة . فمن الجائز اذن أن يبدو ذلك غـلاظة وسفاهة مني فكأنني أدعو الى الإختلاس ناصحاً بالامتناع عن الدفع . هذا محال على كل حال !

أعرف انه ليس هناك موازين توزن بها العواطف ، لكن الذي أريد ان أقوله هو أنك مخلوقة تبلغين من النبل والجمال أن .. هيا اذهبي ، اذهبي حالا ، وإلا تابعت أقول الحقيقة كلها حتى تحمري احمراراً شديداً ..

وكانت ماريا بنديكتا تحمر فعلا من شدة فرحها بكلمات روبيان . ان مشروعها قد فاز بالموافقـــة اللازمة من أهل البيت ، ولكن لا شيء عدا ذلك . وحتى كارلوس ماريا لم يظهر لهـــا كثيراً من العاطفة : لقد كان يحبها في شيء من التحفظ . كان يحدثها عن السعادة الزوجية حديثه عن حق يتلقاه من القدر ، حق هو من طبيعة الأبناء ... وينبغي أن نذكر أيضاً أنه لم يكن في حاجة الى أن يعاملها غير هذه المعاملة من أجل أن تعبده أكثر من أي شيء في هذا العالم . وطلب اليها روبيان مرة أخرى أن تذهب ، وظل ينظر اليها كأنها ابنـة . ورآها تبتعد وهو على هذه الحال ، لتجتاز الغرفة وتختفي من أحد أبوابها . انها خفيفة الحركة فرحة ، تختلف كل الاختلاف عما كانت عليه منذ برهـــة . ولم يتمالك روبيان أن هتف :

– مخلوقة طيبة جميلة !

١١٧

ان قصة زواج ماريا بنديكتا قصة قصـيرة . وهي تستحق أن تُروى رغم أن صوفيا تجدها مبتذلة . ويجب أن نسلم قبل كل شيء بأنه ما كان ليتم زواج لولا وباء الآلاجواس . وهذا ما يمكن أن نستخلص منه أن الكوارث مفيدة ، بل ضرورية . ولا تعوزنا الأمثلة على ذلك . وحسبي اليوم أن اروي هـــذه القصة القصيرة التي سمعتها في طفولتي والتي سأنقلها في سطرين : في يوم من الأيام كان كوخ يحترق على حافة طريق . وعلى مقربة منه قعدت صاحبة الكوخ على الارض (وهي عجوز فقيرة) تندب حظها وتبكي بدموع ساخنة . وفي أثناء ذلك مرّ رجل سكران ، فرأى الحريق ورأى المرأة ، فسألها هل البيت الذي

يحترق بيتها . فقالت له :

– هو بيتي يا سيدي ، وهو كل ما أملك في هذه الحياة الدنيا .

– فهل تسمحين لي إذن ان اشعل منه سيجاري .

لا شك في ان الكاهن الذي روى لي هذه القصة قد رتب النص الاصلي ، إذ ليس من الضروري ان يكون المرء غلّا حتى يشعل سيجارة من شقاء الناس . لله درّك يا أب شاجـــاس ! (كان اسم الكاهن الأب شاجاس) . لله درك يا أب شاجاس ، يا من علمتني هذه الفكرة المغربية سنين طوالاً ، وهي ان المرء لا يمكن ان يستغل شقاء غيره وهو مالك جميـع قواه .. ناهيك عما برهن عليه هذا السكير من احترام لحق التملك حتى انه لم يجرؤ على اشعال سيجـاره من الانقاض إلا باذن صريح من صاحبتها . أليس هذا كله افكاراً مغربية حقاً ؟ لله درك يا أب شاجاس ، لله درك !.

١١٨

والآن ، وداعاً أيها الاب شاجاس . لنعد الى قصة الزواج . اما أن كارلوس ماريا قد أعجب ماريا بنديكتا ، فذلك ما فهمنـاه ، او حزرناه على الأقل ، منذ الحفلة الراقصة التي أقيمت في شارع الأركوس ، والتي رقصت صوفيا خلالها معه رقصة طويلة ، فرأينا الفتاة تتهيأ للعودة الى الريف في الغداة . لقد هدأتها ابنة خالتها يومئذ ، قائلة إنها بسبيل العثور على خطيب لها . فقدرت ماريا بنديكتا أنه راقص الليلة البارحة ، وأخذت تنتظر في صبر . ولم تفض بسرها الى صوفيا أولاً من قبيل الحياء والخفر ، وثانياً من أجل أن لاتفسد على ابنة خالتهـا لذة إحداث المفاجأة بالكشف عن اسم الشخص . ثم إنها إذا أفضت بسرها حالاً كان يمكن ان تفتر حماسة الشخص الآخر ، وبذلك تعرض جميـع أحلامها للدمار . ومهما يكن من أمر ، فانه لاينبغي لنا أن نطيل الكلام في هذه النقطة ، فما هذا كله في آخر الأمر إلا حسابات صغيرة تقوم في ذهن فتاة شبت في قلبهـا نار الحب !

وجاء وباء الآلاجواس . وجندت صوفيا لجنتها . وكان من شأن ذلك أن اتسعت دائرة العلاقات في اسرة باليا اتساعاً كبيراً . وقد دخلت ماريا بنديكتا نفسها عضواً في احدى اللجان الفرعية ، وبذلك عرفت جميع السيدات الأخريات، ولكنها حظيت بتقدير احداهن خاصة وهي دونا فرناندا ، زوجة أحد النواب. ودونا فرناندا لم تتجاوز الثلاثين من عمرها الا قليلا ، وهي سيدة تفيض صحة وجذلاً وانطلاقاً ، ولدت بمدينة بورتو أليجرى ، وتزوجت شاباً من الآلاجواس يحمل شهادة الليسانس ، وقد أصبح زوجها بعد ذلك نائباً عن مقاطعة اخرى ، وهو الآن بسبيله الى أن يصبح وزيراً فيها تقول الإشاعات . وقد ادخلت دونا فرناندا في اللجنة بحجة ان زوجها يرجع اصله الى الآلاجواس . ولم يندم أحد على ادخالها في اللجنة ، لأنها كانت تطلب التبرع من الناس بلهجة الأمر ، ولا تعاني عقدة الخجل ، ولا تطيق ان يقابلها احد برفض ! وكان كارلوس ماريا ابن عم هذه السيدة ، فلما وصلت الى ريو دي جانيرو جاء اليها يزورها ، فرأى انها ازدادت جمالاً على جمالها سنة ١٨٦٥ — وهي السنة التي رآها فيها اول مرة — ولعله لم يخطيء . واستنتج من ذلك ان مناخ الجنوب يقوي الجسم ويضاعف المفـــاتن الطبيعية ، حتى لقد علل نفسه بأن يمضي الى الجنوب يقضي فيه اواخر أيامه . قالت له :

— تعال الى هناك ، وسأظفر بتزويجك . انني اعرف فتاة من بيلوتاس هي في الحق جوهرة ثمينة ، ولا تريد أن تتزوج الا بشاب من ريو .

— تريد أن تتزوجني طبعاً !

— تريد أن تتزوج شاباً من ريو واسع العينين . واعلم أنني لست بسبيــل المزاح ، إنها فتاة جنوبية فذة حقاً . انظر ، هذه صورتها .

وفتحت دونا فرناندا محفظة للصور ، فأرته صورة الفتاة .

قال :

— ليست دميمة !

– فقط ؟
– بل هي أيضاً جميلة .
– يا ابن عمي ، ماأ كثر اظهارك للاشمئزاز !

فابتسم كارلوس ماريا من دون أن يجيب . إن هذا التعبير لم يعجبه . وأراد أن يغير موضوع الحديث ، لكن دونا فرناندا عادت تتكلم عن زواج صديقتها. فهي تنظر الى الصورة وتشرحها ، وتسبغ عليها شكلًا ولوناً ، واصفة عيني الفتاة وشعرها وبشرة وجهها . ثم تحدثت قليلًا عن تاريخ حياة سونورا . هذا هو اسم الفتاة . إن الكاهن الذي عمّدها قد تردد في تسميتها بهذا الاسم ، رغم ماكان يحظى به أبو الطفلة من احترام ، وهو أحد أغنياء المالكين بالمنطقة ، لكنه رضخ لهم أخيراً ، على أساس أن فضائل الطفلة قد تؤدي الى أن يدرج اسمها في عداد القديسين .

قال كارلوس ماريا :
– تعتقدين أن اسمها سيدرج في عداد القديسين ؟
– إذا هي تزوجتك !
– هذا لايدل على شيء . ولو تزوجت الشيطان لحدث لها الشيء نفسه على سبيل الشهادة . القديسة سونورا : ليس هذا الاسم قبيحاً ، وهو يعني مايعنيه. القديسة سونورا . ومهما يكن من أمر ياابنة العم ...

فقاطعته تقول :
– اسكت ... أنت زنديق ...

ثم أردفت تقول وهي تخبيء محفظة الصور :
– إذن لم تحب صديقتي الجنوبية ؟
– لم أقل ذلك . ولكن دعيني هادئاً في عزوبتي . ألا يكون المرء بذلك في منتصف الطريق إلى الجنة ؟

فانفجرت دونا فرناندا ضاحكة وقالت :

– رحماك يارب ! هل تظن حقاً أنك ذاهب الى الجنة يوماً ؟

– أنا فيها منذ عشرين دقيقة . هل يشبّه هذا الصالون الهادىء الرطيب الذي يبدو بعيداً كل البعد عن جمهرة الناس في الخارج ، إلاّ بالجنة ؟ اننا نستطيع هنا أن نتحدث في هدوء من دون أن نسمع تجديف الناس ، ومن دون ان يكون علينا احتمال تلك العقول العوجاء ، المبتلاة بالسل وداء الخنازير ، تلك العقول التي لاتطاق ، تلك العقول التي هي خير مايصور الجحيم . هنا الجنة ، أو ركن من الجنة على الاقل . وما دام هذا الركن يتسع لنا ، فهو واللانهاية سيّان . اننا نتحدث عن القديسة سونورا ، والقديس كارلوس ماريا ، والقديسة فرناندا التي قررت أن تزوج الفتيات ، لتختلف قليلًا عن القديس جونسالو . فأين توجد جنة كهذه الجنة ؟

قالت دونا فرناندا :

– في بيلوتاس .

فقال متنهداً وهو يمد ساقيه ويرفع بصره نحو ثريا الصالون :

– بيلوتاس بعيدة جداً .

– على كل حال هذه هجمتي الأولى . وستتلاحق هجماتي الى أن ترضخ لي .

فابتسم كارلوس ماريا ونظر الى عِنْهَنيْ ضفيرة الحرير التي عقدتها حول رقبتها في إهمال . ترى هل ألقى هذه النظرة ليتأمل العينين أم ليعجب برشاقة الجسم ؟ ولاحظ مرة اخرى أن ابنة عمه امرأة جميلة حقاً . وحضه هذا الجمال ، من غير أن يشعر ، على أن يرفع نظره الى اعلى قليلًا ، لكن الاحترام حمله على أن يحول عينيه بسرعة . وليست الصداقة وحدها هي التي دفعته الى إطالة زيارته في هذا البيت وإلى تكرارها : لقد كان كارلوس ماريا يحب محادثة النساء بقدر مايكره محادثة الرجال عامة . فهو يرى أن الرجال متعاظمون وعاميون ومملون وثقيلون وتافهون وغليظون وسخيفون . . . أما النساء فلسن عاميات ولا متعجرفات ولا مملات . وليس يجردهن من فتنتهن أن يكون بهن شيء من العجب والزهو ، بالعكس ... إن بعض العيوب الثانوية تحتمل فيهن أكثر مما

تحتمل في الرجال . زد على ذلك أن لهن كل ما لجنسهن من حلاوة وعذوبة . وكان كارلوس ماريا يرى أن اكثرهن تفاهة لا تخلو من شيء . فاذا خلا بعضهن من الملاحة حقاً قال انهن رجال .

وفي أثناء ذلك كانت الصلات بين دونا فرناندا وماريا بنديكتا تتوثق يوماً بعد يوم . وكانت الفتاة تجتاز في تلك الآونة أزمة . فهي إلى ما تتصف به طبيعتها من حياء تظهر عليها الآن علامات حزن واضحة . وكان الاختلاف بين المرأتين – سواء من ناحية الطبع ومن ناحية المركز – هو بعينه مايقرب بينهما. ان دونا فرناندا امرأة تفيض حباً للناس وعطفاً عليهم . كانت تحب الضعفاء والحزانى ، لشعورها بأن عليها أن تعيد اليهم المرح والشجاعة . ويعزو الناس إليها أعمالاً كثيرة من أعمال البر والتضحية .

سألت صديقتها الشابة ذات يوم :

– ولكن ماذا بك ؟ إنك لاتضحكين أبداً ، ولا تغيب عن وجهك امارات الفكر ، وعيناك تائهتان دائماً في احلامك ...

– ليس بي شيء ، هذه طبيعتي .

قالت ماريا ذلك مبتسمة ، وقد بدا عليها انها تبتسم ، من قبيل التلطف . ثم أشارت كذلك الى فقد امها قائلة ان ذلك أن أحد أسباب كآبتها . فأخذت دونا فرناندا منذ ذلك الحين تصطحبها حيثما تذهب ، وتدعوها إلى العشاء ، وتخصها بمكان في شرفتها حين تمضي إلى المسرح ، الخ .. فبفضل ذلك ، وبفضل طبعها المرح أيضاً ، استطاعت أن تطرد من ذهن الفتاة الأفكار السوء التي استولت عليها . وسرعان ما جعلتها العادة والمودة صديقتين حميمتين . لكن ماريا بنديكتا ظلت تكتم سرها في صدرها .

قالت دونا فرناندا ذات يوم لنفسها : « مهما يكن هذا السر ، فاعتقد أن خير شيء هو أن أزوجها من كارلوس ماريا . وفي وسع سونورا أن تنتظر. »

فقالت لها بعد يومين في بيتها الصغير بماتا كافالوس :

– يجب أن تتزوجي .

كانت ماريا بنديكتا البارحة بصحبة صديقتها في المسرح ، فرافقتها بعد المسرح الى منزلها وقضت ليلتها عندها .

– لا تنتفضي ، يجب أن تتزوجي وستتزوجين . إنني أهم أن اقول لك هذا منذ يومين ، لكن هذه الأمور إذا قيلت في الصالون أو في الشارع لا يكون لها ماينبغي ان يكون من قوة الوقع . ولا كذلك في البيت . فاذا كنت تحسبين انك قادرة على ان ترافقيني في جولة صغيرة على الرابية ، رتبنا كل شيء . هل توافقين ؟

– ولكن الجو حار ...

– هذا أقرب الى الشعر ياعزيزتي ! ألا انك لمن مدينة ريو حقاً ! .. أفي عروقكم دم أم ماء ، يا هؤلاء ؟ لنبق اذن على هذا المقعد ، اجلسي وسأجلس الى جانبك . انني مستعدة لكل شيء . ستتزوجين أو تموتين ، ولا وسط . لا تجيبي . لست سعيدة (قالت ذلك وهي تغير لهجتها) انني ادرك انك لاتحبين الحياة ، رغم كل ما افعل . تعالي الى هنا . حدثيني بصراحة . هل تحملين عاطفة لشخص معين ؟ اذا كنت تحملين عاطفة لشخص معين ، فاذكري لي اسمه ، وأنا أبعث في طلبه حالاً .

– لا شيء من هذا .

– عظيم ! ذلك يسهل الامور تماماً . لسنا في حاجة الى أن نضع على قلبك لافتة كتب عليها : « للايجار » . عندي مستأجر ممتاز .

فالتفتت ماريا بنديكتا اليها التفاتة تامة ، وقد فغرت فاها وحملقت عينيها . لايدري المرء هل سبب لها هذا العرض خوفاً أو أملا . واذا لم تستطيع دونا فرناندا أن تدرك الرغبة الحقيقة التي تعتمل في نفس الفتاة ، تناولت يدها وطلبت إليها أن تكاشفها بكل شيء . فلا شك أبداً في أنها تحب أحداً ، ذلك أمر واضح ، يرى في عينيها ، وعليها أن تعترف به . وراحت دونا فرناندا تلح وتتضرع ، وقالت انها ستأمرها بالاعتراف اذا لزم ذلك . ولكن يد ماريا بنديكتا كانت تبرد ثم تبرد شيئاً بعد شيء ، وبدا على عينيها انهما مسمرتان

الى الارض . وظلت السيدتان كلتاهما صامتتين خلال لحظات .

كررت دونا فرناندا تقول :

– هيا تكلمي !

– ليس عندي ما أقوله .

فأظهرت دونا فرناندا باشارات عريضة انها تصدق قولها ، وكانت في كل مرة تزداد إقترابا منها ، الى أن حضنتها آخر الأمر وقالت لها بصوت خافت جداً ان عليها أن تنظر اليها نظرتها الى ام ، وراحت تقبلها من وجهها وأذنيها ورقبتها ، ووضعت رأسها على كتفها وهي تدغدغها باليد الاخرى . اريد ان اعرف كل شيء ، كل شيء . إذا كان حبيب قلبها في القمر ، فلتجيئن لها به من القمر ... لتبعثن في طلبه حيث يكون ، إلا ان يكون في المقبرة . ولكن اذا كان في المقبرة ، فلتجدن لها عريساً آخر يفوق الاول وينسيها اياه في مدى بضعة أيام . وكانت ماريا بنديكتا تصغي إلى هذا الكلام مضطربة أشد الاضطراب ، خافقة القلب أشد الخفوق . انها لا تعرف كيف تتملص من هذا الموقف ، فهي مستعدة لأن تفضي بسرها . ولكنها ماتزال تلزم الصمت كأن عليها أن تدافع عن حيائها وخفرها .

إنها لاتنكر ولا تعترف . ولكن لما كانت ترتعد من شدة الانفعال ولا تبتسم في الوقت نفسه البتة ، كان من السهل على المرء أن يحزر جزءاً من الحقيقة .

– أنت إذن لاتعدينني صديقة لك ، أنت لاتثقين بي ! يجب عليك أن تعامليني كما تعامل البنت أمها .

وظلت ماريا بنديكتا تقاوم بعض المقاومة ، ولكنها استنفدت طاقتها كلها فأصبحت تشعر أن عليها أن تبوح بشيء ما . وأصغت إليها دونا فرناندا منفعلة أشد الانفعال . كان شعاع من الشمس قد قبّل حوافي المقعد ، ثم لم يلبث أن امتد الى أقدامها ، ثم إلى أطراف ثدييها ، حتى بلغ ركبتيها . ولكنهما لم تشعرا به . لقد شغلهما الحب عن كل شيء . وافتتنت دونا فرناندا افتتاناً غريباً بقصة ماريا بنديكتا . ان هذا الحب الذي يحرق الفتاة حرقاً ، لايعرفه أحد ،

ولا يشارك فيه المحبوب ، ولا يتصوره ، وهو يتغير الآن شيئاً شيئاً ليستحيل الى عبادة محضة . كانت ماريا في أول الأمر إذا رأت الرجل الذي تحبه تعاني حالتين نفسيتين مختلفتين كل الإختلاف : إن ماتحسه لأول وهلة لاتستطيع أن تحدده تحديداً واضحاً ، فهي مفتونة ذاهلة اللب معاً ، يخفق قلبها خفقاناً قوياً ، وتشعر أنها توشك أن يغمى عليها . ثم تأخذ تتأمله ، وتلك هي المرحلة الثانية ، ولا يبقى لها إلا هذا : أن تتأمله . ولقد بكت كثيراً ، وقضت ليالي لانهاية لها تفكر فيه وحده . لقد دفعت ثمن مطامحها الجنونية غالياً ! ولكن لاشيء يمكن أن ينتزع من ذهنها أنه خير الرجال جميعاً ، وأنه يشبه أن يكون الهاً يستحق منها العبادة ولو لم يعبأ بها .

فلما صمتت ماريا بنديكتا صمتاً تاماً قالت لها دونا فرناندا :

– حسناً . لننتقل الآن الى الأمر الجوهري ، وهو أن لاتظلي تتألمين في في غير طائل . ياعزيزتي ، ان حبك إنساناً غير مكترث بك ضرب من الشعر ، لا أكثر فدعي عنك الشعر ! انك لم تظفري في هذه القضية بغير الخسران . لأنه سيتزوج امرأة أخرى ، ثم تمضي السنون ، ويمضي هواك معها ، وتستيقظين ذات يوم فإذا أنت بلا حب ولا زوج ، ثم من هو ذلك الانسان الذي قلبه من حجر ؟

قالت مارنا بنديكتا وهي تنهض :

– لن أقول من هو .

فقالت دونا فرناندا وهي تمسك بقبضتيها وتجلسها على ركبتيها :

– طيب . لاتقولي . المسألة الوحيدة هي أن تتزوجي : وما دام زواجك به مستحيلاً ، فلتتزوجي غيره .

– لا ... لا ... لن أتزوج .

– لن تتزوجي أحداً غيره ؟

– حتى هو لن أتزوجه ... لاأدري ... أنني أحبه كما يحب الله .

كذلك قالت ماريا بنديكتا بعد بضع لحظات .

فأجابت دونا فرناندا :

– أيتها العذراء ! ألا ان هذا لكفر ... بل هو ياصغيرة كفران . فمن جهة أولى يجب أن لايحب المرء أحداً كما يحب الله ، ومن جهة ثانية فان أي زوج ، ولو كان سيئاً ، خير من أجمل الأحلام ...

١١٩

« أي زوج ، ولو كان سيئاً ، خير من أجمل الأحلام »

هذه الحكمة ليست رومانسية كثيراً . واحتجت ماريا بنديكتا . أليس الحلم خيراً من البكاء ؟ ان للحلم نهاية ، أما الزوج السيء فقد يعمر طويلا .

قالت ماريا بنديكتا تختم كلامها :

– أنت تقولين هذا لأن الله أعطاك ملاكاً ... هاهو هذا يصل .

– لا تقلقي . سيكون لك ملاكك أيضاً . بل انني لأعرف ملاكاً رائعاً أخبئه لك . أنت تعلمين أن الملائكة ليست بعيدة جداً عني .

ومن بعيد رآها تيوفيلو ، زوج دونا فرناندا ، فأقبل عليها . وكانت بيده جريدة مدعوكة . وبدون أن يحيي الضيفة اتجه بالكلام الى امرأته ، فقال لها وهو يكز أسنانه :

– هل تريدين أن تعلمي ماذا صنعوا لي يانانا ؟ ان خطابي الذي ألقيته بتاريخ ٥ قد نشر اليوم . فانظري في هذه الجملة . لقد قلت في خطابي : **في حالة الريب عليك بالامتناع ، فبذلك ينصح الحكماء** . فقلبوا الجملة هكذا : **في حالة الدين عليك بالامتناع** ... حقاً ان هذا لايطاق . لاحظي أن الموضوع الذي كان يدور عليه الكلام هو موضوع اعتمادات لوزارة البحرية ، وقد قيل أثناء المناقشة ، ان النفقات كانت باهظة . فمن الجائز اذن أن يبدو ذلك غلاظة وسفاهة مني فكأنني أدعو الى الإختلاس ناصحاً بالامتناع عن الدفع . هذا محال على كل حال !

ـ ولكن ألم تقرأ تجارب الطبع ؟
ـ قرأتها ، غير أن كاتب الشيء اعجز الناس عن قراءته قراءة صحيحة . « في حالة الدين عليك بالامتناع » .

كذلك تابع يقرأ وهو يحدق الى الجريدة . ثم أضاف يقول بنبرة أعلى :

ـ ولكن هذا لايمكن ان ...

كان الرجل منصقعاً . إنه انسان ينعم بمواهب جمة ، ويمتاز بكثير من الجد والحماسة في العمل . غير أن أكبر المشاريع واعوص المشكلات ، واخطر المعارك واعمق الثورات ، والشمس والقمر والنجوم والحيوانات وجميع اجيال البشر ، كل ذلك لا يساوي الآن في خطورة الشأن عنده ما يساويه إبدال كلمة الريب بكلمة الدين . وكانت ماريا بنديكتا تنظر إليه ولا تفهم . كانت تظن أنها تعاني اشد الم في العالم . وهاهي ذي ترى الماً لايقل عن المها ، بل يزيد . الحزن الكاوي الذي تشعر به فتاة الا يساوي اكثر من خطيئة مطبعية ؟ ولم ينتبه تيو فيلد الى وجودها إلا في تلك اللحظة ، فمد اليها يده . كانت الفتاة في مثل الثلج برودة . مامن احد يستطيع ان يصطنع برودة اليدين . إذن فهي تتألم حقاً . وبعد بضع لحظات رمى الجريدة على الارض في عنف ، ومضى .

قالت له امرأته وهي تنهض :

ـ ولكن في إمكانك ، يا تيوفيلو ، ان تنشر تصحيحاً في الغد .

فلم يزد تيوفيلو على ان رفع كتفيه يائساً دون ان يلتفت . وركضت امراته وراءه . وبهتت صديقتها وتبعتها . فلم يبق هنالك الا المقعد ، خلا الآن من وجودهم وراح يستقبل وحده اشعة الشمس غير مكترث بالعواطف ولا بالخطب . وقادت دونا فرناندا زوجها الى حجرة صغيرة ، واستطاعت هنالك ان تغريه بالقبلات عن الضربة التي رماه بها الحظ فلما حان موعد الغداء بدأ يبتسم ، ولو ابتسامة شاحبة بعض الشحوب . ومن اجل ان تصرفه زوجته عن افكاره ، بسطت له مشروعها الخاص بزواج ماريا بنديكتا قائلة انه من الضروري ان

تتزوج نائباً من النواب ، إذا كان في المجلس نائب أعزب ، بغض النظر عن آرائه ، يستوي أن يكون من حزب الحكومة أو من المعارضة أو من الجهتين كلتيهما ، أو أن لا يكون من أي حزب البتة إنما المهم أن يكون زوجاً وكفى. واستطاعت أن تسوق حول هذا الموضوع ملاحظات حية فكهة أمضت الوقت وأنست ذكرى الخطأ المطبعي . يالها من مخلوقة طيبة تقية !. . وأدرك تيوفيلو نية امرأته ، فاسترد صفاء مزاجه شيئاً بعد شيء ، ووافقها على أن زواج ماريا بنديكتا أمر مناسب .

قالت دونا فرناند وهي تنظر الى صديقتها :

– شر ما في الأمر أنها تحب شخصاً ولا تريد أن تبوح باسمه .

فقاطعها زوجها وهو يمسح فمه :

– لاداعي إلى أن تبوح باسمه ، فواضح جداً أن الشخص الذي تحبه إنما هو ابن عمك !

١٢٠

في يوم الأحد التالي ذهبت دونا فرناندا الى كنيسة سانيو آنطونيو دوس بدبرس . فلما انتهت الصلاة رأت ابن عمها يخرج من بين جمهور المصلين – الذين كانوا يلاطفون بعضهم بعضاً أو ينحنون أمام المذبح – رأته هو نفسه منتصباً كحرف الألف ، مرتدياً ثياب تقشف . ومد اليها يده وهو يبتسم ، فبادرته بالسؤال مبهوتة :

– هل كنت في الصلاة أنت أيضاً ؟

– نعم .

– هل تصلي دائماً ؟

– دائماً ، لا ... ولكنني أصلي غالباً ...

– بصراحة ... لم اكن أتوقع مثل هذا التقى منك ! والرجال عامة ستخفون بالدين . ان تيوفيلو لا يضع قدميه في الكنيسة ابداً ، اللهم إلا من

أجل تعميد الاولاد . أنت إذن تقوم بواجباتك الدينية ؟

– لا أستطيع أن أجيب اجابة قاطعة . غير أنني احتقر تلك العادة الرخيصة التي تجري مجرى الزي ، أعني تسفيه الدين . ولكن دعينا من هذا الموضوع ، فما جئت الى هنا للاعتراف بل للصلاة . سأصحبك إلى بيتك ، فان دعوتني الى الغداء قبلت ، إلا أن ترغبي في تناول طعام الغداء بمنزلي . هل تعلمين انني اقطن في هذا الشارع ؟

قالت دونا فرناند :

– لو امكنني لذهبت من تلقاء نفسي أزف إليك نبأ يصعب شرحه بكلمتين.

فأجابها كارلوس ماريا على باب الكنيسة وهو يقدم لها ذراعه :

– فلنمش اذن على مهل .

وأردف يسألها بعد بضع خطوات :

– اهو نبأ هام ؟

– هام ورائع !

– سوف ترين ان الله بواسع رحمته سيأخذ عزيزنا تيوفيلو تاركاً في هذه الحياة الدنيا اجمل ارملة . دعيك من هذا العناد يا ابنة العم ... هاتي ذراعك . والآن ، ماهو النبأ ؟ اراهن على ان فتاة بيلوتاس قد وصلت !

– لن احدثك في الأمر الا اذا حلفت انك ستصغي الي جاداً .

– سأصغي إليك جاداً ..

فاعترفت له دونا فرناندا بأنها أصبحت تتردد في أمر زواجه من بنت منطقتها . ذلك أنها لاتريد أن يتعذب ضميرها بعد أن اكتشفت أن هناك فتاة تحترق هياماً به . فابتسم كارلوس ماريا ، وتهيأ للمزاح ، لكن النبأ شغل باله مع ذلك . هياماً ؟ « هياماً ، تولهاً ! » كذلك قالت دونا فرناندا ، لكنها أضافت أن هذا التعبير ربما كان لايصدق صدقاً كاملاً على العواطف التي أصبحت تشعر بها الفتاة الآن . ذلك ان هذه العواطف قد صارت الى نوع من العبادة الهادئة الصامتة . لقد بكت من أجله ليالي وليالي ، مادام في نفسها القليل من الأمل .....

ورددث دونا فرناندا على مسامع ابن عمها كل ماأفضت به اليها ماريابنديكتا. ولم يبق الا أن تذكر له اسم الفتاة . وأراد كارلوس ماريا أن يعرف الاسم . لكنها رفضت أن تبوح به ، قائلة أنها لانستطيع أن تكشف عنه ، فعلام تمتّعه بمعرفة اسم الفتاة التي تحبه في حين أن قلبه لايخفق بمثل مايخفق به قلبها ؟ ان الأفضل أن يظل جاهلاً باسم هذه الفتاة . ثم أن الفتاة قد كفت الآن عن البكاء ، وتبددت مطامعها ، وتبددت أوهامها ، وفقدت كل أمل في أن يحبها ، واستحالت بمضي الزمن الى عابدة ..... ولكنها عابدة لانظير لها .... فهي لاتطمع حتى في أن يسمعها معبودها ولا في أن يلقي عليها نظرة عطف .

– ابنة العم ، أنت ....

– أنا ماذا ؟

وقال كارلوس ماريا أخيراً أن المحامية أهل للقضية التي ترافع فيها ، فإذا صح أن الفتاة تعبده هذه العبادة كلها ، فمن العدل ومن طبيعة الامور أن تهتم بها ابنة عمه هذا الاهتمام الحار كله . ولكن لماذا الامتناع عن ذكر اسمها ؟

– لن اذكر لك اسمها الآن .... وربما ذكرته لك في يوم من الأيام.... ولكنك أصبحت تعرف لماذا يصعب علي أن أزوجك من فتاة مدينتي بعد أن علمت أن هناك فتاة تحبك هذا الحب المولّه كله . على أن هذه الفتاة المولهّة قد لاتتألم ألماً مبرحاً إذا أنت تزوجت . نعم ، أنا أعلم أن هذا لايعقل . ولكنني أعرفها : انني لعلى يقين من أنها تستطيع أن تبارك غريمتها متى عرفت أنك سعيد!

قال كارلوس ماريا بعد بضع خطوات وهو يحدق الى الارض :

– ليس هذا من الرومانسية فحسب ، بل هو من الصوفية أيضاً . وليست الصوفية من هذا العصر ! أعندك حقاً براهين على أن عواطفها هي هذه ؟

– عندي ..... هذا هو بيتك ، أليس كذلك ؟

قالت دونا فرناندا هذا وهي تقف .

– نعم

– عمارة جميلة ... ويبدو أنها متينة.

– متينة جداً .

– نافذة ، اثنتان ، ثلاث ، أربع .... سبع نوافذ . هل يحتل الصالون الواجهة كلها ؟ هذا خير مايرجى لإقامة حفلة راقصة .

وأضافت تقول وهي تتابع سيرها :

– لو كان لي بيت أوسع لأقمت حفلة راقصة قبل أن اسافر الى ريو جراندي(١) . انني أحب الحفلات حباً شديداً . والحق أن طفليّ لايرهقاني بالعمل . بالمناسبة ، أحب ادخال لوبو في المدرسة ، فأين أجد مدرسة جيدة ؟

وكان كارلوس ماريا يفكر في العابدة المجهولة . ان ذهنه بعيد ، بعيد جدا ، عن التعليم والمدارس ... ماأبدع أن يحس المرء بأنه إله معبود ، على الطريقة الانجيلية ، سراً ، في حجرة مقفلة مرتين ، لا على مرأى من جميع الناس كما في كنائس اليهود . « وأبوك الذي يرى كل شيء ، حتى أخفى ماعندك ، سيكافئك » ! نعم ... لسوف يكافئها اذا عرف اسمهـــا . أتراها متزوجة ؟ لا ... مستحيل ... لو كانت متزوجة لما أفضت بسرها الى أحد . أتراها أرملة أم عزبة ؟ . الأرجح أنها عزبة ... كل شيء يشير الى ذلك . أين تراها تحبس نفسها لتعبده ، لتفكر فيه ، لتبكي من أجله ، لتباركه ؟ أصبح الآن لايرغب تلك الرغبة كلها في أن يعرف اسمها ، ولكنه يريد على كل حال أن يعرف المكان الذي تنزوي فيه .

كررت دونا فرناندا تسأله :

– ترى أين أجد مدرسة جيدة ؟

– مدرسة ؟ لاأدري . انني أفكر في المجهولة . لعلك تقدرين أن شخصاً يعبدني هذه العبادة الصامتة ، من غير امل ، يستحق أن افكر فيه . اهي طويلة أم قصيرة ؟

– هي ماريا بنديكتا .

---

(١) هي ريو جراندي دوسول ، إحدى ولايات البرازيل ، في أقصى الجنوب .

وقف كارلوس ماريا مبهوتاً .

– ماريا بنديكتا ؟ مستحيل ... لقد تحدثت اليها كثيراً فما لاحظت شيئاً خاصاً . وكنت اجد دائماً انها فاترة . لاشك ان ثمة خطأ . هل ذكرت لـك اسمي ؟

– لم تذكره ، رغم توسلي . لقد اعترفت بالعبادة ، لكنها لم تشأ ان تسمي المعبود . ويالها من عبادة ! لك ان تعتز بأنك محبوب اكثر من اي انسان . لمن هذا البيت ؟

– من عادتك يا ابنة العم ان تضخمي الامور . قد لايكون هـذا الحب هوى قوياً كالذي تصفين . محبوب اكثر من اي انسان ؟ ثم كيف عرفت انني انا المحبوب ؟

– تيوفيلو اول من اكتشف ذلك . وحين اعلنه امامهـا احمرت احمراراً شديداً حتى صارت بلون شقائق النعمان ؛ ولقد زعمت لي بعدئذ ان هذا غير صحيح ولكنها لم تعد الى البيت منذ ذلك اليوم .

تلك هي نقطة البداية في قصة حبها . شعر كارلوس ماريا بكثير من الاعتزاز لهذا الحب الطامت ، واستحال تحامله على الفتاة الى عطف . وازداد اختلافـه اليها . واصبح اضطراب الفتاة ومخاوفها وفرحها وتواضعها ومواقفهـا التي تشبه ان تكون مواقف ضراعة ، اصبحت جميع هـذه الأعمال والعواطف التي هي بمثابة عبادة للرجل ، تملأه ارتياحاً . وتعلمون كيف نهاية الرواية ! لقد رأيتموهما معا في عيد ميلاد صوفيا ... صوفيا التي كان يسمعها قبل ذلك كلمات عذبـة كل العذوبة ! ولكن هذا شأن الرجال : هم اشبه بالمـاء الذي يجري والنسيم الذي يهب .

١٢١

قال روبيان لنفسه : « هذا احسن ! فلتتزوج » .

وبين المساء الذي علم فيه بالنبأ واليوم الذي تم فيه الزواج ، رأى صوفيا

تنظر الى كارلوس ماريا عدة مرات نظرات مريبة بعض الشيء ، ولكن كارلوس ماريا ان اجاب على هذه النظرات فمن قبيل التأدب ، فاستخلص روبيان من ذلك ان الأمر لايعدو ان يكون مصادفة . ثم انه مايزال يذكر الدمعة التي سكبتها صوفيا لحظة شرحت له قصة الرسالة كاملة في مساء عيد ميلادها .

يالتلك الدمعة التي لم تكن مؤملة ! ايتها الدمعة التي كنت كافية لاقناع واحد من الرجال ، لعلك تظلين سراً لايفهم بالنسبة الى رجال آخرين . كذلك هو العالم ! ليس امراً هاماً ان لاتكون هاتان العينان معتادتين البكاء ، ولا ان تبدو تلك السهرة حاضة على كل شيء الا على الحزن .. حسب روبيان انه رأى هطول الدمعة .. على أن ثقة روبيان لم تنشأ عن هطول الدمعة فحسب ، وانما نشأت كذلك عن موقف صوفيا منه منذ ذلك الحين : انها لم تكن في يوم من الأيام محتفية به هذا الاحتفاء كله ولا لطيفة في معاملته هذا اللطف كله . لكأنها نادمة على اساءتها اليه ، فهي تحب أن تتدارك ما فرط منها ، سواء أكان مرد ذلك الى أنها شعرت نحوه بعاطفة متأخرة ، أم الى مغامرتها هي . هنالك آثام تبقى في حيز القوة ، ولا يقترفها المرء أبداً .. هنالك (اوبرات) تظل غافية في رؤوس بعض الموسيقيين تنتظر أولى موازين الالهام ..

١٢٢

ردد روبيان يقول : « يسعدني أن يتزوج ! »

واحتفل بالزواج بعد أقل من ثلاثة أسابيع . وفي صبيحة اليوم المضروب فتح كارلوس ماريا عينه بشيء من الدهشة : أهو الذي يتزوج ؟ نعم ، ولا يجوز الشك في ذلك . ونظر الى نفسه في المرآة .. انه هو ! وتذكر الايام الاخيرة المنصرمة ، وتذكر كيف جرت الاحداث مسرعة ، وتذكر العاطفة الصادقة التي يحملها لخطيبته والسعادة الكاملة التي سيهبها لها .

وهذه الفكرة الاخيرة ، خاصة ، ولدّت في نفسه رضى قوياً كبيراً . ولم تتركه هذه الخواطر خلال النزهة المعتادة التي قام بها على صهوة جواده لقد

قرر أن يمضي من جهة انجنيو فليو . ومع أنه ألف أن تتابعه جمهرة من نظرات الاعجاب في نزهته ، فقد لاحظ ان وجوه الناس في ذلك اليوم كانت تعبر عن معنى خاص ، هو المعنى الذي يناسب النبأ العظيم ، نبأ زواجه . وحتى شجيرات احدى المزارع لم تنس حين مرّ بها أن تفضي اليه بامور كثيرة ، مع أنها كانت قبل وصوله ساكنة كل السكون ، امور قد تردها عقول خفيفة الى النسيم الذي هب ، أما الحكماء فيدركون فوراً أنها لغة الأعراس تتكلمها الشجيرات . والعصافير كانت تثب من جهة الى اخرى وهي تغرّد انشودة غزل . وهذان زوجان من الفراش — وأنتم تعلمون أن اليابانيين قد عدّوا الفراش رمزاً للوفاء بعد أن لاحظوا أن الفراش لا يكاد يتنقل من زهرة الى اخرى الا أزواجاً — أقول هذان زوجان من الفراش أصفران مرحان ، يتبعان الحصان مدة طويلة ، ويتواثبان هنا وهناك فوق السياج الذي يحف بالطريق . وهنالك الهواء الندي ، والسماء الزرقاء ، والوجوه الفرحة ، وجوه الرجال الذين يلقاهم كارلوس ماريا في الطريق جاثمين على ظهور حميرهم أو مائلين على نوافذ عرباتهم ليتأملوه ! ان من الصعب عليه أن يعتقد ان جميع هذه الحركات والاوضاع من الناس والحيوانات والاشجار يمكن أن يكون معنى آخر غير معنى التحية تزجيها اليه الطبيعة في عرسه .

واختفت الفراشات أخيراً في احد الادغال الكثيفة من السياج . وظهرت مزرعة اخرى على حافة الطريق ، مزرعة بلا أشجار ، ترى في آخرها من خلال بابها الكبير بيتاً قديماً مهجوراً كأن نوافذه الخمس التي تطل على شرفته تحدق اليك بعينين محملقتين . كم من عرس وكم من حفلة تمت وراء هذه النوافذ في أيام روائها ، في جدتها الأخاذة والأمل الذي تنشر عبقه !

ولكن لا تظنوا أن الأسى الذي يفوح من هذا المشهد قد بث في قلب فارسنا الجميل شيئاً من الحزن . بالعكس ... لقد كان يملك تلك الموهبة الخاصة الفذة التي تمكنه من أن يعيد الى الانقاض شبابها وأن يحيا الحياة الأولى للأشياء .

حتى لقد أمتعته رؤية البيت العتيق الخرب الذي يختلف ذلك الاختلاف كله عن الفراشات النشيطة التي كان يراها منذ برهة . ووقف حصانه ، وتصور النساء اللواتي لابد أنهن دخلن من هذا الباب الواسع : أزمنة أخرى ، ووجـوه أخرى وعادات أخرى .. لعل طيوف أولئك الأشخاص السعداء الذين كانوا يعيشون في الماضي قد خرجت الآن من لحودها وجاءت هي الأخرى تحييه وتعبر له بأفواه خفية لا ترى عما تحمل له من اعجاب شديد . لقـد سمع هو أصواتها على كل حال ، وابتسم من ذلك ارتياحاً . غير أن صوتاً حاداً انضم عندئذ الى هذا اللحن العذب ، صوت ببغاء كانت سجينة في قفص معلق بجدار البيت . « ببغاء ، ببغاء ، ببغاء الملك ، ببغاء البرتغال .... من هناك ؟ كوكو ، حبيبي الجميل كوكو .. غررر .. غررر .. » واختفت الأطيـاف واستأنف الحصان سيره . ان كارلوس ماريا يكره الببغـاوات كرهاً شديداً كما يكره القرود ، وكان من عادته أن يقول عنها : « تقليدان كاذبان للانسان » .

ساءل نفسه وهو يتابع طريقه : « هل تنقطع السعادة التي سأهبها لها مثل هذا الانقطاع ؟ »

واجتازت الشارع عندئذ عصافير تغرد بلغتها ، فكان ذلك كافياً لرد الأمور الى نصابها !. ان هذه اللغة التي لا تشتمل على كلام لغة مفهومة . انها تعبر عن كثير من الجمال وكثير من الطهارة ، ورأى كارلوس ماريا أنها ترمز اليه : إذا امتلأت نفس امرأته اشمئزازاً من الضجة التي تحدثها ببغاوات العالم ، فلسوف يخرجها من هذا الاشمئزاز بتغريد الطائر الذي يحمله في داخله ! ألا انها لأفكار من ذهب يعبر عنها صوت من ذهب !.. آ .. لسوف يسعدها أكبر السعادة ! وها هو ذا يتصورها منذ الآن راكعة واضعة ذراعيها على ركبتيه ، دافنة رأسها بين يديه ، محدقة اليه ، وقد زاغت عيناها امتنانا وعبادة وحبـاً . لسوف تكون أمامه ضارعة كل الضراعة ، فانية كل الفناء !..

١٢٣

وتخيلوا أن هذه الصورة الأخيرة قد طافت بخيال خطيبته في اللحظة التي راودت فيها خياله . كانت واقفة على نافذة غرفتها تحدق الى الأمواج التي تتلاحق في بعيد ثم تتكسر على رمال الشاطىء ، فاذا هي ترى نفسها راكعة عند قدمي زوجها في مذلة – كركوعها عند منضدة التناول – من أجل أن تتلقى قربان السعادة . قالت لنفسها : « آه .. لسوف يسعدني أكبر السعادة ! » . الأفكار والأقوال مختلفة بعض الاختلاف ، لكن الوقت هو نفسه والوضع هو نفسه ..

١٢٤

تزوجا وسافرا الى أوربا بعد ثلاثة أشهر . ولم تبك دونا فرناندا حين ودعتها ، بل كانت مشرقة الوجه ، كأنهما عائدان لا مسافران . لقد كان فرحها بسعادتها أقوى من حزنها لفراقها !.

قالت لماريا بنديكتا ، عند المركب ، مرة أخيرة :

– أأنت مسرورة ؟

– جداً .

كانت دونا فرناندا تفيض فرحاً ، فرحاً صافياً بريئاً يومض في عينيها ، بينما كان يصدح في قلبها لحن من تلك الألحان الايطالية التي كانت تحبها كثيراً لعله لحن أغنية لوسيا التي تقول :

(١) O'bell'alma innamorata

او لعله ذلك المقطع من « حلاق اشبيلية » :

(٢) Ecco ridente in cielo
Spunta la bella aurora.

١٢٥

لم تذهب صوفيا الى الميناء . كانت متوعكة فأرسلت زوجها ينوب عنها . لا تظنوا

---

(١) ايتها النفس الجميلة الودود .

(٢) هذا هو الفجر الجميل الباسم ... يظهر في السماء ،

أن ذلك عن حسرة أو حزن . لقد عرفت أثناء الزواج كيف تبرهن على كثير من الكتمان ، وعنيت بجهاز العروس وودعتها وهي تغمرها بقبلات تمازجها الدموع أما أن تذهب الى المركب فقد رأت أن ذلك كثير ! لذلك زعمت أنها مريضة ، ثم لزمت غرفتها حتى لا يشك أحد في صدق زعمها ، وتناولت رواية حديثة أهداها اليها روبيان . أن أشياء أخرى كثيرة في هذه الحجرة تذكرها بروبيان : لعب من جميع الأنواع ، ناهيك عن الحلي المخبأة . حتى أن عبارة خاصة همس لها بها ليلة زواج ابنة خالتها قد انضمت الآن الى موكب هذه الأشياء الكثيرة التي تذكرها بصاحبنا .. لقد قال لها بصوت خافت في ذلك المساء :

– أنت ملكتهم منذ الآن . ولكن انتظري ، فلأجعلنك امبراطورة أيضاً .

لم تستطع صوفيا أن تدرك معنى هذه العبارة المستغلقة . افترضت في أول الأمر أنه يريد أن يبهرها بالعظمة تسهيلا لاتخاذها خليلة . لكنها لم تلبث أن نبذت هذا التأويل ، لأنه يفترض في روبيان كثيراً من رقاعة المعجب بنفسه . صحيح أن روبيان ليس الآن ذلك الرجل الخجول الأخرق الذي عرفناه في الماضي ، ولكنه مع ذلك ليس معجباً بنفسه هذا الاعجاب كله ، حتى تظن فيه هذا الزهو ! فما معنى تلك العبارة اذن ؟ أتراه أراد ان يقول لها بلغة مجازية ان حبه لها سيزداد ؟ قالت صوفيا لنفسها : كل شيء جائز . وصحيح ان صوفيا لا يعوزها المحبون ، حتى لقد سمعت تصريحاً بالحب من كارلوس ماريا ، ولعلها سمعت مثل هذا التصريح من غيره فلم يهز ذلك إلا غرورها . لكن ذلك كله كان عابراً . ولم يبق على حبه غير روبيان . ولئن كان روبيان يختفي من حين الى حين عندما يعاني أزمة شكوك ، فان شكوكه كانت تذهب دائماً كما جاءت .

حين شرعت صوفيا تستأنف قراءة الرواية في الصفحة التي كانت قد وقفت عندها وقعت عينها على هذه العبارة : « انه ليستحق أن يُحَب » . فطوت الكتاب ، وأغمضت عينيها ، واسترسلت في تأمل طويل . فلما دخل عليها

العبد بعد هنيهة يحمل اليها كأساً من المرق ظن سيدته نائمة ، فقفل راجعاً على رؤوس الأصابع .

١٢٦

في أثناء ذلك الوقت كان روبيان وياليا ينزلان من الباخرة ويركبان القارب الذي سيقلهما الى رصيف فاروكس . انهما مطرقان صامتان . وكان باليا أول من فتح فمه بالكلام ، قال : « انقضى زمن طويل وانا أريد أن أفاتحك في أمر هام ياروبيان . » .

١٢٧

انتفض روبيان . كانت تلك أول مرة يصعد فيها الى باخرة . وكان رأسه لايزال ممتلئاً بصخب المرفأ : منظر الناس الذين يدخلون ويخرجون ـ ناس من جميع الأنواع : برازيليون ، أجانب فرنسيون وانجليز وألمان وأرجنتينيون ... برج بابل ـ وخليط القبعات والحقائب والحبال والمقاعد والنظارات ذات الحمائل والرجال الذين يصعدون أو ينزلون في داخل الباخرة على طول السلالم ، والنساء اللواتي يبكين أو يضحكن ويلقين على ماحولهن نظرات استطلاع ، والأزهار أو الثمار التي جاء بها كثير منهن ... هذا كله كان جديداً على روبيان . ومن بعيد كان يُرى الحاجز الذي ستجتازه الباخرة ، ووراء الحاجز كان يُرى البحر الخضم ، والسماء الهابطة الى الأفق ، والوحدة ... وارتد روبيان على غير علم منه الى الأحلام العتيقة التي كان يحلمها العالم القديم ، خالقاً في ذهنه صورة (أتلانتيد) خيالية ...

كان روبيان لايعرف شيئاً من مبادىء الجغرافيا ... لذلك كوّن لنفسه فكرة غامضة عن البلاد الأخرى ، مسبغاً عليها هالة من سحر . واذ كان لايكلفه شيئاً أن يرحل على هذا النحو ، فقد أبحر بالخيال زمناً على ظهر المركب الكبير ، دون دوار ، ولا أمواج ولا رياح ، ولا سحب ...

١٢٨

أجاب روبيان بعد بضع ثوان قائلًا :

– لي أنا ؟

فقال باليـا مؤكداً :

– نعم لك أنت . كان ينبغي أن أفاتحك في هذا الأمر منذ زمن طويل ، غير أن حكايات الزواج ولجنة الآلاجواس وما الى ذلك قد شغلتني فلم تتح لي فرصة التحدث اليك ... أما الآن ، قبل الغداء ... هل تقبل أن تتغدى معي ؟

– نعم ولكن ماهو الأمر ؟

– أمر هام ...

قال ذلك وهو يتناول سيجارة ، وينفّضها ، ويخرج تبغها بـين أصابعه ثم يلفه مـرة أخرى بورقة ويشعل عود ثقاب . لكن الهـــواء يطفىء الشعلة ، فيطلب الى روبيان أن يتفضل بأن يمسك له قبعته من أجل أن يستطيـع اشعال عود آخر . فيطيعه روبيان وقد نفد صبره . لعل شريكه قد أطال انتظاره عامداً من أجـــل أمر يجعله يتصور أسوأ الاحتمالات ، حتى اذا عرف الحقيقة روّح ذلك عن نفسه . سحب كرستيان من سيجارته شفافتين ثم قال :

– أنوي أن أشرع في تصفية عملنا ، لأنني رُجيت أن أعـين موظفاً بأحد المصارف ، هي وظيفة مدير في الواقع ، وأعتقد أنني سأقبل .

فتنفس روبيان وقال :

– طبعاً . ولكن هل يجب أن تتم هذه التصفية فوراً ؟

– لا ... ولكن يجب أن تتم في آخر السنة القادمة .

– وهل ذلك أمر لابد منه حقاً ؟

– هو بالنسبة الي أمر لابد منه . ولو كانت حكاية المصرف هذه غـــير مضمونة لمـا جازفت طبعـاً فتركت الفريسة من أجـــل الظل ... ولكنها مضمونة تماماً .

– اذن ففي نهاية السنة القادمة سنحل الصلات التي تجمعنا ...

– بل قبل ذلك ، في نهاية هذه السنة .

لم يفهم روبيان . غير أن شريكه أوضح له أن من المفيد أن تحل الشركة منذ الآن ، ليستطيع أن يصفي المخزن بعد ذلك وحده ذلك أن المصرف قد يتقدم انشاؤه قليلا وقد يتأخر ، ولا داعي إلى أن يجعل صديقه رهناً بهذه الاحتمالات . ومن جهة أخرى ألم يؤكد الدكتور كاماشو أن روبيان سيحتل مقعده في المجلس النيابي قريباً وأن سقوط الوزارة أمر محقق ؟

وختم كلامه بقوله :

– وكيف كان الأمر ، فمن الافضل حل الشركة في الوقت المناسب . وأنت على كل حال لا تعيش من التجارة ، ولئن اشتركت في هذا المشروع برأس المال اللازم ، لقد كان في وسعك أن تستثمره أيضاً في مشروع آخر ، أو ان تحتفظ به لا أكثر ولا أقل .

قال روبيان :

– أنا موافق .

وأردف يقول بعد بضع لحظات :

– ولكن قل لي : هل وراء هذا العرض سبب مخبأ . أهذه قطيعة ؟ أهي نهاية صداقتنا ؟ كن صريحاً ، وقل لي كل شيء ..

فأجاب باليا :

– ما هذا الكلام العجيب ؟ قطيعة ؟. نهاية صداقتنا ؟ أأنت مجنون ؟ لا شك أن دوار البحر هو الذي جعلك في هذه الحالة ! أتظن أنني وقد عملت في سبيلك ما عملت ، وجعلتك صديق أصدقائي ، وعاملتك معاملة القريب قريبه بل معاملة الأخ أخاه ، أتظن أنني أقاطعك فجأة من غير سبب ؟ وحتى ماريا بنديكتا كان ينبغي أن تتزوج منك لا من كارلوس ماريا ، لولا أنك رفضت .. أنت تعلم ذلك . ان في وسع المرء أن يقطع احدى الصلات دون أن يقطع سائر الصلات ، والا كان سخيفاً حقاً . هل جميع

الاصدقاء الذين في العالم شركاء في الاعمال ؟ فما القول اذن فيمن ليس لهم أعمال ؟

اقتنع روبيان بالحجة ورآها رائعة ، فاحتضن صديقه . وصافحه صديقه وهو في أوج الرضى : لسوف يتحرر من شريك قد يوقعه تبذيره المتزايد في حرج ذات يوم . المشروع سليم دقيق ، ومن السهل أن يعطي روبيان حصته ، عدا الديون الشخصية التي اقترضها منه قبل ذلك ، ان باليا ما يزال مديناً لصاحبه ببعض الديون التي اعترف بها لزوجته في ذلك المساء بسانتا تيريزا ، ذلك المساء الذي وضعنا حوادثه في الفصل الخمسين . انه لم يسدد من تلك الديون الا قليلا . ولكن يجب أن نذكر أن روبيان هو الذي كان يتمنع حين يُثار هذا الموضوع . وذات يوم أراد باليا أن يجبره على قبول بعض المال سداداً ، فذكر له المثل القديم : « من ردّ ديونه اغتنى » ، فما كان من روبيان الا أن أجابه مازحاً :

- امتنع عن الدفع تزدد غنى .

فقال باليا وهو يضحك ويرد المال الى جيبه :

- حلوة جداً !.

١٢٩

لا مصرف ، ولا وظيفة مدير ، ولا تصفية .. ذلك كله مختلق ! ولكن كيف يستطيع باليا أن يسوغ حل الشركة اذا قال الحقيقة وحدها ؟ لذلك اخترع تلك القصة ، ومما سهّل عليه اختراعها أنه يحب المصارف حقاً ، وأنه يحترق شوقاً إلى إدارة مصرف من المصارف . والواقع أن حياة هذا الرجل كانت ناجحة كل النجاح ، فمشروعه مزدهر جداً ، ومن الأسباب التي دعته الى الانفصال عن شريكه أنه يريد أن لا يقاسمه الأرباح المقبلة . وكان باليا عدا ذلك يملك أسهماً من جميع الأنواع ، كما يملك سندات ذهبية من قرض ايتابوراهي ، وقد تولى بالتعاون مع شركة من الشركات الكبرى ، تنفيذ تعهدين لتموين الجيش جنى منهما أرباحاً طائلة . حتى لقد اتصل بأحد المهندسين المعماريين من أجل أن يبني لنفسه قصراً خاصاً . وكان يحلم حلماً غامضاً بأن ينال لقب بارون ...

١٣٠

– من كان يخطر بباله أن أسرة باليا هذه ستعاملنا هذه المعاملة ؟ نحن الآن في نظرهم أقل من لا شيء . لا تحاول أن تدافع عنهم .

– لست أدافع بل أشرح . لا بد أن هناك التباساً .

– تحتفل بعيد ميلادها ، وتزوج ابنة خالتها ، ثم لا توجه أي دعوة الى الماجور ، الماجور العظيم ، الماجور الذي لا يضارع ، الماجور العزيز !... هذه هي الأسماء التي كانت تنعتني بها . كنت لا أضارع ، وكنت عظيماً ، وكنت صديقهم القديم ، وكنت أشياء أخرى لم أعد أتذكرها .. أما الآن فلاشيء... لا دعوة ، حتى ولا رسالة شفهية مع صبي من العبيد : « سيـــدتي تحتفل بعيد ميلادها أو بزواج ابنة خالتها ، وتبلغكم أن بيتها بيتكم . وترجوكم أن ترتدوا الملابس الرسمية » . لو دعتنا لما ذهبنا . فالحفلات الرسمية ليست من أجلنا ولكننا نكون قد خطرنا ببالها ... رسالة شفهية على الأقل ، صبي من العبيد ترسله الى الماجور الذي لا يضارع ...

– بابا !

هكذا قالت تونيكا ، فشجع ذلك روبيان على أن يدافع عن أسرة باليـا دفاعاً طويلاً . حدث هذا كله في منزل الماجور الذي أصبح لا يقطن في شارع « ثاني كانون الأول » ، بل في طـابق أرضي متواضع بشارع باربونوس . كان روبيان ماراً هناك ، وكان الماجور واقفاً الى النافذة فناداه . ولم تستطع تونيكا أن تخرج من الصالون لحظة لتلقي نظرة على نفسها أمام المرآة ، وغاية ما استطاعت أن تفعله امرار يدها على شعرها وترتيب الوشاح الذي يطوق عنقها وانزال تنورتها قليلاً لتخفي حذاءيها العتيقين .

قال روبيان ملحاً :

– أقول لابد أن التباساً قد حدث ... ان كل شيء قـد انقلب رأساً على عقب بسبب جثة الآلاجواس هذه .

فقاطعه الماجور سيكويرا قائلا :

– وهذا مثال أحسنت إذ ذكرته . لماذا لم يطلبوا الى ابنتي أن تشترك في لجنة الآلاجواس هذه ؟ لا ... لا ... انني منذ زمن طويل أدرك مايحدث . في الماضي كانت لاتقام حفلة الا وتدعى اليها . كنا روح كل شيء . ثم أخذت الأمور تتبدل منذ زمن . أصبحوا يستقبلوننا بفتور ، وأصبح الزوج لايحييني إذا هو استطاع التهرب مني . لقد تبدلت الأمور منذ زمن طويل . كانوا في الماضي لايفعلون شيئاً دوننا ... لماذا تتحدث عن الالتباس ؟ هل تعلم أنني قبل حفلة عيد ميلاد دونا صوفيا بيوم واحد ذهبت أزوره في المخزن لاشتباهي في أنهم قد لايدعوننا الى الحفلة ؟ فماذا فعل ؟ لم يفتح فمه بكلمة واحدة ، وتعمد الكتمان . قلت له آخر الأمر : « كنا أمس في البيت نتناقش أنا وتونيكا في موعد عيد ميلاد دونا صوفيا ، فكانت هي تقول انه قد مضى ، وكنت أنا اؤكد أنه اليوم أو غداً » . فلم يجب ، وتظاهر بالانهاك في حساباته ، ونادى المحاسب يسأله شرح بعض الامور . فأدركت الحيلة ، وكررت كلامي ، فكررت لعبته وانصرفت . أباليا ... هذا الشقي العاثر ... يفعل هذا ؟ أصبحوا الآن يتعايرون بي ويخجلون من صحبتي . في الماضي كانت الاغنية غير هذه : « ماجور ... عليك أنت أن تقترح شرب النخب » وكنت أقترح شرب النخب ، لأن لي في هذه الأمور براعة خاصة ! وكنا نلعب كذلك بالورق . أما الآن فقد أخذه جنون العظمة ... إنه لايعاشر إلا علية القوم ! آ ... باطل الأباطيل ! تصور أنني منذ مدة صادفت زوجته مع سيدة أخرى في مركبة فخمة ! تصور : صوفيا في مركبة فخمة ... فتظاهرت بأنها لاتراني ، ولكنها جربت على أن تعرف هل أراها أنا ، وهل امتلأت إعجاباً بها . باطل . كل شيء باطل على الارض ! من لم يذق القشدة في حياته يمرغ وجهه بها حين يأكلها أول مرة ! ...

– معذرة ... إن أعمال الجمعية تتطلب بعض المظاهر !

— نعم ومن أجل هذا لم تدخل ابنتي في اللجنة ... حتى لاتوسخ المركبات الفخمة ! ...

— ثم ان المركبة الفخمة قد تكون للسيدة الأخرى التي معها .

فمشى الماجور بضع خطوات ، واضعاً يديه وراء ظهره ، ثم وقف أمام روبيان وقال :

— للسيدة الأخرى ... أو للأب مانديس . بالمناسبة ، كيف حاله ؟ رضّي البال طبعاً ...

قاطعته تونيكا قائلة :

— ولكن يا بابا قد لا يكون ثمة شيء البتة . انها ماتزال لطيفة معي كل اللطف . وحين مرضت في الشهر الماضي أرسلت عبداً تسأل عن صحتي مرتين ...

فصاح أبوها :

— أرسلت عبداً ... أرسلت عبداً . ما أعظمه من تفضل ! . . « ياعبد... إذهب الى بيت ذلك العسكري المتقاعد ، واسأله هل تحسنت صحة إبنته . لن أذهب الى هناك ، لأنني بسبيل صقل أظافري ! » نعم .. انه لتفضل عظيم ! ... أنت يا ابنتي لا تصقلين أظافرك ... أنت تعملين ! أنت فقيرة يا ابنتي العزيزة ، فقيرة ولكنك شريفة !

قال الماجور ذلك وأخذ يبكي ، ولكنه لم يلبث أن كفكف دموعه فجأة ، وتأثرت ابنته تأثراً شديداً ، وانتهت الى الشعور بالمذلة هي أيضاً . والحقيقة أن الحجرة نفسها كانت تحدث عن فقر هذه الأسرة أكثر من اي شيء آخر : قليل من المقاعد ، ومنضدة مدورة عتيقة ، وأريكة بالية ، وعلى الجدارين صورتان منقوشتان محاطتان بأطار أسود ، احداهما تمثل الماجور عام ١٨٥٧ والثانية مشتراة من شارع السنيور دوس باسوس وتمثل فيرونيز بالبندقية . لكن المرء يشعر بعمل تونيكا في كل موضع من الحجرة : الأثاث يلتمع نظافة ، وعلى المنضدة غطاء مطرز من صنعها ، وعلى الأريكة مخدة . ومن الخطأ أن يقال ان تونيكا لا تصقل أظافرها . فلئن لم يكن عندها مسحوق ولا جلد شاموا ،

لقد كانت تستعيض عن ذلك كل صباح بحك أظافرها على قطعة صغـــيرة من القماش .

١٣١

أظهر لهما روبيان مودة وكف عن الدفاع عن أسرة باليا حتى لا يحزن الماجور كثيراً . واستأذن بالانصراف بعد ذلك بقليل واعداً أن يجيء اليهم « ذات يوم » ليتعشى معهم ، دون أن يُدعى الى هذا . فقال له الماجور :

– عشاء فقراء . ليتك تنبئنا بمجيئك قبل حينٍ اذا استطعت .

– لا أريد وليمة . سأجيء في أول يوم يخطر ببالي أن أجيء فيه .

قال ذلك واستأذن بالانصراف . وشيعته حتى السلم ، لكنها لم تمض الى أبعد من ذلك بسبب حذاءيها العتيقين ، ثم وقفت الى النافذة لتراه وهو يخرج .

١٣٢

حتى اذا انعطف روبيان عند ناصية شارع مانجيراس ، رجعت تونيكا ومضت نحو أبيها الذي كان قد تمدد على الأريكة يعيد قراءة كتابه القديم « سان كلير الجزر أو المنفيون في جزيرة البارا » . انها أول رواية قرأها ، ويزيد عمر النسخة التي عنده منها على عشرين عاماً ، وهي كل مكتبة الأب وابنته . فتح سيكويرا الجزء الأول وأخذ ينظر في بداية الفصل الثاني . كان يحفظ هذه البداية على ظهر القلب ، ولكنه يجد لها الآن بسبب كروبه الحديثة مذاقاً خاصاً . « صاح سان كلير يقول : أترعوا أقداحكم ، ولنفرغها في أجوافنا دفعة واحدة . هذا هو النخب الذي اقترحه : نخب المضطهدين من خيار الناس وشجعانهم ، نخب القصاص الذي سيلحق بمضطهديهم . فرفعوا أقداحهم جميعاً في اثر سان كلير ... » .

– في رأيي يا أبت أن تشتري غداً علب طعام محفوظ من سمك وبسلّى وغير ذلك ، حتى اذا جاء للعشاء يوماً لم يكن علينا الا أن نضعها فوق النـــار لتسخن ، فنستطيـع بذلك أن نقدم له عشاء أجود .

– ولكن ليس معي الا ثمن فستانك .
– فستاني ! سنشتريه في الشهر التالي أو الشهر الذي بعده . سأنتظر .
– وإذا لم نجد فستاناً بمثل هذا الثمن في ذلك الوقت ؟
– سنجد حتماً . سأنتظر يا أبت !

١٣٣

انتهز هذه الفرصة لأقول لكم – وذلك ما لم أستطعه حتى الآن لأن الفصول قد تدافعت تدافعاً أثناء الكتابة – ان دائرة علاقات روبيان كانت قد اتسعت اتساعاً كبيراً في أثناء ذلك . لقد وصله كاماشو بعدد كبير من رجال السياسة ، ووصلته لجنة الآلاجواس بعدد من السيدات ، ووصلته المصـــارف والشركات بشخصيات من رجال الأعمال والمال ، ووصلته المسارح بروّادها ، ووصله شارع أوفيدور بجمهرة من الناس ، حتى صار اسمه وشخصه معروفين . فمتى رأى الناس لحيةً وشاربين طويلين ، وردنجوتاً محكماً وصدراً عريضاً وعصا من قرن الكركدن ، متى رأوا هذا كله على مشية واثقة مسيطرة ، قالوا على الفور إنه روبيان – ثري ميناس .

حتى لقد أصبحوا يحيطونه بأسطورة . فهم يقولون إنه تلميذ فيلسوف كبير أورثه ثروة طائلة تقدر بألفين ، بثلاثة آلاف ، بخمسة آلاف من القونتـات . وكان بعضهم يعجب من أن الرجل لا يتكلم في الفلسفة ، ولكن الأسطورة كانت تعلل هذا الصمت بأنه من المنهج الفلسفي الذي يلتزمه الأستاذ ، وقوام هذا المنهج أن لا يعلم هذه الفلسفة الا لأصحاب النيات الطيبة . ولكن أين تلاميذه ؟ إنهم يذهبون الى بيته كل يوم ، وقد يذهبون مرتين في اليوم : صبحاً ومساءً . فهذ هو تعريف اسم الآكلين والشاربين في بيته الذي أصبح الناس يطلقونه عليهم . أما أنهم تلاميذ فلا ، وأما أنهم من أصحاب النيات الطيبة ، فنعم ... ان لهم من النيات الطيبة ما يفيض عنهم ويزيد ... كانوا يصرخون من الجوع وهم في انتظار « امفتريون » مضيفهم ، ثم يصغون إلى خطبه صامتين وقد علت البسمة

شفاههم . حتى لقد قام نوع من التنافس بين القدماء والجدد ، وهو تنافس كان القدماء يقوونه بظهورهم أمام الجدد في مظهر فيه الكثير من التيه والتفاخر . أنهم أقرب الى رب البيت مودة ، يأمرون الخدم ويطلبون السيجار وينتقلون الى الحجرات الخلفية ويصفّرون في غير تحرج ، وهلمّ جراً ... إلا أن العادة قد أدت بهم أخيراً الى أن يحتمل بعضهم بعضاً ، وكانوا مجمعين على تمجيد فضائل رب البيت. ولم يلبث الجدد أن أصبحوا هم أيضاً مدينين له بمال ، سواء أكان الدين نقداً أم كان كفالة أو ضمانة يسددها روبيان خلسةً ... حتى لا يشعروا بغضاضة .

وكانوا مجمعين على تدليل كونكاس بوربا . فهم يصفقون بأصابعهم ليثب ، حتى أن بعضهم يقبله من رأسه . واستطاع بارع منهم أن يقعده على ركبتيه وهم جلوس إلى المائدة ليطعمه كسرات من الخبز .

قال روبيان محتجاً في أول مرة :

– لا ... هذا لا ...

فأجاب الضيف سائلًا :

– أي ضير في هذا ؟ ليس ثمة غرباء ...

ففكر روبيان لحظة ثم قال :

– صحيح إن في داخل هذا الكلب انساناً عظيماً .

فأكمل الضيف يقول وهو يجيل نظره في الجدد ليظهر لهم مدى ما بينه وبين روبيان من علاقات وثيقة :

– الفيلسوف ، كونكاس بوربا الآخر .

لكنه لم يستطع أن يحتكر لنفسه هذه الميزة ، لأن جميع « القدماء » رددوا عندئذ يقولون :

– صحيح ، الفيلسوف .

وراح روبيان يشرح للجدد هذه الاشارة الى الفيلسوف ويوضح لهم السبب الذي من أجله يطلقون هذا الاسم على الكلب . ووصف لهم كونكاس بوربا (المرحوم) بأنه رجل من أعظم رجال زمانه ، وأنه يفوق جميع معاصريه .

فيلسوف عظيم ، قلب عظيم ، صديق عظيم ...

وصاح روبيان يقول بعد لحظة من صمت وهو يضرب المائدة بأصابعه :

– لو كان حياً لجعلته وزيراً .

فهتف أحد الضيوف يقول من غير اقتناع ، بل من باب القيام بالواجب :

– آ ... طبعاً .

ولم يكن أحد من هؤلاء الناس يعرف شيئاً عن التضحيات التي كان يرتضيها روبيان في سبيلهم . لقد كان يرفض حضور حفلات العشاء ويرفض الاشتراك في النزهات ، ويقطع الأحاديث الممتعة ، في سبيل أن يعود الى البيت مسرعاً ليتعشى معهم . غير أنه استطاع ذات يوم أن يوفق بين الأمور ، فقال ان على الخدم أن يقدموا العشاء لأصدقائه اذا لم يعد هو إلى البيت في الساعة السادسة تماماً . وقد أثار هذا احتجاجات كثيرة . قالوا : لا ... مستحيل ... انهم مستعدون للانتظار حتى السابعة أو الثامنة اذا اقتضى الأمر ، فلا لذة في عشاء لا يشارك هو فيه ...

فقال روبيان :

– ولكن قد لا أعود أبداً .

وكذلك كان . ولم يفت الضيوف أن يضبطوا ساعاتهم على ساعة بيت بوتافوجو . فكانوا متى أزفت الساعة السادسة يجلسون جميعاً الى المائدة . وقد حدث في اليومين الأولين شيء من التردد طبعاً . ولكن الأوامر التي صدرت الى الخدم كانت صريحة صارمة . وكان روبيان يصل في بعض الأحيان بعد السادسة بقليل ، فتقدم عندئذ قهقهات ونكات ولذعات ... فهذا يقول إنه أراد أن ينتظر ؛ ولكن الآخرين .. فإذا بالآخرين يهبون الى تكذيبه ، ويقولون ان صاحبهم هذا هو الذي حملهم على البدء بالعشاء ، وانه كان قد بلغ من فرط الجوع أنه أجهز على المائدة فلم يبق إلا على الصحون . وكان روبيان يضحك معهم جميعاً ...

١٣٤

أن أكتب فصلا لا لشيء الا لأقول إن ضيوف روبيـــان كانوا في أول الأمر اثناء غيابه يدخنون من سيجاره بعد العشاء ، فذلك شيء قد يبدو تافهاً حتى لأكثرهم تعلقاً بالامور التافهة . لكن أصحاب الشأن سيقولون لكم إن هذا الأمر التفصيلي هام ولو بدا في الظاهر خليقاً بان يُهمل .

ففي ذات مساء خطر ببال واحد من أقدم رواد البيت أن يمضي الى حجرة مكتب روبيان . وكان قد مضى الى هذه الحجرة مرات كثيرة قبل ذلك . ففيها كانت علب السيجار — لا أربع علب أو خمس ، بل عِشرون أو ثلاثون علبة ، من أصناف شتى وحجوم مختلفة . وكان عدد كبير من هـــذه العلب مفتوحاً . وأشعل الخادم (الاسباني) النور . وتبع سـائر الضيوف الضيف الاول . واختـــار كل منهم سيجاره . والذين كانوا لا يعرفون الحجرة قبل ذلك ، أعجبوا بالأثاث الذي فيها ، وهو أثاث جميل أحسن ترتيبه . وكان هنالك منضدة من خشب الأبانوس فازت باعجابهم جميعاً : قطعة متينة قاسية . رائعة النسب . غير أن هناك شيئاً جديداً كان ينتظرهم جميعاً : تمثالان من المرمر وضعا في أعلى المنضدة أحدهما لنابوليون الاول والآخر لنابوليون الثالث .

— متى وُضع هذان التمثالان هنا ؟

فقال الخادم :

— ظهر هذا اليوم .

إنهما تمثالان عظيمان . فالى جانب نظرة النسر التي هي نظرة العم ، نظرة ابن الأخ الحالمة التائهة في الغموض ، وذكر الخادم أن سيده بعد أن تلقى التمثالين ووضعهما في هـذا المكان ظل مـدة طويلة يتأملهما معجباً ، وبلغ من استغراق سيده في تأملهما أنه نظر هو أيضاً اليهما ، لكنه لم يشاركه في اعجابه بهما . وقال الخادم وهو يقوم بحركة مسرحية :

— لا يعجبني هذان الشخصان (١)

(١) بالاسبانية في الاصل (المترجم)

١٣٥

كان روبيان يرعى الآداب كثيراً . كان الناشر الذي ينشر كتابا مصدرا باهداء اليه يضمن أن يبيع منه مائتي أو ثلاثمائة نسخة على الأقل . وغرق في ركام من صكوك الشرف التي تهديها اليـه الجمعيات الأدبية والموسيقية والدينية وغيرها . وكان عضواً في جماعـة كاثوليكية وعضواً في جماعة بروتستانية في آن واحد ، لأنه لم يتذكر انتسابه الى أولاهما حين عرض عليه أن ينتمي الى الاخرى . وكان ما يعمله هو على كل حال أن يدفع الاشتراكات الشهرية الى الجمعيتين كلتيها . وقد اشترك أيضاً في جرائد لا يقرؤها . وعلى هذه الصورة علم ذات يوم من الجابي حين دفع له اشتراكه في الجريدة عن ستة أشهر أن الجريدة حكومية ، فما كان منه إلا أن شتم الرجل ..

١٣٦

غير أن الرجل لم يعبأ بالشتيمة ، وأخـذ قيمة الاشتراك في آخر الامر . واذ كان يملك موهبة الملاحظة التي يملكها جبـاة المال في العادة ، دمدم يقول وهو في الشارع :

– هذا رجل يحتقر الجريدة ويدفع اشتراكهـا مع ذلك ، فكم من رجل يعبدها عبادة ولا يدفع شيئاً البتة .

١٣٧

ولكن – يا للحظ وبالعدالة الطبيعية ! – لئن كانت تبذيرات صاحبنـا داء لا علاج له ، فهناك الآن ما يعوّض منها . لقد انتهى العهد الذي كان فيـه روبيان يقضي وقته كرجل كسلان خلا ذهنـه من أي فكرة ! ولئن أعذرته الأفكار ، ان رأسه ليفيض الآن بالأخيلة . كان قبل ذلك يعيش بالآخرين أكثر من يعيش بنفسه ، فلا يتأتى له تحقيق توازنه الداخلي ، في ساعات من الفـراغ تبدو له طويلة لاتنتهي ... أما الآن فان كل شيء قد أخذ يتبدل ، وأصبح

للخيال في نفسه أكبر نصيب ، صار يستطيع الآن ان يقضي صبيحة برمتها جالساً في مخزن برناردو من دون أن يبدو له الوقت طويلاً ، ومن غير أن يرى أن شارع أوفيدور الضيق يسد أمـــامه الأفق . ان رؤى لذيذة ـ كتلك التي تتصل برؤى عرسه (الفصل ٨١) ـ رؤى تتنازعه فيهـــا العظمة والمتعة ، تهدهد الآن روحه من جديد . وكان يراه الناس في مثـــل اللحظات يثب من كرسيه على حين فجأة مرات كثيرة ويمضي إلى الباب لينعم النظر الى أحد المارة . أهو يعرفه ؟ أم أحد يشبه ، عرضاً ، الشخص الذي كان يراه بخيـاله ؟ تلك أسئلة أكثر من أن يجيب عنها فصل واحد . وحسبي أن أقول الآن إنه هُرع ذات مـــرة إلى البـــاب من دون أن يكون ثمـــة مارٌ بـــه . وقـد أدرك هو نفسه أنه واهم ، وعاد إلى الداخل فاشترى لعبـة من البرونز لابنة كاماشو التي تحتفل اليوم بعيد ميلادها والتي ستتزوج قريباً ، ثم انصرف .

١٣٨

وصوفيا ؟ هذا هو السؤال الذي تطرحه القارئة التي نفد صبرها ، كما كان أورجون يسأل : وطرطوف ؟ ولكن الجواب أيتها العزيزة هو نفسه : إنها هي أيضاً تأكل وتنام كما تشاء ، وهذا لايمنعها طبعاً من ان تحب متى أرادت أن تحب . وإذا كانت هذه المـلاحظة الأخيرة هي السبب الخفي الذي دفعك إلى طرح هذا السؤال ، فـاسمحي لي أن أقول لك انك لاتحسنين الكتمان ، وأنا امرؤ لا أتفاهم شخصياً إلا مع المتحفظين من الناس ..

أعود فأقول إنها تأكل وتنام كما تشاء . وقد قامت بأعمال لجنة الآلاجواس خير قيام ، وأثنت عليها الصحافة ثناءً عاطراً ، حتى أن جريدة « الخفير » قد خلعت عليها لقب « ملاك المواساة » . ولكن يجب أن لايقع في ظنك أن هذا اللقب قد ملأها فرحـــاً ، رغم مافيه من مديح . إذ قدرت انه حين ينسب إليها وحدها الفضل فيما تحقق من عمل ، فقد يؤدي ذلك إلى إيذاء صديقاتها الجديدات فتفقد في يوم واحد ماعملت له خلال أشهر طويلة ، وهذا هو السبب في ان الجريدة نفسها نشرت في عددها التالي مقالاً جديداً ينعت جميع سيدات

اللجنة بأنهن « نجوم من أرفع طراز » ، ويصف ويمجد إسهام كل منهن في العمل المشترك .

ولم تحتفظ اسرة باليا بعد انتهاء أعمال اللجنة بجميع العلاقات التي عقدتها ، غير أن علاقات كثيرة منها قد توطدت ورسخت ، ولم يكن من الصعب على صوفيا طبعاً أن تجعلها ثابتةً بما تملك من موهبة . وكان زوجها هو الذي يرتكب الخطأ في هذا ، إذ يسرف في الظهور بمظهر الورش الطافح حركةً ، فيدل على أنه يرى هؤلاء الناس يغمرونه بلطف وكرم وعطف يوشك أن لا يستحقه . ولم يفت صوفيا أن تزجي اليه النقد والنصح ضاحكة من أجل أن تصلح الأمر، فهي تقول له مثلًا : « كنت اليوم لاتطاق ؛ لكأنك واحد من الخدم . » أو تقول له : « كرستيانو ، حاول أن تراقب نفسك عندما نستقبل الزائرين . تجنب أن تخرج عيناك من رأسك ، وأن تثب من جهة إلى جهة كطفل أعطي الحلوى ».

وكان باليا ينكر ويتعالى ويحاول أن يسوغ سلوكه ، لكنه كان يعترف دائماً في آخر الأمر بأنها على حق ، وبأن عليه أن لا يُشعر الآخرين بكونه أدنى منهم . يجب أن يكون كيساً ولطيفاً ، ولكن لا أكثر من ذلك ...

– تماماً . ولكن يجب أن تتحاشى الإفراط والتفريط كليهما . يجب أن لاتصبح فظاً شرساً ...

فكان باليا يمثل الدورين كليهما في آن واحد ، فهو في أول الأمر فظ ، فاتر ، يوشك أن يكون متعجرفاً . لكنه مايلبث أن يسترد حماسته المعتادة شيئاً بعد شيء ، سواء أكان ذلك عن تفكير أم لا ، وما يلبث في الوقت نفسه أن يسترد مبالغته وانطلاقات صوته على حسب الاحوال . غير أن صوفيا كانت تصلح الموقف لحسن الحظ ، بما تملك من قدرة على الملاحظة والمحاكاة . إن الضرورة والمواهب الطبيعية سرعان ما اكتسبتها الآن – التي لم يمنّ بها عليها محتد كريم وثراء عظيم – وكان من حظها أنها ، وهي في ذلك العمر المتوسط الذي يجعل صاحبه محبوباً من الفتيات اللواتي هن في العشرين ومن النساء اللواتي هن في الاربعين . كانت محببة الى هؤلاء السيدات يعبدنها عبادة ، وكان عدد كبير

منهن يغرقها بالمديح . وعلى هـــذا النحو استطاعت صاحبتنـا أن تخلق حول نفسها جواً جديداً ، شيئاً بعد شيء . فقطعت علاقات الأسرة بجميع الاصدقاء القدامى ، رغم أن قطع بعض هـذه العلاقات ولا سيا الحميمة منهـا لم يكن بالامر السهل . لكن صوفيا كانت تتمتع إلى أقصى حد بتلك الموهبـة التي تمكن صاحبها من أن يتقبل في غير حرارة ، وأن يصغي في غير اهتمام ، وأن يودع في غير أسف . فإذا بأولئك المساكين المتواضعين ، أولئك الأصدقاء الذين ليس لهم شأن يذكر ، أولئك الأشخاص الذين لايحسنون اصطنـاع الآداب الراقية والملابس الانيقة والتسليات الرفيعة ، أولئك الذين لاتدل عاداتهم إلا على التأخر والبساطة ، كل هؤلاء أخذوا يختفون واحداً بعد واحد .. كانت تتصرف مع الرجال ذلك التصرف الذي وصفه الماجور ، حين صادفته وهي راكبة على عربتها... (يجب أن نذكر هنا أن العربة كانت عربتها حقـاً) . والفرق الوحيد أنها أصبحت تمتنع حتى عن القاء نظرة خاطفة على الناس لتتأكد من أنهم رأوها . لقد انقضى العهد الذي كانت لاتزال تسمح فيه لنفسها بذلك . انها الآن تشيح بوجهها في قسوة ، وبذلك تستبعد بحركة حاسمة كل تردد ، وتجبر أصدقاءهـا القدامى على أن لايحيّوها .

١٣٩

أراد روبيان أن يتوسط للماجور ، ولكن صوفيا صدته وظهر على وجهها من الضجر ما جعل صاحبنا يؤثر أن يسألها ألا يزال الاتفاق قائمـــاً على أن يذهبوا صباح الغد في نزهة إلى توجوكا . فقالت صوفيا :

— حدثت كرستيانو في أمر هذه النزهة ، فذكر انه على موعدٍ من مواعيد العمل في الغد ، وأن الافضل إرجاء القيام بالنزهة الى يوم الاحد القادم .

وأردف روبيان يقول بعد هنيهة :

— فلنذهب نحن الاثنين . إن في وسعنا أن نرحل في ساعة مبكرة ، فنقوم بالنزهة ، ونتغدى هناك ، ثم نعود في الساعة الثالثة أو الرابعة .

فنظرت اليه صوفيا وفي عينيهـا من الرغبة في الموافقة على اقتراحه ماجعل روبيان يقول من غير أن ينتظر جوابها :

– اتفقنا اذن . سنذهب .

– لا

– كيف لا ؟

وكرر سؤاله مرة أخرى ، لان صوفيا لم تعقب على رفضها بأي شرح . وكان السبب الذي يدفعها الى الرفض واضحاً مع ذلك ؛ واضطرت بسبب الحاجه أن تشرح له أن زوجها قد يقتدي بها فيرجيء موعده من أجل أن يوافقها ، وهي لاتحب أن تزعجه في أعماله . ألا يمكنهما أن ينتظرا ثمانية أيام ؟

وكانت نظرات صوفيا ترافق هذا الشرح في اقتناع وتوافق يعادلان توافق أصوات البوق مع الصلاة الربانية . نعم لقد كانت تحب أن تذهب في نزهة مع روبيان في صباح الغد : وهاهي ذي تتصور نفسها فوق صهوة جوادها تجري به خبباً تارة ، وعـــدواً تارة اخرى ، وتقف على الطريق من حين الى حين ، منتصبة القامة على ظهر حصانها ، متقدة الوجه حماسة ولذة ، لاتشعر بشيء من كـآبة ولا تغرق في أحلام باطلة ... حتى إذا بلغت القمة نزلت عن حصانها ووقفت وحيدة بين السماء العالية والمدينة البعيدة ... ثم مالت على الحصان وأمرّت يدها على لبته ، وأصغت الى روبيان يمتدح جرأتها وحذقها ... بل فكأني بها تشعر منذ الآن بقبلة تلامس نقرتها .

١٤٠

وما دمنا بصدد الكلام على الخيل فمن المناسب أن نذكر ان خيال صوفيا قد أصبح الآن اشبه شيء بحصان جامح وثاب قادر على أن يقطع التـــلال والغابات في غير ارتباك ... ان هذا التشبيه لايصلح لأي ظرف غير هذا الظرف . ولكنه هنا خير تشبيه . ألا يذكر الحصان بالجموح والقوة والعدو ، ألا يذكر في الوقت نفسه بالهدوء الذي يتميز به حين يعدو الى اسطبله على الطريق المستقيم ؟

١٤١

قال روبيان وقد لاحظ بريق عيني صوفيا :

– اتفقنا . نذهب غداً .

ولكن الحصان كان قد عاد من جولته المجنونة متعباً ، فهو الآن في اسطبله وسنان . كانت صوفيا قد تبدلت ، فالدوار الذي عصف برأسها منذ دقائق ، والجولة الجامحة التي تخيلتها ، واللذة التي منّت بها نفسها صاعدة معه في طريق توجوكا ، كل ذلك قد اختفى الآن ... وإذ قال لها روبيان انه سيستأذن زوجها في قيامها بهذه النزهة ، أجابته بلهجة وانية :

– أأنت مجنون ؟ فلندع هذا الى يوم الاحد القادم .

ثم ثبتت نظرها على قطعة التطريز التي كانت تشغل بها وتطلق عليها اسم « التسلية » ... بينما راح روبيان يطوّف بصره على ركن صغير بائس من حديقة تمتد أمام حجرة المكتب التي كانا فيها . وكما استمرت صوفيا ، وهي جالسة عند طرف النافذة ، تعمل وتحرك أصابعها في مرونة فكذلك راح روبيان يخلق حفلة امبراطورية في الوردتين المبتذلتين اللتين كانتا في ركن الحديقة ، حتى نسي الحجرة والمرأة في آخر الامر ، ونسي معها نفسه . لا أعرف على وجه اليقين كم مضى من الوقت وهما صامتان هذا الصمت كله غريبان أحدهما عن الآخر هذه الغرابة كلها . ولم يعودا الى الواقع الا عندما جاءتها احدى الخادمات بالقهوة . فلما فرغ روبيان من شرب قهوته مسّد لحيته وأخرج ساعته واستأذن بالانصراف . وكانت صوفيا تنتظر انصرافه بصبر نافد ، فسرها كثيراً ان يهم بالانصراف ، لكنها أخفت سرورها وراء اصطناع التعجب الكاذب قائلة :

– الآن ؟

فأجابها :

– نعم ! ان شخصا ينتظرني قبل الساعة الرابعة . اذن الغيت النزهة ؟ طيب ... سألغي طلب الخيل . ولكن هل أكيد أننا سنقوم بالنزهة يوم الاحد القادم ؟

– أكيد ، أكيد ، لا . ولكن أظن أننا سنقوم بها يوم الاحد القادم إذا لزم روبيان امره في الوقت المناسب . أنت تعلم أن زوجي رجل الموانع والحوائل .

وشيعته صوفيا الى الباب ، ومدت اليها يدها في غير اكتراث ، وأجابت مبتسمة عن كلمة عابرة لاقيمة لها ، ثم عادت إلى الحجرة الصغيرة التي كانت فيها ، وجلست عند طرف النافذة نفسها . ولكنها لم تستأنف شغلها فوراً ، وإنما وضعت ساقا على ساق دون أن تنسى بحكم العادة أن تشد تنورتها الى أسفل ، والقت نظرة على الحديقة التي أتاحت وردتاها لصاحبنا أن يتخيل مشهداً امبراطوريا ، فلم تر صوفيا فيها أكثر من زهرتين خرساوين . ومع ذلك فقد حدقت اليها بضع لحظات ، ثم عادت الى « تسليتها » ، فاشتغلت قليلا ، ثم لم تلبث أن توقفت عن العمل واضعة يديها فوق ركبتيها ، وعادت الى الشغل بعد قليل ثم تركته مرة أخرى ، وهبت واقفة ، فرمت كبب الخيطان والمكوك في سلة صغيرة من الخيزران كانت تضع فيها أدوات « شغلها » . ان السلة هدية من روبيان .

– رجل مضجر ! مملّ .

كذلك قالت صوفيا ، ثم مضت تستند الى النافذة التي تطل على طرف الحديقة الذي كانت فيه الوردتان المبتذلتان بسبيلها الى الذبول . ان الورد حين يكون نضراً لا يحفل كثيراً أو لايحفل البتة بما في نفوس الناس من أنواع الغضب . لكنه حين يذبل يتفنن في إيلام قلب الانسان . وأغلب ظني أن مرد هذه العادة الى قصر عمره . لقد كتب أحدهم يقول : « البستاني خالد في نظر الورد » وهل من وسيلة الى الاستخفاف بهذا الموجود الخالد غير الاستهزاء بنفسه ؟ « أمضي أنا وتبقى أنت . أما أنا فلم أزد على انني تفتحت وعطرت وأرضيت النساء والفتيات وكنت رسالة حب وزينت عرس الرجال أو فنيت فوق غصني . ما مستني يد ولا رأتني عين إلا في اعجاب وحنان . وأمّا أنت ، أيها الخالد ، فشأنك شأن آخر . أنت تغضب ، وتتألم ، وتبكي ، وتحزن .

إن خلودك لا يساوي دقيقة واحدة من دقائقي » .

لذلك ، حين وصلت صوفيا الى النافذة المطلة على الحديقة ، أخذت الوردتان تضحكان وهما تنشران أوراقها . قالت إحداهما : أحسنت .. أحسنت .. أحسنت ... ثم أضافت :

– من حقك أن تغضبي أيتها المخلوقة الجميلة ، ولكن يجب أن لا تغضبي منه بل من نفسك . ما قيمته هو ؟ إنه رجل مسكين لا فتنة له ولا سحر . قد يكون صديقاً طيباً ، وقد يكون كريماً ، لكنه منفّر ، أليس كذلك ؟ وانت ، أنت التي يغازلك كثيرون غيره ، أي شيطان يحضك على أن تصيخي بسمعك الى هذا التافه ؟ غضي طرفك مذلةً أيتها المخلوقة الرائعة ، فأنت أنت سبب ما تشكين من داء . تحلفين أنك ستنسين هذا الرجل ، ثم لا تفعلين شيئاً من ذلك البتة . وهل أنت في حاجة الى نسيانه ؟ أليس يكفيك أن تنظري اليه ، وأن تسمعي كلامه ، حتى تحتقريه ؟ إنه لا يقول شيئاً أيتها المخلوقة الغريبة ، وأنت ..

فقاطعتها الوردة الثانية تقول بصوت هادىء ساخر :

– في هذا شيء من المبالغة . إنه يقول شيئاً ما ، بل إنه يكرر ما يقول منذ زمن طويل ، لا ينسى أبداً ، ولا يتبدل قط إنه ثابت ، وما يزال الأمل يملأ قلبه رغم حزنه . ان حياته الغرامية كلها شبيهة بنزهة تيجوكا التي سمعنا حديثها منذ قليل « ترجأ الى الأحد القادم ! » . قليلًا من الرحمة على الأقل ! شيئاً من الشفقة يا صوفيا ، يا ذات القلب الطيب ! وإذا كان عليك أن تحبي أحداً غير زوجك ، فأحبيه ، أحبيه هو ، هو الذي يحبك ، ويكتم حبه هذا الكتمان كله . تشجعي ، واندمي على هذا الموقف الذي وقفته منذ برهة . ما اساءته ؟ هل ذنبه أنك جميلة ؟ وإذا كان ثمة ذنب ، فليس ذنب السلة ، على كل حال . ليس ذنب السلة ، أنه هو الذي أذنب ولا ذنب كبب الخيطان ، ولا ذنب المكوك الذي أرسلت الخادم لشرائه . أنت شريرة يا صوفيا ، أنت ظالمة ...

١٤٢

وكانت صوفيا تصغي وتصغي ... وسألت نباتات أخرى ، ولكن هـــذه النباتات الاخرى لم تجبها بغير ما قالته لها الوردتان ... هناك مصادفات عجيبة من هذا النوع ... إن من يعرف أسرار الحياة يعرف أن جـــداراً ومقعداً وسجادة ومظلة يمكن أن تزخر بالأفكار والعواطف حين نزخر نحن بهـــذه الأفكار والعواطف ، وأن تبادل الآراء بين البشر والاشياء ظاهرة من ألطف ظواهر الحياة على هذه الأرض .

يقول تعبير برتغالي « تحدث فلان مع أزراره » . وقد يبدو هذا التعبير مجازاً من المجازات لا أكثر ، ولكنه في الواقع مليء بالمعنى ، مليء بمعنى عياني واقعي . إن الأزرار تستجيب لنا على نحو ما نستجيب لها ، في وقت واحد ، ويتألف منها مجلس كمجلس الشيوخ ، مجلس منـاسب قليل التـكاليف ، يقترع دائماً بالاجماع على إقرار ما نعرض عليه من اقتراحات .

١٤٣

تمت رحلة تيجوكا . ولم يقع فيها إلا حـــادث سقوط ، لحظة نزلوا عن خيولهم . لم يسقط روبيان ، ولا باليا ، ولكن زوجة باليا — لا أدري ماذا راود ذهنها من أفكار — اخذت تضرب حصانها بالسوط حانقة ، فخاف الحصان فرماها الى الارض . وقد سقطت في خفة ورشاقة . لقد كانت رشيقة رائعة وهي في ثوبها الامازوني ، وكانت خليقة بان تغري الشيطان نفسه ... لو رآها عطيل على هذه الحال لما فاته أن يهتف قائلًا : « أيتها المقاتلة الجميلة » . أما روبيان فقد اكتفى بان دمدم يقول لها في أول الرحلة : « أنت ملاك ! » .

١٤٤

— أشعر بألم في ركبتي .

كذلك قالت صوفيا حين عادت الى البيت ، وكانت من جهة أخرى تعرج طوال الوقت . قال لها زوجها :

— أرني !

فلما وصلت الى غرفتها ، وضعت قدمها على مقعد صغير ، وأطلعت زوجها على الركبة الموجعة . كانت الركبة قد تورمت قليلًا – قليلًا جداً – وكانت صوفيا تأخذ بالتأوه إذا مُسّت ركبتها ، ومن أجل أن لا يسبب لها باليا مزيداً من الألم اكتفى بأن لامس بشفتيه موضع الوجع .

سألته صوفيا :

– ألم أكن في وضع غير لائق حين سقطت ؟

– لا ... ثم إن ثوبك طويل جداً ... لم نكد نرى إلا طرف القدم . صدقيني . لم يحدث شيء ذو بال ..

– أتحلف ؟

– ما أكثر تشكك يا صوفيا ! أحلف لك بأقدس شيء ، أحلف لك بضياء الشمس ، بسيدنا يسوع المسيح . هل اقتنعت الآن ؟

وكانت صوفيا تستر ركبتها .

– أرني مرة أخرى . أظن أن الصدمة بسيطة . ضعي على ركبتك قليلًا من المرهم . أرسلي من يسأل الصيدلي عن أحسن مرهم .

قالت وهي تحاول أن تخفض ثوبها :

– طيب .. طيب .. دعني أذهب لاخلع ثيابي .

ولكن باليا أخذ يطوف بصره في باقي ساق صوفيا ، حتى الموضع الذي يختفي تحت الحذاء . والحق أن هذه الساق التي كان جوربها الحريري يزيد في ظهور جمالها ، كانت آية من آيات الطبيعة ... وراح باليا ، على سبيل المزاح، يسأل امرأته هل تشعر بألم هنا أو بألم هناك أو هنالك أيضاً ، مشيراً الى الموضع بيده التي كانت تهبط شيئاً بعد شيء . إنها لو كشفت عن أي جزء من هذه الآيات حين سقطت ، لبهرت الأشجار والسماء جميعاً . كذلك قال باليا ، بينما كانت صوفيا تخفض تنورتها وتسحب قدمها عن المقعد . فأجابته قائلة :

– جائز . ولكن الأشجار والسماء لم تكن وحدها ، بل كانت هنالك عينا روبيان أيضاً .

– صحيح ... روبيان ! إنه لم يردد على مسامعك سخافات كتلك التي قالها في سانتا تيريزا ، اليس كذلك ؟

– أبداً . ولكن هل تحلف حقاً يا كرستيانو ؟

– أنت تريدين أن أشهد على أيماني شيئاً أقدسه دائماً ! لقد حلفت لك بالله فما اكتفيت . أحلف إذن بك . هل اقتنعت الآن ؟

ماذاك كله إلا حماقات مجين ... وخرج أخيراً من غرفة امرأته ، واتجه الى غرفته . ان هذا الخفر الوجل المرتاب يملؤه ارتياحاً : لقد برهنت له بذلك على أنها له وحده ، على أنها كلها له وحده . ولما كانت ملكه ، كان لابد له من أن يتصرف تصرف مالك كبير لا يكترث أي اكتراث بنظرة عارضة سريعة يلقيها أحد الناس على جزء مستتر من مملكته . حتى لقد أسف على أن الحادث لم يكشف الا عن طرف القدم ... ليس هذا الا مخفراً أمامياً على حدود المملكة .

ولكن الطلائع الاولى من هذه المملكة ، الطلائع التي تصل الى الموضع الذي اصيب عند القدم ، ربما كانت احسن دلالة على كنوز المملكة . . وبينما كان بالياً يغتسل بالصابون ويحك وجهه وعنقه ورأسه ، فوق إناء كبير من الفضة ، وينظف أسنانه بالفرشاة ، ويتنشق ويتعطر ، كان يحلو له ان يتصور الدهشة والرغبة اللتين كان يمكن أن يشعر بها هذا الرجل الوحيد الذي شهد الحادث ، لو أن الحادث قد كشف عن مزيد من ...

١٤٥

وفي هذه الفترة بالذات أغرق روبيان أصحابه جميعاً في حيرة ودهشة . فبعد نزهة تيجوكا بيومين (وكنا ايامئذ في شهر كانون الثاني من عام ١٨٧٠) طلب الى مزين في شارع أوفيدور أن يرسل اليه في الساعة التاسعة من صباح الغد من يحلق له لحيته . فجاءه في الموعد المضروب رجل فرنسي يقال له لوسيان كان في الماضي ضابطاً . فما أن وصل لوسيان حتى أدخله الخادم الى مكتب

سيده ، عملا بالأوامر التي أصدرها اليه .

– غررررر ...

كذلك صوت كونكاس بوربا الذي كان قابعاً على ركبتي روبيان . وحيا لوسيان رب البيت ، لكن هذا لم يفتبه له البتة ، لا ولا سمع غرغرة كونكاس بوربا . كان مستقراً على كرسي طويل – وهل يناسب الاحلام شيء أحسن من الاستقرار على كرسي طويل ؟ وكان قد طار بعيدا بعيدا . أما عدد الفراسخ التي قطعها في طيرانه ، فذلك ما لايستطيع أن يقوله باز ولا نسر ... والامر المحقق على كل حال هو أنه كان ماضياً الى القمر وأنه أصبح لايرى على هذه الارض الا الافراح الابدية التي اغرقته من المهد – حيث كان يحرسه موكب جنيات – الى أن صار على شاطيء بوتافوجو حيث حملته هذه الجنيات على بساط من ورد وياسمين ، فلا أثر للمصائب أو الاخفاق أو الفقر في هذه الحياة البعيدة المنسوجة من ذهب ولذة ... كان ماضيا الى القمر حقاً .

وألقى الحلاق نظرة على المكتب . فلفت نظره منضدة الكتابة التي كان عليها تمثالا نابوليون ولويس نابوليون . وفيما يتصل بلويس نابوليون كانت هنالك على الحائط أيضاً لوحة تمثل معركة سولفيرنيو ، وصورة للامبراطورة اوجينا .

وكان روبيان ينتعل خفين من الدمقس لهما حواف مذهبة ، وعلى رأسه قبعة يزينها شريط من حرير أسود . وكانت ترتسم على فمه ابتسامة سماوية كاللازورد .

١٤٦

– سيدي !

– غررررر ....

كذلك غرغر الكلب مرة أخرى وقد وقف الآن على ركبتي سيده .

فثاب روبيان الى الواقع ، ووجد نفسه أمام الحلاق أنفاً لأنف ، كان يعرف وجه الحلاق ، وقد لمحه منذ وقت قصير في دكان المزين . فنهض عن مقعده ، بينما كان الكلب ينبح كأنما هو يريد ان يحميه من الدخيل .

قال له روبيان :

– اهدأ . اسكت .

فخفض الكلب أذنيه وراح يندس وراء سلة الورق . وكان لوسيان يفض في اثناء ذلك أدواته .

قال بالفرنسية :

– ستفقد لحية جميلة . اعرف اناساً فعلوا ذلـــك ، ولكنهم فعلوه إرضاء للسيدات . لقد كنت نجي عدد كبير من الرجال المحترمين ...

فقاطعه روبيان بقوله :

– تماماً .

ولم يكن قد فهم من كلام الحلاق شيئاً . ذلك أنه رغم إلمامه ببعض مبادىء اللغة الفرنسية ، كان لا يحسن فهمها قراءة فكيف يحسن فهمها حديثاً ! ولكنه – وهذا وحده لا يخلو من عجب – لم يخبط في جوابه خبط عشواء ، وإنمـا وصلت إليه كلمات الحلاق مديحاً أو ثناء .. وأعجب من ذلك أنه حين أجـاب عنها بالبرتغالية كان يتخيل أنه يجيب بالفرنسية .

وعاد يقول :

– تماماً . أريد أن أرد إلى وجهي هيئته القديمة .

وإذ أشار باصبعه إلى تمثال نابوليون الثالث ، أجابه الحلاق بقوله :

– آ .. الامبراطور ! تمثال جميل حقاً . نعم نعم ، أثر فني رائع جداً . هل اشتريته من هنا يا سيدي ، أم استقدمته من باريز ؟ كلا التمثالين رائع . هذا هو الأول ، الكبير . لقد كان عبقرياً . وكان بلا خيانة ! آه من الخونة يا سيدي ، إن الخونة لأسوأ من قنابل أورسيني نفسها ..

– أورسيني ! ياله من شقي !

– لقد دفع الثمن غالياً .

– الثمن ، دفعه . ولكن لا القنابل ولا أورسيني تصمد لنجم رجل عظيم .

حين تضع القوة الخفيـة المسيطرة على مصير الشعب تاج الامبراطورية على رأس رجل عظيم ، فما من خيانة تصمد ..أورسيني ! ياله من غبي !

ولم يلبث الحلاق أن أخذ يقص لحية روبيان ، فلا يـدع له الا الشاربين والا كثة الشعر الصغيرة التي تميز ذقن نابوليون الثـالث . وكان كلما أمعن في قص اللحية ، كال لها المديح وأشاد بجمالها ، قائلاً ان قصّها تضحية كبيرة يقوم بها روبيان ..

فقاطعه روبيان بقوله :

– أيها الحلاق ، ما أنت الا ثرثار ! لقد قلت لك ماذا أريد . رُدّ الي وجهي القديم ! وأنظر الى التمثال يرشدك إلى ما يجب أن تفعله .

– طيّب ياسيدي . سأتبع تعليماتك ، وسترى ما سيكون من شبه .

وبعد فترة فرغ من اعمال المقص في لحية روبيان ، وأخـــذ يحلق خديه وجزءاً من ذقنه . ودامت المهمة زمناً طويلاً : فهو يتمهل في الحلق ويقـارن بين وجه صاحبنا ووجه التمثال ، فيلقي نظرة تارة على وجـه الرجل وأخرى على وجه التمثال ، حتى ليتقهقر في بعض الاحيـــان خطوتين الى وراء ليحسن الرؤية ، ينظر إلى هذا ثم ينظر الى ذاك ، ويسأل الرجل أن يلتفت الى هذه الجهـــة أو تلك ، ويمضي ليرى في التمثال ما ينـــاسب منهما لاحدى جهتي وجه روبيان .

سأل روبيان :

– هل يسير الأمر على ما يرام ؟

فطلب منه الحلاق باشارة من يده أن يسكت ، وتابع عمله . وعـاد يقلم كثة الشعر التي على الذقن ، من دون أن يمسّ الشاربين ، ثم أخذ يمعن في قصها مرة اخرى ، وقد ظهرت في وجهه علائم الرصـــانه والصداقة ؛ وعلائم الكلال . فما من زغبة في وجه روبيان أو ذقنه ، مهما تكن دقيقة لاترى ،

الأحيان من النظر إلى السقف بينما يقوم الحلاق بآخر مراحل عمله ، فيطلب اليه أن يمهله بضع دقائق ... وفيما هو يستريح ، كان يجسّ وجهه ، فيشعر بتغير ملمسه قال :

– الشاربان ليسا طويلين طولاً كافياً ...

– مايزال عليّ أن اسوي رأسيهما ، لقد جئت بالمكواة الصغيرة التي تجعّد الشعر من أجل أن أعقفهما فوق الشفة ؛ وسنعني بعد ذلك برأسيهما . آه .. إني لأوثر أن أقوم بعشرة أعمال ليس فيها تقليد ، على ان اقوم بعمل واحد من أعمال النسخ .

وانقضت عشر دقائق أخرى قبل أن يفرغ الحلاق من الشاربين والكثة تماماً . وانتهى العمل أخيراً . فوثب روبيان من مقعده ، وهرع الى المرآة في الحجرة المجاورة . حقاً إنه الأخ ، أو قل انهما شخص واحد ، أي أنه هو نفسه !

– تماماً !

كذلك قال وهو يعود من جديد الى حجرة عمله ، حيث كان الحلاق يداعب كونكاس بوربا بعد أن لمّ أدواته .

واتجه روبيان إلى منضدة الكتابة ، ففتح أحد الأدراج ، وأخرج منه ورقة نقدية بمبلغ عشرين الف رايش ، ومدّها الى الحلاق .

قال الحلاق :

– ليس معي نقود لأرد الباقي ...

فأجاب روبيان وهو يحرك يده في عظمة :

– ليس عليك أن ترد شيئاً . اقتطع منهـــا ماتدفعه لسيدك ، واحتفظ بالباقي لك أنت .

١٤٧

حين بقي روبيان وحده ، قعد على كرسي ، وأخذ يستعرض صوراً من أكثر الصور عظمة وفخامة . إنه الآن في بيارتس أو في كومبيين ، يصعب تحديد ذلك ... لعله في كومبيين ... استلم أزمة الدولة ، واستقبل الوزراء والسفراء ،

ورقص ، وتعشى ، وعمل أشياء أخرى كثيرة كان قد قرأها في الصحف وبقيت في ذاكرته . حتى نباح كونكاس بوربا لم يستطع أن يوقظه . لقد كان بعيداً كثير البعد ، عالياً شديد العلو ! لاشك ان كومبين تقع في منتصف الطريق الى القمر : لاشك أنه كان ماضياً إلى القمر !

١٤٨

وحين هبط من القمر سمع نباح الكلب ، وشعر في الوقت نفسة ببرودة في خديه . فهرع إلى المرآة ، ورأى أن تخليص وجهه من اللحية ليس بالأمر الذي لايناسبه ، وان يكن الفرق كبيراً بين وجهه الحليق ووجه الملتحي . وقد خلص جلساؤه الطفيليون الى هذه النتيجة نفسها . قالوا له :

– حقاً لقد أحسنت صنعاً ! وكان يجب أن تفعل هذا منذ زمن طويل .. لسنا نقصد أن اللحية الطويلة تجرد وجهك النبيل من أي شيء . ولكن وجهك مع احتفاظه بنبله ، قد أصبح الآن عصرياً .

– أصبح عصرياً ، نعم .

وذهل الناس في الخارج هذا الذهول نفسه . وأكدوا له صادقين أن هذا المظهر الجديد يناسبه أكثر من المظهر القديم . غير أن شخصاً واحداً هو الدكتور كاماشو ، ألقى في سمعه أنه ليس من المستحسن عامة أن يغير ملامح وجهه (وان كان يرى أن الشاربين وكثة الذقن تناسب صديقه جداً) : ذلك أن الوجه مرآة النفس ، فعلى الوجه أن يصور ما تمتاز به النفس من صلابة وثبات . وختم كلامه بقوله :

– لا أقول ما أقوله اشادة بنفسي .. ولكنك لن ترى في وجهي أي تبدل في يوم من الايام . فذلك عندي ضرورة أخلاقية . ان حياتي التي أضحي بها في سبيل المبادىء – ذلك انني لم أحاول يوماً أن أصالح بين المبادىء بل بين الاشخاص – أقول ان حياتي هذه هي صورة أمينة لوجهي ، والعكس صحيح .

فكان روبيان يصغي الى كلام صديقه في كثير من الجد ، ويهز راسه مؤيداً : نعم ، هذا صحيح ، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك . وشعر عندئذ أنه امبراطور الفرنسيين وقد أصبح مجهولاً . حتى نزل إلى الشارع عاد الى حقيقته . ان دانتي الذي رأى كثيراً من الامور العجيبة يؤكد أنه شهد في الجحيم معاقبة نفس فلورنسية التفت حولها أفعى طولها ستة أقدام وهصرتها حتى اصبح الرائي لا يعرف أهو أمام شخص واحد أم أمام شخصين . أما روبيان فقد كان اثنين . ان شخصه وامبراطور الفرنسيين لا يختلطان فيه ، بل يتعاقبان . حتى أن كلاً منهما ينسى الآخر . إنه حين يكون روبيان فحسب ، يكون ذلك الرجل العادي الذي نعرفه . حتى اذا ارتفع الى مقام امبراطور أصبح امبراطوراً فحسب . وكل واحد من الشخصين مكتف بنفسه كل الاكتفاء ، ولكنه مضاد للآخر .

١٤٩

سألته صوفيا حين جاء الى بيتها في آخر الاسبوع :

– ما هذا التبدل ؟

فأجابها بقوله :

– جئت أسأل عن ركبتك ، هل تحسنت ؟

– تحسنت . شكراً .

الوقت هو الثانية بعد الظهر . وكانت صوفيا تنتهي من استعدادها للخروج حين قالت لها الخادم ان روبيان هناك ، ولكن وجهه قد بلغ من التبدل أن من يراه يحسبه شخصاً آخر . فنزلت صوفيا لتراه وقد امتلأت فضولاً ، فوجدته واقفاً في الصالون ينظر في بطاقات الزيارة .

كررت تقول :

– ولكن ما هذا التبدل ؟

فأجابها ، وقد هجر كل شعور امبراطوري ، بأنه قدّر أن الشاربين والكثة الصغيرة أنسب له ، وختم كلامه قائلاً :

– أم ترين انني ازددت دمامة ؟

– بل ازددت جمالاً .

وقالت صوفيا بينها وبين نفسها انها قد تكون السبب في هـــذا التبدل . وجلست على الأريكة ، وأخذت تلبس قفازيها .

سألها روبيان :

– أأنت خارجة ؟

– نعم ، ولكن العربة لم تصل بعد .

وأفلت أحد القفازين من يديها . فمال روبيان يريد أن يلتقطه ، ومالت هي أيضاً ، فأمسكا بالقفاز معاً ، وإذ أرادا كلاهما أن يلتقطاه اصطدم وجهاهما ولمس أنف روبيان أنف صوفيا . إلا أن شفاهما لم تتلامس ، وظلت اذن حرة طليقة تستطيع أن تضحك ، وهذا ما فعلاه .

– هل أوجعتك ؟

– لا ... هل أوجعتك أنا ؟

وأخذا يضحكان من جديد . ولبست صوفيا قفازها . وحدّق روبيان الى قدم من قدمي صوفيا كان يتحرك في مكر ، الى أن جاء الخادم يعلن أن العربة قد وصلت . فنهضا ، وضحكا مرة أخرى .

١٥٠

وحين خرجت صوفيا ، فتح السائق باب المركبة الفخمة ، في كثير من التأدب خافضاً قبعته إلى تحت . وقدم لها روبيان ذراعه ليساعدها على الصعود، فقبلت أن تتناولها وركبت .

– والآن ، الى ...

ولم تستطع أن تكمل جملتها ، فقد دخل روبيان في اثرها وجلس إلى جانبها . وأغلق السائق باب العربة ، وتساق الى مقعده ، وتحركت المركبة .

١٥١

تم ذلك كله بسرعة كبيرة أرتج معها على صوفيا خلال بضع لحظـــات .

ولكنها لم تلبث أن ثابت الى نفسها فقالت :

– ما هذا ؟ أقف العربة يا سيد روبيان .

– أقف العربة ؟ أما قلت لي انك خارجة وإنك كنت تنتظرين العربة ؟

– ما كنت أريد أن أخرج معك . ألا ترى أن ... أقف العربة...

وأرادت أن تأمر السائق بالوقوف وقد بلغ بها الارتباك كل مبلغ . لكن خوفها من حدوث فضيحة هو الذي صدها عن ذلك في آخر لحظة . ان المركبة تدخل الآن في شارع بلا دا برنيزا . وطلبت صوفيا من روبيان مرة أخرى أن يدرك أنه ليس من اللائق أن يكونا معاً على هذه الصورة أمام الله وأمام الناس جميعاً ... فاحترم روبيان وسواسها واقترح اسدال الستائر .. وقال شارحاً :

– لا ضير في أن يرانا الناس معاً . ولكن أحداً لن يرانا إذا نحن أسدلنا الستائر . هل يرضيك هذا ؟

ودون أن ينتظر الجواب ، أسدل ستائر كل جهة من جهات العربة ، فصارا بذلك وحيدين ، يستطيعان أن يريا المارة من الداخل ، ولا يستطيع احد أن يراهما من الخارج . انهما الآن وحيدان ، وحيدان تماماً ، كما كانا يوم صب عليها روبيان ، في بيتها ، جام غضبه ، في مثل هذه الساعة . ولكن المرأة الشابة كانت في بيتها طليقة الحركات على الاقل ، أما الآن ، في هذه العربة المغلقة ، فهي تتساءل عما عسى يحدث ...

وفي أثناء ذلك كان روبيان يستقر في مكانه مرتاحاً ولا ينبس بكلمة .

١٥٢

لطت صوفيا في زاوية العربة . وكان يمكن أن يفسر ذلك بغرابة الموقف أو حتى بالخوف وحده ، ولكن الواقع ان هذا الرجل لم يوقظ في نفسها يوماً كل مايوقظه الآن من كره أو اشمئزاز أو قل إذا شئت من شعور – ماذا أقول حتى لا أجرح أحداً – من شعور أقل إيذاء يمكن أن يقال عليه انه مجرد تناف بين بشرتيها .

أين الاحلام التي كانت تصوغها قبل أيام قليلة ؟ أنكم تذكرون رحلتها الى تيجوكا ، وخلوتها هنالك ، وتذكرون كيف عدت معه على صهوة جوادهـا في الجبل ، وكيف نزلت عن حصانها ، وكيف سمعت منه كلمات الحب ، بـل وكيف شعرت بقبلة طبعها على ثغرها . أين النظرات الناعسة ، واليدان المتلاطفتان والساقان المرتعشتان ، والكلمات الرقيقة ، والاذنان المتأهبتان للصفح سلفاً ؟ لقد نسيت صوفيا كل شيء ، واختفى من نفسها كل شيء ، في هذه اللحظة التي أصبحا فيها في العربة وحيدين حقاً مهددين بفضيحة .

واستمرت الخيل تتقدم وهي تضرب الارض بحوافرها في ايقـاع ، وتقود العربة على طول شارع بيللا دابرنسيزا . ماعساها تفعل حين تصل الى الكاتيتي ؟ أتذهب الى مركز المدينة معه ؟ وخطر لهاعندئذ أن تذهب الى احدى صديقاتها: تتركه في العربة ، وتقول للسائق أن يتابع طريقه ، ثم تقص على زوجها كل شيء . وفي وسط القلق الشديد أخذت تنبثق في ذهنها على حين فجأة ذكريات لاقيمة لها ، أو ذكريات لاتمت الى الموقف الراهن بصلة من الصلات : نبأ عن سرقة مجوهرات قرأته في الصحف هذا الصباح ، الاعصار الذي هب البارحة ، شكل قبعة من القبعات ، ومالا أدري أيضاً ... لكنها انتهت أخيرا الى أن استولى على ذهنها خاطر واحد هو هذا التساؤل ؟ ما الذي سيقوله لها روبيان ؟ ولاحظت انه لايزال ينظر امامه صامتاً ، وقد اسند ذقنه الى قبضة عصاه . الحق ان هذا الوضع الهادىء الرصين الذي يكاد يعبر عن قلة الاكتراث مناسب له . ولكن لماذا صعد الى العربة ؟ وأرادت صوفيا أن تقطع الصمت ، حتى لقد تحركت يديها مرتين في اضطراب . انها تكاد تغتاظ من هدوء روبيان ، الذي لايمكن تفسير فعلته هذه الا بغرامه القديم القوي . وأخذت تتصور بعد ذلك انه الآن نادم على مافعل ، فلم تلبث أن قالت له ذلك ، فما كان منه الا أن اجابها وهو يلتفت اليها :

ـ لا أرى أن هناك مايمكن أن أندم عليه . فحين قلت لي انه لايحسن

أن يرانا الناس معاً على هذه الحال أسدلت الستائر . انني لم أوافقك على رأيك ولكنني أطعت أوامرك .

فقاطعته صوفيا قائلة :

– وصلنا إلى الكاتيتي . هل تريد أن أنزلك عند بيتك ؟ اننا لانستطيع ان نمضي معاً الى مركز المدينة .

– نستطيع ان نضرب في الارض على غير هدى .

– كيف ؟

– نعم ، على غير هدى ، تتابع الخيل تقدمها ، ونستطيع أن نتحدث في هدوء من دون أن يسمعنا أحد ، ومن دون أن يحزر أحد أن ..

– لا تكلمني هكذا ، ناشدتك الله . دعني . أخرج من هذه العربة .. والا نزلت أنا في هذا المكان نفسه ، وتركتك تتدبر الامر وحدك . ثم ما الذي تريد أن تقوله لي ؟ تكفي دقائق معدودة .. أنظر .. لقد انعطفنا نحو مركز المدينة .. قل للسائق أن يذهب إلى بوتافوجو ، فتنزل عند باب بيتك ...

– لقد خرجت من بيتي منذ برهة قصيرة ، وأريد أن أذهب الى مركز المدينة . أي خير في أن توصليني الى هناك ؟ أما اذا كنت تخشين أن يرانا الناس ، فسأنزل في أي مكان ، سأنزل عند شاطيء سانتا لوزيا مثلاً ، من جهة البحر ..

– الافضل أن تنزل هنا حالاً .

– ولكن لماذا لا يمكننا أن نمضي حتى مركز المدينة ؟

– لا ، لا ، مستحيل . أناشدك بأقدس ما عندك .. دعنا من الفضائح . ما الذي يجب أن أفعله حتى تستجيب لهذا الرجاء البسيط ؟ هل تريد أن أركع لك ضارعة في هذه اللحظة ؟

قالت ذلك وأخذت تثني ركبتيها فعلاً رغم ضيق المكان ، لكن روبيان أسرع ينهضها ، قائلاً لها في لطف :

– لا .. ليس من الضروري أن تركعي .

– شكراً . أناشدك الله ، أناشدك بأمك التي في السماء ..

– لا شك أنها في السماء . لقد كانت امرأة قديسة . الأمهات جميعاً طيبات . ولكن الذين عرفوا أمي لا يستطيعون الا أن يصفوها بالقداسة . أمثالها قلة قليلة : كانت ممتازة في كل شيء . يا لها من ربة بيت ، مثلاً ؟ كان يستوي عندها أن يكون الضيوف خمسة أو خمسين . انها تُعنى بكل شيء في اللحظة المناسبة . ثم لقد اشتهرت بهذا ! وكان الخدم ينادونها : « سيدتنا الأم » ، لأنها كانت في الحق أماً لجميع الناس . نعم ، لاشك أنها في السماء .

قاطعته صوفيا قائلة :

– طيب ، طيب . أناشدك إذن بأمك الا فعلت . أأنت موافق ؟

– أفعل ماذا ؟

– تنزل .

– ثم أذهب الى مركز المدينة سيراً على الأقدام ؟ لا ، مستحيل . حقاً انك لغريبة الاطوار . ألم أقل لك إنه لا يرانا أحد . ثم ان خيلك رائعة . هل تلاحظين مشيتها الجميلة ، الرصينة .. تيك .. تاك .. تيك .. تاك .

وكلَّت صوفيا من التوسل اليه ، فصمتت ، وكتفت ذراعيها ، وبالغت في الابتعاد الى زاوية العربة ، ما وسعها ذلك .

قالت لنفسها : « الآن عرفت ماذا أصنع . سأوقف العربة على باب مخزن كرستيانو . فأقول له كيف دخل هـذا الرجل الى العربة وكيف توسلت اليه أن ينزل ، وما الذي أجابني به . ذلك خير من انزاله سراً في أي شارع » .

وظل روبيان هادئاً هدوءه ذاك . وكان من حين الى حين يدير خاتم إصبعه ، وهو خاتم رائع ذو فص كبير من الماس . إنه لا ينظر الى صوفيا ، ولا يقول لها شيئاً ، ولا يسألها عن شيء . إنهما الآن أشبه بزوجين يشعران بسأم عميق . وأصبحت صوفيا حائرة في فهم السبب الذي دفعـه الى ركوب العربة . لا يمكن أن يكون السبب رغبته في الانتقال الى حيث كان يريد

أن يذهب ؟ لا ولا يمكن أن يكون حب الظهور : لقد اسدل الستائر منذ أعلنت له استياءها من أن ترى وحيدة معه . ثم إنه لا يلاطفها بكلمة واحدة ، ولا يلمح الى ما يكنّها لها من حب بعيداً كان تلميحه أو خجلاً ، ولا يتوسل اليها ولا يتضرع .. إنه حقاً شخص لا يمكن فهمه ، شخص شاذ غريب !

١٥٣

قال روبيان فجأة :

– صوفيا ..

ثم أردف بعد برهة قصيرة :

– الأيام يا صوفيا تمضي ، ولكن ما من رجل ينسى المرأة التي أحبها حقاً ، والا فانه لا يستحق أن يسمى رجلاً . إن حبنا لن يُنسى : لن أنساه أنا طبعاً ، ويقيني أنك لن تنسيه أنت . لقد منحتني يا صوفيا كل شيء ، وعرضت حياتك نفسها للهلاك في سبيل ذلك . صحيح يا جميلتي أنني كنت سأثأر لك لو قتلوك ، واذا كان الثأر يفرح الموتى ، فلا شك أنك كنت ستشعرين بأعظم لذة . ولكن نجمي قد حمانا لحسن الحظ ، فاستطعنا أن نتحاب دون أن تقوم عقبات ودون أن تراق دماء ..

وكانت المرأة الشابة تصغي اليه مشدوهة . وتابع كلامه يقول :

– لاتقلقي ، فلن نفترق . لا ، لا ، لست أفاتحك في أمر الفراق . لاتقولي ان فراقنا سيجهز عليك . انني أعلم أنك ستذرفين كل مافي عينيك من دموع اذا افترقنا . ولن أبكي أنا – لأنني لم اجيء الى هذا العالم من اجل ان ابكي – ولكن هذا لا ينفي ان لوعتي ستكون كبيرة . بل ان الأحزان التي يحبسها المرء في قلبه اشد ايلاماً من غيرها . فالدموع تحسن الى صاحبها لأنها تخفف عنه . وان أقول لك هذا الكلام ياعزيزتي ، لأن علينا ان نلتزم الحذر الذي قد ينسيناه ما يضطرم في نفسينا من هوى لايشبع . لقد تعرضنا لمخاطر كثيرة ياصوفيا . واذ أن كلاً منا قد خلق للآخر ، فقد يوهمنا ذلك أننا زوجان ، وبهذا نتعرض

المخاطر . اسمعي ياعزيزتي ، اسمعي ياقلب قلبي ... ان الحياة جميلة ! ان الحياة عظيمة ! ان الحياة رائعة ! ولكن مامن كلمة يمكن أن تفصح عن كل ماأشعر به حين أكون معك ؟ هل تذكرين موعدنا الأول ؟

قال روبيان هذه الكلمات الأخيرة وهمّ أن يتناول يدها لكن صوفيا تراجعت في الوقت المناسب . لقد اشتدت حيرتها ، وأصبحت لاتفهم من الامر شيئاً ، وأخذت تشعر بخوف . وصوت روبيان ماينفك يزداد دويّه قوة ، حتى صار يمكن أن يسمع الحوذي شيئاً من كلامه ... وفي هذه اللحظة انما راودتها هذه الشبهة : قالت في نفسها : ربما كان روبيان يقصد أن يسمع الحوذي كلامه ، ليكون التخويف وسيلة للتضييق عليها ، او ليشهّر بها الناس . وتمنت أن تهجم عليه ، وتمنت أن تستغيث ، وأن تخرج من هذا الموقف بفضيحة . لكن روبيان استأنف يقول بعد برهة قصيرة من صمت :

— أما أنا فاذكر موعدنا الاول ذاك ، كأنه كان بالأمس . لقد وصلت على عربة . ليست هي هذه العربة . كانت عربة مستأجرة . ونزلت منها وجلة كل الوجل ، وقد حجبت وجهك بنقاب . كنت ترتعشين ارتعاش ورقة في مهب الريح ... لكنك لم تلبثي أن لجأت إلى ذراعي تعتصمين بها . كان على الشمس أن تقف في ذلك اليوم ، كما وقفت ليشوع ... ومع ذلك بدت لي تلك الساعات ، يا ملاكي ، طويلة طويلة ، لا أدري لماذا ! كان يجب أن تبدو لنا قصيرة ، أليس كذلك ؟ لعل مرد هذا إلى أن حبنا كان لا ينضب ، وما يزال لا ينضب ، وسيظل لا ينضب ... أما الشمس فسرعان ما اختفت : لقد غابت في الجهة الثانية من الجبال حين خرجت حبيبتي صوفيا إلى الشارع وجلة ، وركبت عربة أخرى . أكانت عربة أخرى أم كانت العربة الاولى نفسها ؟ أحسب أنها كانت العربة الأولى نفسها . لا تستطيعين أن تتصوري الحالة التي تركتني عليها . كنت كالمجنون . قبلت كل ما أصبته بلمس . قبلت حتى عتبة الباب . أظن أنني حدثتك عن هذا كله قبل الآن . عتبة الباب ! وأوشكت ، أوشكت أن أزحف زحفاً لأقبل درجات السلّم ...

لكنني لم أفعل ، بل رجعت الى البيت ، وأوصدت الباب بالمفتاح حتى احتفظ بعطرك كله ، كان عطر بنفسج ، إذا صدقت ذاكرتي ...

لا .. يستحيل أن يكون قصد روبيان أن يوهم الحوذي بصدق هذه المغامرة الكاذبة . إن روبيان يتحدث بصوت بلغ من الخفوت والعمق أن صوفيا تكاد لا تسمعه . ولئن عجزت عن سماعه واضحاً ، لقد كانت عن فهم معناه أعجز . ما هذه القصة التي لم تحدث يوماً ؟ ولو سمعها سامع مع ذلك لاعتقد أنها صادقة من أول كلمة الى آخر كلمة ... فقد كان روبيان يرويها بلهجة تبلغ مبلغاً من الصدق ، والعاطفة ، والاحتمال ، حتى في أدق التفاصيل ... وتابع روبيان يكشف عن مكنونات قلبه ، ويدمدم لها بذكريات لم توجد يوماً إلا أحلامه !

وهتفت صوفيا آخر الأمر تقول :

— ولكن ما معنى هذا المزاح ؟

فلم يجبها صاحبنا ، لأن رؤيا جديدة قد خطرت عندئذ أمام بصره ، حتى أنه لم يسمع السؤال . وتابع حديثه . أخذ يتحدث عن حفلة موسيقية للفنان جوتشالك . كان العازف العظيم يعزف لحناً عاطفياً ، وكانا يصغيان اليه معاً حين علّق شيطان الموسيقى نظر كلٍ منهما بنظر صاحبه ، فإذا بكل ما عدا ذلك يختفي من الوجود عندهما . حتى إذا وقفت الموسيقى ، وانطلق التصفيق ، ارتدا إلى الواقع . أسفاً ! لقد ارتدا إلى الواقع فاذا باليا ينظر اليهما نظرة نمر مفترس ! لقد ظن روبيان في تلك الليلة أن زوجها سيقتلها .

— سيدي روبيان !..

— لا ، لا تناديني نابوليون . قولي لويس . أنا « لويسك » ، أليس كذلك أيتها المخلوقة الجميلة ؟ أنا « لويسكِ » ، « لويسكِ » أنت . قولي : يا لويسي ، يا لويسي العزيز . ليتك تعرفين اللذة التي أشعر بها حين أسمعك تنطقين بهذه الكلمة « لويسي » . وأنت ، أنت صوفياي ، صوفياي الحلوة العذبة ، صوفيا قلبي الفاتنة . ولكن ما لنا نضيّع هذه اللحظات الثمينة سُدىً ؟ هلاّ قلنا أشياء عاطفية ،

ولكن بصوت خافت ، خافت جداً ، حتى لا يسمعنا هؤلاء الأوغـاد القابعون على المقعد أمامنا ؟ لماذا وجد الحوذيون على هذه الأرض ؟ لو كانت العربة تسير من تلقاء نفسها ، لاستطعنا أن نتحدث كما نشاء ، وأن نمضي على هذه الصورة الى آخر العالم .

وكانا قد أخذا يقطعان شارع باسيو بوبليكو . ان صوفيا لم تنتبه لذلك ، فقد كانت تحدق الى روبيان . إن هذا الهذيان لا يمكن أن يكون صادراً عن رجل راغب في تعذيبها ، لا ولا يمكن أن يصدر عن رجل محب للمزاح . انه هذيان. نعم انه هذيان . ان فيه لنبرة صدق .. كشخص يرى أو رأى ما يرويه .

قالت المرأة الشابة بينها وبـــين نفسها : « يجب أن أنزله » . ثم تسلحت بالشجاعة وسألته :

– أين نحن ؟ أظن أنه آن لنا أن نفترق . أنظر من هذه الجهة . أين نحن ؟ أحسب أنه الدير . نحن إذن في ساحة آجودا . قل للحوذي أن يقف ، أو انزل في ساحة كاريوكا إذا كنت تؤثر ذلك . ان زوجي ..

– سأعينه سفيراً . أو أعينه عضواً في مجلس الشيوخ . كما يريد . والافضل أن يكون عضواً في مجلس الشيوخ فبذلك تبقيان كلاكما هنا . اذا جعلته سفيراً فلن أوافق على أن تصحبيه .. وهناك ألسنة السوء .. انك تعرفين المعارضـة التي عليّ أن أواجهها ، وتعلمين أنواع الغيبة والنميمة التي يمكن أن يلوكها الناس .. آه من هؤلاء الاشرار ! هل قلت : دير آجودا ؟ مالك وللدير ؟ أتريدين أن تترهبي ؟

– بل قلت اننا مررنا أمام دير آجودا . فهل اتركك في ساحة كاريوكا . أم نذهب الى مخزن زوجي ؟

مرة أخرى بدا لصوفيا أن هذا الحل الثاني أفضل ، فهو لا يفسح للحوذي مجال الريب والاشتباه ، وهو يصلح لاقامـــة البرهان لباليا على براءتهـا ، حين تروي له كل شيء ، منذ دخل روبيان الى العربة بغتة حتى مشهد الهذيان الأخير . ولكن ما سر هذا الهذيان ؟ وتصورت أنها ربما كانت هي السبب في

هذا الهذيان ، فجعلها هذا التصور تبتسم شفقة ورأفة .

قال روبيان :

– لماذا ؟ سانزل هنا . ذلك أبعد عن الشبهة . علام نوقظ في نفسه الشكوك ، فنحمله على أن يسيء معاملتك بعد ذلك ؟ صحيح أن في وسعي أن أعاقبه ان هو فعل ، ولكن ذلك لن يحررني أبداً من عذاب الضمير الذي سأشعر به نتيجة ما سببت لك من أذى . لا ، لا ، ياملاكي المقدس ! ولكن ثقي أنني قادر على أن أزيل الهواء نفسه من الفضاء إذا هو اجترأ على لمسك لأنه يكون عندئذ هواء سيئاً . إنك يا صوفيا لا تعرفين بعد كل ما أملك من قدرة . اعترفي بذلك .

واذ لم تعترف صوفيا بشيء ، أخذ روبيان يشيد بجمالها ، ثم قدم لها الخاتم الماسي الذي كان في اصبعه . ولكن صوفيا ، رغم حبها للمجوهرات ورغم ما كان يضطرم في نفسها من شوق الى امتلاك خاتم ذي فص وحيد من الماس ، رفضت هذا العرض في وجل .

قال روبيان :

– انني أفهم ترددك . ولكن رفضك هذا لن يضيّع عليك شيئاً . ذلك أنك ستتلقين خاتماً آخر أجمل من هذا أيضاً ، وستتلقينه من يد زوجك .. لسوف أجعلك دوقة . هل سمعت ؟ سوف أخلع عليه هذا اللقب . ولكنني سأفعل هذا من أجلك أنت . دوق .. دوق ماذا ؟ سأحاول أن أجد له لقباً جميلا . بل أدع لك أنت أن تختاري اللقب الذي تشائيه ، لأنني انما أفعل ذلك من أجلك أنت ، لا من أجله هو ، ياوردتي . وليس عليك أن تختاري فوراً ، فكري في الأمر حين تعودين الى المنزل . واياك والخجل الزائف . ما عليك الا أن تبلغيني اللقب الذي تؤثرين حتى أبعث بالمرسوم حالاً . وفي وسعك أيضاً أن تفعلي شيئاً آخر : تختارين اللقب وتذكرينه لي أثناء لقائنا القادم في المكان المعهود . أريد أن أكون أول من يناديك دوقة : أيتها الدوقة العزيزة . ثم يصل المرسوم بعد ذلك . يا دوقة قلبي !

قالت كالتائهة :

– نعم نعم . ولكن فلنقل للسائق أن يذهب بنا الى كرستيانو .

– لا بل أنزل هنا . قف ! قف !

وأزاح روبيان الستائر ، وجاء السائق يفتح له الباب . ومن أجل أن تجنب صوفيا ذهن السائق أي ارتياب ، طلبت من روبيان مرة أخرى أن يرافقها حتى مخزن زوجها ، وقالت له ان زوجها يريد أن يحدثه في أمر مستعجل . فنظر اليها روبيان بشيء من الدهشة ، ثم ألقى نظرة على السائق وعلى الشارع ، ورفض أخيراً أن يستجيب لطلب صوفيا قائلاً إنه سيذهب اليه في وقت آخر .

١٥٤

ما إن افترقا حتى قامت في نفسيهما عواطف متناقضة كل التناقض .

أما روبيان فانه حين أصبح في الشارع التفت ذات اليمين وذات الشمال ، وعاوده الاحساس بالواقع ، وتبدد هذيانه شيئاً فشيئاً . إنه يسير ويقف أمام احد الحوانيت ، ويجتاز الشارع ، ويعترض شخصاً من معارفه يسأله عن الانباء وعن رأيه في الموقف الراهن ، ويحاول على غير شعور أن يطرد من ذهنه ذاته الأخرى التي كانت له منذ قليل .

وأما صوفيا فقد حدث لها نقيض ذلك . انها بعد أن انقضت لحظات أولى شعرت خلالها بالخوف والذهول ، غرقت في احلام عميقة . وليتكم تعلمون كم ايقظت تخيلات روبيان في نفسها من حنين : حنين الى ماذا ؟ لعله « حنين الى الجنة » كما كان يقول الأب برناردیس متحدثاً عن توقان المسيحي الطيب . وهي في مثل هذا لا تعوزها الأسماء !

ذلك تفصيل شائق ، أليس كذلك ؟ وراحت صوفيا تستعرض بخيالها العربة العتيقة التي ركبتها على عجل وخرجت منها مرتعشة لتصعد خلسة على سلم ينتظرها في أعلاه رجل تمتم لها بأجمل ما في العالم من كلمات الحب ، ثم ردّد هذه الكلمات على مسامعها منذ قليل وهو الى جانبها في هذه العربة نفسها . ولكنه لم يكن

روبيان ، لا يمكن أن يكون روبيان . فمن كان اذن ؟ قلت لكم إنها في هذا الأمر لا تعوزها الأسماء .

١٥٥

لم يلبث نبأ جنون روبيان أن ذاع في الناس . وكان بعضهم يلقاه وهو في غير حالات هذيانه ، فيريد أن يتحقق من صدق الشائعة التي تتناقلها الألسن ، فيدير الحديث على شؤون فرنسا والامبراطور ، فإذا بصاحبنا روبيان يتردى في هوة الجنون من جديد ، فينفض عنه محدثوه وقد اقتنعوا بصدق الشائعة .

١٥٦

وانقضت بضعة أشهر وشبت الحرب الفرنسية البروسية ، فكانت نوبات روبيان تتفاقم شيئاً بعد شيء ، وتتكاثر يوماً بعد يوم . فاذا وصل بريد أوروبا في وقت مبكر ، رأينا روبيان يخرج من بوتافوجو قبل الإفطار ويهرع ينتظر الجرائد . كان يشتري جريدة « مراسلات البرتغال » ، ويمضي يقرؤها في كارسلبر . وأية كانت الأنباء ، فانه كان يؤولها على أنها انتصارات . كان يعدّ عـــدد الموتى والجرحى ، فيجد أنه هو المتفوق . سقوط نابوليون الثالث ، فهمه على أنه وقوع الملك غليوم في الأسر ؛ وثورة ٤ ايلول ، فهمها على أنها مائدة أولمها البونابارتيون.

وفي بيته كان ضيوفه المعهودون لا يجسرون على أن يبددوا ضلاله ، ولكنهم في الوقت نفسه لا يشاركون في عبثه ، لأنهم يستحيون بعضهم من بعض ، فهم يبتسمون ويغيرون الحديث . غير أن روبيان قد رفعهم جميعـــاً الى مناصب عسكرية عالية ، فهذا مارشال توريس ، وهذا مارشال بيو ، وهـــذا مارشال ريبيرو ، وكان لا يفوتهم أن يستجيبوا لألقابهم هذه . إن روبيان لا يراهم الا في ملابسهم العسكرية . وهو يصدر إليهم أمره باستكشاف مواقع العدو أو أن يقوموا بهجوم ، لكنهم لم يكونوا في حاجـة الى الخروج من أجل أن يطيعوا أوامره ، فلقد كان كل شيء يتم في دماغ المضيف . فاذا ترك روبيان ساحـة

المعركة وعاد الى مكانه على المائدة ، رأى المائدة مختلفة كل الاختلاف . ورغم أن الأدوات الفضية وأطباق القيشاني والبلور لم يبق منها شيء فان المائدة تبدو له فخمة فخامة ملكية . انه يرفع الفراريج الفقيرة المزيلة الى مقام الديكة البرية الكبيرة . واللحوم المفرومة العادية والمتبلات البسيطة الكريهة لها في منخريه أريج الأطعمة اللذيذة الذكية . وكان ضيوفه الطفيليون يرون ما آلت اليه حال المائدة ، ولا يفوتهم أن يعلقوا فيما بينهم على هذا الإهمال أو أن يلفتوا إليه نظر الطباخ. ولكن ماذا يمكن أن يعمل المرء حين يكون داعيه لوكولوس ؟ هذا الى أن المنزل كله ، وقد أفسده الزمن والتهاون (لم يبق ثمة الا سجاد مبقع وأثاث مكسّر وستائر رثة ...) كان لا يبدو لروبيان على حقيقتـــه ، بل يكتسي في نظره مظهراً لا مثيل له من مظاهر الأبهة والترف ! وحتى لغة روبيان قد تغيرت فأصبحت أكثر تقعراً وتصنعاً . وكذلك أفكاره التي غدا بعضها خارقاً للمألوف كأفكار صديقه الراحل كونكاس بوربا : ان تلك النظريات التي لم يفهم منها شيئاً حين سمعها في بارباسينا أصبح الآن يرددها في جلاء بل وفي اقتناع ، مستعملاً في بعض الأحيان عبارات صاحبه الفيلسوف نفسها . كيف نعلل ترديده أمورا كانت غامضة في ذهنه ذلك الغموض كله ، كيف نعلل علمه بأمور كان يعجز عن فهمها ذلك العجز كله ، بينما كان يبدو أن تلك الألفاظ وتلك النظريات جميعاً قد ذرتها الرياح ؟ وكيف كانت هذه الذكريات كلها تختفي حين يعود روبيان الى وعيه .

١٥٧

ان الشفقة التي شعرت بها صوفيا نحو روبيان ــ بعد أن علمت مرضه بحبه لها ــ كانت شعوراً مخففاً معتدلاً ، فلا هي بالعطف المحض ولا هي بالانانـــية الغاضبة ، بل هي مزيج من الأمرين معاً . حسبها أن تتحاشى تكرر وضع شبيه بالوضع الذي تم في العربة ، حتى تجري الأمور كلها على مايرام . ان صوفيا تصغي اليه بانتباه وتتحدث اليه باهتمام حين يكون في حالات صحوه ، لاسيما وان

مرضه الذي كان يبث فيه كثيراً من الجرأة في ساعات الهذيان كان يضاعف خجله في الحالة الطبيعية . وهي لاتبتسم كما يبتسم باليا حين يرتقي روبيان العرش أو حين يقود جيشاً . كانت تعتقد أنها سبب مرضه ، وهي لذلك تغفر له كل شيء فاذا تصورت أنه أحبها حقاً الى حد الجنون ، جعله هذا التصور في نظرها مقدساً .

١٥٨

— لماذا لايعالج ؟ قد يشفى .

كذلك قالت دونا فرناندا ذات مساء ، وكانت قد عرفت روبيان في منزل أسرة باليا قبل ذلك بسنة . فأجاب باليا بقوله :

— ما أظن الأمر خطيراً . صحيح أنه يعاني نوبات من الهذيان ، لكنها نوبات هادئة كما رأيت تراوده أفكار عظيمة ماتلبث أن تنقضي . لاحظي من جهة أخرى أن كلامه سوي تماماً على كل حال ، ربما ... مارأيك ياسيدي ؟

«أجاب تيوفيلو ، زوج دونا فرناندا ، قائلًا إن ذلك ممكن . وأردف يسأل :

— ماذا كان يعمل ، وماذا يعمل الآن ؟

— لاشيء ، لا الآن ولا من قبل ! كان غنياً ، ولكنه كان مبـــذرا متلافاً . وقد عرفناه عند وصوله من ميناس ، وكنا له اشبه بالمرشدين في ريو دي جانيرو التي لم يكن قد عاد اليها منذ سنين طويلة ، رجـل شهم . وهو يحيط نفسه دائماً بأكبر مظاهر الرخاء والترف ، هل تتذكر ؟ ولكن مامن ثروة إلا وتنضب حين يبذر رأس المال وذلك مافعله . وأظن أنـه لم يبق له الآن كبير شيء ...

— ربما كنت تستطيع أن تنقذ له القليل الباقي ، بتعيين نفسك وصياً على أمواله أثناء معالجته . لست طبيباً ، ولكنني أحسب أن شفاء صديقك يجب أن لايكون مستحيلا .

– لا أقول لا . إن ذلك لخسارة حقاً ... ان له أيادي جميلة على جميع الناس ، وهو لايفكر الا في اسداء الخدمات لمن هم في حاجة إليها . هل تعرف انه أوشك أن يكون نسيبنا ؟ نعم لقد أراد أن يتزوج ماريا بنديكتا .

قاطعت دونا فرناندا تقول :

– على ذكر ماريا بنديكتا ، أوشكت أن أنسى أنني أحمل رسالة منها ، يجب أن أطلع عليها زوجتك . لقد تلقيت الرسالة أمس . لابد أنكم تعلمون أنهما عائدان قريباً . هذه هي الرسالة .

ومدت الرسالة الى صوفيا ، ففضتها هذه في غير حماسة ، وقرأتها في ضجر . انها ليست رسالة مبتذلة كتلك التي يرسلها الناس عامة أثناء السفر ، وانما هي رسالة تفضي فيها ماريا بنديكتا بذات نفسها في ثقة : هي نجوى صميمة كاملة تصدر عن نفس سعيدة تعترف بالجميل ... ان ماريا تروي المراحل الأخيرة من رحلتها بقليل من الاضطراب لأن المسافرين هما اللذان يحتلان من الحديث منزلة الصدارة ، ولأن اجمل التحف الفنية التي ابتدعها الانسان أو التي ترى في الطبيعة لم تكن في رسالتها شيئاً بالقياس الى الاعين التي تراها . رب حادث بسيط وقع في الفندق أو الشارع يحتل في الرسالة من المكان والاهتمام أكثر مما يحتل غيره ، لا لشيء الا لأنه فرصة تنتهزها ماريا بنديكتا لإبراز مزايا زوجها ! ان ماريا بنديكتا ماتزال تحب زوجها كما احبته في أول يوم ، ان لم يكن أكثر . وفي حاشية بذيل الرسالة تعلن ماريا بنديكتا في خجل ، انها ستصبح اماً ، وتوصي بكتمان هذا الامر .

وطوت صوفيا الرسالة . إن ماتشعر به الآن ليس الضجر بل هو الحسرة ، وذلك لسببين متناقضين . ولكن التناقض من طبيعة الإنسان ... حين تقارن صوفيا بين هذه الرسالة وبين الرسائل التي تلقتها هي من ماريا بنديكتا ، تلاحظ أن حديث ماريا بنديكتا إليها هو حديث شخص إلى شخص يعرفه معرفة ولا تربطه به أي صلة عائلية أو عاطفية . ومع ذلك فان صوفيا لا تتمنى أبداً أن تحدثها ماريا بنديكتا عن هذه السعادة التي تصفها همساً من الطرف الآخر من الأوقيانوس ، هذه السعادة التي تفيض في ذكر التفاصيل ، وإطلاق النعوت ، وإرسال الصيحات ،

والتي تفيض خاصة في ترديد اسم كارلوس ماريا ، وفي الحديث عن عيني كارلوس ماريا ، وعن كلمات كارلوس ماريا ، وعن ابن كارلوس ماريا في آخر الأمر... ان هذا كله يبدو لها تحدياً ، ويكاد يدل على تواطؤ فرناندا في الأمر .

لكن صوفيا بارعة تعرف كيف تخفي مشاعرها حين يجب اخفاؤها ، لذلك كتمت حسرتها وردت رسالة ابنة خالتها الى صاحبتها . وأرادت أن تقول ان هذه الرسالة تدل على أن سعادة ماريا بنديكتا لا بد أن تكون كاملة كمالها في لحظة السفر ، ولكن الكلمات وقفت في حلقها ، فتولت دونا فرناندا استخلاص النتيجة قائلة :

– واضح أنها سعيدة .

– أعتقد ذلك .

١٥٩

لو لم يكن اليوم التالي ممطراً ، فلربما كان مزاج صوفيا مختلفاً . ان الشمس لا توقظ في النفس أفكاراً ممتعة دائماً ، ولكنها تتيح للمرء أن يخرج على كل حال؛ وتغيير الجو يبدل العواطف في كثير من الأحيان . حين استيقظت صوفيا كان المطر ما يزال ينهمر مدراراً ، وقد التقت السماء بالبحر من فرط انخفاض الغيوم وشدة كثافة الضباب .

الضجر يطوّف بكل مكان ، ويلف الفضاء كما يلف قلب صوفيا ، فلا شيء يمكن أن يسلّي عينيها ولا أن يسرّي عن قلبها . لقد وضعت صوفيا قلبها في تابوت من خشب الأرز ، وسجنت هذا التابوت في تابوت آخر من رصاص هو هذا الجو الممطر ، وأرادت أن تعد نفسها ميتة . كانت تجهل أن الموتى يفكرون هم أيضاً ، وأن طائفة من المعاني الجديدة تأتي فتحل عندهم محل المعاني القديمة ، فيأخذون في نقد العالم الذي هجروه ، كالمشاهدين الذين يخرجون من المسرح فيأخذون في نقد التمثيلية التي شهدوها والممثلين الذين رأوهم . وسرعان ما لاحظت

جميلتنا المتوفاة أن بعض المشاعر وبعض العواطف ما تزال تحيا فيها . إن هذه المشاعر والعواطف تخطر في ذهنها على غير نظام ، ولكن نقطة بدايتها واحدة : إنها الرسالة التي قرأتها البارحة وذكرى كارلوس ماريا التي أيقظتها الرسالة في نفس المرأة الشابة .

كانت صوفيا تظن صادقة أنها أبعدت من خيالها صورة ذلك الرجل البغيض الى الأبد . وها هو ذا الآن يظهر أمامها مرة أخرى ، ويبتسم لها ، ويحدق إليها ، ويهمس في أذنها بتلك الكلمات الدعيّة الأنانية ، التي دعاها بها يوماً الى رقصة الخيانة الزوجية ثم تركها وحدها في وسط الصالون . وهذه أطياف أخرى تظهر لها أيضاً : ماريا بنديكتا مثلاً ... هذه التافهة التي نقلتها هي من الريف وخلعت عليها رواء المدنية ، فاذا هي تنسى الآن جميع ما أسبغت عليها من نعم ولا تفطن الا الى مطامحها الصغيرة . ودونا فرناندا أيضاً ... عرّابة هذا الحب... دونا فرناندا التي تعمدت البارحة أن تحمل إليها رسالة ماريا بنديكتا مع الحاشية التي تسرّ إليها فيها بالنبأ ... ولم يخطر ببال صوفيا أن سرور صديقتها قد يكون هو السبب الذي أنساها أن الرسالة شخصية ، لا ولا خطر ببالها أن طبع دونا فرناندا يسمح بتصور هذا القصد . وهزتها أفكار أخرى وصور أخرى ، ثم عادت تهزها الأفكار الأولى والصور الأولى . وفي زحمة هذا الذهاب والإياب بين الأفكار والصور ، انبثق أمام بصرها مشهد من مشاهد البارحة : وهو نظرة الإعجاب التي رمقها بها زوج دونا فرناندا . ويجب أن نذكر أنها كانت بالأمس في أبهى حلة ، وأن ثوبها كان يبرز جمال صدرها ورهافة قدّها وحسن استدارة خصرها ... لقدْ كانت ترتدي ثوباً من حرير بلون القش .

فلما أثنت دونا فرناندا على ثوبها عقب وصولها قالت صوفيا وهي تضحك :

— إنه بلون القش ، وقد اخترت هذا اللون لأنه يذكرني بهذا السيد[1] !

---

(١) يقال للقش باللغة البرتغالية باليا . ومن هذا الجناس بين القش واسم باليا نفهم نكتة صوفيا . (المترجم)

ويصعب على المرء أن يخفي سروره بالمديح ، لذلك ابتسم ابتسامة مزهوة وهو يحاول أن يقرأ في وجوه الآخرين ما أحدثه في نفوسهم هذا البرهان الصريح على حب زوجته له . وكان تيوفيليو قد اثنى هو ايضاً على ثوب صوفيا ، ولكن كان من الصعب جداً أن ينظر أيضاً إلى الجسم الذي يلبسه .. وذلك ما يفسر لها تلك النظرة الطويلة التي رمقها بها عندئذ ، وهي والحق يقال نظرة خالية من الشهوة لم تتكرر الا مرة واحدة ومع ذلك فان هذه الذكريات ذكرى تلك الحركة المبرأة من الإغواء وذلك الاعجاب المنزه من الرغبة – هي ماتمثل الآن في خاطر صوفيا في هذه اللحظـة التي كانت لاتفكر خلالها الا في خبث صديقتها معها .

كارلوس ماريا ، تيوفيلو ... ان صوفيا لاتعوزها الاسماء في هذا الباب ، كما ذكرت لكم ذلك في الفصل ١٥٤ ؛ وانبعثت هذه الاسماء في ذهنها جميعاً ، لأن المطر مايزال ينهمر ، ولأن السماء والبحر مايزالان متحدين في ضباب واحد . انبعثت هذه الاسماء في ذهنها جميعاً ... وانبثق مع الأسماء أصحاب الاسماء .. بل أن أشخاصاً بلا أسماء قد انبثقوا في خاطرها أيضاً : أشخاصاً قابعين ، مجهولين ، لم يروها إلا مرة واحدة ، لكنها وقد عزفوا لها نشيد الاعجاب ، تصدقت عليهم بنظرة لطيفة . لماذا لم تحتفظ بواحد من هؤلاء المجهولين الكثر لتصغي اليه مدة اطول ، ولتجعله أغنى ؟ صحيح أن صدقة صغيرة لم تعين احدا في يوم من الايام ، ولكن اليس هناك مكافآت أعظم قيمة ؟ ولماذا لم يحتفظ ايضاً بواحد من تلك الاسماء الجميلة ، بل المشهورة ، التي تزدحم الآن في خاطرها ان هذا السؤال الاخرس يدوي في عروقها ، في أعصابها ، في دماغها ، لكن شعورا واحداً كان يرد عليه هو الشعور بالاضطراب والاستطلاع .

١٦٠

وفي أثناء ذلك انقطع هطول المطر لحظة ، واستطاع شعاع من الشمس أن يخترق الضباب ، لكنه كان أحد تلك الاشعة المحملة بالرطوبة ، الشبيهة بالنظرات

المخضلة بالدموع . وظنت صوفيا انها تستطيع أخيرا أن تخرج . إنها تتعجل أن تغير أفقها ، وان تسير لتنفض عنها خمولها ، وهي تأمل ان تسطع الشمس فتطرد المطر وترين على السماء والارض من جديد . لكن الكوكب الساطع سرعان ما أدرك أن هذه المرأة تنوي أن تتخذه مصباحاً كمصباح ديوجين ، فقال الشعاع الرطب : عد ، عد الى حضني أيها الشعاع العف الفاضل . لاتقدها إلى حيث تسوقها شهوتها . فلتعشق اذا رغبت في ذلك ، ولترد على بطاقات غزل اذا هي تلقت بطاقات غزل ولم تحرقها . أما أنت يانور صدري ، ويا أبن أحشائي ، أنت ايها الشعاع يا أخا اشعتي ، فلا تكن لها مصباحاً .. »

وأطاع الشعاع فالتحق بمركز النار ، وقد دهش بعض الدهشة من مخاوف الشمس التي رأت مع ذلك كثيرا من الامور المألوفة والخارقة للعادة ، وعادت طبقة السحب كثيفة كما كانت ، بل لقد ازدادت جهامة وظلاماً ، واستأنف المطر هطوله غزيراً .

١٦١

أذعنت صوفيا لبقائها في البيت . إن الاضطراب الذي غزا قلبها شبيه بالاضطراب الذي يرين على الجو . إن جميع الصور وجميع الأسماء التي حاصرتها تصب الآن في أمر واحد هو الرغبة في الحب . ومن الانصاف مع ذلك أن نقول إنها كانت تحاول ، حين تخرج من هذه الحالات النفسية المبهمة الغامضة ، أن تصرف ذهنها الى أمور أخرى ، تخلصاً من تلك الرغبة . غير أن ماتحدث لها عندئذ شبيه بما يحدث لأولئك الذين يغالبون النعاس : فما يكادون يغمضون أعينهم حتى يفتحوها ، وما يكادون يفتحونها حتى يغمضوها . وكفت أخيراً عن تأمل المطر والضباب ، وقامت تقلب صفحات العدد الأخير من « مجلة العالمين » (١) نشداناً للراحة . إن سيدة أنيقة من السيدات التي عرفتها صوفيا أيام لجنة الآلاجواس ، هي التي سألتها ذات يوم في زحمة أعمال اللجنة هذا السؤال :

(١) هي مجلة « Revue les Deux - mondes » الفرنسية (المعرب) .

– هل تقرئين رواية فوييه في « مجلة العالمين » .

فأجابتها صوفيا :

– نعم ، وأراها شائقة جداً .

والواقع أن صوفيا لم تقرأ الرواية ، حتى لقد كانت لاتعرف هـذه المجلة أصلًا لكنها أسرعت تطلب من زوجها في الغداة أن يشترك في المجلة ، فقرأت رواية أوكتاف فوييه ، ثم قرأت الروايات التي نشرت بعدها ، وأصبحت تتحدث عن جميع الروايات التي قرأتها أو التي هي بسبيل قراءتها . فبعد أن قلبت ذلك العدد الأخير الذي كان بين يديهـا ، وتصفحت قصة من القصص ، مضت الى غرفتها واستلقت على سريرها . واذ كانت قد أرقت في الليلة البارحة ، لم تلبث أن غرقت في نوم عميق خلا من الاحلام الا في النهاية حيث وافاهـــا جثام : رأت نفسها فيه محاطة ببساط من ضباب كضباب ذلك النهار . لكنها في عرض البحر منبطحة على مقدمة قارب ، تكتب باصبعها على صفحة الماء هذا الاسم : كارلوس ماريا . والاحرف تظل منقوشة في الأمواج ، حتى أن زبد الأخاديد يهب لها مزيداً من الوضوح ، لاشيء يبعث على الخوف كثيراً حتى الآن ، اللهم الا مافي هذا الامر من سر . ولكن من المعروف أن الأشياء التي تشتمل على أسرار تبدو في الاحلام طبيعية . وفجأة ينقشع بساط الضباب ، فاذا بكارلوس ماريا يظهر لعيني صوفيا بشخصه : هاهو ذا يتقدم اليها ، ثم يضمهـا الى صدره بذراعيه ، ويهمس لها بألف كلمة عاطفية ، كالكلمات التي قالها لها روبيان منذ بضعة أشهر . لكن هذه الكلمات لاتبعث فيها مابعثته كلمات روبيان من اشمئزاز ، فهي تصغي اليها فرحة ، وتكاد من نشوتها أن تنقلب الى الوراء كأنها تتخاذل . وليست الآن في قارب ، وإنما هي في عربة ، وقد وضعت يدها في يد نسيبها . وفتنتها أمازيحه المرحة الرائعة . وهذا أيضاً ليس فيه مايفزع . وانمـــا حدث الأمر المفزع حين وقفت العربة ، فاذا بأشخاص ملثمين يحيطون بهم ، فيقتلون الحوذي ، وينزعون الأبواب ، ويطعنون كارلوس ماريا ، ويرمون جثته الى الى الأرض ، ثم يجيء واحد منهم كان يبدو أنه رئيس العصابة فيقعـد في

مكان المتوفي ، ويحسر القناع عن وجهه ويطلب من صوفيا أن لا تصرخ مستنجدة ، ويقول لها إنه يحبها أكثر مما يحبها الآخر ألف مرة ، ثم يمسك بقبضتها ويطبع على شفتيها قبلة ، لكنها قبلة مبللة بالدم ، قبلة تفوح منهـــا رائحة الدم ... فتطلق صوفيا صرخة مذعورة وتستيقظ . كان زوجها عندئذ إلى جانب سريرها . فسألها :

– مالك ؟

فزفرت صوفيا :

– آه ...

وسألته :

– صرخت ، أليس كذلك ؟

فلم يجبها باليا بشيء ، وكان مبهم النظرة يفكر في بعض الأعمال . وشعرت زوجته عندئذ بخوف : إذا كانت قد تكلمت حقاً ، فمن الجائز أن تكون قد تمتمت في كلام أو أسم هو الاسم الذي كانت تخطه على صفحة الماء . ولم تلبث أن رفعت ذراعيها فألقتها على كتفي زوجهـــا مشبكة أصابعها وراء نقرته ، ودمدمت تقول له في نصف فرح ونصف حزن :

– حلمت بأنهم يقتلونك .

فتأثر باليا تأثراً شديداً . ان شعوره بأنه سبب لها ألماً ولو في المنام يملؤه شفقة عليها ، ولكنها شفقة مترعة باللذة الى أبعد الحدود . ترى أي اسم يمكن أن نطلقه على هذه العاطفة الخفية الصادرة من أعمق أعماق نفسه ، هذه العاطفة التي تجعله يتمنى لو تحلم زوجته أحلاماً ثقيلة اخرى من هذا النوع ، فتراه يُقتل امامهـا مرة ثانية ، لتصرخ ذعراً من جديد وقد امتلأت نفسها ألماً وهلعاً ؟

١٦٢

وفي الغد كانت الشمس ساطعة دافئة ، والسماء صـــافيةً ، والجو طرياً . فركبت صوفيا عربتهـا وخرجت تتنزه وتقوم ببعض الزيارات . انها تستعجل

الخلاص من هذا الانحباس في المنزل ، فكان لمجرد رؤية هذا النهار الجميل تأثير حسن في نفسها . لقد ارتدت ملابسها تدندن بعض الاغنيات . واستطاعت بشاشة السيدات اللواتي زارتهن في بيوتهن او التقت بهن في شارع اوفيدور ، وضجيج الطريق واصداء المجتمع ومرح الأصدقاء أن تطرد من ذهنها هموم البـارحة الى غير رجعة .

١٦٣

هكذا نرى ان ما كان يبدو رغبة مسعورة لم يكن في حقيقة الامر الا نزوة عارضة . فما هي الا ساعات حتى كانت جميع الأفكار السيئة التي هزّت صوفيا قد عـادت الى الطفل ... فلو سألتني هل عانت المرأة الشابة شيئاً من عذاب الضمير لم أعرف حقاً كيف اجيبك . ذلك ان للتقريـع درجات ايضاً ... والشعور لاينتقل من الجدة الى العادة ومن الخوف الى قلة الاكتراث شيئاً بعد شيء ، في ميدان الاعمال فحسب بل في خطايا الخيـــال كذلك . ان خطايا الخيال تخضع لهذه القاعدة نفسها . فاذا انت تعودت التفكير في بعض الامور، فسرعان ماتألفها ، فاذا أنت تراها بعد ذلك طبيعية فلا تحاول أن تطردها من ذهنك . ثم ان في وسع المرأة في الحالة التي نحن بصددها ان تجد في الطهارة الخارجية ملجأً أخلاقياً ، ، فحسبها بتعبير أصرح ، أنها صانت جسدهـــا نقياً من كل دنس .

١٦٤

حادث واحد خلال ذلك النهار الصافي الساطع أزعج صوفيا ، وهو التقاؤها بروبيان . لقد دخلت احدى المكتبات بشارع أوفيدور لتشتري رواية ، وفيما هي تنتظر أن يرد لها البائع باقي النقود رأت صديقنا يدخل المكتبـة على حين فجأة . فأسرعت تشيح بوجهها ، وتنظر الى كتبٍ منضّدة على أحـد الرفوف (كتب تشريح واحصاء) ، حتى إذا تناولت نقودها ، وضعتها في حقيبتها

ثم هرعت تخرج كالسهم خافضة الرأس ، ومشت صاعدة في الشارع . ولم تسترد هدوءها إلا بعد أن خلفت شارع أوريفس وراءها .

وبعد ذلك ببضعة أيام ، بينما كانت تهمّ أن تدخل منزل دونا فرناندا ، وجدت نفسها وجهاً لوجه أمامه في فناء المنزل ، وإذ قدرت أنه صاعد إلى البيت وطنت نفسها على أن تصعد معه رغم محاذرتها ، لكن روبيان كان نازلاً فتصافحا في مودة وتمنى كل منهما على صاحبه أن يراه مرة أخرى في القريب !

قالت صوفيا لدونا فرناندا بعد أن ذكرت لها لقاءها به في فناء المنزل :

– هل يجيء إلى هنا كثيراً .

فأجابتها دونا فرناندا :

– هي المرة الرابعة أو الخامسة . لكنه لم يهذ إلا في الزيارة الثانية ، وكان في المرات الأخرى كما رأيته اليوم هادئاً بل بارعاً في الحديث . غير أن المرء يلاحظ فيه على الدوام شيئاً ينم عن حالة . ألم تلاحظي نظرته الجامدة بعض الجمود ؟ أما عدا هذا فحديثه طبيعي . صدقي يادونا صوفيا أن هذا الرجل يمكن أن يشفى . لماذا لا تحاولين أن تجعلي زوجك يهتم بهذا الأمر ؟

– ينوي كرستيانو أن يعرضه على طبيب لفحصه ومعالجته . لا تقلقي ، فسأتعجل تدبير الامر .

– تحسنين صنعاً . يبدو لي أنه يحمل لك وللسيد باليا كثيراً من عاطفة الصداقة .

تساءلت صوفيا بينها وبين نفسها : « أتراه قال عني أثناء هذيانه شيئاً غير لائق ؟ هل يجب أن اكشف لها عن الحقيقة ؟ » .

ولكنها قررت أن لا تكشف لها عن شيء ، لأن كل ما يمكن أن يقوله روبيان من أمور غير لائقة يمكن أن يسند الى مرضه . ووعدت صاحبتها بأن تحض زوجها على الاسراع في معالجة المريض ، حتى لقد فاتحته بالأمر في ذلك

اليوم نفسه بعد الظهر . قال باليا : « يا لها من مسخرة ! » وسأل زوجته : ما فائدة دونا فرناندا من إثارة هــذا الموضوع مرة أخرى . ولماذا لا تتولى بنفسها معالجته ؟ إنه لمن ازعج المزعجات عندي أن اهتم بروبيان وأن أصحبه إلى الطبيب وأن أجمع وأصون ما بقي له من مال - إذا كان قد بقي له منه شيء - وأن أسمى وصياً على ارزاقـــه كما اقترح ذلك تيوفيلو . ذلك كله لا يجلب الا الصداع !

ثم أردف يقول :

- إن على عاتقي من المشاغل والهموم ما يكفيني يا صوفيـا . ثم ما الذي يحدث بعد ذلك ؟ هل نأتي به الى بيتنا ؟ هـذه فكرة لا استحسنها كثيراً . فأين نضعه إذن ؟ في مستشفى .. نعم .. فاذا لم يقبلوه ؟ لن أرسله على كل حال إلى برايا فرمليا [١] .. والمسئوليات التي تترتب على هذا كله ؟ هل وعدت حقاً بأن تفاتحيني في الامر ؟

أجابت صوفيا وهي تبتسم :

- وعدت .. بل اكدت أنك فاعل . وقد لا يكون الامر على هـــذه الدرجة من التعقيد الذي تتصوره .

وألحت صوفيا مزيداً من الالحـاح . لقد تأثرت بعطف دونا فرناندا تأثراً كبيراً . ووجدت فيه نوعاً من الشهامة والنبل ، فقالت لنفسهـا : إذا كانت دونا فرناندا تظهر هذا الاهتمام كله بأمره ، دون ان تكون لها به صلة قوية ، فهل اكون دونها أريحية وكرماً .. ذلك أمر لا يليق .

١٦٥

وتم كل شيء في هدوء . استأجر باليا منزلاً صغيراً في شارع « ابرنسيب » قرب البحر ، واسكن فيه روبيان مع قليل من الاثاث ومع صديقه الكلب . وقد قبل روبيان هذا التغيير من غير استياء ، حتى لقد تحمس له حين عاوده

(١) ملجأ للمجانين (المترجم)

الهذيان . فتوهم انه في قصره بسان كلود . اما اصدقاء منزله ببوتافوجو فلم يرق لهم ذلك بل استقبلوا النبأ على انه قرار نفي . لقـــد كان كل شيء في المنزل جزءاً من حياتهم : الحديقة والباب والأشجار والدرج والمنظر نفسه ... كانوا قد حفظوا كل شيء عن ظهر القلب .. وليس عليهم الا أن يدخلوا فيعلقوا قبعاتهم وينتظراو في الصالون . حتى لقد أصبحوا آخر الأمر لا يحسون أنهم ضيوف ، وإنما هم أصحاب المنزل . وهنالك الجيران ! لقد تعود كل واحد من أصدقـــاء روبيان أن يرى الأشخاص الذين يقطنون الحيّ ، وجوه الصباح ووجوه الأصيل .. بل لقد كان بعضهم يحييهم كأنهم جيرانهم . ولكن صبراً ! سيذهبون الآن الى بابل ، كما نقل من قبلهم مبعدو صهيون ! ولعلهم واجدون حيثما ينتقل الفرات صفصافات يعلقون عليها قيثاراتهم التي تعزف ألحان الحنين ، أو قل أنهم سيجدون مسامير يعلقون عليها قبعاتهم . والفرق الوحيد بينهم وبين الأنبياء أنهم سيعودون الى تناول قيثاراتهم بعد أسبوع من غير شك ، ليعزفوا عليها من جديد ، بتلك الرشاقة نفسها وتلك القوة نفسها . لسوف يدندنون أناشيدهم القديمـة ، وستبدو هذه الأناشيد جديدة كجدتها في اليوم الأول : لسوف تعود بابل فتصبح صهيون ، فقدوها ثم وجدوها !

قال لهم باليا قبل الانتقال من بوتافوجو بيوم :

— إن صديقنا في حاجة الى شيء من الراحة بعض الوقت . فلا شك أنـكم لاحظتم ان صحته في الأيام الأخيرة قد ساءت قليلاً ، حتى أنه يفقـــد في بعض اللحظات ذاكرته ، فتختلط الأمور في ذهنـه وتضطرب . سوف يعالج ، ومن أجل هذا يجب أن يرتاح . وقد وجدت له بيتاً صغيراً ، ولكن قد نضطر الى نقله الى مستشفى من المستشفيات .

فأصغوا الى كلامه مصعوقين ، إلا أن واحداً منهم ، هو بيو ، استرد صحو ذهنه قبل غيره ، فأجاب بقوله : كان ينبغي لنا أن نفعل هذا منذ زمن طويل ، غير أن ذلك كان يقتضي أن يكون لنا تأثير حاسم في روبيان .

وأضاف :

– كثيراً ما قلت له ، ولكن بعبارات مهذبة جداً بطبيعة الحال ، إن عليه أن يستشير طبيباً إذ يبدو لي أنه يشكو شيئاً في معدته . وكنت أقصد من ذلك أن لا ألفت انتباهه طبعاً . ولكنه كان يجيب دائماً بأنه لا يشكو من شيء ، وأنه يهضم هضماً جيداً .. فكنت أقول له : « ولكن اقبالك على الطعام قد قلّ ، حتى أنك في بعض الايام تكاد لا تأكل شيئاً . وقد أصابك من ذلك نحول ، ومال لونك الى شيء من الشحوب .. » لم أكن أستطيع أن أصارحه بالحقيقة طبعاً . حتى لقد ذهبت الى طبيب من أصدقائي استشيره في الامر . غير أن عزيزنا الطيب روبيان رفض أن يستقبله .

وكان الأربعة الآخرون يهزون رءوسهم مؤيدين هذه القصة الملفقة . وهل ينتظر منهم حقاً اكثر من ذلك بعد هـذه الضربة التي سقطت على رءوسهم . وأخيراً سألوا عن عنوان المنزل الجديد من اجل أن يذهبوا اليـه سائلين عن صحته . مسكين صديقنا ! وحين استطاعوا في نهاية الامر ان ينتزعوا أنفسهم من البيت انتزاعاً ، وأن يستأذن بعضهم بعضاً بالانصراف حدث مالم يكن في حسابهم : لقد أصبح يصعب عليهم أن يفترقوا ! لا لأن شيئاً من الصداقة أو الاعتبار كان يربطهم بعضهم ببعض ، فان مصالحهم قد جعلتهم يكرهون بعضهم بعضاً . غير أن ماتعودوه من رؤية بعضهم بعضاً كل يوم ومن تناول الغداء والعشاء معاً على مائدة واحدة ، قد أوجد بينهم رابطة من أقوى الروابط : انهم في أول الامر لم يحتمل بعضهم بعضاً إلا بحكم الضرورة . ثم أصبحوا بمضي الزمن يحتاجون بعضهم إلى بعض ! ان كلاً منهم سيفديه أنه لن يرى الوجوه والاشارات والذقون والشوارب والصلعات والحركات الغريبة التي ألف أن يراها . إن كل واحد منهم سيشعر بالحنين الى مايتميز به رفاقه من طرق في الحيـاة وأساليب في الطعام والكلام ... هذا أكثر من فراق ، هذا تفتت !

١٦٦

لاحظ روبيان أنهم لم يرافقوه الى منزله الجديد ، فأرسل يستدعيهم . ولكن

لم يجيء منهم أحد ، فامتلأ صاحبنا حزناً لغيابهم ... في الاسابيع الاولى حتى لقد شعر بأن اسرته تهجره . وحاول أن يتذكر هل تراه جرحهم بعمل من أعماله أو قول من أقواله ، فلم يتذكر شيئاً .

١٦٧

– تحدثت الى الرجل ، وجدت حقاً أن عنده تصورات جنونية : ولكنني أعتقد ، رغم كوني غير اخصائي في الامراض العقلية ، أن شفاءه ممكن . وهل تعرفين ماذا اكتشفت ؟ لقد اكتشفت أمراً شائعاً ...

قالت دونا فرناندا دون أن تجيب عن سؤال الدكتور فالون :

– تعتقد أن شفاءه ممكن .

إن الدكتور فالون نائب ، نائب وطبيب معاً . وهو رجل أعزب ، مثقف ، لكنه فاتر ربي ، وإذا كان صديقاً للأسرة ، رجته دونا فرناندا أن يفحص روبيان ، بعد سكناه في شارع البرنسيب بمدة قصيرة .

– نعم ، أعتقد أن شفاءه ممكن ، شريطة أن يعالج علاجاً منتظماً قد لايكون لمرضه سوابق في أسرته . يجب أن يفحصه طبيب اخصائي . ولكن ألا تريدين أن تعرفي الأمر الشائن الذي اكتشفته ؟

– ماذا اكتشفت ؟

قال وهو يبتسم :

– هنالك شخص تعرفينه قد يكون هو السبب في مرضه .

– من ؟

– دونا صوفيا .

– كيف ؟

– لقد كلمني عنها في حماسة ، وقال انها أجمل امرأة في العالم ، وانه منحها لقب دوقة لأنه لم يستطع أن يجعلها امبراطورة ، ولكن يجب أن لايدفع الى آخر الطريق ، اذ قد يفعل مافعله عمه : يطلق امرأته ليتزوج بدونا صوفيا

واستنتجت من ذلك أنه قد أحب صديقتك حباً قوياً ، وشجعني على هـــذا الاعتقاد ما ألاحظه من انه يرفع الكلفة حين يتحدث عنها : صوفيا جـاءت ، صوفيا ذهبت . صوفيا قالت ... لا تؤاخذيني ، إنني أعتقد أن هذا الحب كان متبادلاً ...

– آه ... لا ...

– دونا فرناندا ، أعتقد أنها قد أحب كل منهما الآخر . هـل يدهشك هذا ؟ أنا لا أعرفها كثيراً . وأظن أنك أنت أيضاً لم تعرفيها منذ مدة طويلة ولا صاحبتها مصاحبة صحيحة . إنه من الجائز جداً أن يكونا قد تحابا ، وأن يكون هذا الهوى العنيف قد ... ولنفرض أنها طردته من بيتها ... صحيـح أن به جنون العظمة ... ولكن هذا لاينفي ذاك ...

كانت دونا فرناندا لاتنظر اليه ، لانزعاجها من هذا الافتراض الذي يفترضه . إنها تريد أن تتحاشى الجـدال في هذا الامر ، لاعتقادها بأنـه موضوع لايليق الخوض فيه . وظلت إلى ذلك ترى أن هذه الشبهة مستحيلة ولا يمكن أن تصدق وليس لها أساس تقوم عليه . لن تستطيع يوماً أن تصدق وجود هذا الحب الذي يشتمل على خيانة زوجية ، ولو أكد صدقه روبيان نفسه . اليس روبيان مجنوناً ؟ وهبه عاقلا غير مجنون ، فلن تصدقه .. لا لن تصدق . إنها لاتستطيع أن تتصور أن صوفيا قد أحبت هذا الرجل ، لا لسببه هو ، بـــل لسببها هي ، لأنها امرأة قديمة عفيفة . يستحيل . وأرادت أن تنبري للدفـاع عن صوفيا . لكنها أحجمت مرة اخرى عن الخوض في هذا الموضوع ، رغم ما بينها وبين الدكتور مالون من صداقة صحيحـة ، واكتفت بأن كررت السؤال الذي سبق أن طرحته :

– انت تقدر اذن أن شفاءه ممكن ؟

– اعتقد أن شفاءه ممكن . لكن فحصي لايكفي . أنت تعلمين أن الافضل في مثل هذه الامور أن يؤخذ رأي طبيب إخصائي .

وبينما كان الدكتور فالون في الشارع بعـد برهة من الزمن ، ابتسم ... ابتسم لاشمئزاز دونا فرناندا من تصديق ظنونه . وقال لنفسه : « من المحقق

مع ذلك أن شيئاً قد حدث . ان الرجل وسيم وإن لم يكن كآدونيس جمالاً، وان في عينيه لبريقاً . هذا محقق . » وتذكر بعض عبارات روبيان ، وتذكر حركاته ، وتذكر ما كان في صوته من رنين حنون ، فكانت شكوكه تزداد وضوحاً . « هذا أكيد ... » . وأصبح يرى أن من المستحيل أن لا يكونا قد احب كل منهما الآخر . وبدا له ان رفض دونا فرناندا لهذه الفكرة يدل حقاً على سذاجة كبيرة ! اللهم الا أن يكون ذلك الرفض منها وسيلةً لتغيير مجرى الحديث ولتحاشي الخوض في هذا الموضوع . نعم ، هو كذلك ...

وفي تلك اللحظة تسمر النائب في مكانه فجأة على غير ارادة منه . لقد مرت بخاطره شبهة جديدة . لكنه لم يلبث أن هزّ رأسه بعد بضع لحظات على نحو قاطع ، كمن يكذب نفسه ويحكم على ظنه بانه سخيف . واستأنف سيره . غير أن الشكوك عنيدة ، وهي حين تكون راسخة في قلب أحد الناس رسوخاً وطيداً ، لا تكترث بهزات الرأس ولا باشارات النفي ! « من يدري ؟ لعل دونا فرناندا قد أغرمت هي ايضاً بعينيه الجميلتين . ألا يمكن أن يكون اهتمامها به استمراراً لحبها ؟ الخ ... » .

وكلما أوغل الدكتور فالون في طرح هذه الأسئلة ، كان شيء ما في قرارة نفسه يجيب عنها بنعم . وقاوم ظنونه بعض المقاومة : انه صديق الأسرة ، وهو يحترم دونا فرناندا ، ويعرف فضيلتها . ولكنه ظل يقدر أن من الجائز مع ذلك أن تكون قد نشأت في نفسها عاطفة مكنونة خفية ... من يدري ؟ لعل غرام صاحبتها بالرجل هو الذي حرض هذه العاطفة في نفسها ! وهذا كثيراً ما يقع ! ان عدوى الجذام تفسد أطهر دم ، ورب جرثومة صغيرة تهدم أقوى جسم !

وهكذا كانت رغبته في المقاومة تتراجع شيئاً بعد شيء أمام شعوره بان الأمر جائز ، فمرجح ، فمحقق . لقد سمع عن بعض أعمال البر والاحسان التي تقوم بها دونا فرناندا . ولكن الحالة التي نحن بصددها الآن حالة خاصة جداً .

ان هذا الاهتمام الشديد الذي تبديه دونا فرناندا برجل لا هو بالذي يختلف الى المنزل كثيراً ولا هو بالصديق القديم ، ولا هو بالقريب ، ولا هو بالزميل لزوجها ؛ رجلٍ لا تربطه بحياتها رابطة من علاقات ولا رابطة من أسرة ، حتى ولا رابطة من عادة أو ألفة . إن هذا الاهتمام الشديد الذي تبديه بهذا الرجل لا يمكن أن يكون مرده إلا الى باعث خفي ، هو الحب من غير ريب . إن حب الاطلاع قد يجر امرأة شريفة الى الخطيئة ، وقد يجرها من ثم الى عذاب الضمير . لعل دونا فرناندا قد عرفت كيف تتوقف حين وجب التوقف ، لكن بقي لها مع ذلك شيء من العطف على المريض . من ذا الذي يعرف والحالة هذه ما وقع ؟

١٦٨

من ذا الذي يعرف والحالة هذه ما وقع ؟ ذلك ما ردده الدكتور فالرن في صباح الغد . إن الليل لم يبدد شكوكه . من ذا الذي يعرف في هذه اللحظة ؟ نعم ، إن هذا لا يمكن أن يكون عطفاً مريضاً فحسب . وأخذ الدكتور فالون يؤول هاملت دون أن يعرف شكسبير :

« إن بين السماء والأرض يا هوراس أشياء كثيرة لا تستطيع أن يتخيلها نزوعك الباطل الى حب البشر وخيرهم . » ان شيئاً من الحب قد مازج هذا كله . ولاحظوا أن الدكتور فالون لا ينتقد شيئاً ولا يأسف لشيء . ألم أقل لكم انه ذو عقل ريبي ؟ ولكنه لم يفض الى أحد بشيء من شكوكه ، لأنه كان رجلاً متكتماً أيضاً .

١٦٩

لما عاد كارلوس ماريا وزوجته الى ريو ، انقطع اهتمام دونا فرناندا بروبيان الى حين . لقد استقبلتها في المرفأ ، وأقلتها الى تيجوكا ، حيث كان أحد أصدقاء كارلوس ماريا قد استأجر بيتاً وأعدّه ، عملاً بما أوصاه به صديقه . ولم تذهب صوفيا الى المرفأ ، وانما اكتفت بارسال مركبتها تنتظرهما على رصيف

فارو كس . غير أن دونا فرناندا كانت قد أخذت عربتها ، فأقلت بها جميع المستقبلين ومنهم باليا . وبعد الظهر ذهبت صوفيا تزور القادمين .

كانت دونا فرناندا لا تتمالك عن شدة الفرح . ان رسائل ماريا بنديكتا قد صورت ما يشعران به من سعادة ، غير أنها في أول الأمر لم تلاحظ في حركات الزوجين ولا في عينيهما ما يؤيد ذلك . فكل ما يظهر عليهما هو أنهما راضيان . وقد أجشهت ماريا بنديكتا بالبكاء حين قبلت صديقتها ، وكذلك فعلت دونا فرناندا ، وتعانقت المرأتان كما تتعانق الأختان . وفي الغد سألت دونا فرناندا صديقتها هل هما سعيدان ، فلما أجابتها بنعم تناولت يديها وحدقت اليها طويلاً دون أن تجد ما تقوله ، ثم لم تستطع الا أن تكرر سؤالها :

– أنتما اذن سعيدان ؟

فأجابت ماريا بنديكتا :

– نعم .

– لا تستطيعين أن تتصوري مدى ما أشعر به من ارتياح لهذا الجواب : لا لأن عذاب الضمير كان يمكن أن يقلقني كثيراً لو لم تحققي السعادة التي رجوت أن أوفرها لك ، لا هذا فحسب ، بل أيضاً لأن رؤية سعادة الآخرين تبعث في النفس كثيراً من السرور . هل يحبك كما أحبك في أول يوم ؟

– أعتقد أنه يحبني أكثر مما أحبني في أول يوم ، لأنني أنا أعبده عبادة .

لم تفهم دونا فرناندا معنى هذه الكلمات الأخيرة فهماً واضحاً . « أعتقد أنه يحبني أكثر مما أحبني في أول يوم ، لأنني أنا أعبده عبادة . » الحق أن النتيجة لا يبدو أن لها صلة بمقدماتها . ولكن ينبغي هنا أن نشرح هاملت مرة أخرى فنقول : « ان بين السماء والارض ياهوراس أموراً كثيرة لا يتصورها تفكيرك المنطقي الباطل » . وأخذت ماريا بنديكتا تحدث صديقتها عن رحلتها وتسرد لها مشاعرها وذكرياتها بأدق التفاصيل . واذ انضم اليها زوجها أثناء ذلك ، اخذت تلجأ اليه في كثير من الاحيان ليسد ثغرات ذاكرتها ، فتسأله :

– كيف كان هذا يا كارلوس ماريا ؟

فكان كارلوس ماريا يروي ، ويشرح ، ويصحح ، ولكن من غير أي اهتمام ، بل وبشيء من الملل والضجر . وقد أدرك أن ماريا بنديكتا أشركت صديقتها في جميع أسرار سعادتها ، فكان لا يستطيع أن يخفي استياءه من ذلك . ما حاجتها الى ذكر أنها كانت سعيدة معه ، ما دام الامر لا يمكن أن يكون غير ذلك ؟ وفيم تذيع بين الناس ملاطفاته وكلماته العاطفية الرقيقة وسائر النعم والآلاء التي أسبغها عليها في جلال كجلال اله رحيم ؟

ان عودتها الى ريو دي جانيرو لم تكن إلا نزولاً عند رغبتها . لقد أرادت ماريا بنديكتا أن تعود الى ريو دي جانيرو لتلد ، وقد رضخ زوجها لارادتها على مضض ، ولكنه رضخ .. لماذا على مضض ؟ ذلك ما يصعب شرحه كما يصعب فهمه . لقد كانت لكارلوس ماريا آراء شخصية غريبة في الأمومة ، آراء مدفونة في قرارة نفسه لم يفض بها يوماً الى أحد . كان يرى أن الطبيعة لم تكن على شيء من الحشمة حين جعلت الحمل أمراً يعرفه جميع الناس وتراه جميع الانظار ويحتل مكانة خطيرة حتى انه ليشوه الجسم ويذكر بأمور ليس فيها شيء من الاقتسام .. ومن أجل ذلك كان يرغب في العزلة والتخفي والغياب . كان في الاشهر الاولى يتمنى لو يعيش في منزل منعزل قائم على رابية عالية موصد الابواب لا يطرقه زائر ، تنزل منه امرأته ذات يوم حاملة طفلها بين ذراعيها وفي عينيها سطوع فرح الهي !

لكنه لم يقترح على زوجته شيئاً من ذلك ، اذ لو فعل لاضطر أن يناقش ، وهو امرؤ لا يحب المناقشة ، ويؤثر أن يرضخ على أن يناقش . وطبيعي أن ماريا بنديكتا كانت تهزها مشاعر تختلف عن هذه المشاعر كل الاختلاف . لقد كانت تعد نفسها مستودعاً إلهيا سرياً يعيش فيه إله هو ابن اله آخر . وكان حملها مصحوباً بأوجاع وانزعاجات تخفيها عن زوجها ما وسعها الاخفاء ، ولكن ذلك كان لا يزيد على أن يسبغ على الكائن الجديد الذي سيولد شأناً أعظم . وما

دام احتمال الآلام شرطاً لمجيء هذا الكائن الجديد الى العالم ، فلقد كانت ماريا بنديكتا تحتملها في اذعان ، ولعلها كانت تستقبلها في فرح ... أنها تخضع لقوانين الطبيعة » راضية ... وكانت تردد جواب مريم الناصرية صامتة : « أنا خادمة الرب . فلتكن مشيئته . »

١٧٠

قالت ماريا بنديكتا لزوجها حين أصبحا منفردين :

– ما بك ؟

– أنا ؟ لا شيء . لماذا ؟

– كان يبدو عليك الضجر ؟

– لا ... لم أكن ضجراً .

– بل كنت ضجراً .

فابتسم كارلوس دون أن يجيب . إن ماريا بنديكتا تعرف حق المعرفة هذه الابتسامة الصفراء الخاصة التي كانت ترتسم على شفتيه في بعض الاحيان ، تلك الابتسامة التي لاتفهم كنهها ولا تعبر عن حنان ولا عن ملامة . فلم تلحّ ، بل خرجت وهي تعض على شفتيها .

فلما صارت في غرفتها لم تستطع بعض الوقت أن تفكر في شيء آخر غير تلك الابتسامة الغامضة الخرساء التي تدل دلالة واضحة على انزعاج لابد أن تكون هي سببه . وأخذت تستعرض كل الحديث الذي جرى ، وجميع الحركات التي صدرت عنها ، فلم تعثر على شيء يمكن أن يكون سبب هذا الفتور وهذا الموقف الغريب من كارلوس ماريا . أتراها أسرفت في الإفضاء بذات نفسها ؟ انها في لحظات السرور تحب أن تفتح قلبها للأصدقاء والغرباء على السواء . وكارلوس ماريا يشجب هذه العادة ، ويرى أن إظهار العادة الصميمة على هذا النحو أمر عامي مبتذل . وتذكرت ماريا بنديكتا أنها لما كانت في باريز ، وسط الجالية البرازيلية ، شعرت غير مرة باستياء زوجها من افاضتها في الكلام ، وحاولت

أيامئذ أن تمسك عن الحديث . ولكن أليس شأنها مع دونا فرناندا شأناً آخر؟ أليست دونا فرناندا أصل سعادتها كليها ؟ لذلك استبعدت ماريا بنديكتا هذا الافتراض ، وبحثت عن افتراض آخر . فلما عجزت عن ايجاد فرض آخر عادت إلى الأول ، وانتهت على عادتها الى الاقرار بأن زوجها على حق ؛ فمهما تكن الصداقة التي بينها وبين دونا فرناندا حميمة ، ومهما يكن شكرانها لها قوياً ، فما كان ينبغي لها أن تطلعها على جميع تفاصيل حياتها ؛ لقد كان ذلك منها خفة وطيشاً . . .

ووافتها غثيانات قطعت حبل تأملاتها . ان « الطبيعة » تذكرها في الوقت المناسب بأن هناك سراً كبيراً – سر بقاء النوع – هو أخطر شأناً واشد بحاجة من جميع انزعاجات زوجها . وخضعت لهذه الضرورة . لكنها مضت الى زوجها بعد بضع دقائق ، فأحاطت عنقه بذراعها اليمنى . كان زوجها جالساً يقرأ مجلة انجليزية ، فتناول يدها المتدلية على صدره وأتم قراءة الصفحة التي كان يقرؤها .

سألته ماريا بنديكتا حين رأته يطوي المجلة :

– هل تسامحني ؟ لن أثرثر بعد اليوم هذه الثرثرة كلها .

فتناول كارلوس ماريا كلتا يديها ، وأشار برأسه اشارة تأييد وهو يبتسم ، فكأن شعاعاً من أشعة الشمس سرى فيها ، فأخذت تسطع جذلاً وغبطة ، حتى لكأن ابنها كان وهو في رحمها يشاركها هذا الفرح ويبارك أباه !

١٧١

– عظيم ! على هذه الصورة إنما كنت أحب أراكما .

كذلك صاح صوت من جهة الشرفة .

فابتعدت ماريا بنديكتا عن زوجها بسرعة . ان واحداً من الأبواب الثلاثة التي تصل الصالون بالشرفة كان مفتوحاً ، ومن ذلك الباب إنما وصل الصوت . انه روبيان يفاجئهما مبتسم الوجه . وهما يريانه أول مرة بعد عودتها . ولم ينهض كارلوس ماريا ، بل رمقه بنظرة رضية سائلة . لكن وجه روبيان ذا

الشاربين الطويلين الدقيقين ظل يبتسم منقلا بصره بينهما ، وهو يردد :
– عظيم ! على هذه الصورة انما كنت أحب أن أراكما !

ودخل روبيان ومدّ اليهما يده فصافحاه في غير حرارة ، وراح يوجه إلى ماريا بنديكتا الكثير من عبارات المديح في حماسة : انها فاتنة وان زوجها ممتاز . ولاحظ أن اسمها واحد ، ماريا ، فقال ان ذلك يدل على أن اقترانها مكتوب منذ الأزل . وختم خطابه بقوله إن الوزارة قد سقطت .

فلم يتمالك كارلوس ماريا أن سأله :

– الوزارة سقطت ؟

فأجابه روبيان :

– لا حديث للمدينة غير هذا .

ثم أردف يقول وهو يجلس على أحد المقاعد مسنداً كلتا يديه الى العصا التي كانت الى ذلك الحين تحت ذراعه :

– أحسب أنني سأستغني عن استئذانكما بالجلوس ، ما دمتما لا تدعواني اليه. نعم ، لقد قدمت الوزارة استقالتها . سأعين وزارة أخرى . وسأشرك فيها باليا، صديقنا باليا ، قريبك باليا ، وأنت أيضاً يا عزيزي ستكون وزيراً اذا أحببت . أريد أن يكون مجلس الوزراء ممتازاً ، أن لا يضم إلا أصدقاء ، على أن يكونوا جميعاً نشيطين مستعدين للتضحية بحياتهم في سبيلي . سأستدعي مورفي ، وبيو ، وكاماشو ، وروهر ، والماجور سيكويرا . هل تتذكرين الماجور يا سيدتي ؟ ستكون له وزارة الحربية فيما أظن . لا أعرف رجلًا أقدر منه في الشؤون العسكرية .

كانت ماريا بنديكتا تذرع الصالون جيئة وذهاباً وقد استبد بها الضجر والملل، آملة أن يرسلها زوجها في طلب شيء من الأشياء . وأشار اليها زوجها بحركة من رأسه أن تذهب ، وكانت لا تتمنى أكثر من ذلك ، فاعتذرت من الزائر وخرجت. واستمر روبيان يكيل لها المديح بعد خروجها : انها لملاك حقاً . ثم لم يلبث أن استدرك ضاحكا : بل هناك ملاكان ، هناك ملاكان في هذا البيت ! بارك

الله فيها ! ومدّ إليه كارلوس ماريا يده كمن يستأذنه بالانصراف .

– سيدي العزيز ...

– هل أستطيع أن أضمك الى الوزارة؟

فلما لم يفز بجواب ، أوّل الصمت بأنه قبول ، ووعد صاحبه بأن يسند إليه وزارة مرموقة . « ستكون وزارة الدفاع للماجور . ووزارة العدل لكاماشو . ألا تعرفها؟ هما رجلان عظيمان ، وربما كان كاماشو أعظم من الماجور أيضاً . » واتجه كارلوس ماريا نحو الباب ، فتبعه روبيان يسير في طريق الخروج من غير أن يشعر . لكنه لم يخرج بسرعة . وها هو ذا يتوقف على الشرفة قبل أن ينزل الدرج ، ويأخذ بالتحدث الى كارلوس ماريا في عدد من الشؤون الحربية . قال انه قد ردّ ألمانيا إلى الألمان ، فتلك بادرة حسنة وسياسة حكيمة ، وإنه أعطى البندقية للايطاليين ، لأنه لم يعد في حاجة إلى أرض جديدة . وهناك الأقاليم الرنيانية ، لكنه لا يتعجل الآن استرجاعها .

قال كارلوس ماريا ملحاً وهو يمد له يده :

– سيدي العزيز ...

وظفر أخيراً بحمله على الاستئذان بالانصراف ، واغلق البـــاب . ولفظ روبيان بضع كلمات اخرى ثم هبط الدرج . وكانت ماريا بنديكتا تراقبها من قرارة البيت ، فلما نزل روبيان ، لحقت بزوجها ، وامسكت يده لترى روبيان وهو يجتاز الحديقة . كان يتكلم اثناء سيره ، وكان لايسير قدماً ، بل يتوقف من حين الى حين ، ويحرك يديه بعض الاشارات ، ويتناول غصناً من الاغصان اليابسة ، وينظر فيرى حوله ألف شيء من الاشياء يفوق جمالها جمال ربة البيت وتفوق بتميزها زوجها ! وكان الزوجان ينظران الى بطلنا من وراء النافـذة ، فلما ندت عنه حركة غليظة ، لم تستطيع ماريا بنديكتا أن تمنع نفسهـــا من الضحك ، أما كارلوس ماريا فلم يفقد شيئاً من هدوئه المعهود .

١٧٢

قالت ماريا بنديكتا :

– هل تعرف من سيصبح وزيراً اذا صح ان الوزارة قد سقطت ؟

فنظر اليها كارلوس ماريا نظرة السائل ، فأجابته :

– نسيبك تيوفيلو . لقد ذكرت لي نانان انه يأمل هذا ، وانه انما بقي في ريو دي جانيرو هذا العام لهذا الغرض . فأغلب الظن ان الكلام على سقوط الوزارة دار منذ ذلك الحين ، او لعله تنبأ بسقوطها ... من الجائز جداً أن يكون قد تنبأ بسقوط الوزارة ... لا أذكر الآن ما الذي قالته لي على وجه الدقة ، ولكن يبدو على كل حال أنه سيشترك في الوزارة الجديدة .

– جائز .

– انظر ، هل رأيت ؟ روبيان يذهب من هناك . هو ذا يقف وينظر الى الفضاء . لعله ينتظر عربة . لقد كانت له عربة في الماضي . لا ... هو ذا يستأنف المشي ...

١٧٣

هتف كارلوس ماريا يقول :

– اذن سيصبح تيوفيلو وزيراً ؟

ثم لم يلبث ان اردف :

– احسب انه سيكون وزيرا ممتازاً . وانا ، هل تودين ان اصبح وزيراً ؟

– اذا اردت انت ذلك فكيف استطيع أن امنعك ؟

– هل معنى هذا انني لن اصبح وزيراً لو كان الأمر منوطاً بك وحدك ؟

تساءلت ماريا بينها وبين نفسها وهي تفحص وجه زوجها : « بماذا اجيب ؟ . »

لكنه صاح يقول وهو يضحك :

– اعترفي بأنك تعبدينني ولو لم اكن إلا حاجب وزير .

قالت المرأة الشابة وهي تطوق عنقه بذراعيها :

- طبعاً .

فوضع كارلوس ماريا يده على شعرها في رفق ، ودمدم يقول في كثير من الجد :

- لقد أصبح برنادوت ملكاً وأصبح بونابارت امبراطوراً ، فهل تودين لو تكونين أمّ ملك السويد ؟

فلم تفهم ماريا بنديكتا معنى هذا السؤال فهماً واضحاً ، ولا شرحه لها زوجها ، ولو فعل لكان مضطراً أن يقول لها إنها ربما كانت تحمل في أرحامها برنادوتاً جديداً . لكن هذا الافتراض يشتمل على رغبة ، وهذه الرغبة تساوي اعترافاً بانه دون ذلك . وداعب كارلوس ماريا شعر امرأته مرة أخرى بحركة تكاد تقول : « لقد اخترت يا ماريا أحسن نصيب ... » . وكأن ماريا بنديكتا فهمت معنى هذه الحركة ، فها هي ذي تهتف قائلة :

- نعم ، صحيح !

وابتسم زوجها وتناول المجلة الانجليزية من جديد . وكانت ماريا بنديكتا مسندة ظهرها الى المقعد فراحت تُمرّ أصابعها بشعره بخفة وصمت ، ما وسعها ذلك ، حتى لا تزعجه . وعاد يقرأ ويقرأ ويقرأ ... فكفت المرأة الشابة عن مداعبته شيئاً فشيئاً ، نازعة أصابعها واحدة بعد أخرى ، ثم تركت الصالون ، بينما كان كارلوس ماريا يتابع قراءة مقال بقلم سير تشارلز ليتل ، الحائز على شهادة الماجستير في الفلسفة ، عن تمثال نرجس الشهير الموجود في متحف نابولي .

١٧٤

حين هبط المساء ، وذهب روبيان الى منزل دونا فرناندا ، قال له الخادم إنه لا يستطيع الصعود ، فسيدته مريضة وسيده يلازمها ، وهما في أغلب الظن ينتظران الطبيب . فلم يظهر صاحبنا أي عناد ، بل عاد أدراجه .

والواقع هو عكس ما زعمه الخادم . فان تيوفيلو هو الذي كان مريضاً ، وإن دونا فرناندا هي التي كانت تلازمه . لكن الخادم لا يستطيع إلا أن ينفذ الأمر الذي صدر اليه . وهناك خادم آخر أحسّ بأن السيد هو المريض لأنه رآه عند عودته إلى البيت منهوك القوى .

وكانت تصل إلى الخدم من غرفة سيديها ، التي تقع فوقهم تماماً ، أصوات تقوى تارة وتضعف تارة أخرى ، ويتخللها الصمت في كثير من الأحيان . وهذه خادمة صغيرة السن تصعد على رؤوس الأصابع إلى فوق ، وتعود قائلة إنها سمعت مولاها يئن . لاشك أن دونا فرناندا كانت في ذروة الضيق ! ولم يكن ثمة تحت آذان تنصت إلى أيسر صوت فحسب ، بل همسات ووشوشات.. وراح الخدم يخمنون ... ولاحظوا أن سيديهم لا يطلبان شيئاً ، لا ماءً ولا دواء ، حتى ولا حساء ! وكانت المائدة قد أعدت ، وكان خادم الطعام قد ارتدى ثيابه ، وكان الطباخ يحترق زهداً وقلقاً في آن واحد ، فغداء اليوم من أطيب ما أعد في حياته من أطباق .

ما الذي جرى ؟ كان تيوفيلو لا يزال منهوك القوى كما كان عند وصوله . إنه جالس على إحدى الأرائك متعرياً من ملابسه زائغ البصر ، مبهم النظرة . ودونا فرناندا جالسة إلى جانبه ، ممسكة بيده ، تتوسل إليه ان يهديء روعه، مؤكدة له أن الأمر كله لايستحق أن يجعله على هذه الحالة التي هو عليها . وهي تميل لترى وجه زوجها ، وتشده نحوها ، وتدعوه أن يضع رأسه على كتفها ...

والنائب يقول لها متمتماً :

– دعيني ، دعيني ...

– الأمر لايستحق هذا كله ياتيوفيلو ؟ أهذا كله من أجل وزارة ؟ لماذا ؟ ما فائدة وظيفة تدوم وقتاً قصيراً وتسبب المتاعب وتجلب الاهانات وتوجب القيام بأعمال السخرة ؟ أليست الحياة الهادئة خيراً من مثل هذه المراكز الف مرة ؟ أما أنّ هناك ظلماً قد وقع ، فنعم ، وإنني لأعتقد أنك تستحق أن تكون وزيراً ، ولكن أهذه خسارة كبيرة إلى هذا الحد ؟ هلمّ ياعزيزي ، هديء

روعك ... هيّا بنا إلى الغداء !

وكان تيوفيلو يعض على شفتيه وهو يشد أحد جانبي لحيته . انه لم يسمع شيئاً مما قالته امرأته ؛ لم يسمع شيئاً من نصائحها ولا من تعزياتها . انه لايتذكر الآن الا الأحاديث التي دارت البارحة وصبيحة هذا النهار . لايتذكر الا الترتيبات السياسية التي اقترحت ، والا الأسماء التي ذكرت – أسماء من رفضوا وأسماء من قـبلوا . ما من ترتيب من هذه الترتيبات قد ضم اسمه ، رغم أنه كلم كثيراً من الأشخاص على المعنى الحقيقي للموقف الراهن . لقد أصغى اليه بعضهم في اهتمام ، وأصغى اليه بعضهم الآخر في ملل . وفي ذات مرة وقعت عليه عينا الشخص الذي يؤلف الوزارة كأنها تسأله ، لكن ذلك كان سريعاً ، وكان توهماً ! ان تيوفيلو يعيش الآن بخياله ذلك الاضطراب كله ، وتلك الجلبة كلها ، فيرى أولئك الذى كانوا يلاحظونه بطرف العين ، وأولئك الذين كانوا يبتسمون ، وأولئك الذين كان وجههم كوجهه ... لقد أصبح في آخر الأمر لايفتح فمه بكلمة واحدة . ان الآمال الأخيرة التي كانت ماتزال تسطع في عينيه قد ذابت كذوبان الثلج تحت أشعة الشمس . لقد سمع أسماء الوزراء واضطر أن يثني عليهم جميعاً ! ولكنه كان في حاجة الى ارادة جبارة حتى يستطيع أن يقول بضع كلمات ! وكان يخشى أن يلاحَظ انهيار قواه ، أو أن تلاحظ لوعته ، غير أن جميع الجهود التي بذلها من أجل أن يخفيها ، مازادتها الا ظهوراً . لقد كان لونه شاحباً ، وكانت أصابعه ترتجف !...

١٧٥

كررت دونا فرناندا تقول :

– هلمّ إلى العشاء .

فضرب تيوفيلو ركبته براحة يده ونهض ، وأخذ ينطق بكلمات حانقة غير موصولة وهو يسير في طول الغرفة وعرضها ويضرب الارض بقدمه ويحرك يديه باشارات تهديد ووعيد . وأسقط في يد دونا فرناندا أمام هذه الموجة الجديدة

من الخنق ، فأصبحت أمنيتها أن لا تطول . ولم تطل موجة الخنق ، فان تيوفيلو لم يلبث أن تهالك على أحد المقاعد وهو يهز رأسه ، وهوى مرة أخرى في انهيار عميق . فأخذت دونا فرناندا كرسياً وجلست الى جانب زوجها .

– أنت على حق يا تيوفيلو ، ولكن يجب أن تكون رجلا . انك شاب ، وإنك قوي ، والمستقبل كله أمامك ، بل ان مستقبلا عظيما ينتظرك ! من يدري .. لعل دخولك في الوزارة اليوم أن يجلب لك ضرراً فيا بعد . لسوف تدخل في وزارة أخرى . عسى أن يكره المرء شيئاً وهو خير له .

تمتم يقول وهو ينظر اليها :

– كل ذلك نفاق ، ومؤامرات . إني لأعرف هؤلاء الاوغاد جميعاً . لو قصصت عليك كل شيء ، كل شيء ... ولكن ما فائدة ذلك ؟ الأفضل أن أنسى ..

ثم أردف يقول بعد بضع لحظات :

– ليس حرماني من كرسي حقير في الوزارة هو الذي يزعجني . ليس لكراسي الوزارة من قيمة البتة . إن اي انسان يستطيع بقليل من العمل ومن الموهبة أن يسخر بكراسي الوزارة ، وأن يبرهن على أنه فوق ذلك . ولكن الذي يؤلمني هو أن معظم هؤلاء الاشخاص لا تطاول أعناقهم ركبتي ! هذا أمر أعرفه حق المعرفة ، وهم أيضاً يعرفونه . ياللمتآمرين القذرين ! أين يمكن أن يجدوا من الاخلاص والامانة والحماسة في النضال مثل الذي يجدونه عندي ؟ من ذا الذي كافح في الصحافة مثلما كافحت أيام الابعاد ؟ انهم يعتذرون قائلين ان مجالس الوزراء تأتي من سان كرستوفون مشكلة جاهزة [1] آ... ليتني أكلم الامبراطور !

– تيوفيلو .

– لو قابلت الامبراطور لقلت له : « مولاي ، صاحب الجلالة ، انك

(١) قصر الامبراطور (المترجم)

تجهل كل شيء عن المؤامرات التي تتم وراء الكواليس ، ومن سياسة التواطؤ وتبادل المنافع هذه التي يتبعونها . انك تود يا صاحب الجلالة أن يكون خيار الناس هم الذين يعملون في مجالسك ، ولكن التافهين يصلون وحدهم الى هذه المجالس . فلا قيمة للجدارة والكفاءة البتة . »

ذلك ما سأقوله له في يوم من الأيام ، بل ربما قلته له غداً .

وصمت تيوفيلو ، ثم نهض بعد برهة ومضى إلى غرفة مكتبه التي تجاور هذه الغرفة . وصحبته زوجته . كان الظلام قد خيَّم ، فأشعل تيوفيلو المصباح ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، وقد أسدل الأسى على عينيه غلالة . ان هناك أربعة رفوف تملؤها كتب وتقارير وميزانيات وكشوف عن « الخزانة » . وهنالك أيضاً منضدة مرتبة كل الترتيب ، وثلاث خزائن عالية تضم مخطوطات وبيانات ومذكرات وحسابات وسجلات ، منظمة معنونة : اعتمادات استثنائية ، اعتمادات اضافية ، اعتمادات عسكرية ، اعتمادات بحرية ، قرض ١٨٦٨ ، السكك الحديدية ، الدين الداخلي ، فترة ٦١ – ٦٢ ، ٦٢ – ٦٣ ، ٦٣ – ٦٤ ، الخ . وتيوفيلو لما كان يعمل هناك صباح مساء ، هنالك كان يكتب ، ويحسب ، ويجمع عناصر خطبه وتقاريره ، لأنه كان عضواً في ثلاث لجان برلمانية ، يعمل في سبيل نفسه بوجه عام ، ويعمل أيضاً في سبيل زملائه الستة . وكان زملاؤه هؤلاء لا يزيدون على أن يسمعوا ويوقعوا ، بل ان واحداً منهم كان يوقع حتى دون أن يسمع ، وذلك حين تكون التقارير طويلة ، فهو يقول :

– لقد أصبحت يا عزيزي أستاذاً في المادة ، وهذا يكفي . هات القلم .

إن كل ما في البيت يشهد بالاجتهاد والعناية والعمل . العمل الدائب الدقيق الخصب . حتى انك لترى جرائد الاسبوع معلقة في الحائط ، لا تنزل عنه إلا لتصنف وتجلد بعد ذلك في مجلدات يضم كل منها أعداد ستة أشهر ، من أجل أن تكون وثائق يرجع اليها . وكانت خطب النائب مطبوعة مغلفة تحتل هي ايضاً رفاً بكامله . ولست ترى في مقابل ذلك لوحة ولا تمثالاً ولا زينة . لا شيء

للتسلية والتمتع ، بل كل شيء جاف دقيق يتصل بشؤون الادارة وما إليها ...

سأل تيوفيلو امرأته بعد أن ألقى على ما حوله نظرة حزينة :

– فما فائدة هذا كله اذن ؟ فيم نفعتني تلك الساعات الطويلة المتعبة التي قضيتها هنا والتي كانت في بعض الأحيان تمتد الليل كله حتى مطلع الفجر . لا يستطيع أحد أن يدعي أن هذا المكتب يدل على الفراغ والبطالة . إنه يدل على العمل، أليس كذلك ؟ أنت شاهدة على أنني أعمل ! ولكن ما فائدة هذا العمل كله ؟

دمدمت زوجته تقول :

– سرّ عن نفسك بالعمل .

لكنه أجاب في حدة :

– يا لها من تسرية جميلة ! لا .. لا ... انتهى ... لا أريد بعد اليوم أن أعرف شيئاً من هذا كله . انظري ... إن جميع الناس في المجلس يستشيرونني، حتى الوزراء . أؤكد لك أنه ما من أحد يجهل أنني أعنى بشؤون الدولة أشد العناية . من أجل أي مكافأة ؟ من أجل أن آتي الى هنا في شهر أيار لأصفق لهؤلاء السادة !

قالت له امرأته في رفق :

– لا تصفق لأحد . هل تريد أن تسرني ؟ هلمّ بنا نسافر في شهر آذار أو نيسان لقضاء سنة بأوروبا ! وفي شهر أيار ، من المكان الذي نكون فيه ، من فارصوفيا مثلاً ، تكتب الى المجلس طالباً اجازة .

ثم أضافت وهي تبتسم وتمسك وجه زوجها بيديها :

– بي رغبة قوية في زيارة فارصوفيا . وافقني . يجب أن تجيبني حتى أستطيع أن أكتب الى ريو جراندي في هذا اليوم نفسه ، لأن باخرة البريد تقلع غداً. اتفقنا . أنت موافق على أن نسافر إلى فارصوفيا أليس كذلك ؟

– دعيك من هذا المزاح يا نانان ، فما هذا أوان المزاح .

– لكنني أتكلم جادة لا مازحة . وقد أردت منذ مدة طويلة أن أقترح

عليك القيام برحلة عسى أن أغيّر أفكارك وأن أنسيك هذه القراطيس الجهنمية.
كفى يا تيوفيلو! لقد أصبح انتزاعك من بين أوراقك لحظةً للقيام بزيارة أو نزهة شبه مستحيل. وأصبحت لا تتكلم، وأصبح أولادنا لا يرون أباهم، لأنه لا يجوز الدخول عليك أثناء عملك. أنت في حاجة الى شيء من الراحة. انني أطلب إليك سنةً من هدوء. أطلب هذا جادة لا مازحة. فلنسافر إلى أوروبا في شهر آذار!

فتمتم يقول:

– مستحيل.

– لماذا؟

والواقع ان ذلك كان مستحيلًا. فلأن تطلب اليه اجتثاث احشائه اهون عليه من السفر. ان السياسة تعلو عنده على كل شيء. صحيح ان في البلاد الأخرى سياسة ايضاً. ولكن ما شأنه هو بذلك؟ ان تيوفيلو لايعرف شيئاً مما يجري في الخارج، ان معارفه تقتصر على مشكلة المال الذي تدين به البرازيل للندن، وان علاقاته تقتصر على عدد من رجال الاقتصاد. غير ان تيوفيلو لم ينس ان يشكر لامرأته نيتها. وقال لها:

– أنت طيبة

إن شعوراً غامضاً بالامل قد رد الى صوت النائب ما فقده خلال هذه الازمة النفسية من رفق ولطف. ان منظر هذه الاوراق الكثيرة يحضه هو نفسه على استرداد شجاعته. انه ينظر الى هذه الكومة من الدراسات كما ينظر المزارع الى حقل فلحه وبذره. سوف تنبت البذور وشيكا، سوف ينال العمل مكافأته: سوف تثمر الشجر عاجلا او آجلا. ذلك ماقالته له زوجته بكلام ادق واوضح، ولكن صاحبنا لم يدرك هذا الامكان الا في هذه اللحظة. وتذكر نوبات الغضب والاستياء واليأس التي عاناها منذ قليل، وتذكر الشكاوى التي صدرت عنه، فاستحى من نفسه... وأراد ان يضحك من ذلك كله، لكن ضحكته لم تنطلق صادقة. وفي اثناء العشاء واحتساء القهوة تحدث الى اولاده الذين سمح لهم في هذا المساء بأن يناموا متأخرين، وقال نونو الذي كان تلميذاً في الكلية، وسمع

بتغيير الوزارة ، قال لابيه انه يريد أن يكون وزيراً فعبس تيوفيلو وقال له :
– يا بني اختر ماتشاء إلا أن تكون وزيرا .
– يقولون جميعاً ان الوزارة جميلة يابابا . ويقولون ان الوزير يتجول في مركبة جميلة ووراءه جندي يحرسه .
– سأعطيك عربة .
– وانت يابابا ، هل كنت وزيرا في يوم من الايام .
فحاول تيوفيلو ان يبتسم ، ونظر الى امرأته . فانتهزت امرأته الفرصة لترسل اولادها الى النوم .
قال الاب وهو يقبل رأس نونو :
– نعم نعم ، كنت وزيرا ، لكننى اصبحت لا اريد ان اكون وزيرا . الوزارة مزعجة جدا ، متعبة كثيرا . اما انت فستكون كاهناً .
– مامعنى كاهن ؟
اجابت الام :
– معنى كاهن هو ان تذهب الى سريرك يانونو .

١٧٦

في الغداة ، اثناء الغداء ، تلقى تيوفيلو رسالة . ان جنديا معاوناً هو الذي جاء بالرسالة .
– جندي معاون ؟
– نعم يا سيدي ، وهو يقول انه يحمل الرسالة من رئيس مجلس الوزراء .
ففض تيوفيلو الرسالة بيد مرتعشة . ما عساها تكون ؟ لقد رأى في الجرائد قائمة الوزراء الجدد : فالوزارة كاملة ، ولم يكن اسم من الأسماء موضوع أخذ ورد . ما عساها تكون اذن ؟ وكانت دونا فرناندا أمام زوجها تحاول أن تحزر مضمون الرسالة من تعبير وجهه . فرأت وجه تيوفيلو يشرق ورأت شفتيه تنفرجان عن ابتسامة رضى ، أو عن ابتسامة أمل في أقل تقدير .

أمر تيوفيلو الخادم :

– قل له أن ينتظر .

ومضى الى مكتبه ثم رجع بعد بضع دقائق مع الجواب . وعاد يجلس الى المائدة صامتاً ، ريثما يوصل الخادم الرسالة الى الجندي المعاون . واذ كان في هذه المدة متنبهاً فقد سمع وقع حوافر الحصـــان يعدو في الشارع . وشعر النائب عندئذ بارتياح يغزو قلبه .

قال :

– اقرئي .

فقرأت دون فرناندا رسالة رئيس مجلس الوزراء . إنه يرجو من تيوفيلو أن يجيء اليه في الساعة الثانية بعد الظهر لحديث .

– أهي الوزارة اذن ؟

فأسرع زوجها يقول لها :

– الوزارة كاملة ، والوزراء سُموّاً وانتهى الأمر .

وكان تيوفيلو لا يعني كلمة واحدة مما يقول ، لأنه تصور على عكس ذلك أن كرسيا من كراسي الوزارة قد شغر في آخر لحظة ، فأصبح يجب ملؤه فوراً . قال :

– لا بد أنه اجتماع سياسي ، املهـم الا أن يكون رئيس مجلس الوزراء يريد أن يكلمني في أمر الموازنة أو أن يعهد اليّ باعداد تقرير من التقارير .

لم يقل هذا إلا تضليلا لزوجته . لكنه لم يلبث أن أدرك أن التخمينات التي قالها لزوجته قد تكون صحيحة ، فاستبد به اليـــأس مرة اخرى . وبعـد ثلاث دقائق تدفقت في نفسه موجة جديدة من الأمل . موجة من الأمل ؟ بل اوقيانوس ...

١٧٧

انتظرت دونا فرناندا عودة زوجها والقلق يلتهمها التهاماً : كأنهـا هي التي ستنال منصب الوزارة ، وكأن منصب الوزارة هذا سيملؤها فرحاً خالصاً من

كل تعب ، بريئاً من كل هم .. والحق أنه كان يكفيهـا أن يرضى زوجها حتى تسير جميع الأمور على ما يرام . وعاد تيوفيلو في الساعة الخامسـة والنصف ، وكان يكفي أن يراه المرء حتى يدرك أنه راض . وهرعت اليه زوجتـه تسـأله :

– ماذا ؟

– مسكينة أنت يانانان . ها نحن أولاء مشرفون على انتقال . لقد طلب إلي المركيز ، في كثير من الالحاح ، أن أقبل منصب حاكم من الدرجة الاولى . فهو بعد أن عجز عن إشراكي في مجلس الوزراء على ما كان يتوقع ، يود بل يريد اشراكي في المسئولية السياسية والادارية التي تضطلع بها الحكومة ، فطلب مني تولي هذا المنصب . وهو من جهة أخرى يأمل أن أتولى وظائف رئيس الأغلبية في المجلس النيابي ، لأنه لا يستطيع بأي حال أن يستغني عمـا أتمتع به من سمعة وتأثير (هذه كلماته نفسها) فما رأيك ؟

أجاب دونا فرناندا :

– أن ننتقل .

– هل ترين أنني كنت أستطيع الرفض ؟

– لا .

– مستحيل ، أليس كذلك ؟ ان المرء لا يستطيع أن يرفض تقديم خدمة من هذا النوع لحكومة صديقة . والا كان الافضل أن يعتزل السياسة . وقد كان المركيز لطيفاً في محادثتي غاية اللطف . كنت أعرف أنه رجل ممتـاز ، ولكن لا تستطيعين أن تتصوري كم كان محبباً وكم كان مرحاً . وهو يريـد أيضاً ان احضر اجتماعاً يضم عدداً من الوزراء والاصدقاء .. عدداً صغيراً جداً .. ستة فقط .. وأسرّ إلي ببرنامج حكومته ..

– متى نسافر ؟

– لا أدري . يجب أن أراه مرة أخرى في مساء غد . لقد عينت الساعة الثامنة موعداً للاجتماع .. ولكن ، ألا ترين أنني احسنت صنعاً بقبول المنصب ؟

– طبعاً .

– نعم ، إذ لو رفضت للاموني ، وكان من حقهم أن يلوموني . إن اول شيء يفقده الانسان حين يعمل في السياسة هو حريته . وفي وسعك أن تبقي هنا إذا شئت . ستبدأ دورة المجلس النيابي بعد خمسة اشهر او أربعة ، وهي تكاد لا تعطيني الوقت الكافي للالمام بالوضع هنالك .

١٧٨

قبلت دونا فرناندا هذا العرض . فهو يسمح للاولاد بأن لا تنقطع دراستهم ، ولن يطول الفراق اكثر من أربعة أشهر على كل حال . وسافر تيوفيلو بعد بضعة أيام . ومضى في صبيحة سفره الى مكتبه يودعه . ألقى نظرة اخيرة على كتبه وتقاريره وميزانياته ومخطوطاته ، على كل ذلك الجزء من حياته الذي لم يكن له معنى ولا شأن إلا عنده . وربط بعض الاوراق والاضبارات حتى لا تضيع ، كما أوصى امرأته بألف توصية وتوصية في هذا الامر . لقد وقف ساكناً في وسط الغرفة يجيل طرفه برفوفها فيترك فوق كل رف قطعة من قلبه . على هذه الصورة من الحزن العميق ودّع تيوفيلو هؤلاء الاصدقاء ، هذه المحفوظات الغالية . ان دونا فرناندا التي كانت الى جانبه لم تكن قد عاشت في هذا المكتب حقاً يوماً واحداً ، خلا هذه الدقائق العشر اثناء الوداع . أما تيوفيلو فقد انفق فيه شطراً من حياته .

– لا تقلق . سأعنى بجميع أشيائك ، وسأنفض عنها الغبار بنفسي كل يوم .

فقبلها تيوفيلو .. إن كل امرأة كان يمكن ان تحزنها هذه القبلة حين تلاحظ أن زوجها يحب كتبه حباً شديداً حتى لكأنه يؤثرها عليها . لكن دونا فرناندا شعرت بسعادة ..

١٧٩

منذ يوم الازمة الوزارية ، لم يعد روبيان الى منزل دونا فرناندا . فهو لم يعلم إذن شيئاً لا عن المنصب الذي اسند الى تيوفيلو ولا عن سفره .

وكان يعيش بين كلبه وخادم واحد ، دون ان يعاني نوبات شديدة ، ولكن من دون أن يمر بفترات طويلة من الهدوء أيضاً . وكان الخادم يقوم بخدمته في غير نظام لكنه كان يقبل كل ما معيله به روبيان من أعطيات « بقاشيش » ، ويتلقى بالاضافة الى ذلك لقب مركيز . وكان في سائر الوقت يتسلى ... فحين يبدو لسيده أن يكلم الجدران ، يهرع يتجسس عليه ، فيشهد كل الحوار الذي يدور بينه وبينها – ذلك أن روبيان كان يجيب الجدران كما لو كانت تطرح عليها أسئلة . وفي المساء كان الخادم يمضي يثرثر مع أصدقائه من الجيران .

– كيف حال المجنون ؟

– خير حال . لقد طلب اليوم الى كلبه أن يغني ، فنبح الكلب كثيرا ، فسُرَّ هو بذلك سروراً عظيما ، كمن يشرب نبيذاً . مهرّج كبير ! حين توافيه النوبة ، يصبح كرجل يحكم العالم حقاً ! حتى لقد قال لي أمس ، أثناء الغداء : « أيها المركيز ريموندو ، أريد منك أن ... » ، وبلغ كلامه من الاضطراب أنني لم أفهم شيئاً البتة . وفي نهاية الأمر أعطاني بضعة نقود !

– وأخذتها ؟

– يا له من سؤال !

وحين كان الهذيان يترك روبيان ، كان يعقب في بعض الأحيان كلامه العجيب حزن أخرس . وكانت حياته الباطنية تحاول عندئذ أن تمحو كل أثر من آثار حالته السابقة . كأنه رجل يبذل جهداً كبيراً مؤلماً ليخرج من الهوة التي تردى فيها ، يتسلق الجدران الوعرة ، ممزقاً جلده ومحطماً أظافره ، من أجل أن يصل الى أعلى فلا يسقط مرة ثانية في الهوة التي يوشك أن يضيع فيها الى الأبد . وكان في هذه الحالة يمضي يزور بعض الأصدقاء : وكان بعض هؤلاء الأصدقاء جدداً وبعضهم قدامى مثل الماجور وكاماشو .

إلا أن كاماشو قد أصبح منذ زمن أقل ثرثرة مما كان . وحتى السياسة أصبحت لا تقدم له مادة يصوغ منها خُطبه التي عهدناها فيه . وأصبح إذا ظهر روبيان على بابه يتأفف ثم لا يلبث أن يكبح تأففه . ولاحظ فيه روبيان

هذا التبدل ، فأخذ يخمن أسبابه : أتراه قد أساء إلى صديقه من دون أن ينتبه لذلك ، أم أنه قد أخذ يبعث في نفسه الضجر والسأم ؟ ومن أجل أن يغفر له صديقه تلك الاساءة – أو ذلك الضجر – كان يتكلم متبسماً متهللاً ، ولا ينسى أن يصمت فترات طويلة ليسمح لصاحبه بأن يقول شيئاً . ولكن جهوده كلها كانت تذهب عبثاً . وعبثاً كان يعمد الى الكلام عن الماركيز بارانا الذي كانت صورته ماتزال معلقة بالحائط ، والى الاشادة بمزاياه التي سمعها من كاماشو : الماركيز العظيم ... السياسي المحنك . فكان صاحبه يؤيد كلامه بحركات من رأسه ، ثم يستمر في الكتابة : فيفتح اضبارات ويستشير مؤلفين – لوبون ، كوليو دا روشا – ويستشهد بنصوص ، ويشطب أسطراً ، ويرجو روبيان أن لايؤاخذه ، لأن عليه أن يسلم مذكرة قانونية في اليوم نفسه . وكان يتوقف في بعض الأحيان ليمضي الى المكتبة .

– تسمح ....

فيبتعد روبيان ليفسح له في المرور فيتناول كاماشو مجلداً يضم مجموعة من القوانين ويأخذ في تقليب صفحاته ، ويظل يقلبها على غير هدى ، في غير هدنة ولا توقف ، واثباً من البداية الى النهاية ، ومتقهقراً الى خلف ، من دون أن يبحث عن شيء بعينه ، وانما همه الوحيد أن يحمل الزائر الثقيل على الهرب . ولكن الزائر الثقيل يبقى لذلك مدة أطول ، وينتهي الأمر بهما أن كلاً منهما يأخذ يختلس النظر الى صاحبه . ويعود كاماشو عندئذ الى مذكرته ، فيجلس جلسة مريحة ، ويميل الى اليسار ماوسعه الميل من أجل أن يقرأها (فمن اليسار كان يأتي النور) ، وبذلك يدير الى روبيان ظهره .

قال له روبيان ذات يوم :

– هذه الحجرة مظلمة .

ولكنه لم يتلق أي جواب ، فإلى هذا الحد كان المحامي يبدو منهمكاً في قراءة اضباراته . قال روبيان لنفسه : « لعلني أزعجه حقاً » . وأخذ يراقب وجه كاماشو الرصين الموصد ، وأخذ يرصد طريقته في الإمساك بالقلم

للاستمرار في كتابة مذكرته التي لا تنتهي .. وبعد عشرين دقيقة من صمت مطبق ، رآه يضع القلم ، وينهض صدره ، ويتمطى ويفرك عينيه . . فقال له في اهتمام :

– تعبت ، أليس كذلك ؟

فلم يزد كاماشو على أن اومأ برأسه آن نعم ، ثم استعد لاستئناف الكتابة . نهض حاحبنا منتهزاً هذه الهدنة القصيرة ليودعه .

– سأعود حين تكون أقل انشغالاً .

ومدّ يده إلى كاماشو ، فصافحه كاماشو بغير اكتراث ، واستأنف عمله .

وهبط روبيان السلم ، وهو يشعر من برودة صاحبه الشهير بدهشة يمازجها الألم . ترى ماذا صنع له ؟

١٨٠

ومن المصادفات أنه وقع بعد ذلك على الماجور سيكويرا . قال له :

– كنت ذاهباً إليك . فهل أنت ذاهب أيضاً الى بيتك ؟

– نعم ، ولكننا لا نقطن الآن في المكان نفسه ، وانا نسكن كاجديرا ، بشارع برنسيزا ..

– سيان ، هلم بنا الى هناك .

وأحس روبيان مرة أخرى بالدوار الرهيب يغزو عقله ، فشعر بمزيد من الحاجة الى التشبث بالواقع على أي من الصور . ومع ذلك كان من الاتزان والثقة في كلامه بحيث ظن الماجور أنه يملك عقله كاملاً ، فسأله :

– هل تعرف ان عندي نبأ هاماً أزفه اليك ؟

– قل ، أسرع .

– لا ، لن أقول شيئاً قبل أن تصل !

ووصلا الى المنزل . إنه مؤلفة من طابقين . وفتحت لهما تونيكا البـاب . كانت ترتدي ثوباً جديداً ، وتحمل في أذنيها قرطين .

قال الماجور وهو يمسك ذقن ابنته بيده :

– أنعم النظر فيها .
فتراجعت تونيكا وقد امتلأت خجلاً .
قال روبيان :
– أنعمت النظر ...
– إلا يدرك من يراها أنها على وشك الزواج .
– ها . تهانيّ كلها !
– نعم ، ستتزوج . طبعاً لم تصل الى هذا بغير عناء ، لكنها وصلت آخر الامر ! لا أدري أين وجدت خطيباً يعبدها عبادة كسائر الخطيبين ... أنا شخصيا كنت أعبد خطيبتي عبادة تفوق الخيال . ستتزوج . لقد اصطادت خطيباً . طبعاً لم تصل الى هذا بغير عناء ، لكنها وصلت آخر الامر ! انه رجل رصين ... أما عمره فهو بين بين ! وهو يقضي جميع أمسياته هنا . وفي الصباح ، حين يمر أمام البيت في طريقه الى مكتبه ، ينقر على النافذة فيما أظن ... الا أن تكون هي في انتظاره من قبل أن يمرّ . وأنا أتظاهر بأنني لا أرى شيئاً ...

وكانت تونيكا تومىء برأسها أن لا ... ولكن ابتسامتها كانت تقول نعم... مضطربة كل الاضطراب ! لقد أصبحت لا تتذكر أنها حلمت بالزواج من روبيان، وأن روبيان كان أحد أحلامها الأخيرة ، بل كان حلمها الأخير ... ودخلوا الى الصالون ، فمضت تونيكا الى النافذة ثم عادت رافعة الرأس : انها تمشي بلا هدف واضح معيّن ، لكنها تمشي مشية تصالح والحياة .

كرر الماجور يقول :
– انه رجل جيد ، شخص طيب ... تونيكا ، هاتي صورة خطيبك ...

فجاءت تونيكا بالصورة . انها صورة شمسية لرجل متوسط العمر ، قصير الشعر ، قليله ، ينظر الى الأمام نظرة مدهوشة ، نحيل الوجه ، دقيق العنق ، مزرّر السترة في احكام حتى أعلاها .
– ما رأيك ؟
– وسيم جداً .

وتناولت تونيكا الصورة مرة أخرى ، وحدقت اليها بضع لحظات . لكنها لم تلبث أن حوّلت عنها بصرها وظلت جالسة في تعقل ، بينما طار خيالهـا على جناحين إلى لقاء رودريك . اسمه رودريك . إنه أقصر منها – وذلك ما لا يظهر في الصورة – وهو يعمل موظفاً في مكتب بوزارة الحربية . لقد ماتت زوجته تاركةً له ابنين ، أحدهما جندي ، والثاني ، وعمره اثنتا عشرة سنـة ، مصاب بالسل مأيوس من شفائه .. ولكن ما قيمة هذا كله ؟ أليس رودريك هو « الخطيب » المنشود ؟ ان تونيكا تركع كل مساء قبل النوم أمام صورة سيدتنا مريم العذراء ، سيدة الجبل بلادنس ، تشكر لها نعمها وآلاءها وتسألها أن تسعدها . وهي تحلم منذ الآن في أن تنجب ولداً . وقد تسميه ألفارو !

١٨١

استمع روبيان الى خطاب طويل من الماجور . أغلب الظن أن الزواج سيتم بعد شهر ونصف . ان على الخطيب ان يفرغ أولاً من اعـداد البيت ؛ ولما كان غير غني يعيش من راتبه وجده ، كان لا بدّ له من اقتراض مبلغ من المال . صحيح انه احتفظ ببيته القديم ، وانه لم يؤذ ميزانيتـه ، بشراء أثاث جديد غير أن هناك اشياء صغيرة لا يستغنى عنها على كل حال .. وخلاصة الامر انهما سيرتبطان بروابط الزواج المقدسة بعد خمسة اسابيع او ستة .

وختم الماجور كلامه بقوله :

– وبذلك أتخلص انا ..

فقال روبيان محتجاً :

– ها .

لكن تونيكا ضحكت . لقد تعودت أمازيح ابيها ، وكانت من الفرح بحيث لا يستطيع شيء ان يؤذي شعورها ، ولو أشار الماجور الى سنيها الاربعين ، لما تأذت من ذلك . هل جميع المخطوبات في الخامسة عشرة من سنهن ؟

قال روبيان لتونيكا :

— سترين مدى حسرته عليك فيما بعد !

فقال الماجور :

— كيف ؟ في وسعي ان اتزوج انا ايضاً !

ونهض روبيان فجأة ، فمشى بضع خطوات . ولم يلاحظ الماجور تعبير وجهه ولا ادرك ان عقل ضيفه يهمّ ان يختل ، وانه يشعر بذلك هو نفسه . ورجاه سيكويرا أن يجلس ، واخذ يحدثه عن زواجه وعن معاركه الحربيـة . وحتى اذا وصل ، بُعد اللف والدوران اللذين تتميز بهما احاديثـه ، الى الكلام على معركة مونتي كازيروس ، كان نابوليون الثالث قد انتصب امامه . لقـــد لزم روبيان الصمت لحظة ، ثم هنأ الماجور ببضع كلمات ، وذكر سولفيرينو وماجنتا ، ووعد سيكويرا بوسام ينعم به عليه . فنظر الاب وابنته كل منهما الى الآخر . ولم يلبث الماجور ان قال إن الجو ينذر بعاصفة . ولقـد كانت السماء متلبدة حقاً ببعض الغيوم . أفليس من الخير ان ينصرف روبيان قبل ان يهطل المطر ؟ انه لم يصطحب مظلته ، ومظلة الماجور عتيقة جداً ، وهي من جهـــة اخرى المظلة الوحيدة التي يملكها ..

قال روبيان في هدوء :

— ستأتي مركبتي لتقلني .

— لا .. لا .. لقد وقفت تنتظرك في كامبو . ألا ترين المركبـة من هنا يانونيـكا ؟

فاومأت تونيكا إيماءة مبهمة مترددة . إنها لا تريد ان تكذب ، ولكنها من جهة اخرى خائفة بعض الخوف ، تتمنى لو ينصرف روبيان . انه من المستحيل على المرء ان يرى كامبو دا أكلاماسون من هذا المنزل . على ان أباها قـــد امسك بذراع روبيان واخذ يسير به نحو الباب .

— عد غداً أو بعد غد ، كما تشاء !

— ولكن لماذا لا استطيع ان انتظر هنا حتى تصل مركبتي . إن الامبراطورة لا تريد ان تتعرض المطر .

– الامبراطورة ذهبت .

– ما كان ينبغي لها ان تفعل . ما كان ينبغي لاوجينا ان تذهب . أيها الجنرال .. لماذا يجب ان تبقى في رتبة ماجور ؟ ايها الجنرال ، لقد رأيت صورة صهرك . واريد ان اعطيك صورتي . خذها من قصر التويلري . أين مركبتي ؟

– تنتظرك في كامبو

– استدعها الى هنا .

وكانت تونيكا واقفة عندئذ الى النافذة ، فاذا هي تلتفت لتعتدل :

– هذا رودريك قد وصل .

وأخذت تنظر في الشارع وهي تميل وتبتسم ، بينما كان أبوها في داخل البيت يستمر في توجيه روبيان نحو الباب في رفق وحزم معاً . وكان روبيان يتوقف في بعض الاحيان ليقرع الماجور :

– أنا امبراطورك أيها الجنرال .

– أعرف ولكن تفضل يا صاحب الجلالة برافقتي ...

ووصلا الى الباب ، ففتحه سيكوريا في اللحظة التي ظهر فيها رودريك على عتبة المنزل . وتقدمت تونيكا لتستقبل خطيبها ، لكن أباها وروبيان كان يسدان عليها الطريق . ورفع رودريك قبعته ، فظهرت شعراته القليلة البيضاء . ان على خديه بقعاً حمراء مبعثرة . لكن له ابتسامة عذبة متواضعة – متواضعة أكثر مما هي عذبة – وانه رغم العامية التي تظهر في حركاته كما تظهر في شخصه كله ، يبعث في النفس شعوراً بالارتياح . وليس في نظرته ذلك التعبير الزائغ الذي يظهر في الصورة : وأغلب الظن أن مردّ ذلك التعبير الزائغ الى أنه أراد اتخاذ وضع خاص يظهر في الصورة بمظهر جميل ...

قال الماجور لروبيان :

– هذا السيد هو صهري المقبل .

ثم اتجه الى رودريك يسأله وهو يغمز بطرفه :

– ألم تر في كامبو مركبةً مع حرس من الفرسان ؟

– أظن ياسيدي .

فقال سيكويرا وهو يلتفت الى روبيان :

– هل صدقت ! لاتضيع الوقت . تنعطف بعد شارع سان لورنسو . ثم تسير قدماً الى كامبو . الى اللقاء . الى الغد .

فنزل روبيان ثلاث درجات (وكانت خمساً) ، ووقف أمام القادم الجديد ، فحدق اليه بضع لحظات ، ثم قال له انه سعيد جداً بمعرفته وانه يتمنى أن يراه زوجاً سعيداً وأباً طيباً . ما اسمك ؟

– جوان جوزه رودريك .

– رودريك . سأبعث اليك بوسام صغير تزين به صـدرك . هذه هديتي اليك لمناسبة زواجك . ذكرني بذلك ياسيكويرا .

فأمسك سيكويرا ذراعه لينزله الدرجتين الأخيرتين ، وليضعه أخيراً في الشارع .

– قلت ان المركبة في كامبو ، اليس كذلك ؟

– نعم في كامبو .

– الى اللقاء .

وفي الشارع نظر روبيان الى النوافذ واضعاً يده على قبعته ليحيي تونيكا . لكن تونيكا كانت في الصالون ، لأن رودريك قد دخله ، مشرقاً فاتناً كأول زهرة من أزهار الربيـع .

١٨٢

سرعان مانسي روبيان الركبة وكتيبة الفرسان ، فنزل الى أدنى المدينة ، وبعد أن لف ودار كثيراً ، وجد نفسه في آخر الأمر يصعـد شارع سان جوزه . انه منذ مرّ أمـام القصر الامبراطوري لم ينقطع عن القيام بحركات واشارات متحدثاً الى شخص يتخيل أنه متأبط ذراعه : انها الامبراطورة نفسها .

ولكن أهي أوجينا أم هي صوفيا ؟ انها كلاهما أو أقل هي الثانية تحمل اسم الاولى ! وكان الناس يتوقفون في الشارع أو يهرعون من داخل المخازن الى الأبواب ليروه ، فبعضهم يضحك ، وبعضهم يظل غير مكترث ، وبعضهم الآخر يحول بصره عنه أحياناً لرؤية المنظر المحزن ، منظر الجنون ! وكانت يتبع روبيان لفيف من الصبية العبيد ، يتبعه بعضهم عن كثب فلا تفوتهم كلمة مما يقول . وسرعان ما انضم الى جمعهم الصغير صبية آخرون . وأثارهم مارأوا من فضول عام ، فأخذو يرددون هذه الصيحة بصوت واحد :

- المجنون ... المجنون .

وكان من شأن هذا الصياح طبعاً أن يثير انتباه الناس مزيداً من الإثارة : فهذه نوافذ تفتح في جميع طوابق المنازل ، وهؤلاء مستطلعون من الجنسين ومن جميع الأعمار يظهرون . ان بينهم مصوراً ، وبائع سجاد ، واشخاصاً آخرين ، والرؤوس جميعها يتراكم بعضها فوق بعض ، لترى ولتتابع بنظرها هذا الرجل الذي يكلم الجدران باشارات تفيض عظمة وفخامة .

ويقول الصبية صائحين :

- المجنون ... المجنون ...

وهذا واحد منهم ، هو أصغرهم جميعاً ، يتشبث بسروال واحد آخر اطول منه كثيراً ، ليستطيع متابعة الموكب الذي اقبل الآن على شارع آمودا . وظل روبيان لايسمع شيئاً . لقد أحس بصيحات الجمهور مرة ، لكنه اعتقد انها هتافات فحيا الجمهور تحية كبيرة من قبيل الشكر . وكانت الصيحات تزداد بغير انقطاع . وسمع بين الاصوات على حين فجأة صوت امرأة تصيح بابنها من على باب أحد مخازن الفرش قائلة :

- ديولندو ، عد الى البيت يا ديولندو !

لكن ديولندو ، وهو الطفل الذي كان يتشبث بسروال ولد آخر أطول ، لم يستجب لنداء امه ، ولعله لم يسمع النداء أصلاً ، من شدة الضجة ، ومن شدة حماسته هو في الصياح بصوته النحيل .

– المجنون ... المجنون ...

– ديولندو !

وحاول ديولندو أن يختبيء وراء الآخرين تحاشياً لنظرة أمه . لكن امه ركضت نحو جمهرة الأطفال فانتزعته منها . حقاً إنه أصغر من أن يشترك في زحمة من هذا النوع !

– ماما ... دعيني أنظر !

– تنظر ، ماذا تنظر ، هيا سر .

وأدخلته إلى البيت وظلت على الباب تنظر الى مايجري في الشارع . وكان روبيان قد توقف ، فاستطاعت أن تراه من قرب ، وأن تسمع كلامه ، وان تلاحظ اشاراته ، وأن ترقب طريقته في نفخ أوداجه ، وفي نحية النـاس من حوله .

قالت لاحدى جاراتها وهي تبتسم :

– حقاً ان للمجانين أطواراً مضحكة في بعض الأحيان !

وظل الصبية يصرخون ويضحكون . واستأنف روبيان بعدئذ سيره يتبعه حرسه . وعند باب المخزن طلب ديولندو من أمه ، وقد رأى القافلة تبتعد ، ان تسمح له بالمضي مع القافلة ، او أن ترافقه إذا شاءت . فلما رأى أن لا أمل في ذلك ، استجمع قواه كلها ليصيح مرة أخيرة بصوت حاد :

– المجنون .

١٨٣

أخذت الجارة تضحك وضحكت الأم . واعترفت بان ابنها شيطان صغير ، وبأنه لاسبيل الى وقفه في مكان . يستحيل أن أغفل عنه لحظة واحدة . ما يكاد يسمع أيسر ضجة حتى يصير في الشارع . وذلك منذ كان صغيراً جداً . انه لم يكن قد اتم السنتين من عمره حين اوشك في هذا المكان نفسه أن تسحقـه عربة . كان بينه وبين الموت شعرة . فلولا ان رجـلا كان يمر في الشارع ،

(رجلا حسن الهندام) فأسرع الى انقاذه لمات في تلك الساعة نفسها . وفيما كانت الأم تقول لجارتها هذا الكلام كان زوجها يصل الى الرصيف الثاني ثم يجتاز الشارع ، فيقطع الحديث بين المرأتين . كان متجهم الوجه ، فلم يكد يسلم على الجارة ويدخل حتى لحقت به زوجته . ماذا جرى ؟ فروى لها حكاية الصيحات ، فقالت :

– رأيتهم ، لقد مروا من هنا .

– ألم تعرفي هذا الرجل ؟

– لا .

فكتف ذراعيه ، وظل صامتاً جامد النظر لحظة من الزمن . سألته زوجته من هذا الرجل ، فأجابها قائلا :

– هو ذلك الذي أنقذ ديولندو من الموت .

فارتعشت المرأة قائلة :

– أمتأكد أنك لم تخطيء ؟

– كل التأكد . لقد صادفته عدة مرات ، لكنه لم يكن على الحالة التي هو عليها الآن . مسكين . ماقولك في هؤلاء الصبية الذين يجرون وراءه ؟ ماذا ؟ أليس في هذا البلد شرطة ؟

ليس مرض روبيان هو ماعذب المرأة ، لا ولا الصيحات التي كانت تلاحقه ، وانما عذبها خاصة أن ابنها نفسه ، هو الابن الذي أنقذه الرجل يوماً من الموت ، قد شارك الآخرين في الصياح . لم يكن في وسع الولد أن يعرفه طبعاً ، ولا أن يعلم أنه مدين له بحياته . ولكن ذلك لايمنعها من أن تشعر بقلق من هذه المصادفة المشئومة ! ثم انتهت الى القاء اللوم كله على نفسها ، لو راقبت طفلها أكثر من ذلك لما استطاع أن يخرج الى الشارع وان ينضم الى عصبة الصبية . وظلت قلقة ترتعش من حين الى حين . وجذب الزوج ابنه اليه ، وطبع على رأسه قبلتين .

سأل زوجته .

- هل رأيت المشهد كله ؟

- نعم .

- وددت لو آخذه من ذراعه وأجيء به الى هنا ، لكنني استحييت ، فان هؤلاء الصبية السوء ما كانوا ليتورعوا عن اساءة معاملتي أنا أيضاً لو فعلت . وقد حولت وجهي عنه مخافة أن يعرفني . ! مسكين لاحظي انه كان كمن لايسمع شيئاً ، وأنه كان يتابع سيره راضياً كل الرضى ! وأحسب أنه كان يضحك ... ألا ان فقدان العقل لأمر محزن !

وكانت المرأة لاتزال تفكر في اشتراك ابنها في هذه القصة كلها . لكنها لم تحدث زوجها عنها بكلمة واحدة ، ورجت جارتها أن لاتشير اليها . وفي الليل لم تستطع إغماض جفنيها الا في ساعة متأخرة : لقد استقر في ذهنها أن ابنها سيصبح بعد عدد كبير من السنين مجنوناً ، وأن عقابه سيكون هذا العقاب نفسه : تلاحقه عصبة من الصبية كهذه العصبة التي رافقت روبيان . وتصورت نفسها وهي في غمرة الاستياء تبصق في وجه السماء بجدفة !

١٨٤

بعد مشهد شارع آجودا بساعتين وصل روبيان الى منزل دونا فرناندا . وكان الصبية الذين يلاحقونه قد تفرقوا شيئاً بعد شيء ، والفراغ الذي كان يخلفه تفرقهم لم يملأه صبية آخرون . ولم يبق منهم بعد قليل الا ثلاثة ، وحدوا أصواتهم فقذفوه بآخر وداع حاد . وسار روبيان وحده . إن المارة يكادون لايلاحظونه الآن ، لان إشاراته قلت كثيراً ، أو اختلفت كثيراً على كل حال . أصبح الآن لا يكلم الجدران ، أو قل لا يكلم الامبراطورة التي يصورها له خياله ، ولكنه ما يزال امبراطوراً . كان يسير ، ثم يتوقف على حين فجأة ، فيدمدم بكلام لا يُفهم . وهو مايزال غارقاً في أحلامه ، ملفعاً بذلك الضباب الذي يرى من خلاله كل شيء رؤيةً تختلف عن الواقع كل الاختلاف وتتفوق

عليه في جمالها تفوقاً كبيراً . كل فانوس يستحيل في نظره الى حاجب ، وكل ركن من اركان الشارع يتخذ أمام عينيه صورة بساط رائع . إنه ذاهب الى قاعة العرش قدماً ، ليستقبل أحد السفراء ، لكن القصر واسع حقاً ، فلا بد له من اجتياز قاعات لا نهاية لها ، وأروقة ليس لها آخر . وهو يتقدم سائراً على سجادة بين صفين كبيرين قويين من حملة الحراب !

وكان معظم الناس الذين يتوقفون في الشارع أو ينحنون من النوافذ لرؤيته ينسون أفكارهم الحزينة أو المملة بضع لحظات ، ينسون مشاغلهم اليومية وأحقادهم وهمومهم – من دين أو مرض أو لوعة حب أو خيانة صديق . كانت كل مصيبة من مصائبهم الصغيرة تختفي على حين فجأة ، وهذا خير ما في الدنيا من ألوان العزاء ! غير أن لحظات النسيان هذه كانت سريعة كالبرق : فما ان يمض عنهم المجنون حتى يجدوا أنفسهم أمام الواقع مرة أخرى وجهاً لوجه ، وحتى تعود الشوارع شوارع ، لأن روبيان كان ينقل معه قصره المنيف ... وقد شعر اكثر من واحد منهم بعطف على هذا المجنون البائس ! وقارن بعضهم بين حظه وحظه فحمد الله على نصيبه : لئن كان يجد نصيبه مراً ؛ لانه لسليم العقل ! كان الناس جميعاً يؤثرون خرائبهم الواقعية على القصر الذي يتصوره خيال بطلنا .

١٨٥

حجز روبيان في مستشفى المجاذيب . لقد نسي باليا العهد الذي استطاعت صوفيا أن تنتزعه منه ، وصوفيا نفسها كانت لا تتذكر العهد الذي قطعته على نفسها لدونا فرناندا . ذلك أنهما كليهما كانا لا يفكران إلا في بيتهما الجديد (قصر خاص في بوتافوجو) الذي قطع بناؤه أشواطاً كبيرة ، ويريدان أن يدشناه في الشتاء ، حين يجتمع المجلسان – مجلس النواب ومجلس الشيوخ – وينزل الناس من مصيفهم في بتروبوليس . لكن الوعد نفّذ أخيراً ، فدخل روبيان مستشفى من المستشفيات احتل فيه غرفة وصالة ، عملاً بتوصية الدكتور فالون وباليا .

ولم يظهر روبيان أي نوع من أنواع المقاومة ، بل تبع صديقيه راضياً ودخل المنزل الجديد دخول من يعرفه كل المعرفة . وحين ودعه الدكتور فالون وباليا ووعداه بأن يجيئا إليه قريباً ، دعاهما الى استعراض عسكري في يوم السبت القـــادم .

سأله فالون :

– السبت ؟ طيب ...

وأردف روبيان :

– السبت يوم مبارك . وتعال أنت أيضاً يا دوق باليا .

فقال باليا وهو يخرج :

– سأجيء .

– اسمع . سأرسل اليك احدى مركباتي ... مركبة متلألئة جديدة ... يجب أن تضع زوجتك جسمها الجميل في مكان لم يجرؤ أحد أن يجلس عليه من قبل . وسائدها مخمل ودمقس ، وعدتها فضة ، وعجلاتها من ذهب . أما الخيل فسليلة الحصان الذي كان عمي يمتطي صهوته يوم مارنجو . الى اللقاء يا دوق باليا .

١٨٦

قال الدكتور فالون بينه وبين نفسه وهو يخرج : « أمـا أنا فالأمر عندي واضح . ان هذا الرجل كان عشيق زوجة هذا المحترم » .

١٨٧

لبث روبيان في المستشفى . وعبثاً أراد كونكاس بوربا ، من أجل مرافقة سيده ، أن يدخل العربة التي تقله ، وأن يتبعها راكضاً . فان الخـادم قبض عليه بعد عناء فتغلب عليه ، وأدخله المنزل . وهكذا تكرر الوضع الذي شهدته بارباسينا تكراراً تاماً دقيقاً . ولكن ألا تعرف ، يا سيدي العزيز ، أن الحياة لا تتألف على وجه الاجمال إلا من أربعة أوضاع مختلفة أو خمسة ، وأن نزوات

الظروف هي التي تبدلها في أنظارنا وتكثرها ؟ وأيّاً كان الأمر ، فقد طلب روبيان في كثير من الإلحاح أن يُرسل إليه الكلب . وأخذت دونا فرناندا تتهيأ لتلبية رغبة المريض بعد أن نالت موافقة مدير المستشفى على ذلك . فقررت أن تكتب الى صوفيا ، لكنها عزمت أمرها أخيراً وذهبت الى فلامنجو بنفسها .

١٨٨

قالت صوفيا :

– سأذهب لآتي به ، المكان قريب من هنا كل القرب .

– فلنذهب كلانا . ذلك خير . ثم انني قد خطر ببالي شيء . هل الاستمرار في استئجار البيت مفيد حقاً ، مع ان المعالجة قد تطول ؟ أليس الافضل أن يفسخ العقد ويباع الأثاث ويبقى ما يبقى بعد ذلك ؟

وذهبتا سيراً على الاقدام إلى فلامنجو ، شارع البرنسيب ، فلم يستغرق وصولها الى البيت غير ثلاث دقائق أو أربع . كان ريموندو في الشارع ، لكنه حين رأى ناساً على الباب ، جاء يفتح . كان كل شيء داخل البيت مهجوراً كل الهجر ، فلا يلاحظ فيه حتى مظهر الركون والسكون اللذين بفضلهما كانت الاشياء تحتفظ بجزء من الحياة التي كانت تسري في المنزل . ذلك ان الاهمال قد سبق ههنا الهجر .. والفوضى التي في الاثاث تعبر عن جنون الشخص الذي كان يسكن البيت وعمّا كان يمتليء به رأسه من دخان الافكار الهوج .

– هل كان غنياً كثيراً .

كذلك سألت دونا فرناندا ، فأجابتها صوفيا بقولها :

– كان على جانب كاف من الغنى حين وصوله من منياس . لكنني أظن أنه بذّر كل ما يملك . حذار ! ارفعي ثوبك ! لكأن الارض لم تكنس منذ قرن !

ولم تكن الارض وحدها وسخة ، فان الأثاث كان مغطى بطبقة كثيفة من الغبار . ولكن الخادم لم يشعر بأي حاجة الى ان يشرح أسباب هذا

الاهمال وا كتفى بالنظر والاصغاء وهو يصفر بصوت خافت لحناً رائجاً من ألحان رقصة البولكا . ولم تبد له صوفيا اي ملاحظة بشأن نظافة البيت ، فقد كان كل همها ان تهرب من هذا المكان « المقزّز » – ذلك هو النعت الذي نعتت به البيت بينها وبين نفسها – ولم تكن تريد الا أن تحصل على الكلب غوض هذه الزيارة . ومع ذلك كانت لا تحب أن تظهر بمظهر من يهتم بهذا الكلب ، ولا بأي شيء آخر . ان ما يشيع في هذا البيت كله من مظاهر العامية يبعث الاشمئزاز في قلبها وفي فكرها جميعاً ، ولم تساعدها ذكرى المجنون أبداً على تخفيف شعورها بطول الوقت . وكانت في قرارة نفسها تحكم على رفيقتها بانها اماً خيالية واماً متصنعة ! « هذا كله غباء ! » . كذلك كانت تقول بينها وبين نفسها ، دون أن تتخلى مع ذلك عن ابتسامة التأييد التي كانت تستقبل بها ملاحظات دونا فرناندا .

قالت دونا فرناندا للخادم :

– افتح النوافذ ، الجو هنا ممتليء برائحة العفونة .

فزادت صوفيا وهي تتنشق مشمئزة :

– آه ... نعم ... انه لجو لايطاق .

ورغم هذا النداء لم تقرر دونا فرناندا أن تمضي . فأن هذا البيت البائس، مع انه لايوقظ في نفسها أي ذكرى شخصية ، كان يبعث فيها انفعالاً قوياً عميقاً . ولم يكن هذا الانفعال الشائع الذي يخالط نفوس الناس عامة عند رؤية الاطلال ، ان هذا المنظر الحزين لم يكن عندها ذريعة للتفلسف ، فلا هو علمها أن الدهر قلب وان العالم حزين ، وانما ذكرها الشقاء الذي ألم بأنسان ، بانسان لاتعرفه كثيراً من جهة اخرى ، ولم يهيء لها اسباب التحدث اليه الا لماماً . وظلت على هذه الحال مدة طويلة تنظر فيما حولها دون ان تفكر في شيء ومن دون ان تستنتج شيئاً او تنبث ببنت كلمة حزينة ، ومنطوية على نفسها انطواء كاملا . وكانت صوفياً من جهتها لاتجرؤ ان تفتح فاها ، مخافة أن تزعج الشخصية المحترمة التي ترافقها ! وقد رفعتا كلتاهما ذيل الثوب حتى لايتجرر

على الغبار . ومن قبيل الاحتياط الاضافي ، كانت صوفيا لاتنقطع عن تحريك مروحتها ايضاً ، تحريكا عنيفاً متأففاً كأنها توشك في كل لحظة أن تختنق ، حتى لقد سعلت عدة مرات .

سألت دونا فرناندا الخادم :

– والكلب ؟

– سجين الغرفة ، هناك في آخر البيت .

– ائتني به .

وظهر كونكاس بوربا هزيلا مهدماً ، ووقف على باب الصالون . انه لم ينبح حين رأى السيدتين ، رغم أنه لم يعرفهما ، ولم يزد على أن رمقهما بنظرة منطفئة . وهمّ ان يدور ليعود الى داخل البيت ، لولا ان صفقت دونا فرناندا بأصابعها ، فوقف وهو يحرك ذيله .

سألت دونا فرناندا :

– ما اسمه ؟

فأجابها الخادم بصوت بطيء وهو يضحك :

– كونكاس بوربا . اسم شخص . تقدم يا كونكاس بوربا . السيدة تناديك !

فكررت دونا فرناندا :

– تعال يا كونكاس بوربا . كونكاس بوربا !

فاستجاب كونكاس بوربا للنداء ، ولكن من غير ان يثب ، ومن غير أن يظهر اي علامة من علامات الفرح . ومالت دونا فرناندا عليه ، فحدثته عن سيده ، وسألته هل هو في شوق اليه ، وهل يريد ان يزوره . وكانت ، وهي مائلة على الكلب هذا الميل ، تسأل الخادم عن عنايته بالكلب .

– نعم ياسيدتي . انه يأكل الآن . اما عند ذهاب سيده ، فقد كان لايأكل ولا يشرب . حتى لقد ظننت انه اصيب بداء الكلب .

– والآن يأكل ؟

– يأكل ، ولكن قليلا .

– هل يبحث عن سيده ؟

أجاب ريموندو وهو يختنق ضحكاً :

– يبدو باحثاً عنه . وقد سجنته في الغرفة لأمنعه من الهرب . انه الآن لايبكي ، أما في أول الأمر فقد كان يبكي كثيراً حتى يوقظني في الليل ، وكان لابد لي من أن أصرخ وأضرب الباب بعصا حتى يسكت أخيراً .

كانت دونا فرناندا تحك رأس الكلب في رفق . تلك أول علامة عطف ينعم بها بعد أيام كثيرة من العزلة والهجران . وحين انقطعت دونا فرناندا عن دغدغته ونهضت ، كان كل منهما ينظر الى صاحبه في شدة وعمق ، حتى لكأنه لم يبق بينهما سرّ ... كان حب الآخرين ، وهو جوهر هذه السيدة النبيلة ، دونا فرناندا ، يمحو من نفسها أمام هذه التعاسة الغامضة المبتذلة ، كل نوع من أنواع الاحترام الإنساني ... وكان هذا الحب الشامل يغمر الحيوان ، ويفتنه ، ويسمّره عند قدمي دونا فرناندا ... وكانت دونا فرناندا تشعر من جهتها ، وهي ترى الكلب ، بذلك الحزن الذي سيطر عليها حين علمت بجنون سيده ، كأنها هي لا تفرق كثيراً بينهما . واذ أحست أن وجودها يحسن الى الحيوان ، رفضت أن تحرمه من هذا العزاء .

قالت صوفيا :

– سيسري اليك القمل .

فلم تسمعها دونا فرناندا ، بل ظلت تنظر الى عيني الكلب الحزينتين الوديعتين ، الى أن خفض الكلب رأسه واخذ يسير في الغرفة كلها باحثاً مفتشاً . لا شك أنه كان يتشمم رائحة سيده . وكان الباب المطل على الشارع مفتوحاً . فلولا أن ريموندو أسرع يقبض عليه لهرب . وعندئذ نقدت دونا فرناندا الخادم بعض المال وهي ترجوه أن يغسل الحيوان وان يأخذه الى المستشفى .

وأوصته بالعناية به أشد العناية ، فيحمله بين ذراعيه أو يربطه بحبل على كل حال . وتدخلت صوفيا في هذه اللحظة ، فأمرته بأن يجيء اليها أولاً .

١٨٩

وانصرفتا . ونظرت صوفيا يمنة ويسرة قبل أن تسير في الشارع ، لترى هل هناك احد . ومن حسن الحظ أن الشارع كان خالياً . وما ان تركت صوفيا هذه الاوساخ كلها أخيراً حتى استردت فجأة استعمال الكلام ، كما استردت في الوقت نفسه ذلك الفن المرهف الاخاذ ، فن فتنة الآخرين . فوضعت ذراعها تحت ذراع دونا فرناندا في رقة ولطف ، واخذت تحدثها عن روبيان وعن الشقاء الرهيب الذي أصابه ، لكنها حدثتها كذلك عن قصرها الخاص ببوتافوجو .. لماذا لا تذهبان معاً الى هناك لتريا سير الاعمال في بناء القصر ؟ لن يكون عليها الا ان تسرعا في شرب الشاي ، ثم تذهبان الى هناك فوراً .

١٩٠

وفي نحو ذلك الوقت رزقت ماريا بنديكتا بنتاً ، وقد جاء هذا الحادث يعزي دونا فرناندا عما سببها لها موضوع روبيان من هم ، فهرعت الى تيجوكا وغمرت الأم بالقبل ، ومدت يدها اخيراً الى كارلوس ماريا .

صاح الاب الشاب وهو ينحني قائلاً :

– طافحة فيّاضة على عهدي بك دائماً !

– وأنت فظ غليظ على عهدي بك دائماً .

ورفضت دونا فرناندا أن تترك ماريا بنديكتا ، رغم محاولات المقاومة التي التي قام بها ابن عمها ، ولازمتها طوال مدة النقاهة ، وكانت من نبل النفس وحسن المودة ولطافة المرح أنها كانت لها بركة حقاً ! ان سعادة بعض الناس تنسيها شقاء بعضهم الآخر .. ولكن ما ان استردت الام الشابة عافيتها تماماً ، حتى شغلت دونا فرناندا بالمريض من جديد .

١٩١

« آمل أن أثيب اليه عقله في بحر ستة أشهر أو ثمانية . لقد تحسن كثيراً . »

ونقلت دونا فرناندا الى صوفيا هـذا الجواب الذي قاله مدير مستشفى الامراض العقلية ، وعرضت عليها في الوقت نفسه أن تزور المريض إذا كانت لا ترى في ذلك ضيراً . فأجابتها صوفيا ببطاقة صغيرة كتبت عليها : « أي ضير يمكن ان يكون في ذلك ؟ إنني أنا التي لا أملك من الشجاعـة ما يمكنني من احتمال زيارته . لقد كان على صلة بنا تبلغ من القوة أنني لا ادري هـل أطيق رؤية هذا الانسان البائس وهل أطيق التحدث اليه . وقد اطلعت كرستيانو على رسالتك فقال لي إنه شرع في تصفية أموال السيد روبيان ، وقد بقي له ثلاثة قونتات ومائتا كر وزيرو »

١٩٢

قـالت دونا فرناندا لنفسها : « ستـة أشهر أو ثمانيـة ... مـدة تنقضي بسرعـة »

وتتابعت الاشهر ، وتتابـع معها موكب كبير من الاحـداث : سقوط الوزارة ، تشكيل وزارة جديدة في شهر آذار ، عودة زوج دونا فرناندا ، مناقشة القانون الخاص بأولاد العبيد ، موت خطيب تونيكا قبل الموعـد المقرر لزواجها بثلاثة أيام .. لقد ذرفت تونيكا آخر ما في مآقيهـا دموع ، حبـاً بالمرحوم من جهة وجزناً على نفسها من جهة أخرى ، وقد أورثها هـذا البكاء احمراراً في العينين اذا رآه الرائي ظن أنها مصابة بمرض في البصر .

وتيوفيلو الذي أولته الحكومة الجديدة من الثقة مثل ما أولته الحكومـة السابقة ، قام بدور نشيط جداً في مناقشات الدورة البرلمانية . وصرح كاماشو في جريدته أن قانون أولاد العبيد يجعل الناس يغفرون للحكومة عجزها وجرائمها .

وفي شهر تشرين الاول دشنت صوفيا (صالوناتها) في بوتافوجو بحفلة راقصة كانت فاتحة الموسم . وكانت في هذه الحفلة فتانة باهرة ، تعرض ذراعيها وكتفيها بغير غرور مصطنع ، وتحمل جواهر جميلة بينها عقد روبيان ، وهو من أوائل الهدايا التي قدمها اليها (يجب أن نذكر هنا أن هذا النوع من الحلى لايتغير زيه كثيراً) . وأعجب الناس جميعاً بما في سنيها الثلاثين من غضارة ونضارة وخفة ورشاقة . وتحدث بعض الناس (في حسرة) عن فضائلها الزوجية ، وعن الحب العميق الذي تكنه لزوجها .

١٩٣

في غداة الحفلة الراقصة استيقظت دونا فرناندا من نومها متأخرة . ومضت إلى مكتب زوجها فوجدته قد قرأ خمس جرائد أو ستة . من أول سطر الى آخر سطر ، وكتب ست رسائـــل ، وأخذ الآن يرتب بعض الكتب في مكتبته .

قال لها :

– تلقيت هذه الرسالة منذ برهة .

فقرأت دونا فرناندا الرسالة . انها من مدير المستشفى يعلن فيها أن روبيان قد اختفى منذ ثلاثة أيام ، وأنه لم يمكن العثور عليه رغم الجهود التي بذلهـا رجال الشرطة وبذلها هو نفسه . وختم المدير رسالته بقوله : « وما يزيد دهشتي من هذا الهرب أن تحسن صحته كان كبيراً ، وأنني كنت آمل أن أشفيه شفاء تاماً في غضون شهرين » .

ذعرت درنا فرناندا . وحملت زوجها على ان يعدها بان يكتب الى رئيس الشرطة والى وزارة العدل راجياً ان تقوم السلطات المختصة بأقصى ما تملك من جهد في البحث عنه . لم يكن تيوفيلو يعنيه امر معالجة روبيان في قليـل ولا كثير ، ولم يكن يعنيه أن يعثر عليه أو أن لا يعثر عليه ، ولكنه أراد أن

يسر امرأته التي يعرف شهامتها ، وربما كان ايضاً لا يمتعض من مراسلة أناس يحتلون مثل هذه المناصب الرفيعة .

١٩٤

ولكن كيف عساهم يعثرون على روبيان وكلبه وقد سافر الاثنان الى بارباسينا ؟ لقد كتب روبيان الى باليا ، قبل ثمانية أيام ، راجياً منه أن يأتي اليه . وذهب كرسيتانو إلى المستشفى ، فلاحظ ان شريكه القديم قد استرد سلامة تفكيره ، فليس في حديثه أثر من جنون ... قال له روبيان :

ـ لقد مرت بي أزمة عقلية . أما الآن فقد انتهى الأمر ، انتهى تماماً . فأرجوك أن ترحلني من هذا المكان . واحسب أن المدير لن يعارض في ذلك . ولما كنت أحب ان أترك هدية صغيرة للأشخاص الذين خدموني وخدموا كونكاس بوربا ايضاً ، فانني ارجوك ان تسلفني ثلاثمائة كروزيرو ؟

ففتح باليا محفظته بدون تردد ، ونقده المبلغ . وقال :

ـ سأحاول إخراجك من المستشفى . واحسب أنه يكون عليك ان تمكث بضعة أيام أخرى (كان ذلك قبل الحفلة الراقصة بيوم) . ولكن لا تقلق : ستخرج في بحر أسبوع .

وقبل ان ينصرف حدث مدير المستشفى في الأمر ، فقال له المدير ان حالة المريض حسنة ، ولكن أضاف أن أسبوعاً واحداً قليل ، وان شفاءه الكامل ، الكامل ، يقتضي نحو شهرين . فاعترف باليا بانه رآه صحيح العقل ، ولكنه لا يدعي أنه يعرف من الامر مثل الذي يعرفه محدثه ، وان المدير هو الذي يحدد موعد خروج روبيان ، وانه لا ينبغي تعجل الامور على كل حال ، ولو وجب الانتظار سبعة أشهر أو ثمانية .

١٩٥

ما ان وصل روبيان الى بارباسينا ، واخذ يصعد الشارع الذي يسمى الآن

شارع تيوادنتس حتى وقف مناديا :

— للغالب البطاطا !

كان قد نسي العبارة والقصة كلتيهما منذ زمن طويل . لكن المقاطع خرجت الآن من بين شفتيه من تلقاء نفسها حتى لكأنها ظلت في الهواء كاملة سليمة تنتظر من يستطيع ان يسبغ عليها معنى . لقد اهتدى بطلنا الى العبارة ، ونطق بها في تعاظم شبيهة بذلك التعاظم الذي شهدناه عليه في اليوم المعهود ، يوم أن اتخذها رمزاً للحياة والحقيقة . والحق أنه أصبح لا يتذكر القصة بكاملها تذكراً واضحاً ، ومع ذلك فهو يهب للعبارة معنى غامضاً من معاني الصراع والنصر .

وصعد روبيان مع كلبه حتى آخر الشارع ، ومضى يقف أمام الكنيسة . لم يفتح له الباب أحد ، ولا رأى ظلاً لخادم من خدام الكنيسة . وكان كونكاس بوربا الذي لم يأكل شيئاً منذ ساعات طويلة ، خافض الرأس ، ملتصقاً بحذائي سيده ، ينتظر ... والتفت روبيان وأخذ يتأمل المنظر الممتد أمامه من أعلى الشارع . انها هي ، هي نفسها ، بارباسينا ، مدينته القديمة التي رأى فيها النور . ومن أعمق أعماق حافظته أخذت الذكريات في تلك اللحظة تنبجس شيئاً فشيئاً : هنا الكنيسة ، وهناك السجن ، وهنالك الصيدلية التي كان يشتري منها الأدوية لكونكاس بوربا الآخر ، إنها مدينته بنفسها ! لقد كان يعرف ذلك عند وصوله ، لكنه كلما طوّف بصره فيها ازدحمت ذكرياته في خاطره وتكاثرت... ولم ير أحداً البتة . وأحس لحظة أن أحدا يتجسس عليه وراء نافذة على اليسار، أما ما عدا هذا فخلاء ...

قال روبيان لنفسه : « لعلهم لايعرفون أنني وصلت » .

وومض برق على حين فجأة ، وسرعان ما تلبدت السماء بالغيوم . ثم ومض برق آخر ، أقرب من الأول ، وأعقب البرق رعد ! وأخذ المطر ينهمر ، وما انفك يغزر حتى انطلقت الصاعقة . لقد ترك روبيان الكنيسة منذ هطلت

أولى قطرات المطر ، وهو الآن يهبط الشارع الذي صعده ، وما يزال كلبه معه أميناً جائعاً . لقد طاش صواب الاثنين من قوة العاصفة ، فهما هائمان على وجهيهما بلا أمل في مأوى أو طعام . ان المطر يضربهما بسياطه في غير رحمة . وهما عاجزان حتى عن الركض ، أما روبيان فلأنه يخشى أن ينزلق وأن يسقط ، وأما الكلب فلأنه لا يريد أن يضل عن سيده . وفي منتصف المنحدر تذكرّ روبيان الصيدلية فجأة فدار الى وراء ، رغم الريح التي أصبحت الآن تسفع وجهه . لكنه ما ان قطع عشرين متراً حتى كانت هذه الفكرة قد غادرت رأسه : وداعاً للصيدلية ! ووداعاً للمأوى ! أصبح روبيان لا يتذكر السبب الذي حمله على أن يقفل راجعاً ، وعاد يهبط الشارع من جديد مع كلبه ، سائراً على كعبيه . والكلب مع ذلك لا يفهم شيئاً ولا يهرب من رفيقه . وبلغ الاثنان حداً واحداً من التبلبل والاضطراب في مواجهة هذه العاصفة الحاقدة التي لا تنتهي.

١٩٧

وظلا هائمين على هذا النحو زمناً طويلا . كانت معدة روبيان تعول من الجوع ، ولكن من حسن الحظ أن الهذيان كان يعوض عن هذه الحاجة القوية بفضل الموائد المصفوفة في قصر التويلري . غير أن كونكارس بوربا لا يستطيع أن يلجأ الى حيلة من هذا النوع .. وظلا يصعدان ثم يهبطان ، ويهبطان ثم يصعدان ! ومن حين الى حين كان روبيان يقعد على الارض ، فيتسلق الكلب على ركبتيه عسى أن ينسى الجوع بالنوم ، ولكنه ما يلبث أن ينزل لأنه يجد سروال سيده غارقاً في الماء من فرط البلل . واذا عاود التسلق رغم ذلك ، فلأن هواء تلك الليلة — التي شارفت على الانتهاء — كان هواء متجلداً حقاً . وأمرّ روبيان يده على الحيوان وهو يتمتم له بعض الكلمات الغامضة .

وحين ظفر كونكارس بوربا باغماض عينيه أخيراً رغم كل شيء ، لم يلبث أن استيقظ ، لأن روبيان قام يذرع جنب الرابية جيئة وذهاباً من جديد . ان

الريح تجلد المتشردين في غير رحمة ، وتجعلها يرتعشان ويرتعدان . وأصبح روبيان يمشي بطيئاً ، لأن التعب لا يسمح له الآن بأن يخطو خطوات كبيرة كما كان يفعل في أول الأمر ، حين أخذ المطر بالهطول . حتى لقد ازداد توقفه عن السير من حين الى حين . أما الكلب الذي كاد يميته الجوع والتعب ، فلم يكن يفهم معنى هذه الرحلة الغريبة ولا الدافع اليها . ونسي المكان الذي هو فيه ، وأصبح لا يسمع شيئاً البتة ، اللهم الا ذلك الصوت الأصمّ ، صوت مولاه . إنه لا يرى النجوم التي تتلألأ الآن في سماء صافية انجابت عنها الغيوم . ولكن روبيان كان يراها . فحين رجع الى النقطة التي بدأ منها ، أعني باب الكنيسة ، وقعد على الأرض ، رأى النجوم تسطع في قبة السماء . وكانت تبلغ من الجمال أنه حسبها ثريات في القاعة الكبرى . وأمر باطفاء الثريات . لكنه لم يستطع أن يتحقق من أن أوامره نفذت ، لأنه نام فوراً والكلب الى جانبه . حتى اذا استيقظا في الصباح كانا يبلغان من التصاق كل منهما برفيقه أنه أصبح من الصعب على المرء أن يميّز أحدهما عن الآخر .

١٩٨

– للغالب البطاطا .

كذلك صاح روبيان وهو يلقي نظرة على الشارع الذي طردت الشمس الساطعة كل أثر من آثار العاصفة فيه .

١٩٩

ان السيدة أنجليكا هي التي آوت روبيان وكلبه . لقد لمحتهما حين مر امام بيتها . فعرفها روبيان وقبل المأوى والطعام اللذين قدمتهما اليها .

– ولكن ما هذا كله ياصديقي ؟ كيف وصلت على هذه الحال ؟ ثيابك غارقة في الماء من البلل . انتظر ... سأعطيك سروال ابن أخي .

كان روبيان محموماً . فلم يأكل الا قليلا ولم يشعر للطعام بلذة . وسألته

السيدة عندئذ ان يقص عليها حياته في العاصمة ، فأجابها بأن ذلك يقتضي وقتاً طويلا ، وان الاجيال القادمة هي التي ستختم هذه القصة . واضـــاف يقول بحركة متعاظمة : « إن احفاد اخيك هم الذين سيروونني في اوج مجــدي » . وأخذ مع ذلك يروي لها خلاصة عن حياته . لكن الوقائع والافـكار الـتي عرضها لها بلغت من الجنون ان السيدة انجليكا أصبحت بعد عشر دقائق لاتفهم منهاشيئاً البتة .حتى أنها بعد خمس دقائق أخرى أخذت تخاف .فلما انقضت عشرون دقيقة،استأذنت منه ، وذهبت إلى إحدى الجارات تقول لها إن روبيان يبدو فقداً عقله . وعادت اليه تصحبها الجارة وأخوها . لكن هذا الاخ لم يمكث مدة طويلة ، بل خرج ينشر النبأ بين الناس . فأخذ الناس يتوافدون مثنى مثنى ، بل ورباع رباع ، فما هي إلا ساعة حتى كان الشارع يغص بجمهور كبير جاء ليشاهد بطلنا .

فكان روبيان يصيح في المستطلعين قائلا :

— للغالب البطاطا . أنا هذا الامبراطور ! للغالب البطاطا !

وراح الناس في الشارع يرددون هذه الجملة الغامضة الناقصة ، ويقلبونهـا على وجوهها المختلفة ، ولكن أحداً منهم لم يستطـع أن يفهم ماتعنيه . ودخل إلى البيت بعض أعداء روبيان القدامى ، دخلوا بغير كلفة ، ليمتعوا أبصارهم برؤيته على هذه الحال . قالوا للسيدة أنجليكا إن البقاء معه في بيت واحد أمر خطر وان من الواجب أن يرسل إلى السجن ، ريثما تأخذه السلطات إلى مكان آخر . وقال شخص أرحم منهم : بل لعل الافضل أن يستدعى الطبيب . فأجابه آخر :

— وماذا يفعل الطبيب ؟ الرجل مجنون .

— لعله هذيان الحمى لا أكثر ! ألا ترى ان يديه تحترقان احتراقاً !

وشجع انجليكا حضور هذا العدد الكبير من الناس ، فجسّت نبض المريض ، فوجدته محمومـــاً . فاستدعت الطبيب ، وهو ذلك الطبيب نفسه الذي عالج المرحوم كونكاس بوربا . وقد عرفه روبيان ، وأجابه بأن الامر بسيط ، لقد أمر بحبس ملك بروسيا ، ولكنه لا يعرف بعد هل يأمر باطلاق الرصاص عليه

أو لا . ومن المحقق على كل حال أنه سيطالب بغرامة مالية ضخمة . سوف يطالب بخمسة مليارات من الفرنكات . وختم كلامه بقوله وهو يضحك :

– للغالب البطاطا .

٢٠٠

ومات روبيان بعد بضعة أيام .. لكنه مات وهو في أوج المجد ! إنه قبيل أن يشرف على النزع – ولم يدم نزعه الا قليلا – قد وضع على رأسه تاجاً . ولم يكن هذا التاج قبعة عتيقة ولا أي شيء آخر يمكن أن يوهم بأنه تاج . لا يا سيدي . ان يدي روبيان قد تناولتا فراغاً ، ورفعتا في الهواء فراغاً ، ووضعتا على جبينه فراغاً ... وكان هو الشخص الوحيد الذي رأى الشارة الامبراطورية ، المصنوعة من ذهب ثقيل ، والمرصعة بفصوص من ماس وأحجار كريمة أخرى . لكن الجهد الذي بذله عندئذ من أجل أن ينهض جذعه لم يطل كثيراً ، فما هي الا لحظة حتى سقط من جديد ، غير أن وجهه يسطع مجداً .

ودمدم يقول :

– احفظوا تاجي . للغالب ...

ولاح في وجهه الجد .. لأن الموت جد ... وما هي إلا دقيقتان من نزع ، وما هي إلا انتفاضة رهيبة ، حتى كان روبيان قد وقّع صك تنازله عن العرش .

٢٠١

أريد أن أتحدث أيضاً عن نهاية كونكاس بوربا الذي مرض هو ايضاً ، وظل يئن حتى تقطعت أنفاسه ، ثم فرّ يبحث عن مولاه يائساً ، وعثروا عليه بعد ثلاثة أيام عند الصباح ميتاً في أحد الشوارع . ولكنني أقدر أيها القارىء أنك، حين تراني أفرد لموت الكلب فصلاً خاصاً ، ستسألني هل يشير عنوان الكتاب الى

اسم الكلب أم إلى اسم سميّه الراحل ، ولماذا يشير الى واحدٍ من الاسمين دون الآخر ؟ ذلك سؤال يثير أسئلة أخرى كثيرة ... والحديث في ذلك كلـه أمر يطول . هلمّ أيها القارىء الكريم ... توسل بالشجاعة ، واذرف دموعـك على الميتتين كلتيهما ، إذا شعرت بأنك قادر على ذرف الدموع ، أما اذا كنت لا تحب الا ان تضحك ، فاضحك ! ألا تدري أن البكاء والضحك سيـان ! ان صليب الجنوب الذي لم تشأ صوفيا أن تتأمله كما سألها ذلك روبيان ، هو الآن من البعد الشاسع بحيث لا يميز بين بكاء البشر وضحكهم !

❋ ❋ ❋

